سري



montadaali.ahlamontada.com

مع تحياتي : علي مولا

حد الردة .. المزعوم

ودراسات أخرى

د. أحمد صبحي منصور

جدول المحتويات

حد الردة .. المزعوم

بسم الله الرحمن الرحيم

أتذكر هنا أنه حين ألقي القبض علينا واعتقالنا بالتهمة الكوميدية "انكار السُنّة" سنة 1987 كانت الصحافة الرسمية والحزبية تنهش أعراضنا وتفترى الأكاذيب علينا، وتنقل فتاوى الشيوخ الأنذال بتكفيرنا واستباحة دمائنا حتى كنا نخشى الخروج من السجن نفسه خوفا من الاغتيال. كنت فى التحقيق أمام نيابة أمن الدولة العليا أؤكد لهم من الذاكرة وبالآيات القرآنية التناقض بين القرآن والتشريع السلفى ومنه أن حد الردة لا وجود له فى الاسلام. وتنقل صحيفة "اللواء الاسلامى" فقرات التحقيق معى وتذيعه على الملأ وعليه تعليقات الشيوخ الأنذال بتكفيرى، وسخريتهم من انكارى حد الردة قائلين ان منكر السنة يقول ذلك خوفا من تطبيقه عليه. كانت القضية رسميا تحت عنوان يقول" قضية القرآنيين " فحولتها الحملات الصحفية وهجوم الشيوخ الأنذال الى مصطلح جديد هو "منكر السنة". من بين الفرسان القلائل الذين دافعوا عنى دون معرفة مسبقة بى كان الدكتور فرج فودة يرحمه الله تعالى في مقال رائع له في جريدة "الأهالي" بعنوان: "أحمدك يارب" سخر فيه من أجهزة الدولة التى قبضت على كاتب كل جريمته أنه يستشهد فى أبحاثه بالقرآن ويكرر ما قاله أبوحنيفة فى عدم الاعتداد بالأحاديث.

بعد الافراج عنى وعن اخوتى القرآنيين، توثقت الصلة بينى وبين فرج فودة. وفى سنة 1992 اتفقنا على اشهار حزب جديد باسم "حزب المستقبل" يقف ضد تيار التطرف الدموى الذى كان يستبيح دماء الأقباط وأموالهم في موجة عنف لم تعرفها مصر حتى في العصور الوسطى عصور التعصب . ونشرت الصحف البيان التمهيدي الرسمي عن الحزب ومؤسسيه وكان اسم فرج فودة رقم 2 بينما كان اسمى رقم 6. وفورا اصدرت ندوة علماء الأزهر والتي تمثل التطرف السلفى الوهابى بزعامة عبد الغفار عزيز بيانا دمويا في تكفير فرج فودة وتكفيرى والتحذير مسبقا من صدور الموافقة الرسمية على الحزب الجديد. نشرت جريدة " النور " التى كان يمتلكها الحمزة دعبس هذا البيان بفتواه الدموية في يوم الاربعاء الأول من يونية 1992 ورأيته على مكتب فرج فودة صبيحة ذلك اليوم . قال : لا بُدَّ أن أردَّ عليهم . قلت له "لا تفعل. انهم لا يستحقون" .

كان مقررا أن يسافر فودة الى فرنسا بعد عيد الأضحى مباشرة ليعود بعد اسبوعين ليستأنف اجراءات اقامة الحزب حيث كان قد حصل على موافقة على تأسيسه كما كان مقررا أن اسافر الى بلدتي لأقضي عيد الأضحى مع اهلي .ثم نلتقى معا لمباشرة اعلان الحزب . يوم الاثنين التالي اغتالوا فرج فودة اثناء خروجه من مكتبه واصابوا ولده الصغير بجراح خطيرة وطالت الجراح صديقا آخر لفرج كان معه.

كتبت في عمودى في جريدة "الأحرار" متسائلا من قتل فرج فودة؟ وقلت ان القاتل الحقيقى هم أولئك الذين أفتوا بقتله وبعد موته توضأوا بدمه وهم يتحدثون عن سماحة الاسلام. قلت ان القاتل الحقيقى هو الذى يفتى

بالقتل ولا بُدَّ ان يمثل في قفص الاتهام باعتباره شريكا ومحرضا على الجريمة . ونشرت الجماعة الاسلامية بيانا لها في اذاعة لندن تقر فيه بمسئوليتها عن قتل فرج فودة ، وانها قتلته تطبيقا لفتوى العلماء.
وقف الشيخ محمد الغزالي يدافع عن القتلة في المحكمة التي حولها الطاغوت السلفي الى محاكمة للقتيل وليس القاتل. قال الغزالي ان القتلة افتأتوا فقط على السلطة حين بادروا بقتل فرج فودة وهو مستحق للقتل باعتباره مرتداً.
قبل ذلك كانت العلاقة بينى وبين الغزالي تدخل طور الاستحسان .كان يهاجمنى فى جلساته الخاصة التى يحضرها اصدقاء لى ، وقالوا لى انه نشر مقالا عرض فيه بى تحت لقب " أغلمة العلم " ــ اغلمة جمع غلام ــ ولكن جهد الأصدقاء المشتركين جعله يقرأ بعض كتبى وبعض مقالاتى التى كانت تنشر فى بعض الصحف المصرية الرسمية والحزبية، وتغيرت نظرته لى وكما قيل كان يأمل خيرا فى مستقبل الأزهر اذا تم تجاوز المشاكل بينى وبينهم وعدت الى الأزهر لأعيد حركة الاجتهاد التى بدأها الامام محمد عبده. وكان على نفس الرأى الشيخ عبدالله المشد رئيس لجنة الفتوى فى الأزهر وآخرين من الشيوخ غير الأنذال. بدأ الغزالى بنفسه توطيد هذه العلاقة من طرف واحد حين نقل كثيراً من آرائى في كتابه المشهور عن (السُنَّة بين أهل الفقه وأهل الحديث) ليمهد لقبول آرائى فى المجتمع الأزهرى والفقهى. ورددت عليه التحية بأحسن منها حين راجعت له رسالة دكتوراه عن "علم الحديث في القرن السادس الهجري" كتبها باحث في كلية دار العلوم ، وكان الغزالي احد أعضاء لجنة المناقشة.وقد ارتعب من حجم الرسالة وعنوانها فارسلها لى ــ عن طريق صديق مشترك لا يزال حيا يرزق ــ لأتفحصها عنه ولأسجل ملاحظاتى عليها. وكتبت له تقريرا كاملا عنها منهجيا وموضوعيا، وبهذا التقرير كان الشيخ الغزالى فى أثناء مناقشة الرسالة هو الفارس من بين أعضاء اللجنة يصول ويجول على الباحث المسكين . وليرد على التحية بأحسن منها نشر الغزالي كتابه " تراثنا الفكرى " يشيد بى وينقل عنى مقالا قديما اقحمه في السياق. كما اقحم في الكتاب فتوى عن انكار السنة صيغت خصيصا من الشيخ المشد رئيس لجنة الفتوى في الأزهر للدفاع عنى، وكان لا بد من نشرها وتوثيقها علنا فقام الغزالي بوضعها في كتابه. وانتظر أن أرد تحيته فاذا بشهادته المسمومة ضد فرج فودة تطيح بكل جهود الشيوخ الشرفاء في التقريب بيننا.
هاجمت الغزالي بقسوة في مقالات متتابعة في جريدة "الأهالى " كان منها : "الغزالي ينهزم أمام فرج فودة بعد موته"، " الغزالي يرد على الغزالي "،وفى هذا المقال نشرت ماكتبه الغزالى نفسه فى تأكيد حرية العقيدة فى الاسلام وبأن مايعارض ذلك ليس الا أكاذيب، وهذا ماتناثر فى كتابه "السنة بين اهل الفقه والحديث" والذى تاثر فيه بكتاباتى واتهموه من اجله بانكار السنة، وكتبت أيضامقالا آخر اهاجمه وغيره من الشيوخ وأحلل موقفهم من فرج فودة تحت عنوان: " لأنه كفر بهم ". ومقالات أخرى أحدثت أثرا طيبا جعل صديقى الدكتور محمد أبو الاسعاد ــ رحمه الله تعالى ــ يطلب منى ان اكتب بحثا خاصا يوضح حقيقة حد الردة ومنشأه وعلاقته بالاسلام ، ويتعهد بنشره على نفقته.
كنت قد كتبت بحث "حرية الرأي بين الإسلام والمسلمين "؛ للملتقي الفكري الثالث للمنظمة المصرية لحقوق الإنسان في أوائل مايو 1992 ونشرته مجلة القاهرة . ثم صدر كتاب حد الردة سنة 1993 ، ثم نشرته بعد

عامين مجلة القاهرة في العدد 152سنة 1995. واحدث كتاب حد الردة صدى هائلا خصوصا بعد نشر جريدة الأحرار فصوله فى أعداد متتالية، وتتابعت عليه التعقيبات والاستشهادات، وتشجع آخرون يهاجمون حد الردة فى مقالات اوفى كتب ، فاصدر جمال البنا كتابه (كلا ثم كلا لفقهاء التقليد) يؤكد ما قلته من ان حد الردة صناعة فقهية تتناقض مع الإسلام وكان ذلك بعد عام من صدور كتابي حد الردة. وعلي الجانب الآخر لم يستطع فقهاء التطرف مواجهة كتابي حد الردة؛ فكتب د . محمد سليم العوا يقول إن عقوبة الردة مجرد تعزير من حق الحاكم وليست حدا مشروعا له حكم الحدود ؛ وأجهد نفسه في كتابه (أصول النظام الجنائي الإسلامي : 151 : 170) كي يثبت ان عقوبة الردة مجرد تعزير ؛ وهو يعلم ان عقوبة التعزير في الفقه اقل من أربعين جلدة. فكيف يستقيم هذا مع عقوبة قتل المرتد ؟ ثم كيف يكون لولي الأمر ان يحكم بغير ما انزل الله خصوصا فيما يخص الدماء وحق الحياة . ومعروف ان التيار المتطرف يهاجم الحكومة بحجة أنها تحكم بغير ما أنزل الله . و ثارت معركة تجديد الفكر عندما لم يقتنع فقهاء التطرف بالردود التي حاولت ان تقف أمام كتابي حد الردة، وواكب هذا قضية نصر أبو زيد، وقد نشرت عدة مقالات ادافع عنه في الأهالي وروزاليوسف ثم صدر كتابي (الحسبة بين القرآن والتراث) الذي صدر في طبعتين سنة 1995 (المحروسة) (النداء الجديد) ونشرته مجلة القاهرة في العدد 158 في العدد 1996 .

وأسفر هذا الجهد مع جهد جمال البنا عن قيام حركة استنارة متواضعة داخل الأزهر وخارجه تنادى بتجديد الفقه وتنقية الأحاديث وتمتعض من شفاعة البشر وعصمة النبي خارج الوحي ؛ وتواجه هذه الحركة المستنيرة (جبهة علماء الأزهر) المتشددة . واضطر كبارالشيوخ فى الأزهر فى النهاية لمواكبة الركب ـــ متأخرين كالعادة ـــ فتحدثوا على استحياء عن حرية الفكر فى الاسلام دون الاشارة الى حد الردة، ثم اضطرتهم اسئلة الصحفيين الى الاشارة الضمنية لعدم الاعتداد بحد الردة، واخيرا جاءت الفتوى من مجمع البحوث عام 2002 تنفى حد الردة وقتل المرتد اكتفاءا باستتابته ...

فما قولكم – دام فضلكم – اذا رفض التوبة؟ هل ستستمر استتابته الى يوم القيامة؟ وهل سيتفرغ لهذه المهمة الجليلة فحول المشايخ العظام وكبار الفقهاء الأبرار؟ وماذا ستكون الأسئلة سوى سؤال وحيد يرفض الاجابة عنه مقدما؟

هل حينئذ ستتحول اجراءات محاكمته الى اوبريت غنائى فىعرض مستمرلا ينتهى .. يقول له الشيوخ "توب" فيرد عليهم باغنية عبد الحليم حافظ "وانا كل ما اقول التوبة ياعينى ترمينى المقادير يابوى" يقول له الشيوخ " توب "فيرد عليهم باغنية اخرى"توبة ان كنت أحبك تانى توبة بس قابلنى مرة وتبقى آخر نوبة وبعدها توبة’" يقول له الشيوخ فى استرحام " يابنى حرام عليك عايزين نروح ناكل ، توب بقى وخلصنا " فيغنى لهم أغنية عايدة الشاعر:"راح أتوب ازاى ياعينى راح اتوب "..

ليست هذه نكتة ، انها الاجابة الوحيدة للنكتة الحقيقية التى جعلها الشيوخ فتوى تقول ان المرتد يجب استتابته فقط. انها نكتة مأساوية تذكرنا بقول المتنبى فى كافور الاخشيدى

ومثلك يوتى من بلاد بعيدة ليضحك ربات الحداد البواكيا

المتنبى هو القائل أيضا :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

وبعد .. فقد تم نشر الترجمة الأنجليزية لهذا الكتاب على الانترنت منذ شهور، وهذه هى المرة الأولى التى تظهر فيها طبعته العربية على الانترنت متاحة للجميع .

نسأل الله تعالى الهداية والجنة.

احمد صبحى منصور. يناير 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية لكتاب "حد الردة"

* هناك فرق بين دين الإسلام وتدين المسلمين.

* الإسلام هو إخلاص الإيمان والطاعة لله تعالى وحده، والسلام مع الناس، وبهذا المعنى جاء الإسلام بكل اللغات التى تحدث بها الأنبياء السابقون قبل محمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام، ثم نزل باللغة العربية فى القرآن الكريم خاتم الرسالات السماوية, هذا هو ما يخص دين الله تعالى.

* أما ما يخص التدين، أو موقف الناس من دين الله تعالى، فهو أمر آخر، فالتدين صناعة بشرية تحمل ملامح البشر وضعفهم وطموحهم وغرائزهم وفضائلهم وسيئاتهم وحسناتهم. ولكن العامل الأساسى فى التدين- حسبما يظهر فى التاريخ الدينى، هو السياسة، ومؤسساتها الدينية التى تقوم بإخضاع التدين لرغبات الحاكم، أو المؤسسات الدينية البديلة الطامعة فى الحكم التى تسوغ الخروج على الحاكم.. ومن هنا يعج التراث بالتناقضات التى تعبر عن الحاكم والمحكوم، والثائر والحاكم الطاغى، أو كما قال تعالى عن التراث الدينى المخالف للقرآن الكريم والذى يجد فيه المعرضون عن القرآن ما يتخيرون من الأحكام المتناقضة ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ. إِنّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيّرُونَ﴾ (القلم 37، 38) وهذه هى المشكلة فى التناقض بين الدين والتدين.

* الدين هو الحق الإلهى، والتدين هو التراث الدينى الذى كتبه البشر وفيه حسناتهم وسيئاتهم.

وقبل نزول القرآن طغى التدين على الدين، إذ أوكل تعالى للبشر حفظ الدين، فكان أن حرفوا الرسالات السماوية فيما استحفظهم الله تعالى عليه، ثم أنزل الله تعالى القرآن محفوظاً بقدرته جل وعلا يقول تعالى: ﴿إِنّا نَحْنُ نَزّلْنَا الذّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر 9) ﴿وَإِنّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ. لاّ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت 41، 42) ولذلك كان القرآن حكماً ومهيمناً على الكتب السماوية السابقة التى قام تدين أصحابها بالتحريف فيها، يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ (المائدة 48). وتلك هى وظيفة القرآن وخاتم النبيين بالنسبة لأهل الكتاب، وذلك معنى قوله تعالى له: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاّ رِجَالاً نّوحِيَ إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذّكْرِ إِن كُنْتُم لاَ تَعْلَمُونَ. بِالْبَيّنَاتِ وَالزّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذّكْرَ لِتُبَيّنَ لِلنّاسِ مَا نُزّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل 43، 44)، وتكرر ذلك فى قوله تعالى فى نفس السورة: ﴿تَاللّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىَ أُمَمٍ مّن قَبْلِكَ فَزَيّنَ لَهُمُ الشّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاّ لِتُبَيّنَ لَهُمُ الّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل 63، 64). أى كانت وظيفة القرآن هى إصلاح ما أحدثه أهل الكتب السماوية السابقة من تحريفات أدت إلى مشاكل.

* وبعد أن تم القرآن الكريم نزولاً مات النبى عليه الصلاة والسلام، ونفذ المسلمون أوامره بالاكتفاء بالقرآن وحده، وعدم كتابة وتدوين غير القرآن، مع كتابة القرآن بالرسم المعجز الموحى به إليه، ولذلك أحرق عثمان فى خلافته المصاحف التى كتبت بخلاف ذلك الرسم القرآنى الرسولى، فسمى ذلك الرسم بالرسم العثمانى نظراً للجدل الذى صاحب ذلك وقته، وهو نفس الرسم والشكل الذى تختلف به كتابة المصحف حتى فى عصرنا عن الكتابة العربية الأخرى، وتلك إحدى وجوه الإعجاز الإلهى فى حفظ القرآن إلى أن تقوم الساعة.

* ولكن دخل المسلمون فى السياسة ودروبها ومشاكلها وأزماتها وحروبها وضغائنها وانقساماتها منذ بيعة السقيفة إلى الملك الوراثى الأموى العضوض إلى إسالة الدماء أنهاراً فى صراعات سياسية بدأت من اغتيال عمر وعثمان وعلى ولم تنته بكربلاء وموقعة الحرة والنهروان ودير الجماجم.. ولن تنتهى بأيلول الأسود ومذابح العسكر والأصوليين فى الجزائر.

* لماذا لم تنته؟ ولماذا لن تنتهى؟

لأن الجريمة إذا تحصنت بتسويغ شرعى فقد تحولت إلى شرف وفريضة دينية. ومن هنا فإن قتل المسلم المخالف فى المذهب الدينة أو السياسى هو فى تشريع القرآن جريمة. إلا أنه يتحول إلى واجب دينى فى شريعة التدين.. وهذا هو التناقض بين القرآن والتراث، أو بين الدين السامى وتدين المسلمين، أو بين الإسلام والمسلمين.

إن المسلمين حين جرفتهم السياسة باعدت بينهم وبين القرآن، وبدلاً من الاحتكام إلى القرآن والرجوع إليه فعلوا العكس، وهو صناعة تشريع بشرى يقوم على عمودين، الأول هو إلغاء الأحكام القرآنية التى لا تتفق مع أهوائهم، والثانى، هو اختراع أحاديث تسوغ لهم ما يشاءون من تشريعات تخالف القرآن، مثل حد الردة وحد الرجم، وتوسعوا فى تلك الأحاديث لتلبى الطلب عليها فى الأهواء العقيدية الخرافية المخالفة للقرآن لدى الشيعة والسنة والصوفية وغيرهم، ولتلبى الخلافات الأصولية بين السنة والشيعة وباقى الطوائف والفرق الإسلامية، والخلافات المذهبية فى داخل الفقه الشيعة والفقه السنى.. وبذلك أصبح الحديث وأقاويل المسلمين عن القرآن أو ما يعرف بالتفسير هو الديوان الحى الذى يجسد الواقع العملى لتدين المسلمين فى كل عصر.. هذا من ناحية الاتساع والنظرة الأفقية وأما من الناحية الرأسية فقد حرصوا على نسبة الآراء إلى النبى عليه الصلاة والسلام وكبار الصحابة لدى أهل السنة، أو لدى النبى و"على" وبنيه لدى الشيعة، أو إلى من جعلوهم أولياء مقدسين يتمتعون بالعلم اللدنى المأخوذ من الله تعالى رأساً، عند الصوفية.

* ومن هنا.. أصبح ذلك التراث المخالف للقرآن مقدساً كالقرآن، أو على الأصح بدرجة تزيد على القرآن، لأنه إذا تعارضت آيات قرآنية مع إحدى مقولات التدين فإن الانتصار يكون لأحاديث التراث ومقولاته..

والدليل على ذلك ما ستقرأه عزيزى القارئ فى هذه الكتاب الذى يبرئ الإسلام من حد الردة . وطالما تتمتع هذه المقولات بأحاديث منسوبة للنبى، وطالما توفر غطاءً تشريعياً للجرائم والطموحات السياسية للمنتفعين بها.. فإن دماء المسلمين ستظل تسيل أنهاراً لأن استحلال الدماء والأموال الإسلامية يؤكده تدين المسلمين عن طريق فتاوى وأحاديث وأقاويل تحظى بالتقديس.

* وبهذا نعرف أساس الأزمة.. وتعرف أيضاً أساس الحل.. أساس الأزمة هو المرويات التى تنسب للنبى ما يخالف القرآن الكريم وأساس الحل هو الاحتكام للقرآن الكريم.

﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِيَ أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ (الأنعام 114).

وصدق الله العظيم

د/ أحمد صبحى منصور

1420 هـ- 1999 م

مقدمة الطبعة الأولى لكتاب "حد الردة"

لابد أن نبدأ بوضع النقاط فوق الحروف كى ننصف الإسلام العظيم من بعض المسلمين.

والبداية أن نجعل فارقاً بين الإسلام والمسلمين.

فالإسلام دين الله العظيم الذى يأمر بالعدل والإحسان ويحث على السمو الأخلاقى، والقرآن هو الوثيقة الحقيقية الوحيدة لذلك الدين الإلهى والسنة الحقيقية للرسول هى التطبيق العملى والحرفى للقرآن الكريم، وقد كان النبى "خلقه القرآن" أو كان كما وصفه رب العزة على "خلق عظيم" وذلك الخلق مستمد من "القرآن العظيم".

ومن الطبيعى أن هناك فجوة بين تشريعات القرآن العظيم وذلك التطبيق العملى للسنة النبوية وبين سلوكيات وتشريعات بعض المسلمين خلال المراحل التاريخية التالية لعصر النبوة وعصر الخلافة الراشدة..

ومع الأسف فإن عصر النبوة والخلافة الراشدة لم يشهد سوى تدوين القرآن الكريم وتطبيقه سلوكياً، أما العصور التى شهدت الملك العضوض والحكم الاستبدادى الأموى والعباسى فقد شهدت التدوين لتراث المسلمين وشهدت أيضاً المحاولات السياسية لصبغ ذلك التراث بالصبغة الدينية وعلاج تلك الفجوة بين تشريعات القرآن وبين سلوكيات الخلفاء والفقهاء. وتركز ذلك العلاج باصطناع أحاديث منسوبة للنبى تخالف تشريع القرآن وتخالف أيضاً ما كان عليه سلوك النبى..

وفى عصور الفتن التى شهدت التدوين– تمت ولادة حد الردة تعبيراً عن ظروف سياسة استلزمت سفك الدماء، ولأن شرع القرآن لا يجيز قتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، لأنه لا يوجد مبرر فى القرآن لقتل النفس خارج الحق القرآنى وهو القصاص فى القتل، فإن فقهاء الدم ابتدعوا حد الردة ووضعوا له حديثين تستطيع بهما الخلافة الاستبدادية مطاردة خصومها السياسيين بغطاء شرعى مزيف.

والتيار الدينى السياسى المعاصر ينهمك فى المطالبة بتطبيق الشريعة وليس لديه وقت وليست له الدوافع أيضاً لكى يتساءل عن ماهية الشريعة المراد تطبيقها، هل هى شريعة القرآن أم شريعة الفقهاء فى العصر العباسى.

والتيار الدينى السياسى المعاصر يستريح أكثر لشريعة الفقهاء العباسيين لأنها تعطيه السلاح البتار فى مواجهة خصومه السياسيين ونقصد به حد الردة، لذلك يكون سهلاً على رموز التيار الدينى السياسى أن يرفعوا سلاح التكفير وسلاح الردة لإرهاب خصومهم السياسيين، فإذا طالبوهم ببرنامج سياسى عملى لترجمة شعار (الإسلام هو الحل) ومبدأ (الحاكمية الإلهية) فإن التيار الدينى يرد عليهم بالتكفير ويرهبهم بحد الردة..

وإذا طالبوا التيار الدينى بالاتفاق على اجتهادات فقهية مستنيرة للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية تضع شعار (تطبيق الشريعة) موضع التنفيذ فإن التيار الدينى يتهمهم بمعارضة تطبيق الشريعة ويتهمهم بالكفر ويخيفهم بحد الردة..

وقد دفع المفكر المصرى الدكتور فرج فودة حياته ثمنا لأنه تشجع وتحدى التيار الدينى السياسى فى مؤلفاته ومناظراته وطالبهم ببرنامج سياسى محدد مفصل ، ثم طالبهم فى آخر مناظرة بالإسكندرية قبيل اغتياله بالاجتهاد فى الإتيان بقوانين عصرية مستمدة من الشريعة الإسلامية.. وكان ردهم عليه الاغتيال..

وهم بذلك يقدمون برنامجهم الحقيقى فى التعامل مع خصومهم فى الفكر وفى السياسة.

وقد نجحوا فى تحويل محاكمة المتهمين بقتل فرج فودة إلى محاكمة فرج فودة نفسه وإلى مناسبة لإرهاب خصومهم العلمانيين، فطلب الدفاع عن المتهمين شهادة رموز التيار الدينى السياسى، وقد أفتى كبيرهم أن من يعارض تطبيق الشريعة مرتد مستحق للقتل وأن من يقوم بقتله من الأفراد يعتبر مفتئتاً فقط على السلطة وليست عليه عقوبة ان قتل المرتد..!!

وانتقلت تلك الفتوى الدامية إلى الرأى العام عبر أجهزة الإعلام، وهللت لها صحف التيار الدينى السياسى، وهلل لها أعوانهم فى الصحف القومية، وثار جدل سياسى وفكرى حول حد الردة ما بين مؤيد ومعارض، وتكشف للرأى العام من خلال مقالاتى أنه لا يوجد فى القرآن الكريم ما يؤيد حد الردة، وأنه يقوم على حديثى آحاد تفيد الظن ولا تفيد اليقين.. وتبين للرأى العام أن الرسول لم يقتل أحداً من المنافقين وهم الذين نزل القرآن يحكم بكفرهم. ولو كان هناك حداً للردة لطبقه الرسول..

وكاتب هذه السطور ينتمى للتيار الأصولى، ولكنه مع الأصول الحقة، وهو ينادى بأن الإسلام يحتاج الآن إلى من يعانى فى سبيل إظهار حقائقه، وليس محتاجاً لأولئك الذين يتاجرون باسمه العظيم فى دنيا السياسة والمطامع الدنيوية، وحقيق بكل من يحب الله ورسوله ودين الإسلام أن يبرئ الإسلام من الأوزار التى التصقت به فى عصور الاستبداد، ومنها على سبيل المثال "حد الردة".

إن ما يعرف بحد الردة يقوم على حديثين فقط، ورد أحدهما فى البخارى وهو الذى يدعو إلى قتل من بدل دينه، وورد الآخر فى صحيح مسلم وهو الذى يقول أنه لا يحل دم المسلم إلا بثلاث: قتل النفس والثيب الزانى والتارك لدينه المفارق للجماعة؟

ومنهج هذا الكتاب فى موضوع حد الردة يبدأ بتتبع الموضوع فى القرآن الكريم وعصر الرسول عليه الصلاة والسلام ثم فى عصر الراشدين وبعدها فى عصور الأمويين والعباسيين ويناقش الحديثين اللذين قام عليهما حد الردة مناقشة أصولية يبحث فيها حال الرواة والسند والعنعنة ثم أقوال المحققين فى التشريع القائم على أحاديث الآحاد ومنها أقوال الأزهر، وفى الخاتمة يقدم المؤلف تصويراً للأخطار التى ستترتب على تطبيق حد الردة ليضع بذلك شهادته للتاريخ، ولينصف الإسلام من أوزار بعض المسلمين..

والله تعالى المستعان...

د. أحمد صبحى منصور

أغسطس 1993

==

الفصل الأول

حد الردة فى ضوء القرآن الكريم

أولاً: كلمة "حد" تعنى فى القرآن الشرع والحق ولا تعنى العقوبة

جاءت كلمة "حدود" فى القرآن الكريم (14) مرة. وكلها تعنى حقوق الله وتشريعاته، ولا تعنى العقوبة كما يدل مصطلح حد الردة أو "حد الزنا" وتطبيق "الحدود" فى الشريعة..

جاءت مرتين بمعنى شرع الله وأوامره فى قوله تعالى: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللّهُ عَلَىَ رَسُولِهِ﴾ (التوبة 97). وفى قوله تعالى: ﴿وَالنّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ﴾ (التوبة 112).

وجاءت مرة فى تشريع الصيام فى آية ﴿أُحِلّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصّيَامِ الرّفَثُ إِلَىَ نِسَآئِكُمْ﴾ وفى نهايتها يقول تعالى ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ (البقرة 187).

وجاءت مرتين فى تشريع الميراث، يقول تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمَن يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا﴾ (النساء 13، 14)..

وجاءت تسع مرات فى تشريعات الله تعالى فى الزواج والطلاق..

– منها مرة فى موضوع، الظهار أى إذا ظاهر الرجل على امرأته وحرمها على نفسه، فلا يرجع إليها إلا بعد تقديم الكفارة، ويقول تعالى بعدها ﴿تلك حدود الله﴾

– ومنها أربع مرات فى أية واحدة تتحدث عن الطلاق الأول للزوجة والطلاق الثانى يقول تعالى فيها ﴿ الطّلاَقُ مَرّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمّآ آتَيْتُمُوهُنّ شَيْئاً إِلاّ أَن يَخَافَآ أَلاّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاّ يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَـَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ﴾ (البقرة 229).

– ومنها مرتان فى الآية التى تتحدث عن الطلاق للمرة الثالثة وحتمية أن تتزوج شخصاً آخر ﴿فَإِنْ طَلّقَهَا فَلاَ تَحِلّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتّىَ تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِن طَلّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة 230).

– ومنها مرتان فى تحريم إخراج المطلقة من بيتها قبل العدة ﴿لاَ تُخْرِجُوهُنّ مِن بُيُوتِهِنّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مّبَيّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ وَمَن يَتَعَدّ حُدُودَ اللّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ (الطلاق 1).

هذه هى المواضع التى جاء فيها لفظ "الحدود" وكلها تعنى شرع الله وليس منها ما يتعلق بالعقوبات المنصوص عليها فى القرآن مثل السرقة والزنا والقصاص وقطع الطريق والقذف.. وليس منها ما يتعلق بالعقوبات التى استحدثها العصر العباسى لشرب الخمر والردة وترك الصلاة..

وذلك يدل على أن العصر العباسى وفقهاءه قد نحتوا لهم مسميات خاصة لا تتفق وتشريعات القرآن..

وذلك يدل أيضاً على أن عصر الرسول المرتبط بالقرآن أساساً لم يعرف مدلولاً اسمه "حد السرقة" أو "حد الزنا" وسائر العقوبات المنصوص عليها فى القرآن لأن القرآن حين ذكر عقوبة الجلد للزانى لم يستعمل كلمة حد الزنا ، وكذلك حين تحدث عن جريمة السرقة أو القذف أو القتل.. ويمكن مراجعة ذلك فى القرآن.

وهذا يؤكد على ذلك الفارق الجوهرى بين دين الله الحق ونوعيات التدين للبشر فى عصورهم المختلفة. فالله تعالى ينزل الدين نقياً خالصاً للسمو بالناس والترقى بهم، أما البشر فهم حين يتدينون فإنهم يضعون بصماتهم على الدين فتظهر تلك الفجوة بين الدين الحق وتدين البشر، ويضع البشر صورة قانونية تشريعية للتدين الذى يمارسونه، ويقوم الفقه بتلك المهمة، وطبيعى أن يحدث اختلاف بين مذاهب الفقه والتشريع القرآنى الأصيل لأن مذاهب الفقه تتأثر بالظروف الاجتماعية والنفسية والسياسية لصاحب المذهب وأتباعه..

ولذلك ليس غريباً أن يخترع الفقه مدلولات جديدة لم يذكرها تشريع القرآن، وليس غريباً أن يخترع عقوبات تخالف تشريعات القرآن ومنها ما اصطلحوا على تسميته بحد الردة..

وقبل أن نتعرض لموقف التشريع القرآنى من حد الردة نبدأ بموقف القرآن من التكفير.. فالتكفير هو أساس التشريع الفقهى فى قتل المرتد.. فلابد أن يسبق "إقامة الحد على المرتد" اتهامه بالكفر وإقامة محكمة تفتيش عن سريرته وعقيدته.

فهل يصح فى تشريع القرآن أن يتهم المسلم إنساناً بالكفر؟.

هذا هو المبحث التالى..

ثانياً: موقف القرآن من التكفير

لا يصح للمسلم أن يكفر غيره أو أن يقيم له محاكم تفتيش

منح الله تعالى البشر الحرية فى الإيمان به أو الكفر بذاته العلية، والدليل على ذلك واضح فى حياة البشر وفى أقوالهم وأفعالهم فى تاريخهم الماضى والحاضر..

والقرآن– كلام الله العزيز– فيه الإثبات على حرية البشر المطلقة فى الإيمان والكفر، يتضح ذلك فى قصص القرآن عن المشركين كما يتضح أيضاً فى حوار القرآن مع المشركين لإقناعهم بالعقل والمنطق، ولو لم يسمح الله لهم بالحرية ما كان ذلك الحوار وما كانت محاولة الإقناع، بل أن القرآن يؤكد على حرية البشر فى أن يؤمنوا أو أن يكفروا، وفى المقابل فإن مسئوليتهم تجاه هذه الحرية تتجلى يوم الحساب حيث سيحاسبهم رب العزة على اختيارهم، يقول تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقّ مِن رّبّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنّا أَعْتَدْنَا لِلظّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوجُوهَ بِئْسَ الشّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ (الكهف 29).

بل إن القرآن الكريم لم يصادر أقوال المشركين فى العيب فى ذات الله، فاليهود قالوا ﴿إن الله فقير ونحن أغنياء﴾، وقالوا ﴿يد الله مغلولة﴾ وقال مشركو مكة وهم يرفضون إعطاء الصدقة ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمّا رِزَقَكُمُ الله قَالَ الّذِينَ كَفَرُواْ لِلّذِينَ آمَنُوَاْ أَنُطْعِمُ مَن لّوْ يَشَآءُ اللّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاّ فِي ضَلاَلٍ مّبِينٍ﴾ (يس 47). أثبت القرآن هذه الأقوال ولم يصادرها، فصارت مع الرد القرآنى عليها ضمن آيات القرآن التى يتعبد المسلم بتلاوتها.

ومن الطبيعى أن يرد القرآن– كلام الله العزيز– على الأقوال التى تخالف دين الله تعالى، وهذا حق الله تعالى، وليس فقط لأن تعالى هو رب البشر وخالقهم وصاحب الدين الحق ولكن لأنه أيضاً تعامل مع البشر بمنطق العدل، فقد أعطاهم حرية الإيمان والكفر، وحرية إعلان الكفر وحرية العيب فى ذاته الإلهية العلية والتقول على الله تعالى، وفى مقابل ذلك فإن من حقه أن يصفهم بالكفر والعصيان وأن يرد على افتراءاتهم وأقوايلهم وينفى عن ذاته العلية اتخاذ الولد والشريك، وتلك قضايا تخصه جل وعلا، ومن حقه الرد عليها..

إلا أن عدل الله تعالى تجلى فى التعامل مع طوائف البشر. فحين يحكم بالكفر فإنه تعالى يضح حيثيات الاتهام وأسباب الوصف فيقول مثلاً ﴿لَقَدْ كَفَرَ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿لّقَدْ كَفَرَ الّذِينَ قَالُوَاْ إِنّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾ (المائدة 72، 73).

فالحكم من الله ليس عاماً وإنما هو خاص بمن يقول ذلك القول، وفى نفس الوقت فإن الذى يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين فهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، يقول تعالى: ﴿إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَالّذِينَ هَادُواْ وَالنّصَارَىَ وَالصّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة 62).

ويقول تعالى: ﴿إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَالّذِينَ هَادُواْ وَالصّابِئُونَ وَالنّصَارَىَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة 69).

أى أن الله تعالى ليس منحازاً لأحد، فمن يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر فهو من أولياء الله أصحاب الجنة، ومن يجعل لله ولداً أو يجعل إلهاً مع الله فإن الله تعالى يحكم عليه بالكفر..

وذلك هو ما يخص الله تعالى، فهو صاحب الدين وهو صاحب ومالك يوم الدين وهو الذى يرد على البشر إن أحسنوا فى العقيدة أو أساءوا فيها.

إلا أن الله تعالى لم يعط أحداً من البشر الحكم على الآخرين الأحياء بالكفر، بل أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكون حوارهم بالحكمة والموعظة الحسنة مع معاصريهم ومع تأجيل الحكم إلى الله تعالى يوم القيامة ، وذلك ما كان مأموراً به خاتم النبيين عليهم الصلاة والسلام...

فالله تعالى يأمر بأن يكون الجدال مع أهل الكتاب بالتى هى أحسن، يقول تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا۟ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ وَقُولُوا۟ آمَنَّا بِالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـهُنَا وَإِلَـهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت 46).

فالجدال مع أهل الكتاب ممنوع إلا إذا كان بالتى هى أحسن... أى كان نقاشاً موضوعياً بالحجة دون إساءة، أما "الذين ظلموا" فلا جدال معهم حتى لا يتطور الأمر إلى إساءة متبادلة، والله تعالى نهى عن الجدال الذى ينتهى إلى إساءة ويقول: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا۟ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّوا۟ اللّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام 108). وعن الظالمين– أو بمفهومنا المتعصبين– يقول تعالى للنبى قال تعالى: ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. اللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج 68، 69). أى أنه لا مجال للجدال العقيم مع المتعصب، والأفضل الإعراض عنه وذلك شأن المؤمن دائماً، ويقول الله تعالى فى حال المؤمنين مع المتعصبين المتحفزين الظالمين ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ اللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القصص 55).

وبالمناسبة فتلك الآية الكريمة نزلت فى حال مؤمنى أهل الكتاب ونزلت مثلاً لكل مؤمن فى الحوار أو الجدال بالتى هى أحسن وتحاشى الجدل مع المتعصبين.

ولذلك فإن الجدال بالتى هى أحسن هو سمة الحوار بين المؤمنين بالقرآن ومؤمنى أهل الكتاب وذلك معنى قوله تعالى ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا۟ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾.

وحتى لا يقع المسلم فى اتهام أهل الكتاب بالكفر فإن القرآن يفرض صيغة محددة للحوار فيقول تعالى ﴿وَقُولُوا۟ آمَنَّا بِالَّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـهُنَا وَإِلَـهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أى نؤمن معاً بالله الواحد ونؤمن بما أنزل إليكم وما أنزل إلينا، ونحن له مسلمون، ولم يقل مثلاً "وأنتم كافرون" لأنه ممنوع اتهام المسلم لغيره بالكفر...

ولم يأت الأمر مثلاً بأن يستشهد المؤمن فى حواره مع أهل الكتاب بما قاله رب العزة عن أولئك الذين قالوا إن الله تعالى ثالث ثلاثة أو أن الله هو المسيح ابن مريم.. لأن ذلك هو قول الله تعالى ذاته فى الرد عليهم، أما نحن فما علينا إلا أن نحاور بالتى هى أحسن ونرجئ الحكم فى العقائد إلى يوم الدين يوم الحساب أمام الله تعالى..

وقد تحدثت سورة آل عمران عن ميلاد عيسى عليه السلام وبعثته ثم قالت: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ. إِنَّ مَثَلَ عِيسَىَ عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ. الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِّن الْمُمْتَرِينَ﴾ (آل عمران 58: 60).

وبعد ذلك التوضيح عن بشرية المسيح عليه السلام ورسالته فماذا يكون موقف النبى إذا جاءه أهل الكتاب يجادلونه؟ هل يتهمهم بالكفر؟ هل يرميهم بالضلال؟ هل يتوعدهم بالجحيم؟..

تعالوا بنا نقرأ الآية التالية لنعرف الإجابة فى تلك السورة المدنية التى نزلت فى عصر قوة المسلمين وشوكتهم ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (آل عمران 61).

أى من جادلك فى طبيعة المسيح من بعد ما جاءك فيه من العلم أى بالقرآن فادعهم إلى المباهلة، أى الاحتكام إلى الله تعالى فى الدنيا، بأن يخرج الفريقان ومعهم الأبناء والنساء ويبتهلون إلى الله تعالى أن يلعن الكاذب منهما.. لم يقل القرآن للنبى إذا جادلوك فاحكم عليهم بالضلال والكفر ودخول الجحيم.. ولكن ابتهل إلى الله لكى تكون اللعنة من نصيب الكاذب من الفريقين، ومن الطبيعى أن كل فريق يعتقد الصدق فى نفسه..

أى أنه تصعيد وتأجيل للحكم إلى رب العزة لأنه وحده هو الذى يحكم بالكفر أو بالإيمان على عباده البشر، أما النبى فلا يملك أن يحكم بكفر أحد.

والقرآن فى دعوته لأهل الكتاب يضع أسلوب الحوار الراقى الذى يجب على المسلمين اتباعه، ويقول تعالى للنبى قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران 64).

فهذا هو الخطاب الراقى لأهل الكتاب أن ندعوهم إلى كلمة سواء نلتزم بها سوياً، أن نعبد الله وحده دون شريك وألا نتخذ كهنوتاً وأرباباً من البشر، فإن رفضوا فلا نتهمهم بالكفر ولا نتحدث بأسمهم أو باسم الله ولكن نتحدث باسمنا فقط، فنقول لهم اشهدوا إذن بأننا أسلمنا لله وحده..

لم يقل: فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون وأنتم كافرون، لأنه ليس من حق المسلم اتهام غيره بالكفر، وحسبه أن يعلن خضوعه لله ، وحسبه شرفاً أن يكون فعلاً عند الله كذلك..

والخلاصة أن الله تعالى هو وحده صاحب الحق فى أن يقول عن بعض أهل الكتاب ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

وهو وحده تعالى صاحب الحق أن يقول عن أهل الكتاب ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ. يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران 113، 114).

الله وحده هو الذى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ وهو الأعلم بحقيقة الإيمان عند الأفراد والطوائف والأمم، والله تعالى يقول ﴿وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِّن بَعْضٍ﴾ (النساء 25).

أما نحن البشر فإذا كنا ندعى الإيمان حقاً فيجب أن نلتزم بأوامر الله تعالى فى أن نقول للناس حسنا ﴿وقولوا للناس حسنا﴾ (البقرة 83).

وأن نجادلهم بالتى هى أحسن، وهل هناك أروع من قوله تعالى فى آداب الدعوة والحوار ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت 33، 34).

وقد يقول قائل:– إن الله تعالى أمر رسوله أن يقول ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ أى اتهمهم بالكفر وقال لهم ﴿يا أيها الكافرون﴾.

والجواب: إن أعداء النبى فى مكة كانوا يفخرون بكفرهم ولم يعتبروا ذلك الاتهام بالكفر نقيصة بأى حال، بل دأبوا على اتهام النبى بالسحر والجنون والكذب واعتبروا الإيمان بالقرآن جريمة تستوجب الإيذاء والحرب..

وإذن فإن قول النبى لهم ﴿يا أيها الكافرون﴾ ليس فيه إساءة لهم بل هو خطاب لهم بنا يحبون وبما يفخرون، والمهم إن فحوى الخطاب تقرر حرية العقيدة فى آيات السورة التى تنتهى بقوله ﴿لكم دينكم ولى دين﴾.

والأهم من ذلك هو آداب الحوار مع أولئك الذين كانوا يفخرون بكفرهم ويعتبرون الإيمان بالله ورسوله، هل كان الله تعالى يأمر رسوله فى الحوار معهم أن يتهمهم بالضلال ويحكم عليهم بدخول النار..

لنقرأ أسلوب الحوار الذى أمر الله به رسوله ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىَ هُدًى أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ 24) لم يأمره– وهو رسول الله– أن يقول للمشركين "أنا على هدى وأنتم فى ضلال، وإنما أمره أن يقول أحدنا على هدى والآخر فى ضلال.

وتقول الآية التالية ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لم يقل: لستم مسئولين عن إجرامنا ولسنا مسئولين عن إجرامكم.

بل نسب الجرم لنفسه– وهو النبى– ولم ينسب إلى المجرمين إلا مجرد العمل.. إلى هذا الحد بلغت آداب الحوار مع المشركين المعاندين، وتقول الآية التالية ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ (سبأ 26).

أى يؤجل الحكم بينهم وبينه إلى لقاء الله تعالى يوم القيامة.

وذلك بالنسبة للنبى فى حواره مع المشركين..

فلم يكن من خصائص النبى أن يتهم أعداءه الأحياء الكفر.. وبالتالى فلم يكن من خصائصه أن يتهم مسلماً حيا بالكفر..

ومن الطبيعى أن من يتهم غيره بالكفر يضع نفسه فوق النبى، بل ويتقمص الدور الإلهى الذى هو لله وحده..

بين الجهاد والتكفير

الجهاد بالقرآن الكريم سلميا من أهم ملامح الجهاد الاسلامى، يقول تعالى " ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا. الفرقان 51–52." أن القرآن هو الرسول القائم بيننا طالما ظل هناك قرآن يتلى، وطالما هو محفوظ بقدرة الله جل وعلا الى قيام الساعة. ومهمة القرآن أن يظل حجة الله تعالى على الناس الى قيام الساعة. النبى بشر مات ولكنه كرسول قام بتبليغ القرآن الذى سيظل رحمة للعالمين من عهده الى آخر دقيقة فى هذه الدنيا. محمد كبشر كان محدودا بالزمان والمكان والقرآن بعده يظل علما

للهداية وحكما على الناس – خصوصا المسلمين ــ اذا تلاعب بهم الشيطان . والشيطان لم يقدم استقالته . سيظل يؤدى مهمته فى اضلال الناس الى قيام الساعة.
القرآن الكريم شرح مهمة ابليس وهى اضلالهم عن الطريق المستقيم أى وحى الله تعالى الحق، وخداع الناس بالأمنيات الباطلة أى بدخول الجنة مهما عصوا "الأعراف 16-17 ""النساء 118-120". وهذه المهمة الشيطانية لها وسائل محددة تماثل وسائل الهداية ونقصد بها الوحى. فكما يوحى الله تعالى للأنبياء كذلك يوحى الشيطان لأوليائه. عن القرآن يقول تعالى :"وانه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين"... " وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون ، انهم عن السمع لمعزولون.".وبعدها يقول تعالى عن الوحى الشيطانى "هل أنبئكم على من تنزل الشياطين؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون."الشعراء 192-195،،،210 ــ 212 ،، 221-223."
تختار الشياطين أكثر البشر كذبا واثما "أفاك أثيم" ليتسلط على الناس ببث أكاذيبه يقنعهم أنها من عند الله تعالى أو رسوله. يسميها وحيا أو مناما أو هاتفا فى يقظة أو منام. ويلقى اليه الناس اسماعهم ، وأكثرالمستمعين كاذبون يروى ويحكى عنه مصدقا له ،أو يكتب عنه ما يقول وينسخها أى يكتبها ويشاء الله تعالى أن يسمح بهذا التصرف فتتكاثر كتب الوحى الكاذب ونسخها "الحج 52-55". اولئك هم اعداء الأنبياء أو شياطين الانس بتعبير القرآن الكريم .يقول تعالى عنهم:" وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون". ثم يقول تعالى عن المستمعين المبهورين بهذا الوحى الضال: "ولتصغى اليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون." ثم يجعل الله تعالى القرآن الكريم حكما على هذا الوحى الكاذب فيقول:" أفغير الله ابتغى حكما؟ وهو الذى أنزل اليكم الكتاب مفصلا ؟." الأنعام 112-113 "
وهكذا يكون الجهاد بالقرآن ضد اولئك الذين افتروا على الله تعالى كذبا وكذبوا بآياته، وهم الذين جعلهم الله تعالى اظلم الناس جميعا: "فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته." الاعراف 37 يونس 17"".
الجهاد هنا فكرى عقلى بالقرآن ليواجه الأكاذيب التى ينسبونها لله تعالى ووحيه ورسوله. ليس موجها للأشخاص مثل الجهاد القتالى ولكنه موجه للوحى الكاذب نفسه يحتكم فيه لكتاب الله تعالى، محذرا الناس منه، وللنصح والتذكير وليس للسب والتكفير. ومن منتجات هذا الوحى الكاذب حد الردة موضوع هذا الكتاب. وما نفعله هنا هو ذلك الجهاد القرآنى السلمى للتحذير وليس للتكفير.
قبل طرد ابليس من الملأ الأعلى – بسبب عصيانه الأمر الآلهى بالسجود لآدم – قال ابليس متحديا رب العزة جل وعلا عن ذرية آدم ــ أى عنا :"..لأقعدن لهم صراطك المستقيم. ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين."الأعراف 16-17." ومع أن الله تعالى كشف الاعيبه وأوضح وسائله الا أنه ينجح دائما فى خداع الأكثرية من البشر حتى الآن والى قيام الساعة ، والسبب انه لا يقدم لهم نفسه كشيطان عدو للرحمن ولكن من خلال اسلام مغشوش يحمل اسم الاسلام زورا وبهتانا عبرأحاديث منسوبة لله تعالى ورسوله الكريم، ولا تخلو من زخرف القول وما تشتهيه النفس وتتمناه. وهنا يكون جهادا واجبا أن

نبرىء الاسلام من هذا الزيف باللجوء للقرآن والاحتكام اليه فى هذا الغش والزيف املا فى هداية المخدوعين بزخرف الشيطان وغروره.

والله تعالى أخبر مقدما فى القرآن الكريم بما سيقوله للبشر الضالين يوم القيامة وقد خدعهم ابليس جيلا بعد جيل بسبب التقليد وعبادة المتوارث والتراث دون فهم او تعقل. سيقول تعالى لهم جميعا يوم القيامة يذكرهم بمانسوه" ألم أعهد اليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وأن أعبدونى هذا صراط مستقيم. ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون."يس 60 –63 . وفى جهنم سيجدونه بينهم :" وقال الشيطان لما قضى الأمر ان الله وعدكم وعد الحق، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لى عليكم من سلطان . الا ان دعوتكم فاستجبتم لى، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم..""ابراهيم 23" لم يدعهم بنفسه أو بصوته وانما بلسان اتباعه الذين ينشرون وحيه الكاذب المناقض لكتاب الله تعالى... وحتى ننجو من هذا المصيرلا بد من عرض عقائدنا على كتاب الله لننظف منها الأحاديث المفتراة ، وهذه وظيفة العلماء الذين قال الله تعالى عنهم:"يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" المجادلة 11" وهى أيضا وظيفة الأشهاد الذين يجاهدون بالقرآن سلميا فى هذه الدنيا لأظهار الحق وازهاق الباطل .وقد وعدهم الله تعالى بالنصرفى الدنيا وأن يكونوا شهداء على أقوامهم فى الآخرة " "انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار."غافر 51–52".

والخلاصة هنا أن الجهاد لتوضيح الحق القرآنى وتبرئة الاسلام من مفتريات الشيطان لا صلة له بالتكفير لأنه يواجه العقائد ويسعى لانقاذ الأشخاص من الضلال بالقرآن وليس لتكفيرهم..

أما الكهنوت فله شأن آخر.

فمن طبيعة الكهنوت أن يدعى التحدث باسم الله، ولذلك فإنه حيث يوجد الكهنوت يوجد اتهام بالكفر وتوجد محاكم التفتيش، وتوجد صكوك الغفران، وليس فى الإسلام كهنوت، ولنتذكر أن الله تعالى دعا أهل الكتاب لنبذ الكهنوت حين قال ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَىَ كَلَمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاّ نَعْبُدَ إِلاّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران 64).

وذلك هو واقع الإسلام.. لا مجال فيه للأرباب والكهنوت والوسائط، أما واقع المسلمين التاريخى فقد عرف تقديس الأولياء والعلماء والأئمة، بحيث أصبح من المقرر أن انتقادهم يعتبر هجوماً على الإسلام. وتلك نفس عقيدة الكهنوت الذين يعتبرون أنفسهم وأئمتهم الممثلين للدين والمتكلمين باسمه.

ولذلك فإنه من الإنصاف للإسلام أن نبرئه من أعمال المسلمين التى تخالف كتاب الله العزيز.التبرئة من "اعمال" وصفات وعقليات وليس تكفير اشخاص أحياء.

والخطورة فى وجود الكهنوت أنه حين يحكم بكفر إنسان يقيم له المحاكم التفتيشية ويحكم عليه بالقتل.. وتلك مخالفة أخرى لتشريع القرآن فالنبى نفسه لم يحدث أن أقام محاكم تفتيش للمنافقين فى المدينة وقد كان فيها الحاكم المطاع، وكان المنافقون يمثلون المعارضة السياسية والدينية، وكانوا يتآمرون عليه فى أوقات السلم وأوقات الحرب، بما يستوجب فى الدولة الديمقراطية أن يحاكموا بتهم قد تصل إلى درجة الخيانة العظمى. ونأخذ أمثلة من القرآن الكريم لموقف النبى من المنافقين والمشركين.

– كان بعضهم يسارع إلى اعلان الردة والكفر ويحزن الرسول لذلك، ولكن لم يكن له أن يحاكمهم أو يقيم عليهم حد الردة أو يعقد لهم محاكم تفتيش، كان يكتفى بالحزن ويقول له ﴿يَأَيّهَا الرّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الّذِينَ قَالُوَاْ آمَنّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ (المائدة 41).

ويطمئنه ربه بأن أولئك الذين يسارعون فى الكفر والردة لن يكون لهم حظ فى الآخرة وذلك يكفى فى عقابهم ويغنى عن اضطهادهم فى الدنيا، يقول تعالى لرسوله: ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنّهُمْ لَن يَضُرّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ. إِنّ الّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرّواْ اللّهَ شَيْئاً وَلهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران 176، 177).

– إن المرتد لا يمكن أن يضر الله شيئاً، ويكفيه ما سيناله من عذاب القيامة إذا مات على كفره، وبعض المنافقين كان يتطرف فى كفره إلى درجة التآمر على النبى وعلى المؤمنين فى أوقات الحروب، ومع ذلك فإن النبى لم يعقد لهم محاكم تفتيش، يقول تعالى عن تآمرهم على النبى ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيّتَ طَآئِفَةٌ مّنْهُمْ غَيْرَ الّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَىَ بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ (النساء 81).

أى كانوا يقدمون للنبى فروض الولاء ويدخلون عليه فى مظهر الطاعة فإذا خرجوا من عنده تآمروا عليه وكذبوا عليه وتقولوا عليه ما لم يقل، والله تعالى الذى يخبر رسوله بمؤامراتهم يخبره أيضاً بأنه يسجل عليهم تآمرهم ويكتب عنده أقوالهم ويأمر النبى بالإعراض عنهم وأن يتوكل على الله وكفى بالله وكيلا، لم يقل له ربه أقم لهم محاكم تفتيش واحكم عليهم بالردة والقتل والخيانة العظمى..

– وكانوا يتآمرون على المسلمين والنبى فى الوقت العصيب، وقت المعارك مع المشركين، يتأرجحون فى الولاء بين المسلمين والمشركين، وتلك خيانة عظمى، ويتضمنون للغالب أو يتظاهرون بذلك، يقول تعالى عنهم ﴿الّذِينَ يَتَرَبّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مّنَ اللّهِ قَالُوَاْ أَلَمْ نَكُنْ مّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوَاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء 141).

يقول الله تعالى للنبى والمؤمنين معه عنهم ﴿فالله يحكم بينكم﴾ أى تأجيل للحكم إلى يوم القيامة، لأنه ليس هناك مجال فى دولة الإسلام الحقيقية لأى نوع من محاكم التفتيش وليس هناك فى تشريع الإسلام الحقيقى ما يعرف بحد الردة.. وإلا كان النبى أول من طبقه وأول من ينفذه فى المنافقين الذين قال عنهم رب العزة ﴿إِنّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ (النساء 145).

إن تأجيل الحكم إلى يوم القيامة فيما يخص العقائد وحقوق الله تعالى من الأمور المقررة فى القرآن، ومن أهم خصائص العقيدة الصحيحة فى الإيمان بالله واليوم الآخر..

وذلك ما نزلت به الرسالات السماوية وقاله الأنبياء والمرسلون، وأخبر به رب العزة فى القرآن الكريم..

– لقد قال الله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿إِذْ قَالَ اللّهُ يَعِيسَىَ إِنّي مُتَوَفّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيّ وَمُطَهّرُكَ مِنَ الّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الّذِينَ اتّبَعُوكَ فَوْقَ الّذِينَ كَفَرُواْ إِلَىَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمّ إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (آل عمران 55).

فالله تعالى هو الذى سيحكم بين النصارى فى اختلافاتهم الدينية يوم القيامة، ولو آمنوا بذلك لما عرف تاريخ العصور الوسطى إقامة محاكم التفتيش وحرق المتهمين بتهمة الهرطقة..

– والله تعالى يقول عن اليهود ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَىَ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النحل 124).

فالحكم لله تعالى يوم القيامة فيما يخص اختلافات اليهود فى السبت وغيره.

ومشركو قريش وغيرها كفروا بالقرآن وموعد محاكمتهم يوم القيامة الذى هو يوم (الدين) حيث يكون الملك لله وحده، وهو تعالى وحده صاحب الدين ومالك يوم الدين، ولذلك يقول تعالى عن الكافرين بالقرآن ﴿وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىَ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج 55).

وكانوا إذا جاءوا يجادلون بالتى هى أسوأ يقول له ﴿وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ. اللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الحج 68، 69).. أى تأجيل الحكم بينهم وبين النبى إلى يوم القيامة.

ولذلك كان الله تعالى يأمر الرسول بالصبر إلى أن يأتى الوعد الحق يوم القيامة ويتحقق ما وعده ربه به وتقام المحاكمة الكبرى يوم الحساب يقول الله تعالى للنبى ﴿فَاصْبِرْ إِنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ فَــإِمّا نُرِيَنّكَ بَعْضَ الّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتوَفّيَنّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ (غافر 77).

ويقول له ربه ﴿وَإِمّا نُرِيَنّكَ بَعْضَ الّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفّيَنّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمّ اللّهُ شَهِيدٌ عَلَىَ مَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس 46). فالجديد فى المحاكمة الكبرى أن الله تعالى هو الشهيد على ما يفعلون وهو الوكيل– أى الذى يتوكل ويعتمد عليه– المؤمنون.

وكفى به تعالى شهيداً وكفى به تعالى وكيلا..

وإذا استوعب المؤمن هذه المعانى أحس بالإشفاق على الذى يغويه الشيطان ويوقعه فى الضلال، لذلك فإن الله تعالى يأمر المؤمنين بالغفران لمن يضل، يقول تعالى: ﴿قُل لّلّذِينَ آمَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلّذِينَ لاَ يَرْجُونَ أَيّامَ اللّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ. مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمّ إِلَىَ رَبّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (الجاثية 14، 15).

والمؤمن إذا تفكر فى العذاب الذى ينتظر الضالين فى الآخرة تحول إشفاقه عليهم إلى صفح وغفران، إذ يكفيهم ما ينتظرهم من هول يوم القيامة، ولن يفكر بتاتاً فى اضطهادهم أو محاكمتهم، يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاّ بِالْحَقّ وَإِنّ السّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (الحجر 85).

فالساعة آتية وفيها يوم الحساب، وما عليك إلا أن تصفح، وليس مجرد الصفح، بل الصفح الجميل..

فأين ذلك السمو من دعاة محاكم التفتيش؟!!

وبعض من يصيبهم الحماس الدينى يهتف متهماً الآخرين بالكفر، بل ربما يرفع هتافه للسماء، وكان ذلك يحدث وقت نزول القرآن كما يحدث الآن، ونزل القرآن يرد ﴿وَقِيلِهِ يَرَبّ إِنّ هَـَؤُلاَءِ قَوْمٌ لاّ يُؤْمِنُونَ. فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلاَمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف 88، 89)..

فالرد عليهم أن تقول لهم سلام عليكم، وأن تصفح عنهم، فسوف يعلمون يوم القيامة..

إن محاكم التفتيش على عقائد الناس الأحياء وخطرات نفوسهم شيء فوق طاقة البشر ولذلك فهى دائماً محاكم ظالمة، وليس فقط فى أنها اعتدت على خصوصيات الله تعالى وتفرده وحده بالحكم فى العقائد، وليس فقط فى أنها تخالف شرع الله تعالى فى تأجيل الحكم فى اختلاف العقائد إلى يوم الدين ولكن لأنها أيضاً أقحمت نفسها فى مجال السرائر وما تخفيه الصدور..

فالله وحده الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وذلك ما قاله رب العزة فى الحديث عن المحاكمة الكبرى يوم القيامة أو يوم التلاقى ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ. يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَىَ عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهّارِ. الْيَوْمَ تُجْزَىَ كُلّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ. وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ. يَعْلَمُ خَآئِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصّدُورُ. وَاللّهُ يَقْضِي بِالْحَقّ وَالّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنّ اللّهَ هُوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر 15: 20). يوم التلاق، هو يوم لقاء الله تعالى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، أى يوم القيامة. فى ذلك اليوم يبرز الناس للقاء الله حيث لا يخفى على الله منهم شيء وحيث يتحقق الملك لله وحده، وحيث تجزى كل نفس ما كسبت، وحيث لا ظلم لأن الله وحده هو الذى يقضى بالحق وهو الذى يعلم الغيب.

إن من خصائص هذا اليوم الكبر أن الله تعالى يحاسب الناس على سرائرهم، يقول تعالى ﴿يوم تبلى السرائر﴾ أى يوم يمتحن الله ما فى السرائر..

ويقول عما تخفيه الصدور ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلّ أُولـَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء 36).

هنا تكون المحاكمة عادلة لأنها تعلم السرائر وما تخفيه الصدور، وذلك ما اختص الله تعالى به ذاته، وحرم منه رسوله خاتم النبيين الذى لم يكن يعلم سرائر أصحابه، حتى كان من بين أصحابه من هم أشد الناس نفاقاً، إلا أنهم مردوا على النفاق إلى درجة الإدمان، وإلى درجة أنهم خدعوا النبى نفسه بمظهرهم المؤمن، والله تعالى يقول للنبى والمؤمنين ﴿وَمِمّنْ حَوْلَكُمْ مّنَ الأعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذّبُهُم مّرّتَيْنِ ثُمّ يُرَدّونَ إِلَىَ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة 101). قال تعالى للنبى عن أولئك الذين (مردوا على النفاق) (لا تعلمهم) لأن علم السرائر من خصائص الله علام الغيوب..

أما الكهنوت فيرفع نفسه فوق الأنبياء حين يدعى علم السرائر والغيوب ويضع نفسه فى مقام رب العزة حين يحاكم باسم الله تعالى– زوراً وبهتاناً– من يخالفه فى العقائد.. إن الله تعالى يقول للنبى ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنّهُمْ لَن يَضُرّواْ اللّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللّهُ أَلاّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظّاً فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران 176).

أى أن الله تعالى يجعل قضية الإيمان والكفر من اختصاص الله تعالى وليست خصائص النبى، فليس على النبى إلا التبليغ والإنذار والتبشير.. فإذا حزن لأن بعضهم ارتد فالله ينهاه عن الحزن لأن القضية تخص الله تعالى ولأن أولئك الذين يسارعون فى الكفر لن يضروا الله شيئاً، ولأن الله تعالى يريد أن يحرمهم من الجنة ويريد أن يعاقبهم بالنار..

إن الله تعالى يقول للنبى ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ. إِلاَّ مَن تَوَلَّىَ وَكَفَرَ. فَيُعَذِّبُهُ اللّهُ الْعَذَابَ الأكْبَرَ. إِنّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ. ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية 21: 26).

إن السيطرة على عواطف الناس ومعتقداتهم فوق طاقة النبى نفسه، لذلك قال الله تعالى ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ والدليل الواضح على ذلك أن سيطرة النبى على المدينة سياسياً لم تكفل له السيطرة الدينية على سكانها فكان منهم المنافقون، بل إن المؤمنين تآلفوا واجتمعوا حول النبى بإرادة الله تعالى وتدبيره، وليس بجهد النبى وإمكاناته، يقول تعالى: ﴿وَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأرْضِ جَمِيعاً مّآ أَلّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـَكِنّ اللّهَ أَلّفَ بَيْنَهُمْ إِنّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال 63). إن الذى يستطيع التحكم فى القلوب هو الله جل وعلا.. وقد شاء رب العزة أن يترك القلوب حرة فى أن تؤمن أو أن تكفر، فى أن تطيع أو أن تعصى فى أن تحب أو أن تكره، ومنع النبى من أن يتطرف فى حماسه للدعوة فيقع فى إكراه الناس على الإيمان، فقال تعالى للنبى ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبّكَ لآمَنَ مَن فِي الأرْضِ كُلّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النّاسَ حَتّىَ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس 99).

ولذلك فإن محاكمتهم وعقابهم من شأن الله تعالى وحده ومن حق الله تعالى وحده ، والذى يغتصب لنفسه ذلك الحق الإلهى فقد جعل نفسه إلهاً مع الله مع أنه لا إله إلا الله.

والتاريخ يثبت أن محاكم التفتيش واضطهاد المخالفين فى العقيدة يأتى دائماً فى العصور التى يسيطر فيها الكهنوت وتقديس البشر من الأئمة والأولياء والأحبار والرهبان لارغام الآخرين على الاستسلام لهذا الضلال، بينما ينعدم ذلك فى عصور التدين الصحيح المرتبط بحرية التدين وعدم الاكراه فى الدين..

ففى عصر الرسول والخلفاء الراشدين لم يعرف المسلمين محاكم التفتيش أو حد الردة المزعوم.. مع أن الدولة البيزنطية كانت تضطهد الأقباط المصريين وتقيم لهم محاكم التفتيش بسبب الخلاف فى طبيعة المسيح عليه السلام، لذلك كان ترحيب المصريين بالفتح العربى لأنهم كانوا يتوقون لمن ينقذهم من الاضطهاد الرومانى الدينى..

ثم ما لبثت العدوى أن انتقلت للمسلمين فى عصور الاستبداد والخلفاء غير الراشدين فعرف المسلمون محاكم التفتيش وحد الردة وذلك لأسباب خاصة لا شأن للإسلام بها، بل هى فى الدفاع عن مقولات الكهنوت الباطلة من تقديس البشر وتسويغ الاستبداد الدينى والسياسى.

إن الله تعالى لم يضع تشريعاً لمعاقبة الذين يسارعون فى الكفر بعد الإيمان لأنهم كما قال الله تعالى ﴿لن يضروا الله شيئا﴾.

أما الكهنوت الدينى والسياسى فهو يلجأ لمعاقبة الخصوم لأن أولئك الخصوم سيضرونهم شيئاً وأشياء..

والعادة أن الكهنوت يقوم على أسس خرافية تجافى العقل وتعارض الحق وتنافى دين الله تعالى، وحيث تنعدم الحجة فالسبيل الوحيد هو استعمال القوة.. ولذلك يقيم الكهنوت يوماً للحساب قبل يوم الحساب ويقعد محاكم التفتيش قبل يوم القيامة ويزعمون أنهم يحكمون باسم الله مع أنهم فى الحقيقة يغتصبون حقوق الله..

لقد وضعوا تشريعات لمحاكم التفتيش تحت عنوان "استتابة المرتد". وأعطوا أنفسهم حق الاستتابة. مع أن التوبة لا تكون من العبد إلا إلى ربه وحده فالله وحده هو الذى يتوب على التائب ولم يعط الله تعالى حق الاستتابة لغيره.

إن الله تعالى يقول للمؤمنين ﴿وَلاَ يَأْتَلِ أُوْلُواْ الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوَاْ أُوْلِي الْقُرْبَىَ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوَاْ أَلاَ تُحِبّونَ أَن يَغْفِرَ اللّهُ لَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رّحِيمٌ﴾ ويقول ﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ تُوبُوَاْ إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نّصُوحاً﴾ .

والله وحده هو الذى يتوب على النبى والمؤمنين ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَىَ النّبِيّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ الّذِينَ اتّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مّنْهُمْ ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رّحِيمٌ﴾ (التوبة 117).

وليس للنبى نفسه حق الاستتابة أو غفران الذنوب والله تعالى يقول للنبى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذّبَهُمْ فَإِنّهُمْ ظَالِمُونَ. وَلِلّهِ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذّبُ مَن يَشَآءُ وَاللّهُ غَفُورٌ رّحِيمٌ﴾ (آل عمران 128، 129).

ولأنه لا إله إلا الله فإنه لا يتوب على البشر ولا يملك الاستتابة إلا الله وحده وبذلك أمر الله رسوله أن يقول ﴿ قُلْ هُوَ رَبّي لآ إِلَـَهَ إِلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (الرعد 30).

أى إليه وحده أتوب..

وذلك ما كان النبى يقوله..

أما الكهنوت فيرفع نفسه فوق النبى، فإذا كان النبى ليس له فى الأمر شىء فللكهنوت كل شىء، وإذا كانت الاستتابة والتوبة على البشر ومحاكمتهم على عقائدهم لله وحده فإن الكهنوت يجعل نفسه شريكاً مع الله ويعطى لنفسه حق محاكمة خصومه وحق عقابهم أيضاً تحت عنوان "استتابة المرتد".

وفى العصور التى ساد فيها الكهنوت السياسى والدينة كتب الفقهاء فى استتابة المرتد، ونقل ذلك عنهم الشيخ سيد سابق فى كتابه (فقه السنة) فيقول بوجوب استتابة المرتد ولو تكررت ردته ويمهله فترة زمنية يراجع فيها نفسه وتفند وساوسه وتناقش فيها أفكاره فإن عدل عن موقفه وبرئ من كل دين يخالف دين الإسلام قبلت توبته وإلا أقيم عليه حد الردة وقتل..

ويقول (وقدر بعض العلماء هذه الفترة بثلاثة أيام وترك بعضهم تقدير ذلك مع تكرير التوجيه والنقاش حتى يغلب على الظن أنه لن يعود إلى الإسلام، وحينئذ يقام عليه الحد وقيل يجب قتله فى الحال..)

وقد جعلوا السبب الموجب للاتهام بالردة مائعاً غير محدد يسهل تفسيره حسب الهوى، وهو إنكار معلوم من الدين بالضرورة. (والمعلوم من الدين بالضرورة) مصطلح فقهى متأخر غير محدد وغير متفق عليه، ولم يعرفه عصر الرسول ولا عصر الخلفاء الراشدين ولا توجد قائمة متفق عليها بذلك المعلوم من الدين بالضرورة فى القرآن، ولا توجد تلك القائمة بالمعلوم من الدين بالضرورة فى كتابات الفقهاء أنفسهم.. والدليل على ذلك أن كل فقيه يضع أمثلة للمعلوم من الدين بالضرورة، مجرد أمثلة قابلة للزيادة والنقصان، ومجرد قائمة تعبر عن رأى ذلك الفقيه وعصره ومستواه وعقليته..

والشيخ سيد سابق فى كتابه (فقه السنة) أورد أمثلة للمعلوم من الدين بالضرورة يعبر فيها عن آرائه وموقفه من بعض مظاهر حياتنا السياسية، يقول فى المرتد الذى ينكر المعلوم من الدين بالضرورة والذى يستحق القتل،(.. إنه يستحل المحرم الذى أجمع المسلمون على تحريمه ويحرم الحلال الذى أجمع المسلمون على حله،

أو يسب النبى ويسب الدين ويطعن فى الكتاب والسنة ويترك الحكم بهما ويفضل القوانين الوضعية عليهما، أو يدعى الوحى، أو يلقى المصحف فى القاذورات أو كتب الحديث مستهيناً بهما مستخفاً بهما..إلخ)

لم يكن من بنود المعلوم من الدين بالضرورة فى العصور السابقة وفى كتابات الفقهاء السابقين الحكم بالكتاب والسنة على القوانين الوضعية، لأن تطبيق الشريعة لم يكن شعاراً سياسياً فى العصرين العباسى والمملوكى، أى أن الشيخ سيد سابق جاء بمعلوم جديد من الدين بالضرورة لم يعرفه الفقهاء السابقون، لأن عصر السيد سابق يموج بحركة علمانية تتخذ موقفاً من دعوة التيار الدينى لتطبيق الشريعة، وحينئذ نفهم لماذا يهددهم الشيخ بحد الردة لأنهم عنده أنكروا معلوماً من الدين بالضرورة هى فى الحقيقة قائمة تزيد وتنقص حسب الأحوال وحسب رأى كل فقيه وكل عصر، وتبدأ من الإلحاد والكفر لتشمل إلقاء كتب الحديث فى القاذورات. كما قال الشيخ سيد سابق أو إلقاء كتب الفقه أيضاً كما يقول كتاب (الفقه على المذاهب الأربعة) الذى يضيف أن البصاق على كتب الفقه أو تطليخها به من مسوغات الاتهام بالردة وبالتالى القتل، حتى لو كان البصاق طاهراً!!

يعنى أن بعض الناس الذين جعلوا من الدين مملكة خاصة بهم يريدون أن يفرضوا به رأيهم وكتبهم على الناس، وإن أعرضوا هددوهم بمحاكم التفتيش والقتل..

وليس عجيباً بعد هذا أن يتضمن المشروع المقدم لمجلس الشعب لتطبيق الشريعة الإسلامية حد الردة، ويضع تعريف حد الردة بأنه (إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة).. ويظل ذلك المفهوم المطاط سيفاً على رقبة كل من يخالف الفقهاء، إلا أن المشروع كان كريماً مع الضحايا فأعطى ثلاثين يوماً لاستتابة المرتد قبل قتله أو بمعنى آخر إعلان عبوديته للفقهاء والكهنوت وإلا فالقتل بتهمة الردة..

إلا أن خطورة الاتهام بإنكار المعلوم من الدين بالضرورة لا تتوقف على مجرد إنه اتهام مطاط وليس محدداً ببنود معينة معلومة للكافة لا تقبل الزيادة والنقصان والإضافة والحذف، ليس ذلك هو وجه الخطورة الوحيد. ولكن يضاف إليه أن مفردات الاتهام نفسها قابلة أيضاً للتفسير والتأويل والمط حسب الهوى..

فالشيخ سيد سابق يقول مثلاً أن المرتد هو الذى يطعن فى الكتاب والسنة، وذلك اتهام مطاط فى حد ذاته ففى القرآن الكريم قضايا فكرية وكلامية اختلف فيها المسلمون ولا يزالون مثل قضية الاستواء على العرش ورؤية الله والقضاء والقدر وكل فريق يستشهد بما يؤيد وجه نظره من القرآن وكل فريق يمكن أن يتهم الآخر بأنه يطعن فى الكتاب.

وبالنسبة لمدلول السنة فإنه أكثر غموضاً، فأئمة الحديث كل منهم جمع وصحح من الأحاديث ما اعتبره سنة الرسول، وكلهم مختلفون، ثم جاء من بعدهم فكانوا أكثر اختلافاً وذلك يعطى كل فريق الحجة فى أن يتهم خصومه بأنهم يطعنون فى السنة، وبالتالى يقيم لهم محاكم التفتيش، وقد امتلأ تاريخ المسلمين فى العصرين العباسى والمملوكى بمئات من محاكم التفتيش والتكفير، وانغمست فيها السلطات الحاكمة حسب توجهاتها السياسية والفكرية وكان الفريق المسيطر يتهم غيره بالزندقة ويحاكمه ويدينه بهذه التهمة.

بل إن تلك الخصومات الفكرية بين المسلمين جعلتهم يرون تطبيق حد الردة على الزنديق دون إعطائه فرصة المحاكمة حتى لا يتمكن من الدفاع عن نفسه وتبيين حجته، أى يحرمونه من الاستتابة!!

ويقول كتاب (الفقه على المذاهب الأربعة) بقتل الزنديق بعد الإطلاع عليه بلا طلب توبة منه، وهو الذى كان يسمى منافقاً فى زمن النبى ولابد من قتله وإن تاب..!!

وقد يتصور القارئ أن ذلك الزنديق كافر ملحد لا يؤمن بالله ورسله وكتبه، كلا.. إنه مؤمن بالله وكتبه ورسله، ولكنه مفكر صاحب رأى، إلا أن خطأه الأعظم أن آراءه تخالف آراء أصحاب السطوة من الفقهاء، وتخالف ما اعتبروه عندهم هم معلوماً من الدين بالضرورة لذلك يستحق القتل حتى ولو تاب، ولأنه صاحب حجة ومعه الأدلة والبراهين فإن الكهنوت الفقهى يحرمه من المحاكمة التى يتفضل بها على المرتد الكافر العادى، والسبب أن المرتد العادى ليست لديه حجة يخشى منها الكهنوت الفقهى، أما من اتهموه بالزندقة فلديه الحجة والبرهان ولأنهم لا يستطيعون مواجهته بالحجة فى المحاكمة فلا داعى لمحاكمته والأفضل قتله سريعاً..

يقول الشيخ سيد سابق أن الزنديق هو الذى يعترف بالإسلام ظاهراً وباطناً، إذن هو مؤمن بالقلب واللسان، فكيف يكون زنديقاً؟ يقول الشيخ مستدركاً "لكنه يفسر بعض ما ثبت من الدين بالضرورة بخلاف ما فسره الصحابة والتابعون وأجمعت عليه الأمة".

أى هو زنديق لأنه اجتهد وجاء بآراء جديدة تخالف ما وجدنا عليه آباءنا وليس مهما إن معه الدليل، إنما المهم أن أدلته تخالف ما فسره الصحابة والتابعون وأجمعت عليه الأمة..

ويقول الشيخ "وأن الشرع كما نصب القتل جزاءاً للارتداد ليكون مزجرة للمرتدين فكذلك نصب القتل للزندقة ليكون مزجرة للزنادقة وذبا عن تاويل فاسد فى الدين لا يصح القول به، فكل من أنكر رؤية الله تعالى يوم القيامة أو أنكر عذاب القبر وسؤال منكر ونكير وأنكر الصراط والحساب سواء قال لا أثق بهؤلاء الرواة أو قال أثق بهم لكن الحديث مؤول ثم ذكر تأويلاً فاسداً لم يسمع من قبله فهو الزنديق، وقد اتفق جمهور المتأخرين من الحنفية والشافعية على قتل من يجرى هذا المجرى".

إنها قضايا خلافية، اختلف فيها المسلمون- ولا يزالون، اختلفت المعتزلة والحنابلة حول رؤية الله وخلق القرآن واختلف الجميع فى الشفاعة وعذاب القبر وسؤال القبر، وفى القضايا الخلافية يعزز كل فريق رأيه بتأويل الآيات ووضع الأحاديث ومهاجمة أدلة وبراهين الطرف الآخر.. وهكذا كان الجدل والمناظرات الفكرية فى عصر ازدهار الحركة الفكرية للمسلمين، فلما جاء عصر الجمود والتقليد أراح الفقهاء المتأخرون أنفسهم من عناء الجدل والبحث وأقاموا جدارا أسمه (المعلوم من الدين بالضرورة) ورفعوا سلاح التكفير والاتهام بالزندقة والقتل فى وجه كل من يحاول الاجتهاد والتفكير ونام الفقهاء المتأخرون تحت جدار المعلوم من الدين بالضرورة ولا يزالون نائمين..

أفيقوا أيها الناس..

فأعظم الظلم أن تقتل النفس التى حرم الله قتلها ثم تنسب ذلك لدين الله تعالى..

ثالثاً: موقف القرآن من الفتوى بقتل النفس خارج القصاص

أول حرب عالمية فى التاريخ حدثت بين ابنى آدم حين قتل أحدهما الآخر.. ولم يكن القتيل قد ارتكب جريمة فى حياته، أى قتله القاتل بدون سبب موجب للقتل..

وقد حكى رب العزة قصة تلك الجريمة الأولى فى تاريخ البشر.. ومن سياق القصة نفهم المراد منها..

يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة 27، 28).

كان مفهوم القتل وإزهاق النفس معلوماً لدى الأخوين، وكان مفهوم الخطأ فى القتل للنفس البشرية معلوماً أيضاً، خصوصاً لدى الأخ الضحية الذى آثر عدم الدفاع عن نفسه لأنه يخاف الله رب العالمين وقال لأخيه ﴿ إِنِّيَ أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَآءُ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة 29).

ولم يكن أثم القتل وذنبه بعيداً عن عقل الأخ المعتدى، لذلك فإنه بعد أن هدد أخاه بالقتل لبث فترة متردداً ثم أصدر فتوى بأن يقتل أخاه،أو استحل قتل أخيه ، أو بتعبير القرآن ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة 30). ولأنها أول جريمة فى التاريخ ولأن آدم أباهما كان لا يزال حياً لم يمت بعد، ولأن جثة القتيل كانت أول جثة فى تاريخ البشر فإن الله تعالى بعث غراباً يعلم القاتل كيف يدفن جثة أخيه القتيل ﴿فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَاوَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ (المائدة 31).

إن محور القضية يتركز فى قوله تعالى عن القاتل ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وبمعنى آخر، إن التركيز هنا ليس على جريمة القتل فحسب، بل على ما هو أخطر من القتل وهو الإفتاء بالقتل ظلماً،أو استحلال القتل المحرم أو تشريع القتل لنفس لا تستحق القتل.

والتعبير القرآنى هنا بالغ الدلالة وهو ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أى أباحت وشرعت وأصدرت فتوى بقتل أخيه، وبعد ذلك التشريع جاء التنفيذ فقتله.. وبعدها كانت النتيجة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾!!

ولأن محور القضية فى التنبيه على خطورة الإفتاء بالقتل ظلماً فإن الله تعالى بعد أن ذكر القصة انتقل مباشرة إلى الهدف منها فقال ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً..﴾ (المائدة 32).

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ أى من أجل ما سبق فى القصة من استباحة ابن آدم قتل أخيه الذى لا يستحق القتل.

﴿كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أى فرضنا فى التشريع فى التوراة.

﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أى من قتل نفساً لم ترتكب جريمة قتل أو قتل نفساً خارج القصاص، وذلك هو المعنى الظاهر..

﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾ والفساد فى الأرض هنا وصف لجريمة قتل النفس غير المستحقة للقتل، لذلك جاءت كلمة فساد مجرورة بالكسر..

﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ وهنا نقف أمام مشكلة: كيف يكون قتل نفس واحدة مساوياً لقتل الناس جميعاً؟ أو بمعنى آخر لنفرض أن شخصاً قتل رجلاً واحداً، وأن رجلاً آخر قتل مليون رجل فهل يتساوى هذا وذلك فى مقدار الجريمة؟.

بالطبع لا...

إذن فالقرآن هنا لا يتحدث عن مجرد جريمة القتل، وإنما يتحدث عن الجريمة الأخطر والأفدح وهى الإفتاء بالقتل ظلماً، أو بالتعبير القرآنى الذى هو محور القصة ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ أى فالذى يفتى بقتل نفس لم تقتل نفساً أو غير مستحقة للقتل أو قتل نفس خارج القصاص فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه باختصار أصدر فتوى قابلة للتنفيذ والتطبيق فى كل عصر وفى كل مكان.. أى أصدر فتوى تقتل الناس جميعاً.

ذلك أن السبب الوحيد لقتل النفس هو القصاص، أو قتل القاتل قصاصاً، وذلك حكم الله، فإذا تجاوزنا حدود الله وشرع الله وحكمنا بغير ما أنزل الله فقد أصدرنا حكماً بالإعدام على الناس جميعاً، إذن فقوله تعالى مَن ﴿قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾ لا تتحدث عن مجرد القتل ولكن عن جريمة أخطر وهى الإفتاء بقتل من لا يستحق القتل، ولذلك جاء الوصف بالفساد لتلك الجريمة فقال ﴿أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ﴾ ولذلك فإن تشريع القتل خارج القصاص أشد أنواع الفساد.

ثم يوضح القرآن المقصود وإنه الإفتاء الظالم وليس مجرد القتل فيقول تعالى ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ ومن الطبيعى أنه لا يمكن للقاتل أن يعيد القتيل للحياة، إذن فالمراد واضح وهو أن الجرم الأكبر هو الإفتاء بالقتل ظلماً ومن حارب الإفتاء بالقتل وأثبت إنه تشريع ما أنزل الله به من سلطان فإنه ينقذ الناس جميعاً من تلك الفتاوى المدمرة والسامة، أو كأنه أحيا الناس جميعاً..

فالذى يصدر تلك الفتاوى الإجرامية يقتل الناس جميعاً، والذى يحاربها ويظهر بطلانها ينقذ من شرها الناس جميعاً.. ذلك معنى قوله تعالى ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً..﴾ (المائدة 32).

وقد ذكر رب العزة ذلك التشريع الإلهى فى التوراة فقال عن بنى إسرائيل والتوراة ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (المائدة 45).

أى ليس هناك مبرر لقتل النفس إلا إذا قتلت النفس نفساً أى فى القصاص..

وفى التشريع الخاص بنا نحن المسلمين نزل تخفيف واستثناء ينجو به القاتل من القتل إذا رضى أهل القتيل بالدية فيقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة 178). فالتخفيف هو الأداء للدية بإحسان بعد عفو أهل القتيل أصحاب الدم.

إذن فقاعدة ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ نزل فيها استثناء هو إعطاء الدية أى أن القاتل لا يقتل فى كل الأحوال..

ولكن قاعدة القصاص سارية سواء كانت بأن يدفع القاتل نفسه أو ماله، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ (البقرة 179).

وحتى فى القتال فى سبيل الله فإن القصاص هو القاعدة الأساسية لأن تشريع الله تعالى حياة للناس وعدل وإحسان.

فالله تعالى يمنع الاعتداء ويجعل القتال فى الدفاع عن الدولة فقط ضد من يهاجمها يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوَاْ إِنّ اللّهَ لاَ يُحِبّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة 190).

وجاء تشريع القصاص فى القواعد الأصولية للقتال فى قوله تعالى: ﴿الشّهْرُ الْحَرَامُ بِالشّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىَ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىَ عَلَيْكُمْ وَاتّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ﴾ (البقرة 194).

أى يحرم الله تعالى على المسلمين مجاوزة القصاص فى حربهم مع المعتدين فإذا قتلوا من المسلمين عشرة فيحرم على المسلمين أن يقتلوا منهم أكثر من عشرة.. وذلك هو تشريع القصاص الذى هو حياة لنا ولغيرنا..

وإذا كان ذلك فى تشريع القتال مع العدو الذى يعتدى علينا فالأمر يكون أكثر أهمية فى التعامل مع الإنسان الآدمى الذى لا يرفع سيفاً، إذ لا مبرر لقتله إلا فى حالة واحدة، وهى أن يرتكب هو جريمة قتل ويصمم أهل القتيل على القود منه أى على قتله ويرفضوا أخذ الدية.

ومن أفظع الظلم أن نحكم بقتل نفس لسبب آخر خارج القصاص ثم ننسب الفتاوى الظالمة لدين الله تعالى، ودين الله تعالى منها برىء.

والله تعالى جعلها قاعدة تشريعية وكررها فى القرآن ثلاث مرات ليتعظ بها كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، قال فى الوصايا العشر فى سورة الأنعام ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إِلاّ بِالْحَقّ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام 151).

وقال فى سورة الإسراء ضمن وصايا أخرى ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إِلاّ بِالحَقّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فّي الْقَتْلِ إِنّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ (الإسراء 33). أى أن الله جعل لأهل القتيل المظلوم سلطاناً يتمكنون به من قتل القاتل وأخذ الدية منه، ويحذر أهل القتيل من الإسراف فى القتل، أى قتل شخص آخر غير القاتل، أو تعذيب القاتل عند قتله أو التمثيل به..

ويقول تعالى فى سورة الفرقان فى حديثه عن صفات "عباد الرحمن" ﴿وَالّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللّهِ إِلَـَهَا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إِلاّ بِالْحَقّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ (الفرقان 68).

ويلاحظ أن التعبير القرآنى جاء بصيغة واحدة فى تلك القاعدة القرآنية ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إِلاّ بِالحَقّ﴾، ﴿وَلاَ يَقْتُلُونَ النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إِلاّ بِالْحَقّ﴾.

ومعناه أن الله تعالى حرم قتل النفس، وتلك هى القاعدة الأساسية، والاستثناء الوحيد هو القصاص الذى نزل فى كلام الله الحق الذى لا ريب فيه والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والذى هو تنزيل من حكيم حميد..!!

يقول تعالى عن القرآن ﴿وَبِالْحَقّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقّ نَزَلَ﴾ (الإسراء 105). فالحق الذى نستطيع به الاستثناء من القاعدة القائلة ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إِلاّ بِالحَقّ﴾ هو كلام الله تعالى الحق فى القرآن الحق الذى نزل

بالحق أى هو القصاص، ومن يناقض القرآن فهو باطل وافتراء يبرأ منه الله ورسوله، وإذا تعلق ذلك الافتراء بقتل الناس بدون وجه حق فهو الفساد فى الأرض والله تعالى لا يحب الفساد..

وسنة الرسول الحقيقية هى التطبيق العملى لتشريع القرآن ولا يمكن أن تتناقض مع القرآن، وذلك ما طبقه الرسول فى تعامله مع المرتدين من المنافقين وغيرهم..

رابعاً: حد الردة فى ضوء السنة الحقيقية للرسول

سنة الله تعالى هى سنة رسوله . الله تعالى ينزل الشرع وحياً والرسول يبلغه وينفذه ويكون النبى أول الناس طاعة واتباعاً لأوامر الله تعالى.

والله تعالى أمر النبى بأن يقول ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ﴾ (الأحقاف 9). والإيمان بالرسول معناه الإيمان بكل ما نزل عليه من القرآن والإيمان بأنه اتبع ذلك الوحى وطبقه وكان أول الناس إيماناً به وتنفيذاً له..

والرسول يوم القيامة سيتبرأ من أولئك الذين زيفوا عليه ما لم يقل وهجروا القرآن الذى كان يتبعه النبى فى حياته ﴿وَقَالَ الرّسُولُ يَرَبّ إِنّ قَوْمِي اتّخَذُواْ هَـَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلّ نَبِيّ عَدُوّاً مّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىَ بِرَبّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ (الفرقان 30، 31).

والذى نريد إثباته أنه ليس هناك فجوة أو أدنى تناقض بين القرآن وسنة الرسول الحقيقية فهما شىء واحد.. ومع أن هذه بديهية لا تحتاج الإثبات إلا أننا فى عصر يحتاج إلى إثبات البديهيات وتأكيدها..

إن القاعدة التشريعية الكلية فى القرآن الكريم تقول ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ قَد تّبَيّنَ الرّشْدُ مِنَ الْغَيّ﴾ (البقرة 256).

ودعاة الكهنوت يفهمونها فهماً خاصاً ينفذون منه إلى تسويغ حد الردة المزعوم، فهم يحرفون معناها بأن الهدف منها أنه لا إكراه على دخول الدين، أما إذا دخل الدين أى الإسلام فقد أصبح مكرهاً ومجبراً على تنفيذ التشريعات الدينية، فإذا أراد الخروج من الدين واجهة حد الردة، وأدرك أنه محبوس فى القفص..

وهذا التحريف لمعنى قوله تعالى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ﴾ يعنى أن الله تعالى نسى كلمة فى الآية أى أن الآية هى "لا إكراه فى دخول الدين" أى سقطت كلمة "دخول" واكتشف العباقرة ذلك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً، والحمد لله الذى حفظ القرآن من أى تحريف وإلا كانت أصابع الكهنوت قد حرفت فيه ما شاءت..

إن المعنى الواضح فى الآية إنه لا إكراه فى الدين، فى كل الدين، فلا ينبغى أن يكون هناك إكراه فى دخول الدين ولا إكراه فى الخروج من الدين ولا إكراه فى إقامة شعائر الدين فيما يخص حقوق الله، فالله تعالى يريد أن تعبده بدافع من اختيارك حباً فى الله ورغبة فى طاعته وليس للرياء أو خوف الإكراه، والمنافقون كانوا يقدمون الصدقات بهذه الطريقة وكانوا يصلون الصلاة رياءاً، فمنع الله تعالى النبى من أخذ الصدقة ولم يقبل صلاتهم، يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاّ أَنّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصّلاَةَ إِلاّ وَهُمْ كُسَالَىَ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة 54). وفى نفس الوقت قال عن صنف آخر تاب وصدق توبته ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنّ اللّهَ غَفُورٌ رّحِيمٌ﴾ (التوبة 102). أى أخذ منهم الصدقة لأنهم يبذلونها عن طيب خاطر حتى يغفر لهم الله تعالى..

ونعود إلى قوله تعالى ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدّينِ﴾ الذى يمنع الإكراه فى دخول الدين والخروج منه ويمنع الاكراه فى إقامة حقوق الله من العبادات، ونقول إن تحريف معنى الآية وقصره على أنه لا إكراه فى دخول الدين فقط كان يستوجب أن يقال فيه "لا إكراه على الدين" فهنا يكون المعنى خاصاً بدخول الدين فقط..

والقرآن الكريم استعمل تعبير "الإكراه على" فى قوله تعالى ﴿وَلاَ تُكْرِهُواْ فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَآءِ﴾ (النور 33). أى على الدخول فى طريق البغاء..

ولو أراد الله تعالى أن يقصر الإكراه على دخول الدين فقط لقال (لا إكراه على الدين) ولكنه أراد منع الإكراه فى كل ما يخص الدين فقط ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

والمهم أن القاعدة الكلية فى التشريع الإلهى هى منع الإكراه فى الدين فى دخوله وفى الخروج منه تأسيساً على حرية البشر التى كفلها لهم الله تعالى فى الإيمان أو الكفر وتأسيساً على أنهم سيقابلون الله تعالى يوم القيامة ليحاسبهم على اختيارهم.. ومن هذه القاعدة التشريعية الكلية تفرعت أحكام تشريعية تعكس التقلبات الدينية والسياسية فى عصر نزول القرآن، تلك التى تصاحب حركة كل مجتمع، ونزوع أبنائه للخير أو الشر، للهداية أو الضلال للإيمان أو الإلحاد، دخولهم فى الدين أو ارتدادهم عنه..

لقد عرضنا لموقف النبى حين كان يحزن بسبب أولئك الذين يسارعون فى الكفر بعد الإيمان، وما كان يملك أن يحاكمهم أو يقيم عليهم حد الردة لأنه ليس فى الإسلام حد ردة..

بل أن القرآن الكريم ذكر موضوع الردة تحديداً فى أربعة مواضع ولم يجعل فيها للمرتد عقوبة يقيمها عليه الحاكم، بل أوكل أمره لله تعالى يعاقبه فى الدنيا والآخرة.

يقول تعالى ﴿إِنّ الّذِينَ ارْتَدّواْ عَلَىَ أَدْبَارِهِمْ مّن بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشّيْطَانُ سَوّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىَ لَهُمْ﴾ (محمد 25).

أى خدعهم الشيطان.. وتقرأ الآية بعدها لتبحث عن حد الردة المزعوم فلا تجد إلا تخويفاً لهم مما سيحدث عند الموت بالوفاة الطبيعية ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفّتْهُمُ الْمَلاَئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ (محمد 27). وعند يوم الحساب حين يحبط أعمالهم ﴿ذَلِكَ بِأَنّهُمُ اتّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ اللّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (محمد 28). أى تأجيل العقوبة لله تعالى يوم القيامة.

وجاءت المواضع الأخرى فى تحذير المؤمنين من الوقوع فى الردة كأن يقول تعالى ﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبّهُمْ وَيُحِبّونَهُ أَذِلّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾ (المائدة 54). يعنى إذا ارتددتم فسيأتى الله بقوم غيركم يكونون أفضل منكم، وذلك المعنى جاء فى قوله تعالى ﴿وَإِن تَتَوَلّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمّ لاَ يَكُونُوَاْ أَمْثَالَكُم﴾ (محمد 38)

وهذا هو كل ما هنالك.. يستبدلهم بقوم آخرين، لأنه تعالى غنى عن العالمين ولو كفر أهل الأرض جميعاً فلن يضروه شيئاً..

ويقول تعالى يحذر المؤمنين من دسائس بعض أهل الكتاب ﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقاً مّنَ الّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ (آل عمران 100).

ثم يقول تعالى يحببهم فى الإيمان ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىَ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ﴾.

ويقول تعالى يحذر المؤمنين من محاولات المشركين لاضطهادهم وفتنتهم ﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتّىَ يَرُدّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَـَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَـَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة 217).

لم يقل "ومن يرتد منكم عن دينه فجزاؤه القتل وحد الردة" وإنما جعل العقاب فى الآخرة إذا ظل يحيا مرتداً إلى نهاية حياته.. أى يظل المرتد حياً يعيش إلى أن يلقى مصيره بعد الموت.

وجاء معنى الردة فى القرآن كثيراً فى الحديث عن الصحابة المنافقين الذين كفروا بعد إيمانهم. والمنافقون من أصحاب النبى كانوا صنفين: منهم من عرفه النبى ومنهم من لم يعرفه إلا الله تعالى..

والصنف الأخير من الصحابة المنافقين هو الذى أدمن النفاق ومرد عليه وحافظ على نفاء مظهره الأيمانى وعلى شكله الإسلامى فخفى أمره على النبى والناس جميعاً، وهذا الصنف توعدهم الله بعذاب عظيم وأخبر أن النار فى انتظارهم لأنهم لن يتوبوا، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىَ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ (التوبة 101)، فالله تعالى وحده هو الذى سيعذبهم مرتين فى الدنيا ثم فى الآخرة!! والمعنى الواضح انهم سيظلون فى حالة عداء للاسلام الى أن يموتوا. كان نزول الوحى يجعلهم يبالغون فى كتمان عدائهم خوف أن ينزل الوحى يفضحهم كما كان يفضح الصنف الآخر الذى كشف مشاعره وحركته ضد الاسلام ، المتوقع انهم بعد موت النبى وانقطاع الوحى نزولا أن تتاح لهم الفرصة للكيد للاسلام كيف شاءوا متمتعين بالثقة التى اكتسبوها وهم حول النبى يدمنون النفاق واظهار الطاعة. لذا حكم الله تعالى مقدما بأنه تعالى سيعذبهم مرتين فى حياتهم ، ولن يتوبوا وسيكون فى انتظارهم يوم القيامة عذاب عظيم!!

أما الصنف الآخر من الصحابة المنافقين فهو أهون خطرا اذ كشف نفسه ولم يستطع كتمان كراهيته، فكان يقع فى الكفر بلسانه ويقع فى التآمر ثم يسرع للنبى يحلف له إنه ما قال وما فعل..

وهذا الصنف كان معروفاً للنبى والمؤمنين، وكان القرآن ينزل يفضح تآمرهم ويثبت كفرهم وردتهم، ومع ذلك يأمر الله تعالى النبى بالإعراض عنهم، ويقول تعالى عن بعضهم ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ (التوبة 74).

يعنى أنهم وقعوا فى الردة حين قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بالكيد للمسلمين ولكن لم يفلحوا، وتلك هى شهادة الله عليهم، فهل أقام لهم النبى محكمة تفتيش؟ أو هل أقام عليهم حد الردة المزعوم؟.

إن الله تعالى هو الذى يتولى عقابهم إن ظلوا على النفاق وهو الذى يقبل توبتهم إن تابوا ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

ويقول تعالى عن طائفة أخرى من الصحابة المنافقين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْراً لَّمْ يَكُنْ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾ (النساء 137).

أى تعودوا دخول الإسلام ثم الخروج منه، ثم فى النهاية اختاروا الكفر والتطرف فيه وعقابهم عند الله الذى لن يغفر لهم يوم القيامة. وهنا أيضا حكم مستقبلى عليهم واخبار بأنهم سيظلون على تطرفهم فى الكفر الى أن يموتوا ميتة طبيعية دون قتل بحد الردة.

وبعضهم تكاسل عن الخروج مع النبى فى غزوة تبوك، وكان عقابة الدنيوى أن حرمهم الله شرف الجهاد مع النبى مستقبلاً، وهو عقاب يتمناه المنافقون، ثم عقاب آخر لا يهتم به المنافقون أيضاً، وهو ألا يصلى النبى على أحدهم إذا مات ولا يقوم على قبره مستغفراً له وداعياً الله أن يرحمه..

يقول تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللّهُ إِلَىَ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ ولا تصل علىأحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ (التوبة 84 –83).

أى حكم الله تعالى بكفرهم، ومع ذلك يظل أحدهم يعيش إلى أن يموت، وكل عقابه منع الرسول من الصلاة عليه والدعاء له ، ونفهم من الآية أن النبى كان يصلى عليهم صلاة الجنازة أذا ماتوا ويدعو لهم بالغفران .

ويذكرنا ذلك بصنف آخر من المنافقين كان يتندر على المسلمين أثناء تبرعهم فى غزوة تبوك، فإذا تطوع غنى بالصدقة اتهموه بالرياء وإذا تطوع فقير بما يملك سخروا منه ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة 79).

أى أن كل عقابهم هو أن الله تعالى سيعذبهم عذاباً أليماً فى الآخرة.

ولم يعقد النبى لهم محكمة تفتيش، ولم يقم عليهم حد الردة المزعوم، بل كان يستغفر لهم ونزل القرآن يخبر النبى إنه مهما استغفر لهم فلن يغفر الله لهم ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة 80).

أى حكم الله تعالى بكفرهم وفسقهم، ومع ذلك كان النبى يستغفر لهم وكان يصلى عليهم إذا ماتوا حتى نهاه الله عن الصلاة عليهم وقال له ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ﴾ (التوبة 84).

وكانوا يحاولون إرضاء المؤمنين وخداعهم بمعسول القول مع استمرارهم على الكفر وحرب الله ورسوله فقال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ. أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة 62، 63).

أى توعدهم الله بالخلود فى النار لأنهم حاربوا الله ورسوله.. وذلك هو عقابهم.

وكانوا يؤذون النبى ويتهمونه بأنه "أذن" أى يسمع لهذا وذاك، ونزل القرآن يدافع عن النبى ويتوعدهم بالعذاب الأليم يوم القيامة.. دون أى إشارة لمحاكم تفتيش أو حد الردة يقول تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة 61). ومتى سيكون العذاب الأليم؟ يوم القيامة..

وكانوا يستهزئون بالله تعالى ورسوله الكريم وكتابه الحكيم وينزل القرآن يحكم بكفرهم ويعلن عدم قبول اعتذارهم، ويؤجل عذابهم إلى يوم القيامة ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِءُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾ (التوبة 64).

فالله تعالى هو الذى ينبئ بما فى قلوبهم وهو الذى يفضح تآمرهم وهو الذى يحكم بكفرهم، وهو الذى يعفو عن طائفة منهم وهو الذى يعذب طائفة أخرى حسبما يعلم من إمكانية التوبة لدى هذا وذاك..

أما النبى فليس له من الأمر شيء.. لأنه نبى الله وليس إلهاً مع الله..

وكانوا يتحركون فى المدينة بحرية يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويمنعون الصدقة والزكاة فتوعدهم الله تعالى بالعذاب واللعنة يوم القيامة ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُواْ اللّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (التوبة 67، 68).

إن الله تعالى هو الذى شهد على تحركهم بالفساد فى مجتمع المدينة وهو الذى يتولى عقابهم، أما النبى فليس له من الأمر شىء..

ويقول تعالى عن المتخلفين عن الخروج مع النبى فى غزوة تبوك ﴿وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة 90، 91). ومتى ذلك العذاب الآليم؟

ويقول تعالى عن طائفة منهم ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة 95).

كان المنافقون المتخلفون عن الغزوة بدون عذر يخشون من أن يعقد لهم المسلمون محاكم، فبادروا يحلفون ويقسمون بالأيمان المغلظة بأنهم لهم العذر حتى يعرض عنهم المسلمون فأمر الله تعالى– بعد أن أخبر سلفاً بما سيحدث– أمر بأن يعرضوا عنهم ولا يتعرضوا لهم لأن مصيرهم إلى جهنم.. وفى نفس الوقت نهى المؤمنين عن أن يرضوا عنهم ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة 96).

إن الله تعالى قد حدد سياسة معينة للنبى يتصرف بها مع المنافقين المرتدين، هذه السياسة هى الإعراض عنهم يقول الله تعالى للنبى عنهم ﴿أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيَ أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً﴾ (النساء 63).

فهنا نوع من الإعراض الإيجابى الذى يشمل الوعظ والنصح دون ضغط أو تخويف ثم تركهم إلى ما يختارون فى النهاية، وهذا الإعراض يتناقض مع محاكم التفتيش..

وحين كانوا يدخلون على النبى يقدمون له فروض الطاعة ثم يخرجون من عنده يتآمرون عليه قال له ربه بعد أن أخبره بتآمرهم ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾ (النساء 81).أى أمره بالاعراض عنهم متوكلا على الله تعالى.

وذلك كله يؤكد أن النبى ما أقام محاكم للمنافقين المرتدين، وما عرفت دولة الإسلام الحقيقية فى عهده ذلك الحد المزعوم للردة..

إن الله وحده هو الذى يعلم ما فى القلوب من إيمان حقيقى أو زائف.. وهو الذى فضح المنافقين وأخبر عن سرائرهم، ولولا أن القرآن نزل يخبر عما تطويه جوانحهم ما علم النبى والمؤمنين حقيقتهم..

ولقد كان النبى يتعامل مع المؤمنين حسب الظاهر، فهم الذين أعلنوا إيمانهم وهم الذين أسلموا ظاهراً ووقفوا مع النبى، أما الإيمان الحقيقى والإسلام القلبى فمرجعه إلى الله تعالى يحكم عليه وعليهم يوم القيامة.

لذلك يقول تعالى للمؤمنين ﴿يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الّذِي نَزّلَ عَلَىَ رَسُولِهِ﴾ (النساء 136).

﴿يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ﴾ أى آمنوا حسب الظاهروهو اختيار الايمان بمعنى الأمن أى أن تكون مسالما يأمن الناس جانبك ويثقون فيك.

﴿آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أى آمنوا بالله ورسوله حق الإيمان إيماناً بالقلب الخاشع.

ويقول تعالى ﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ قُوَاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾ (التحريم 6)، ويقول تعالى: ﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ تُوبُوَاْ إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نّصُوحاً﴾ (التحريم 8).

فالخطاب هنا للمؤمنين حسب الظاهر لكى يكون إيمانهم حقيقياً ومقبولاً عند الله ولكن هذا الإيمان الظاهر يعطى صاحبه كل حقوق المسلم طالما يعيش فى سلام مع الناس حسب المعنى الظاهرى للإسلام، وهو السلام حتى لو اكتفى بمجرد النطق بكلمة السلام وقت الحرب، فلو كان شخصاً مجهولاً ودارت حرب بين المسلمين وبين قوم ذلك الشخص المجهول، فإن مجرد نطقه بكلمة السلام يعصم دمه أثناء المعركة.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىَ إِلَيْكُمُ السّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا فَعِنْدَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مّن قَبْلُ فَمَنّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيّنُواْ إِنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ (النساء 94).

أى أنه مجرد أن يلقى أحدهم السلام– أو تحية الإسلام– فى وقت الحرب فإن ذلك يعصم دمه، فيكفى أنه شخص مسالم يلقى السلام لنعتبره مسلماً حسب الظاهر نحفظ دمه وماله وقت الحرب، وبالتالى فإنه وقت السلم يكون أولى بحقن دمه وماله.

بل إن المشرك المعتدى وقت الحرب إذ كف يده واستجار بالمسلمين فى المعركة فإن ذلك يكفى لحقن دمه وتأمينه إلى أن يبلغ داره آمناً بعد أن يسمع كلام الله ليكون ذلك حجة عليه يوم القيامة بأن الدعوة بلغته وعلم بها، وأعطى الفرصة للتفكر والنجاة، يقول تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّىَ يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنّهُمْ قَوْمٌ لاّ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة 6). إلى هذه الدرجة بلغ الرقى الحضارى فى التشريع القرآنى، وبلغ الحرص على صيانة الدماء والنفوس حتى لو كانت عند الله مشركة أو جاحدة. وأولى الناس بصيانة دمائهم هم المؤمنون ظاهراً، فأعظم الذنوب بعد الشرك بالله تعالى أن تقتل مؤمناً..

وتحديد المؤمن هنا يرجع للشكل والمظهر.. والمؤمن هو المأمون الجانب أى المسالم الذى لا يعتدى على أحد..

يقول التشريع القرآنى للمؤمنين ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاّ خَطَئاً﴾ (النساء 92). أى لا يمكن التصور بأن مؤمناً مسالماً يقتل مؤمناً مسالماً إلا على سبيل الخطأ.

فما الحكم إذا قتل أحدهم مؤمناً؟ (مؤمناً حسب الظاهر طبعاً أى سالماً لا يعتدى على أحد)

نقصد قتل ذلك الإنسان المسالم متعمداً مع سبق الإصرار والترصد، حجة أنه مرتد أو فى قلبه مرض أو أى حجة خارج القصاص يقول تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مّتَعَمّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (النساء 93).

أى جزاؤه الخلود فى النار وغضب الله ولعنته والعذاب العظيم.

وسؤال آخر: فما الحكم فيمن يقتل ملايين المؤمنين متعمداً أو يقتل الناس المؤمنين جميعاً؟ والإجابة: هل يمكن لشخص واحد أن يقتل بنفسه ملايين المؤمنين متعمداً أو يقتل الناس المؤمنين جميعاً؟ والجواب: نعم إذا أفتى بقتل النفس التى لا تستحق القتل.. أو أفتى بقتل المرتد والزانى وتارك الصلاة.. إلى آخر تلك الفتاوى السامة التى تحكم بغير ما أنزل الله، وبغير ما سارت عليه سنة الله تعالى ورسوله الكريم.

==

الفصل الثانى

حد الردة فى كتب التراث وتاريخ المسلمين

أولاً: السيرة النبوية تنفى وجود الردة

بدأ تدوين المغازى أو السيرة النبوية قبل كتابة الأحاديث المنسوبة للنبى ، ولذلك كانت الحقائق التاريخية فى السيرة أقرب للصدق وأقرب للواقع القرآنى من أغلب الأحاديث. مع التأكيد على أن حقائق القرآن مطلقة لأنها الاهية، اما مايقوله التاريخ فى السيرة النبوية وغيرها فهى أخبار لا تخلو من الكذب وتحتاج الى جهد الباحثين لفحصها وتمحيصها ومعرفة الصحيح والكاذب منها. وجهد الباحثين فى الاختيار والتمحيص ليس الا جهدا بشريا قابلا للخطأ والصواب شأن الروايات التاريخية نفسها وكلها ان صحت فهى حقائق تاريخية بشرية.
المهم ان تلك السيرة ليست جزءا من الدين الالهى لأن الدين الألهى لا يمكن أن يكون مؤلفه من البشر. ان الله تعالى هو مالك الدين وهو الذى جعل لهذا الدين يوما هو يوم الدين، وهو الذى ارسل الرسل بالكتاب الالهى الذى يعبر عن دينه والذى على أساسه سيحاسب البشر يوم الدين.
ويرتبط بالسيرة ما اصطلح على تسميته بأسباب النزول، وهى الروايات التى قالها علماء التفسير الأوائل فى سبب نزول بعض الآيات، وجدير بالذكر أن مجالس العلم الأولى فى عصر الخلفاء الراشدين دارت حول المغازى أو سيرة الرسول وأسباب النزول والتفسير أو التعليق على آيات القرآن الكريم، وكان أساتذة تلك المجالس العلمية من الصحابة مثل ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وابن عمرو وزيد بن ثابت.
* ومن خلال البحث فى السيرة النبوية وأسباب النزول المرتبطة بالقرآن الكريم نتأكد من عدم وجود حد الردة المزعوم.

* إن سيرة ابن هشام هى أقدم كتب السيرة وأكثرها ثقة واحتراماً، والبحث فيها يثبت أن النبى– من خلال الروايات المنقولة عنه– لم يعرف حد الردة ولم يعامل المنافقين إلا بالتى هى أحسن.
– يذكر ابن هشام فى تأريخه لغزوة (أحد) أن جيش المسلمين اجتاز حديقة لأحد المنافقين وهو مربع بن فيظى وكان أعمى فقام يحثى التراب فى وجوه المسلمين ويقول للنبى: إن كنت رسول الله فإنى لا أحل لك أن تدخل حائطى (أى بستانى)، وأخذ حفنة من تراب فى يدى وقال: والله لو أعلم أنى لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك، فابتدره القوم، فقال لهم النبى : لا تقتلوه..
– وحين قال عبد الله بن أبى بن أبى سلول زعيم المنافقين: أما والله إن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وقال عمر للنبى: مر به عباد بن بشر ليقتله، فقال له النبى: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه؟

– وعاش عبد الله بن أبى بن سلول زعيم المنافقين يمارس دوره فى الكيد للمسلمين كيف شاء حتى مات، ولما مات دعى النبى للصلاة عليه فاعترض عمر وأخذ يقول للنبى: يا رسول الله أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى بن سلول القائل كذا يوم كذا والذى فعل كذا يوم كذا، فتبسم النبى وقال: إنى قد خُيرت فاخترت، قد قيل لى: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. فلو أعلم أنى زدت على

السبعين غفر له لزدت، ثم صلى عليه النبى ومشى فى جنازته حتى قام على قبره، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُصَلّ عَلَىَ أَحَدٍ مّنْهُم مّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ﴾..فما صلى بعدها على منافق.

ويذكر ابن هشام أن بعض المنافقين استهزأ بالرسول حين خرج بالجيش لمواجهة الروم فى غزوة تبوك وتوقعوا أن يأسر الروم الرسول والمسلمين وعرف النبى بمقالتهم، فجاءوا إليه يعتذرون، ويقولون يا رسول الله كنا نخوض ونلعب، فنزل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنّ إِنّمَا كُنّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾..

ولم يتعرض لهم النبى ..

وهذه بعض الأمثلة مما ذكره النيسابورى فى كتابه (أسباب النزول)

– يقول: اجتمع نفر من المنافقين وأخذوا يسبون النبى وعندهم غلام من الأنصار اسمه عامر بن قيس فقالوا: لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن أشر من الحمير، فأتى عامر للنبى فأخبره فاستدعاهم وسألهم فحلفوا له أن عامراً كاذب، وحلف عامر أنهم كاذبون وقال: اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق من كذب الكاذب، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الّذِينَ يُؤْذُونَ النّبِيّ﴾.

– ويقول أنه خرج بعض المنافقين مع الرسول إلى غزوة تبوك فكانوا إذا خلوا إلى بعضهم سبوا الرسول وطعنوا فى الدين، فنقل ما قاله حذيفة إلى الرسول فقال لهم النبى: ما هذا الذى بلغنى عنكم؟ فحلفوا ما قالوا شيئاً.. فنزل قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾.

ويروى النيسابورى رواية أخرى لقوله تعالى عن المنافقين ﴿وَهَمّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ وهى أن بعضهم تآمر على قتل النبى ليلة العقبة وكان قائد النبى فى تلك الليلة عمار بن ياسر وسائقه حذيفة، فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل فالتفت فإذا هو بقوم ملثمين فقال: إليكم يا أعداء الله، فأمسكوا وارجعوا، ومضى النبى حتى نزل منزله..

– ويروى النيسابورى روايات متعددة فى سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىَ إِلَيْكُمُ السّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا فَعِنْدَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مّن قَبْلُ فَمَنّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيّنُواْ إِنّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾. ومنها رواية تقول أنها نزلت فى معركة انهزم فيها المشركون وهرب منهم رجل فتبعه رجل من المسلمين فلما غشيه بالسلاح قال الهارب: إنى مسلم إنى مسلم، فكذبه وقتله وأخذ متاعه فقال له النبى: قتلته بعد ما زعم أنه مسلم، فقال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً من القتل، فقال له الرسول: فهلا شققت عن قلبه فتنظر أصادق هو أم كاذب؟!!

ورواية أخرى تقول أن المسلمين لحقوا رجلاً فى غنيمة له فقال لهم: السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته، فنزلت الآية .

* إذن هى حقيقة الاهية قرآنية مطلقة تؤكد أن النبى لم يعرف حد الردة ولم يتعامل به مع المنافقين الذين شهد الله تعالى على كفرهم وتآمرهم..

* وهى أيضاً حقيقة تاريخية فى سيرة النبى تؤكد أن النبى لم يعرف حد الردة ولم يتعامل به مع المنافقين الذين شهد الله تعالى على كفرهم وتآمرهم..

* وقد اضطر بعضهم للاعتراف بهذه الحقيقة ففى كتابه (السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) يقول الشيخ الغزالى مستنكراً (متى أمر رسول الله بقتل المنافقين؟ ما وقع ذلك منه، بل لقد نهى عنه) .

* فإذا كان النبى قد نهى عن قتل المنافقين وهم قد ارتدوا عن الإسلام فماذا يقول علماء الأصول فى تراث المسلمين عن مدلول ذلك فى أصول التشريع؟ يقول الإمام الشاطبى فى كتابه (الموافقات) عن السنة النبوية فى المسألة السادسة تحت عنوان (فعل الرسول دليل على مطلق الأذن وتركه دليل على مطلق النهى): من أنواع الترك: منع النبى من قتل أهل النفاق وقال عليه السلام فى ذلك: لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه..) . والحديث السابق رواه مسلم فى صحيحه.. والمستفاد من ذلك أنه طالما نهى النبى عن قتل أهل النفاق فذلك يعتبر دليلاً على مطلق النهى عن قتل المنافقين، وطالما شهد الله تعالى على أن المنافقين ارتدوا عن الإسلام، إذن فهو نهى عن قتل المرتد. وبالتالى دليل لنا على أن حد الردة يناقض التشريع الإسلامى بشهادة علماء الأصول فى التراث.. وسبق أن أثبتنا أنه يناقض تشريع القرآن.. ولكن المغرمين بحد الردة من الفقهاء حين يعوزهم الدليل من القرآن والأصول يحتجون بأن أبا بكر حارب المرتدين.

تعالوا بنا إلى حرب الردة..

ثانياً: بين حرب الردة وحد الردة:

الشائع أن أبا بكر حارب المرتدين لأنهم منعوا الزكاة..... وذلك تبسيط مخل بالموضوع.. إن تقديم الصدقات فى عهد النبى كان يتم طواعية، والله تعالى منع الرسول من أخذ صدقات المنافقين لأنهم لا يستحقون شرف التطوع فقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاّ أَنّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصّلاَةَ إِلاّ وَهُمْ كُسَالَىَ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاّ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾.

وبعضهم عاهد الله إن رزقه ليتصدقن وليكونن من الصالحين فلما رزقه الله أعرض وبخل، فقال عنه رب العزة: ﴿وَمِنْهُمْ مّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصّدّقَنّ وَلَنَكُونَنّ مِنَ الصّالِحِينَ. فَلَمّآ آتَاهُمْ مّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلّواْ وّهُمْ مّعْرِضُونَ. فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىَ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾.

ويروى النيسابورى فى أسباب نزول هذه الآية أن ثعلبة قال للنبى: ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال له: ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه، فقال ثعلبة: والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقنى لأوتين كل ذى حق حقه، فدعا له النبى، وكثرت أغنام ثعلبة حتى ضاقت بها المدينة فخرج بها عن المدينة وانشغل بها عن الصلاة، ورفض أن يعطى الصدقة المفروضة، ونزلت فيه الآيات، فعاد للنبى يعرض عليه صدقاته فرفضها النبى ثم رفضها أبو بكر ثم عمر إلى أن مات فى خلافة عثمان .

وعاش أبو بكر حياته مع النبى وعايش تعامل النبى عليه السلام مع المنافقين وكيف كان يرفض صدقاتهم تنفيذاً لأم الله تعالى..ولذلك فلا تتصور أن يكون نهوضه لحرب المرتدين لمجرد أنهم منعوا الزكاة. لأن الأمر كان أعقد من ذلك بكثير..

* يقول ابن كثير فى تاريخه أنه بعد وفاة النبى عليه السلام ارتدت أحياء كثيرة من الأعراب واشتد النفاق فى المدينة، وكان خطر الأعراب حول المدينة هائلاً، وانضمت إلى مسيلمة الكذاب قبائل حنيفة واليمامة، وانضم إلى طليحة الأسدى قبائل أسد وطئ وآخرون فادعى النبوة مثل مسيلمة، ونفذ أبو بكر وصية الرسول عند الموت بإرسال حملة أسامة بن زيد فأصبحت المدينة بلا جيش قوى يحميها، فتشجع الأعراب المحيطون بالمدينة وبدءوا يتجمعون حولها مما جعل أبو بكر يكون مجموعات حراسة حول المدينة يقودهم على والزبير وطلحة وسعد ابن أبى وقاص وابن مسعود وعبد الرحمن بن عوف..

وفى ذلك الوقت العصيب جاءت وفود القبائل التى رفعت راية العصيان تفاوض أبا بكر على أن لا تؤدى الزكاة، ورفض أبو بكر، وقد أشار الصحابة ومنهم عمر على أبى بكر بأن يصالحهم على ذلك إلى أن تتحسن أحوال المسلمين فرفض أبو بكر وقال: والله لو منعونى عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه.

والواضح أن أبا بكر قد فهم الأمر على حقيقته، وأنه ليس مجرد منع الزكاة بل هى ثورة وتهديد للدولة الجديدة ورغبة فى القضاء عليه، ولذلك فإن أبا بكر أدرك أن أولئك المتفاوضين إنما هم طلائع جيش قادم على الأبواب، فأخبر أهل المدينة بأن أولئك المتفاوضين حين يرجعون إلى أقوامهم سيخبرونهم بقلة الجيش فى المدينة..

وهكذا جعل أبو بكر يقوى الحراسة على المدينة تحسباً للهجوم القادم، وألزم أهل المدينة بالاستعداد الحربى فى الداخل، وأمرهم بالحضور فى المسجد على أهبة التحرك، أى أعلن الطوارئ القصوى، وبعد رجوع وفد التفاوض بثلاثة أيام وصلت للمدينة طلائع جيش المرتدين، بينما بقى قلب الجيش عند (ذى حسى) وأرسلت قوة الحراسة على المدينة تخبر بالهجوم القادم فأمرهم أبو بكر بأن يلزموا أماكنهم. وخرج سريعاً بأهل المدينة المجتمعين فى المسجد، واشترك الجميع فى مواجهة الهجوم حتى هزموهم وطاردوهم إلى حيث قبع قلب الجيش فى (ذى حسى) وفوجئ المسلمون بالكمين ولكن استطاعوا الانتصار..

وقبلها أغارت قبائل الأعراب على المدينة ومعها عناصر من المرتدين من قبائل عبس وذبيان وكنانة ومرة، وقد صدهم المسلمون، ولكن خطرهم كان لا يزال قائماً بسبب قربهم من المدينة، وبعد انتصار المسلمين على الجيش الأول للمرتدين بعثوا حملة إلى أولئك الأعراب ولكنهم استطاعوا هزيمة المسلمين فى بداية الأمر، فبات أبو بكر يعبئ المسلمين ثم هاجم الأعراب آخر الليل وهزمهم وطاردهم إلى (ذى القصة) وكان ذلك أول الفتح وبعدها تمكن المسلمون فى كل قبيلة من الهجوم على المرتدين فى داخل القبيلة وأخضعوهم. ثم رجع أسامة بن زيد بالجيش منصوراً فقوى به المسلمون فى المدينة، وقد استخلفه أبو بكر على المدينة وخرج بالجيش إلى بقايا المرتدين فى (ذى حسى) و(ذى القصة) فهزمهم.. وبعدها أرسل أحد عشر جيشاً لمطاردة المرتدين فى كل أنحاء شبه الجزيرة العربية..!!

* والسؤال هنا: أين ذلك كله من حد الردة..؟

إن حرب الردة هى حركة مسلحة استهدفت القضاء السياسى على الدولة الإسلامية، وقد واجهها أبو بكر بنفس السلاح ليدافع عن الدولة الناشئة، وبعد إخمادها دخل أبو بكر بالعرب إلى عصر جديد بالفتوحات فى العراق والشام.

وما يفعله أبو بكر ليس مصدراً للتشريع، ولذلك خالفه عمر وبعض الصحابة فى اجتهاده السياسى، ونرى أنه أصاب فى موقفه السياسى والحربى، واستطاع أن ينقذ الإسلام والمسلمين من تلك الهجمة القبلية المتخلفة..

ولكن لا شأن لحرب الردة بحد الردة..

إن حد الردة يتحدث عن شخص مسالم لا يرفع سلاحاً، دخل فى الإسلام، أو عاش مسلماً ثم أراد أن يخرج منه، دون أن يحارب المسلمين.. فالفرق شاسع بين حرب الردة وحد الردة.. وإذا كانت حرب الردة قد وقعت فى خلافة أبى بكر فإن حد الردة اخترعوه فيما بعد، وأبو بكر فى دفاعه عن وجهة نظره، لم يقل "من بدل دينه فاقتلوه" لأن حديث الردة لم يكن قد اخترع فى ذلك الوقت.تعالوا بنا الى نشأة حد الردة المزعوم..

ثالثاً: نشأة حد الردة:

بين الأوزاعى وعكرمة:

– يقوم حد الردة المزعوم على مجرد حديثين روى أحدهما عكرمة مولى ابن عباس والآخر أعلنه الأوزاعى بدون سند وبدون رواة فى موقف عصيب.. ثم ما لبث أن رواه مسلم فى "صحيحه" بعد أن منحه السند والعنعنة..

– ونبدأ بالأوزاعى ودوره فى اختراع حديث الردة القائل "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

– لقد عاش الأوزاعى فى الدولة الأموية وناصرها وخدمها ثم أدرك الدولة العباسية ومالأها وخدمها أيضاً.. ووجدت فيه الدولتان الأموية والعباسية خير من يمثل فقيه السلطة الذى يفتى لها بما تريد، لذلك عاش مكرماً فى عهد الأمويين، فما جاء أعداؤهم العباسيون يفتكون بالأمويين وعملائهم ظهر لهم الأوزاعى يعرض خدماته، فعفوا عنه لأنهم فى حاجة ماسة له.. فتمتع بالنعيم العباسى بعد أن تمتع بالنعيم الأموى..

إن الأمويين فى بداية الأمر لم يحتاجوا إلى فقهاء السلطة، فمعاوية لم يحتج فتوى حين قتل حجر بن عدى الكندى بسبب كلمة قالها، ولم يحتج معاوية لاتهام حجر بالردة أو إلى مبرر يتمسح بالشرع كى يقتله، وبزيد بن معاوية لم يحتج إلى فتوى حين قتل الحسين وآله فى كربلاء، ولم يحتج إلى فتوى تبيح غزو المدينة وانتهاك حرمتها، ولم يحتج إلى فتوى تبيح له حصار مكة وانتهاك حرمة الكعبة وضربها المجانيق..

إلا أن تلك الفظائع التى حدثت فى سنوات متتالية تركت أثراً هائلاً لدى المسلمين استغله بنجاح أعداء الأمويين من الشيعة والخوارج والموالى.. ولم يعد مجدياً أمام الجهاز الدعائى الأموى تبرير مقتل آل البيت وانتهاك حرمة مكة والمدينة بمجرد القصص والروايات، وكان القصص من المهام الرسمية فى الدولة الأموية ويمثل جهاز الإعلام فى عصرنا..

وكانت الطريقة الوحيدة هى التمسح بالمشيئة الإلهية، وذلك ما يفعله الظالم والعاصى فى تبرير ظلمه وعصيانه.. وهكذا بدأت الدعاية الأموية تتخذ مجرى جديداً يقول أن الله شاء أن يموت الحسين وآله قتلى فى كربلاء، وأن مشيئة الله اقتضت أن تنتهك حرمة البيت الحرام والمدينة. وإن الاعتراض على ذلك اعتراض على مشيئة الرحمن وخروج على الإسلام ويستحق القتل..

وبذلك بدأ القول بالجبرية ليبرر مظالم الأمويين السابقة واللاحقة.

وبدأ حسن البصرى فى مقاومته تلك الدعوى بطريقة لينة خوفاً من الحجاج. إلا أن الحسن البصرى تشجع حين ظهر معبد بن خالد الجهنى وقال معلناً مقالته المشهورة "لا قدر والأمر أنف" ليرد على دعاوى الأمويين بأن ظلمهم يسير بقدر الله ومشيئته فقال معبد الجهنى أنه لا دخل لقدر الله فى تلك المعاصى وأن أمور الأمويين تجرى بالإكراه والاستبداد والظلم رغم أنوف المسلمين أى "لا قدر والأمر أنف".

وانتقل معبد الجهنى إلى البصرة وقابل الحسن البصرى وقال له: يا أبا سعيد هؤلاء الملوك يسفكون دماء المؤمنين ويأخذون أموالهم ويقولون إنما تجرى أعمالنا على قدر الله، ورد عليه الحسن البصرى: "كذب أعداء

الله" وقد شارك معبد فى ثورة ابن الاشعث على الحجاج الثقفى وأسره الحجاج ومات تحت التعذيب بعد سنة 80 هـ.

وسمى مذهب معبد الجهنى بالقدرية التى تعنى مذهب الإرادة الحرة ومسئولية الإنسان عن أعماله، واشتق اسم القدرية من قول معبد "لا قدر والأمر أنف".

وحمل راية القدرية بعد الجهنى غيلان الدمشقى الذى انضم إلى الثائرين على الخليفة هشام بن عبد الملك، وأسره الأمويين وسجنوه . وكان غيلان الدمشقى من الفصحاء فاجتذب الكثيرين من الأتباع، لذا خشى هشام من قتله بدون محاكم فسلط عليه الأوزاعى فقيه الأمويين فى دمشق ودارت مناقشة أو محاكمة أفتى بعدها الأوزاعى لهشام بأن يقتل غيلان وصاحبه المسجون معه، وحتى ذلك الوقت لم يذكر الأوزاعى حديث الردة فأمر هشام بإخراجهما من السجن وقطع أيديهما وأرجلهما ثم قطع لسان غيلان فمات .

وهنا نتوقف مع الأوزاعى ونشأته فى ظل الدولة الأموية وخدمته لها ثم لأعدائها العباسيين فيما بعد.

ولد عبد الرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعى فى بعلبك سنة 115 ونشأ بالبقاع فى حجر أمه وكانت تنتقل به من بلد إلى بلد، وتأدب أى تعلم بنفسه، وقد كان شديد الطموح، وقد أدرك أن طريقه للوصول للجاه تأتى عن طريق الشهرة بين الناس والتزلف لبنى أمية، وإذا كان صعباً على الفقيه فى العراق أن يحظى بحب الناس مع حب بنى أمية، حيث تسود الكراهية للأمويين، فإن الوضع فى الشام مختلف، إذ أن أهل الشام هواهم مع الأمويين، لذلك كان سهلاً على الأوزاعى أن يحصل على الحظوة الشعبية والحظوة الأموية معاً.

وكان من السهل على الأوزاعى أن يستميل إليه أفئدة الناس بادعاء الزهد وسبك الكرامات- قبل ظهور التصوف بقرن من الزمان، وكان الرأى العام يحتفل بالزهاد ويحضر مجالسهم، وكان الأمويين فى نفس الوقت يحتاجون إلى وجود شيخ شعبى يقدم لهم إلى جانب الفتوى الملائمة المسوغ الشرعى لحكمهم الظالم، واستغل الأوزاعى تشوق المجتمع لقصص الزهاد والصالحين فأسرف فى تأليف الكرامات والوحى لنفسه فيقول "رأيت رب العزة فى المنام فقال أنت الذى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فقلت بفضلك يا رب، ثم قلت: يا رب أمتنى على الإسلام، فقال: وعلى السنة" فهنا وحى كاذب يدعيه الأوزاعى لنفسه ويقبله منه عصره، وقد سبق به الأوزاعى ما قاله الصوفية بعده بقرن من الزمان، وهو فى ذلك المنام الذى ادعاه يجعل رب العزة يزكيه ويمدحه. وقد أشاعوا أن بعض الناس رأى مناماً يقال فيه "أن الأوزاعى خير من يمشى على الأرض" وتنتهى الأسطورة بادعاء أن من رأى هذا المنام لابد أن يموت، حتى لا يوجد الدليل على تلك الرؤيا أو تلك الدعوى أو ذلك المزعم.

وكان واضحاً أن الأوزاعى يقوم بهمة القصص. تلك المهنة التى ابتدعها الأمويين وجعلوا لها ديواناً رسمياً يبثون من خلاله دعايتهم وبياناتهم السياسية والدينية، وفى إحدى تلك المجالس حكى الأوزاعى عن نفسه قال "أردت بيت المقدس، فرافقت يهودياً فلما صرنا إلى طبرية، نزل فاستخرج ضفدعاً فوضع فى عنقه خيطاً فصار الضفدع خنزيراً، فقال أبيعه إلى هؤلاء النصارى، فذهب فباعه واشترى طعاماً فأكلناه ثم ركبنا، فما سرنا، غير بعيد حتى جاء القوم يطلبوننا، فقال لى: أحسبه صار فى أيديهم ضفدعاً، فحانت منى التفاته إليه

فإذا بدنه فى ناحية ورأسه فى ناحية، فوقفت وجاء القوم فلما نظروا إليه فزعوا ورجعوا عنه فقال لى الرأس: أرجعوا؟ قلت نعم. فالتأم الرأس إلى البدن وركب وركبنا فقلت له لا أرافقك أبداً أذهب عنى".
وتلك الأسطورة لو قالها شخص عادى لاستحق السخرية من الناس ولكن حين يقولها شيخ يحظى بتصديق الناس له واعتقادهم فى دينه فلابد أن يصدقوه..
– وقد استطاع الأوزاعى أن يقنع الناس بتقواه فوصفوه بأنه كان من شدة الخشوع كأنه أعمى وقالوا "أنه كان يعظ الناس فلا يبقى أحد فى مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه وما رأيناه يبكى فى مجلسه قط، وكان إذا اختلى بكى حتى يرحمه الناس" فكيف يبكى فى خلوة وكيف يرحمه الناس وهم لا يرون بكاءه..
والمستفاد من ذلك أن هناك من يشيع تلك الأخبار عن الأوزاعى حتى يعتقد الناس فى خشوعه وخوفه من الله. وكانت زوجته من ضمن فريق الدعاية، فقد دخلت امرأة عليها فرأت الحصير الذى يصلى عليه الأوزعى مبلولاً فقالت المرأة لعل الصبى تبول هنا؟ فقالت لها زوجة الأوزاعى: هذا أثر دموع الشيخ فى سجوده وهكذا يصبح كل يوم!!
ولذلك كان الأوزاعى فى الشام معظماً مكرماً كما يقول المؤرخ الشامى ابن كثير وكان أمره أعز عندهم من أمر السلطان، وقد أمر الوالى العباسى عبد الله بن على بعد القضاء على الأمويين بأن يقتل الأوزاعى باعتباره من عملائهم فقال له أصحابه دعه عنك والله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك..
وقد حكى ابن كثير قصة ذلك اللقاء بين الأوزاعى والقائد العباسى عبد الله بن على عم الخليفة السفاح والجبار الذى أباد بنى أمية بالشام، يقول ابن كثير عن الأوزاعى "كان له فى بيت المال على الخلفاء إقطاع ـــ اى ارضا زراعية أقطعوها له أى أعطوها له ـــ صار له من بنى أمية وقد وصل إليه من خلفاء بنى أمية وأقاربهم وبنى العباس نحو السبعين ألف دينار".
أى استفاد من الدولتين أعطوه الإقطاعيات والزراعية والأموال.
ويقول ابن كثير "ولما دخل عبد الله بن على– عم السفاح أول خليفة عباسى– الذى أجلى بنى أمية عن الشام وأزال الله سبحانه وتعالى دولتهم على يده دمشق فطلب الأوزاعى فتغيب عنه ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه".
أى أن القائد العباسى بعد أن أقام مذابح للأمويين وبعد أن نبش قبور الموتى من الخلفاء السابقين منهم، وبعد أن نكل بأعوان الأمويين استدعى الأوزاعى، فاختفى الأوزاعى ثلاثة أيام ثم حضر بين يديه وقد أعد ما سيقوله فى ذلك اللقاء العصيب لينجو برقبته من جبار بنى العباس وعم الخليفة السفاح نفسه.
وينقل ابن كثير رواية الأوزاعى نفسه عن ذلك اللقاء "قال الأوزاعى دخلت عليه وهو على سريره وفى يده خيرزانه والمسودة– أى القادة العباسيون وكانوا يلبسون السواد– عن يمينه وشماله معهم السيوف مصلته والعمد الحديد– أى الأعمدة الحديدية– فسلمت عليه، فلم يرد، ونكت بتلك الخيرزانة التى فى يده، ثم قال: يا أوزاعى ما ترى فيما صنعناه من إزالة أيدى الظلمة عن العباد والبلاد، أجهاداً ورباطاً هو؟ فقلت: يا أيها الأمير سمعت يحيى بن سعيد الأنصارى يقول: سمعت محمد بن إبراهيم التيمى يقول: سمعت علقمة بن وقاص يقول: سمعت عمر بن الخطاب يقول: سمعت رسول الله يقول: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو

امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه". قال الأوزاعى فنكت بالخيزرانة أشد مما كان ينكت، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ثم قال: يا أوزاعى ما تقول فى دماء بنى أمية؟ فقلت: قال رسول الله: "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة" قال الأوزاعى: فنكت بها أشد من ذلك ثم قال: ما تقول فى أموالهم فقلت: إن كانت فى أيديهم حرام فهى حرام عليك أيضاً وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعى، قال: فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ثم قال: ألا نوليك القضاء؟ فقلت: أن أسلافك لم يكونوا يشقون على ذلك وإنى أحب أن يتم ما ابتدأونى به من إحسان، فقال: كأنك تحب الانصراف؟ فقلت: إن ورائى حرماً محتاجون إلى القيام عليهم وسترهن وقلوبهن مشغولة بسببى . قال الأوزاعى وانتظرت رأسى أن يسقط بين يدى، فأمرى بالانصراف فلما خرجت إذ برسوله من ورائى وإذا معه مائتا دينار، فقال: يقول لك الأمير استنفق هذه، قال الأوزاعى: فتصدقت بها، وإنما أخذتها خوفاً، وقال الراوى عن الأوزاعى، وكان فى تلك الأيام، الثلاثة صائماً، فقال إن الأمير لما بلغه ذلك عرض عليه الفطر عنده فأبى أن يفطر عنده.

اخترنا أن ننقل هذه الرواية الطويلة التى يحكيها الأوزاعى عن نفسه، وقد عرفنا جرأته على الكذب والاختلاق، ولكنها مع الشك فى بعض أجزائها إلا أنها تعطينا مشاعر الخوف لدى الأوزاعى، ذلك الخوف الذى لا يتفق مع تلك الردود الجريئة للأوزاعى خصوصاً وهو فقيه من فقهاء السلطة السابقة يريد أن ينجو من السلطة القادمة وقسوتها فى الانتقام، ولذلك لا نتصور أن يواجه جبار بنى العباس عبد الله بن على بأن يقول له مثلاً عن الأموال التى سلبها من الأمويين أن كانت فى أيديهم حراماً فهى حرام عليك أيضاً وإن كانت لهم حلالاً فلا تحل لك إلا بطريق شرعى.

إلا أن ذلك الخوف يفرض على فقيه من نوعية الأوزاعى أن يختفى أياماً يجهز فيها دفاعه عن نفسه وتملقه للسلطة الجديدة واستعداده لخدمتها وذلك بشتى الطرق، وإن كان قد جرؤ على أن يدعى أنه يرى الله تعالى فى المنام ويجعل رب العزة يزكيه ويمدحه فإن من السهل عليه أن يدعى حديثاً نبوياً يخترعه اختراعاً يبيح به للسلطة العباسية أن تقتل خصومها بتهم ثلاث: القصاص، والزنا بعد إحصان والخروج عن الجماعة والدين..

ويلاحظ أن الأوزاعى ذكر حديث "إنما الأعمال بالنيات" وحرص على أن يذكر إسناده وروايته بالتفصيل ولكنه حينما ذكر حديث الردة "لا يحل دم امرئ مسلم" فإنه لم يذكر له إسناداً لأنه لم يكن إسناد حتى ذلك الوقت أو بمعنى آخر لم يكن حديثاً على الإطلاق وإنما اختراع حديث قدمه الأوزاعى هدية يبرهن به للسلطة الجديدة على استعداده لخدمتهم.

ومن الطبيعى أن يقتنع عبد الله بن على بأهمية الإبقاء على الأوزاعى لأنه لن يستفيد من قتله شيئاً، بل ربما يثور عليه أهل الشام الذين يحبونه، ثم أن وجود الأوزاعى فى خدمته أفضل لتأكيد السيطرة على الشام.

ويذكر ابن كثير أن الأوزاعى اجتمع بالخليفة المنصور العباسة حين دخل المنصور الشام وقد أحبه المنصور وعظمه.. ولذلك وصلته الأعطيات والإقطاعيات من العباسيين كما كانت فى عهد الأمويين.

لقد ظلت هيبة الأوزاعى فى الشام تحتل قلوب أهله حتى أن الذهبى فى كتابه "ميزان الاعتدال" تحرج من نقد الأوزاعى فى ترجمته له واكتفى بأن يقول عن مسرور بن سعيد رواية الأوزاعى "غمزه أى هاجمه وطعن فيه- ابن حيان، فقال: يروى عن الأوزاعى المناكير الكثيرة..

أى أن الأوزاعى يروى أحاديث منكرة.. وأفظعها حديث الردة "لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزانى، والتارك لدينه المفارق للجماعة".

لأنه أعطى اثنين من المبررات لقتل النفس لا تستحق القتل، وقد وافق ذلك هوى الدولة العباسية لأنها بهذا الحديث المفترى وجدت غطاءاً تشريعياً للتخلص من خصومها الأمويين ثم الفرس..

لقد جاءت الدولة العباسية بمفهوم جديد للسلطة يخالف المفهوم الأموى، فإذا كانت الدولة الأموية تعول أساساً على قانون القوة فإن العباسيين الذين وصلوا للحكم تحت ستار الدعوة للرضى من آل محمد أو تحت شعار أنهم آل البيت كان لهم مفهوم جديد للسلطة هو قانون الشرع. فالخليفة الجديد يحكم بالسلطة الإلهية المستمدة من كونه من آل بيت النبى، والخليفة المنصور العباسى خطب يوم عرفة فقال: "يا أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه ورشده وخازنه على فيئه أقسمه بإرادته وأعطيه بإذنه ".

أى يحكم بالحق الإلهى وذلك ما كان سائداً فى العصور الوسطى وفى أوروبا باسم The Divine Right Of Kings ومن الطبيعى أن يؤسس أحكامه على أدلة تشريعية، وإذا كان عسيراً أن يجد هواه فى القرآن فإنه يمكن أن يخترع له فقهاء السلطة ما يريد من الأحاديث والفتاوى....

ولذلك فإن استئصال الأمويين فى السنوات الأولى للحكم العباسى كان بفتوى وحديث الردة الذى يحل دم المسلم بإحدى ثلاث وكلها تنطبق على فلول بنى أمية، فقد قتلوا آل البيت فى كربلاء وقتلوا كل ثائر من ذرية الحسين وآخر ضحاياهم كان إبراهيم المهدى صاحب الدعوة العباسية الذى قتله مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فى الشام.. إذن ينطبق عليهم من وجهة نظر العباسيين قاعدة النفس بالنفس، ثم انهمك الأمويون فى عصرهم الأخير فى المجون والانحلال الخلقى وكان رائدهم فى ذلك بعض الخلفاء الأمويين مثل يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد ، أى كان من السهل اتهامهم بالزنا بعد إحصان، ومن السهل أيضاً اتهامهم بترك الدين ومفارقة الجماعة خصوصاً وقد اشتهروا بإماتة الصلاة وعدم إقامتها، وكانت صياغة الحديث بهذا الشكل تعبر عن فهم الأوزاعى لمتطلبات السلطة العباسية الجديدة واحتياجاتها فى التخلص من خصومها تحت غطاء شرعى مصطنع والدليل على ذلك رواج حديث الأوزاعى واستخدام السلطة العباسية له فى مواجهة خصومها الجدد وهم الفرس...

فالموالى الفرس هم الذين أعانوا العباسيين على إقامة ملكهم، وكان أبو مسلم الخرسانى وجنده هم القوة الضاربة للعباسيين، وحين جاء وقت توزيع الغنائم والمكاسب السياسية استأثر العباسيون بكل شىء وقتلوا أبا مسلم الخرسانى، فثارت ابنته فى خراسان وظهرت طائفة الأبومسلمية تحارب العباسيين فى شرق فارس، وكان لهم أتباعهم فى بغداد وفى البلاط العباسى، وبينما واجه العباسيون ثورات الموالى فى شرق فارس بإرسال الجيوش الجرارة فإنهم تتبعوا عملاء الثوار فى بغداد وعمدوا إلى التخلص منهم باتهامهم بالردة أو الزندقة، ولذلك نشط الخليفة المهدى العباسى فى تتبع الزنادقة وقتلهم بالتهم الثلاث الواردة فى حديث

الأوزاعى، وكانت شهرة الفرس بالانحلال الدينى والأخلاقى مما يساعد على اتهامهم وقتلهم وفقاً لذلك التشيع الأوزاعى. والسطور الأولى فى تاريخ الخليفة المهدى العباسى تؤكد حرصه على إبادة الزنادقة وأنه تتبعهم فى كل مكان. والمهدى هو ابن الخليفة أبو جعفر المنصور، ولهذا لا تعجب إذا أصبحت للأوزاعى حظوة عند الخليفة المنصور العباسى أو بتعبير ابن كثير "وقد أحبه وعظمه".

ولا نعجب أيضاً إذا عامل المنصور العباسى فقيهاً آخر بالاضطهاد والعنت ثم قتله، إنه الإمام أبو حنيفة الذى يعتبر صورة معكوسة للأوزاعى..

لقد نشأ الأوزاعى فى الشام ينتمى إلى العرب ويخدم السلطة الأموية، أما أبو حنيفة فقد نشأ فى العراق منتمياً إلى الفرس ويناوئ السلطة الأموية وجاءت الدولة العباسية وسرعان ما أصلح الأوزاعى شئونه معها وصار صاحب حظوة عند الخليفة المنصور.

أما أبو حنيفة الذى ناوأ الدولة الأموية وتحقق أمله فى القضاء عليها فإنه لم يلبث أن حدثت الفجوة بينه وبين الخليفة المنصور فاضطهده وقتله بالسم.

فى حياته فى الدولة الأموية كان أبو حنيفة يناصر الثورات الشعبية العلوية ضدها ومنها ثورة زيد بن على زين العابدين سنة 121 وانتبهت له الدولة الأموية، وأراد الوالى على العراق ابن هبيرة أن يختبر ولاءه للأمويين لأنه لم يكن لديه دليل واضح على اشتراكه الفعلى فى ثورات العلويين، وفى ذلك الوقت كان العراق يموج بقلاقل ضد الأمويين فجمع ابن هبيرة فقهاء العراق ومنهم أبو حنيفة وأسند لكل واحد منهم عملاً وجعل فى يد أبو حنيفة الخاتم أو السلطة على كل الفقهاء، فلا أمر إلا بإذنه، ووافق الفقهاء على خدمة الدولة ماعدا أبو حنيفة، فهدده ابن هبيرة بالضرب والعذاب فأبى، فقال له الفقهاء: "إنا ننشدك الله أن تهلك نفسك فإنا أخوتك وكلنا كارهون لذلك الأمر" فقال أبو حنيفة: "لو أرادنى أعد له أبواب مسجد واسط لم أدخل فى ذلك، فكيف وهو يريد من أن يكتب دم رجل يضرب عنقه وأختم أنا على ذلك الكتاب؟ فوالله لا أدخل فى ذلك أبداً...!"

وأمر ابن هبيرة بضرب أبى حنيفة وحبسه، فلما يأس منه فأطلق سراحه، فهرب أبو حنيفة إلى مكة، وظل فيها إلى أن قامت الدولة العباسية، فجاء للكوفة فى خلافة أبى جعفر المنصور .

– وكان طبيعياً أن تحتفل به الدولة العباسية لمواقفه مع آل البيت ومقاومته للدولة الأموية وكونه من ضحاياها، لذلك قربه الخليفة المنصور وكان يستشيره، إلا أن محاولة المنصور استغلال أبى حنيفة وجبروت المنصور فى التنكيل ببنى عمه العلويين عند ثورة محمد النفس الزكية سنة 145 جعل العلاقة تسوء بين الخليفة والفقيه الحر..

فقد اتهم المنصور أبا حنيفة بأنه يثبط القواد العباسيين عن حرب محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم، وراح المنصور يخطط للإيقاع بأبى حنيفة فى نفس الوقت الذى كان أبو حنيفة يفتى بما يعتقده حقاً وهو يعرف أن الخليفة لا يريد إلا الفتاوى التى تساعده فى حكمه..

كان المنصور قد اشترط على أهل الموصل أنهم إذا ثاروا عليه فإن دماءهم حلال، وثار أهل الموصل سنة 148 فجمع المنصور الفقهاء وفيهم أبو حنيفة وقال لهم: أهل الموصل قد شرطوا ألا يخرجوا علىّ وهاهم قد خرجوا وحلت لى دماؤهم، فقال الفقهاء: إن عفوت فأنت أهل للعفو وإن عاقبت فبما يستحقون، ولكن أبا حنيفة

قال: يا أمير المؤمنين ليس لك أن تشترط عليهم سفك دمائهم، أرأيت لو أن امرأة أباحت جسدها بغير عقد نكاح أيجوز لها ذلك؟ فقال الخليفة: لا. وأمر الخليفة بانصراف الفقهاء ثم قال لأبى حنيفة: لا تفت الناس بما هو شين على إمامك فتقوم الثورات وتبسط أيدى الخوارج .

ويلاحظ أن أولئك الفقهاء الذين نافقوا المنصور هم نفس الفقهاء الذين أبدوا استعدادهم لخدمة ابن أبى هبيرة والى العراق للأمويين وكان منهم ابن أبى ليلى وابن شبرمة وابن أبى هند، وكانوا أعلام الفقهاء فى العراق.

ومن الطبيعى أن يحقدوا على أبى حنيفة استقلاله واستقامته لذلك استجابوا لدعوة أبى جعفر المنصور فانطلقوا يهاجمون أبى حنيفة ويتهمونه بإنكار الأحاديث، تلك الأحاديث التى اصطنعوها لخدمة السلطة العباسية،

وتطرف ابن أبى ليلى فى النيل من أبى حنيفة حتى يقول فيه أبو حنيفة: "إن ابن أبى ليلى ليستحل منى مالا استحله من حيوان"!!

وأتت تلك الحملة ثمارها إذ هيأت الفرصة للمنصور فى اغتيال أبى حنيفة بالسم بعد أن سجنه وضربه مائة وعشرة أسواط سنة 150 هـــ .

ولكن ما علاقة ذلك بالأوزاعى.

إن الاختلاف بين الأوزاعى وأبى حنيفة فى الشخصية والسيرة الذاتية والمواقف من السلطة الحاكمة انعكس على المنهج الفكرى لكل منهما..

أبو حنيفة كان حريصاً على صيانة الأنفس والدماء وكان بنفس القدر يرفض الأحاديث الكاذبة وإذا اتهموه بأنه يكذب الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله كان يقول: "ردى على كل رجل يحدث عن النبى بخلاف القرآن ليس رداً على النبى ولا تكذيباً، ولكنه رد على من يحدث عنه بالباطل" .

أما الأوزاعى الذى عاصر أبى حنيفة فقد كان يحدث عن الرسول مناكير أى أحاديث ينكرها من يسمعها كما قال الذهبى فى ميزان الاعتدال، وكان يفترى أحاديث عن رب العزة وبنفس القدر كان يفتى للحاكم باستحلال الدماء، كما أفتى لهشام بن عبد الملك الأموى بقتل غيلان الدمشقى، ثم أفتى للعباسيين باستحلال دماء الأمويين، ولذلك عاش فى كنف الأمويين ثم العباسيين، بينما لقى أبو حنيفة الاضطهاد من الأمويين ثم من العباسيين.

ومن الطبيعى أن يحدث تنافر بين أبى حنيفة والأوزاعى.

فالأحاديث التى كان يرويها– أو يفتريها الأوزاعى– كان يرفضها أبو حنيفة، وكانت بينهما مناقشات وحوارات فى رفع الأيدى عند الركوع وعند القيام منه.. وكان أبو حنيفة يقدم الرأى والقياس أى اجتهاده الشخصى على أحاديث الأوزاعى وغيره..

وكان الأوزاعى يرد عليه ويقول: إننا لا ننقم على أبى حنيفة أنه رأى– أى يقول بالرأى– كلنا يرى– أى كلنا يقول بالرأى والاجتهاد– ولكننا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبى فيخالفه إلى غيره .

الأوزاعى يعتقد أنه طالما اخترع حديثاً فقد أصبح حديثاً قاله الرسول، وأبو حنيفة كان يقول فى الرد على الأوزاعى وغيره من فقهاء السلطة "ردى على كل رجل يحدث عن النبى بخلاف القرآن ليس رداً على النبى ولا تكذيباً له ولكنه رد على من يحدث عنه بالباطل"!!.

حديث الأوزاعى فى صحيح مسلم

عمل فقهاء الدولة العباسية على نشر حديث الأوزاعى وجعلوا له إسناداً بعد أن ذكره الأوزاعى بدون إسناد، وشاع الحديث على الألسنة إلى أن ذكره مسلم فى صحيحه بعد موت الأوزاعى بقرنين من الزمان وبدون إشارة إلى الإوزاعى فى سلسلة الرواة والسند.

وقد ذكر مسلم رواته على النحو الآتى:

حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة عن حفص بن غياث وأبو معاوية عن وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق عن عبد الله (ابن مسعود) قال: قال رسول الله: لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة..

– وصيغة الحديث نرى فيها الصنعة الأوزاعية التى تتيح للدولة العباسية قتل الثائرين عليها من الرجال.

ولكن الأحكام التشريعية الإسلامية فى العقوبات يأتى فيها النص على الرجال والنساء معاً كقوله تعالى: ﴿ الزّانِيَةُ وَالزّانِي﴾ ﴿وَالسّارِقُ وَالسّارِقَةُ﴾ ﴿وَاللاّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عَلَيْهِنّ أَرْبَعةً مّنْكُمْ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمْسِكُوهُنّ فِي الْبُيُوتِ حَتّىَ يَتَوَفّاهُنّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللّهُ لَهُنّ سَبِيلاً. وَاللّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَآ إِنّ اللّهَ كَانَ تَوّاباً رّحِيماً﴾.

أو يأتى لفظ (الذين) ليشمل الذكر والأنثى كقوله تعالى: ﴿وَالّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ ﴿إِنّمَا جَزَآءُ الّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتّلُوَاْ أَوْ يُصَلّبُوَاْ أَوْ تُقَطّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ الأرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدّنْيَا وَلَهُمْ فِي الاَخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أو يأتى بتحديد أكثر كقوله تعالى: ﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرّ بِالْحُرّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالانْثَىَ بِالاُنْثَىَ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مّن رّبّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أما فى حديث الأوزاعى الذى ذكره مسلم فهو يتحدث تحديداً عن الرجل الذى هو امرؤ مسلم (يشهد) (الثيب الزانى) (التارك لدينه المفارق للجماعة).

وعليه فإن المرأة لا عقوبة عليها فى الأحوال الثلاثة..

وبالتالى تصبح العقوبات القرآنية التى تحدثت عن النساء لاغيه..!!

ولو رجعنا إلى الظروف التى نطق فيها الأوزاعى بذلك الحديث واخترعه فيها اختراعاً وهو مهدد بالقتل ونساؤه حوله لعرفنا لماذا أسقط النساء من العقوبة، وكان يتمنى أن يفرغ سريعاً من اللقاء مع جبار بنى العباس عبد الله بن على ليعود إليهن وقد قال له عبد الله: كأنك تحب الانصراف؟ فقال: إنى ورائى حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن وقلوبهم مشغولة بسببى..!!

لذلك كانت صيغة الحديث ضد الرجل فقط، أما المرأة فهى تحتاج إلى من يقوم عليها ويسترها ويكفى أن قلبها مشغول على رجلها..تلك هى الحالة النفسية التى كان عليها الأوزاعى حين اخترع الحديث وحين نطق به.

ثم كيف يكون ذلك الامرئ المسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم يكون تاركاً لدينه مفارقاً للجماعة؟ إن الحديث يستعمل لفظ المضارع (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله) أى أنه مسلم فى ذلك الوقت وأنه يقر بالشهادة فكيف يكون فى نفس الوقت تاركاً لدينه مفارقاً للجماعة؟.إن الراوى لو استعمل لفظ الماضى فقال (لا يحل دم امرئ مسلم شهد أن لا إله إلا الله..) لقلنا أنه كان يشهد بالإسلام ثم طرأت عليه الردة.. ولكن كيف يكون مرتداً وهو يشهد فى الحال شهادة الإسلام؟..

ثم ما معنى المفارق للجماعة؟

قد يكون لها معنى سياسى، فالتارك للجماعة يساوى فى مصطلحات العصرين الأموى والعباسى أن يكون من الخوارج الثائرين على الجماعة ، ولكن المعنى الدينى لا يتفق وصحيح الإسلام..فالمسلم قد يفارق جماعته وآله وبلده ويتركهم مهاجراً إلى الله تعالى فهل يكون حينئذ مستحقاً للقتل..؟

يجوز ذلك فى منطق قريش المشركة. ويجوز أيضاً فى منطق الكهنوت فى كل عصر وأوان..ولكن هل يمكن أن تتخيل أن النبى يمكن أن يقول هذا الكلام؟

لن نناقش تعارض ذلك الحديث مع القرآن والسنة الحقيقية للرسول ، فقد سبق أن تعرضنا لذلك. ولكن نركز فقط على نقطة محددة هى أسلوب النبى وعصره فى اختيار اللفظ وضرورة اتساق اللفظ مع الظروف التاريخية لعصر النبوة..

لقد هاجر النبى والمسلمون إلى المدينة وتركوا جماعتهم فى مكة وكانت قريش تتهم النبى بأنه "مفارق الجماعة" وخرج على دين الآباء والأجداد، وكانت تتآمر لقتل النبى وأصحابه، فهل يعقل أن يحكم النبى بنفس منطق أعدائه وأن يستعمل نفس ألفاظهم؟

ثم أولئك الذين ذكرت كتب السيرة أنهم ارتدوا ولحقوا بقريش هل حكم النبى بقتلهم لأنهم بدلوا دينهم وفارقوا الجماعة...؟

ثم صلح الحديبية والذى رضى فيه النبى على أن يرد من يلحق به من المؤمنين المهاجرين وفى نفس الوقت يعطى الحرية لمن يرتد عن الإسلام لأن يلحق بالمشركين.. هذا الصلح هل يتفق مع قول الأوزاعى "التارك لدينه المفارق للجماعة"..؟

وبعد مناقشة المتن فى حديث الأوزاعى نناقش الرواة والسند الذين جاء بهم مسلم.. ماذا قالوا عن الرواة المذكورين فى حديث مسلم والأوزاعى؟

لقد بدأ بأبى بكر بن أبى شيبة واسمه الحقيقى عبد الرحمن بن عبد الملك وقد مات فى حدود 220 هـ، وقال عنه الحاكم "ليس بالمتين" وقال عنه أبو بكر بن أبى داود "ضعيف" وقال عنه ابن حيان "ربما أخطأ" .

حفص بن غيث ولقبه أبو عمر النخعى كان قاضياً للدولة العباسية، ومن الفقهاء المتعاونين معها، وقد مات سنة 194. قال عنه أبو زرعه: ساء حفظه بعد ما استقضى، أى بعد أن تولى القضاء، وبمعنى آخر فقد الثقة فيه بعد أن اختارته الدولة قاضياً..

وقال عنه داود بن رشيد: حفص بن غيث كثير الغلط..

وقال عنه ابن عماد: كان عسراً فى الحديث جداً، وقال عنه عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال عنه أبى: أنه أخطأ.. وقال ابن حيان عن أحد مروياته فى الحديث: لم يحدث بهذا الحديث أحد إلا حفص بن غياث كأنه وهم فيه.. أى انفرد بحديث لم يقله أحد غيره، ولأنه غير ثقة فقد اتهمه ابن حيان بالوهم .

أما أبو معاوية الضرير، فقد قال عنه الحاكم أنه احتج به الشيخان أى مسلم والبخارى وقد اشتهر عنه الغلو، أى التطرف أو التشيع.. حيث كان الغلو مرادفاً للتشيع فى ذلك الوقت..

وقال عنه ابن معين: أبو معاوية أحاديث مناكير وقال عنه العجلى: أنه ثقة ويرى الإرجاء، أى مدحه بأنه ثقة ولكن اتهمه أنه من المرجئة، وتلك تهمه تعيب الراوى وقال عنه يعقوب بن شيبة: أنه ثقة وربما دلس، وكان يرى الإرجاء.. أى أنه مدحه ثم اتهمه بالتدليس وبأنه من المرجئة.

وقال عنه أبو داود: كان مرجئاً. وقال عنه أبو معاوية البجلى: فيه جهالة

– والراوى التالى هو وكيع: واسمه وكيع بن الجراح، أبو سفيان الرؤاس الكوفى.. قال عنه ابن المدنى كان وكيع يلحن وقال فيه: كان فيه تشيع..

ونصل إلى الأعمش أهم أولئك الرواة وأشهرهم..

واسمه سليمان بن مهران أبو محمد الكاهلى الكوفى الأعمش توفى سنة 148 قال عنه الذهبى: ما نقموا عليه إلا التدليس وهو يدلس..

وقال عنه ابن المبارك: إنما أفسد حديث الكوفة أبو إسحاق والأعمش..

قال عنه ابن جرير بن عبد الحميد أهلك أهل الكوفة أبو إسحاق وإعيمشكم هذا وقال عنه أحمد بن حنبل: فى حديث الأعمش اضطراب كثير وقال أنه كان يروى عن أنس مع أن روايته عن أنس منقطعة لأنه ما سمع من أنس..

وقال عنه أبو داود روايته عن أنس ضعيفة.

وقال عنه ابن المدنى: الأعمش كان كثير الوهم.

أما الحاكم النيسابورى فقد جعله من المدلسين وأورد فيه رأى الشاذكونى القائل: من أراد التدين بالحديث فلا يأخذ عن الأعمش ولا عن قتادة إلا إذا قالا: سمعناه..

وبقى من الرواه عبد الله بن مرة ومسروق.

قال الذهبى عن ابن مرة: لم يصح، وقال أبو حاتم عن مسروق ليس بالقوى

أى أن فقهاء السلطة العباسية حين اختاروا لحديث الأوزاعى رواة فإن الشكوك لاحقت أولئك الرواة، وربما أسهم بعض أولئك الرواة فى شيوع الحديث على الألسنه وروايته وهذا بالنسبة للرواة الذين عاشوا فى عصر العباسيين مثل الأعمش وأبى معاوية الضرير وحفص بن غياث وأبى بكر بن أبى شيبة.. والحديث عند محققى الحديث يلحقه الشك ويسقط إذا كان أحد رواته متهماً، فكيف إذا كان الجميع متهمين؟

وبذلك نكون قد انتهينا من حديث الأوزاعى، ويبقى لنا الحديث الآخر الذى اخترعه عكرمة مولى ابن عباس، والذى ذكره البخارى هو الآخر فى صحيحه.

وقد يضطرب القارئ حيث يكتشف أن فى "البخارى" أحاديث كاذبة، ولكن القارئ إذا هدأ وناقش الأمر بهدوء لوصل للحقيقة، فإن البخارى فى نهاية الأمر بشر وليس إلهاً وليس معصوماً من الخطأ والنسيان، وإذا كان قد ذكر فى مقدمة كتابه (الصحيح) أنه اختار محتوياته التى تبلغ حوالى 3 ألاف حديث من بين (600 ألف حديث) فإن هناك نسبة للخطأ البشرى لابد من افتراضها ــ مع افتراض حسن النية فى تدين البخارى نفسه ــ .. وذلك ما يسلم به كل باحث اذا كان واثقا من حسن تدين البخارى وانحيازه للاسلام.. وبلا شك فإن حديث الردة "من بدل دينه فاقتلوه" والذى رواه البخارى عن عكرمة مولى ابن عباس ضمن تلك الأحاديث الكاذبة..

– على أن علماء الأصول والجرح والتعديل كانت لهم مآخذهم على البخارى ومسلم، فقد قال عن البخارى شيخه وأستاذه محمد بن يحيى الذهلى: أن البخارى مبتدع، والسبب فى ذلك أن البخارى كان يقول أن القرآن مخلوق.. وكان شيخ البخارى يخالفه فى ذلك ويقول كلام الله غير مخلوق، ويقول عن البخارى: "اتهموه فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه" وذكر الذهلى قول ابن عباس "من زعم أن القرآن مخلوق فهو عندنا كافر زنديق" .

وبالطبع فإن رأى الذهلى فى تلميذه البخارى سببه اختلاف الرأى فى مشكلة خلق القرآن، إلا أن بعض المحققين كانت لهم مآخذ على البخارى فى موضوع الأحاديث نفسها، وممن هاجم البخارى أو بتعبير المحدثين "جرحه" أبو حاتى الراوى فى كتابه الجرح والتعديل وجعله الذهبى ضمن الضعفاء والمتروكين فى كتابه الذى يحمل نفس الاسم.

وقال المحققون أنهم انتقدوا على البخارى (110) حديثاً منهم (32) حديثاً وافقه مسلم على تخريجها و(78) حديثاً انفرد بها البخارى، واتهموا (80) راوياً من رواة البخارى بالضعف وعدم الثقة، واتهموا (160) راوياً من رواة مسلم بالضعف وعدم الثقة، وقال الحاكم النيسابورى عند أحد رواة البخارى وهو عيسى بن موسى غنجار "احتج به البخارى فى الجامع الصحيح غير أنه يحدث عن أكثر من مائة شيخ من المجهولين غير المعروفين الذين يحدثون بأحاديث مناكير" .

ويقول ابن الصلاح فى كتابه علوم الحديث "احتج البخارى بجماعة سبق من غيره الجرح لهم كعكرمة مولى ابن عباس، وكإسماعيل ابن أبى اويس، وعاصم بن على، وعمرو بن مرزوق، وغيرهم، واحتج مسلم بسويد بن سعيد وجماعة، واشتهر الطعن فيهم .

ومن النص السابق نعلم أنهم أخذوا على البخارى روايته عن عكرمة مولى ابن عباس، وأن عكرمة سبق أن اتهمه وجرحه الكثيرون، وعكرمة هو صاحب حديث الردة القائل "من بدل دينه فاقتلوه".

كان عكرمة عبداً لعبد الله بن عباس سمع عنه ونقل عنه أقواله فى التفسير، وظل عبداً لابن عباس حتى توارثه أولاده ثم باعوه، أو أطلقوا سراحه، وقد اتاح له ذكاؤه وتفرغه فى خدمة ابن عباس أن يحفظ عنه الكثير. وكان العلم هو الطريق الوحيد أمام الموالى ليبرزوا به فى مجتمع يسيطر عليه الأشراف العرب، خصوصاً وقد كان الأمويين معروفين بالتعصب للعرب ضد الموالى ، وإذا كان العرب قد انشغلوا بالحروب والثورات والسياسة فقد وجد أبناء الموالى فرصة للتفرغ للعلم والتفوق فيه وإثبات أنفسهم من خلاله، وساعدهم

على ذلك أنهم أبناء أمم عريقة فى العلم والحضارة..وهكذا كان أكثر العلماء فى التابعين من الموالى.. وكان منهم عكرمة..

إلا أن عكرمة كما يظهر فى تاريخه كان حانقاً على الأرستقراطية العربية بقدر ما كان يميل إلى رأى الخوارج الذين لم يروا فارقاً بين العرب والموالى، ولم يشترطوا كون الخليفة من قريش حسب الحديث الذى ذاع وانتشر..

والمحصلة النهائية لسيرة عكرمة العلمية والشخصية هى افتراؤه لأحاديث ادعى أنه رواها عن سيده عبد الله بن عباس ومنها حديث "من بدل دينه فاقتلوه"..

ونتوقف من ناحيتين أساسيتين فى تاريخ عكرمة: مذهبه، واتهامه بالكذب.

فقد كان عكرمة يرى أن الخوارج، وذلك ما قاله المحققون فى بحث سيرته وإن اختلفوا فى تحديد الفرقة الخارجية التى كان عكرمة يميل إليها، حيث لم تكن الفوارق الفكرية بين طوائف الخوارج قد تحددت وتميزت فى عصر عكرمة.

روى ابن المدينى أن عكرمة كان أباضياً، ولكن ابن المدينى يضيف فيقول أن عكرمة أيضاً كان يرى رأى نجدة الحرورى..

ويقول أحمد بن حنبل أن عكرمة كان يرى رأى الخوارج الصفرية، وأنه لم يدع موضعاً إلا خرج إليه فى خرسان والشام واليمن ومصر وأفريقيا، أى شمال أفريقيا، أى ذهب يدعو إلى مذهب الخوارج دون تعيين لفرقة خارجية معينة.

ويقول يحيى بن بكير "إن عكرمة قدم مصر متجهاً إلى المغرب، فأخذ عنه خوارج المغرب.. أى كان داعية وأستاذاً وإماماً للخوارج فى المغرب..

وكان عكرمة فى تجواله فى الأقاليم يخدع الولاة ويدعى أنه يأتى لأخذ العطايا منهم، يقول ابن يسار "رأيت عكرمة جائياً من سمرقند وهو على حمار تحته خرجان فيهما حرير أجازه بذلك عامل سمرقند ومعه غلام له، فقيل له ما جاء بك إلى هذه البلاد؟ فقال الحاجة..".

وبينما كان يحسن الظن به ولاة الأقاليم البعيدة فإن والى المدينة كان يعرف اتجاهه السياسى المناوئ للدولة الأموية، يقول مصعب الزبيرى "كان عكرمة يرى رأى الخوارج فطلبه والى المدينة فتغيب عند دار ابن الحصين حتى مات عنده" وقال معصب الزبيرى أيضاً أن عكرمة كان يدعى أن ابن عباس كان يرى رأى الخوارج.. أى نسب إلى ابن عباس بعد موته ما كان ابن عباس يرفضه فى حياته..

ومن الطريف أن عكرمة مات فى نفس اليوم الذى مات فيه الشاعر المشهور كثير عزة فترك أهل المدينة جنازة عكرمة إلا العبيد والموالى السودان، وعجب الناس من اتفاقهما فى الموت واختلافهما فى العقيدة، إذ كان عكرمة يرى رأى الخوارج ويكفر أى حكم بالكفر- بالنظرة- أما كثير عزة فهو شيعى يؤمن برجعة على وأبنائه..

والسبب فى كراهية أهل المدينة لعكرمة المشهور بعلمه أنهم اعتبروه داعية للخوارج الحرورية والأباضية..

وقد اشتهر الخوارج من أتباع نجدة الحرورية بالإسراف فى سفك الدماء، يقول الملطى عن نجدة الحرورى "خرج نجدة من جبال عمان فقتل الأطفال وسبى النساء وأهرق الدماء واستحل الفروج والأموال، وكان يكفر السلف حتى قتل..".

وقال الملطى عن الأباضية أنهم أصحاب أباض بن عمر وقيل أنه عبد الله بن يحيى ابن أباض، خرجوا من سواد الكوفة فقتلوا الناس وسبوا الذرية وقتلوا الأطفال وكفروا الأمة وأفسدوا البلاد والعباد وقال عنهم: فمنهم اليوم بقايا بسواد الكوفة.

وقال عن الصفرية أنهم أتباع المهلب بن أبى صفرة (والصحيح أنهم أتباع زياد بن أبى صفرة) وقد خرجوا على الحجاج وقد هزمهم الحجاج وأبادهم .

ونلمح صدى أراء الخوارج فى أقوال عكرمة، روى ابن المدينى أن عكرمة وقف بباب المسجد فقال: ما فيه إلا كافر.".

كما نلمح صدى عنف الخوارج وجرأتهم على الدماء فى قول عكرمة وقت الحج وقد ازدحم الناس حول الكعبة "وددت أن بيدى حربة فأقتل بها من شهد الموسم يميناً وشمالاً..".

وأخيراً نلمح صدى ذلك كله فى الحديث الذى رواه البخارى عن عكرمة "من بدل دينه فاقتلوه..".

والسؤال المطروح هنا: ما هو حكم الأصوليين فى الراوى صاحب الهوى والداعى إلى بدعته؟ خصوصاً إذا كانت تلك الدعوة إلى تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأعراضهم وأموالهم وقتل أطفالهم.

يقول الإمام مالك: "لا يؤخذ العلم من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه.." .

أما ابن الصلاح فى كتابه "علوم الحديث" فيقول اختلفوا فى قبول رواية المبتدع الذى لا يكفر ببدعته فمنهم من رد روايته مطلقاً لأنه فاسق ببدعته، ومنهم من قبل رواية المبتدع إذا لم يكن يستحل الكذب فى نصرة مذهبه، وبعضهم يقبل روايته إذا لم يكن داعية ولا تقبل إذا كان داعية إلى بدعته، وهذا هو مذهب الأكثرية من العلماء، وقال أبو حاتم البستى: الداعية إلى البدع لا يجوز الاحتجاج به عند أئمتنا قاطبة ولا أعلم فيه خلافاً..".

وعكرمة كان يدعو إلى رأى الخوارج الدامى.. وكان أيضاً يكذب ولكن اتهامه بالكذب قضية أخرى..

إن اتهام عكرمة بالكذب ظاهرة واضحة فى تاريخه.

قال عنه ابن سيرين "إنه كذاب". وقال عنه ابن أبى ذئب "رأيت عكرمة وكان غير ثقة". وقال عنه محمد بن سعد فى الطبقات الكبرى "ليس يحتج بحديثه، ويتكلم فيه الناس". وقال عنه سعيد بن جبير "إنكم لتحدثون عن عكرمة بأحاديث لو كنت عنده ما حدث بها". وقال عنه سعيد بن المسيب "لا ينتهى عبد ابن عباس حتى يلقى فى عنقه حبل ويطاف به" وكان سعيد بن المسيب يقول لمولاه (برد) لا تكذب على كما كذب عكرمة على ابن عباس. وكان ابن عمر يقول لمولاه نافع "لا تكذب على كما كذب عكرمة على ابن عباس".

وبسبب كثرة أكاذيبه على ابن عباس بعد موت ابن عباس فإن على بن عبد الله ابن عباس جعل فى يديه وقدميه قيوداً وحبسه على باب الحش "دورة المياه" فسئل عن ذلك فقال: إن هذا الخبيث يكذب على أبى..!!.

وقالوا أن مسلم تجنب الرواية عن عكرمة فروى له بعض الروايات مقروناً بغيره أى لم يروا له منفرداً،..

وأعرض مالك عن الرواية عنه إلا فى حديث أو حديثين وقال مطرف: سمعت مالكاً يكره أن يذكر عكرمة ولا أرى أنه روى عنه، وقال ابن حنبل أن مالكاً روى عن عكرمة حديثاً واحداً أما البخارى فقد روى عنه وانتقده المحققون فى ذلك كما سبق..

مناقشة حديث عكرمة فى "صحيح البخارى":

– روى البخارى ذلك الحديث عن طريق الرواة الآتى أسماؤهم "حدثنا أبو النعمان محمد بن الفضل عن حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال أتى على رضى الله عنه بزناقدة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس فقال لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى رسول الله ، ولقتلتهم لقول رسول الله: من بدل دينه فاقتلوه .

– والحديث يرويه عكرمة عن سيده ابن عباس ، فقد تضخمت الأحاديث المروية عن ابن عباس حتى لقد أسند له أحمد بن حنبل (1696) حديثاً.. هذا مع أن الآمدى فى كتاب "الأحكام فى أصول الأحكام) يقول أن ابن عباس لم يسمع من رسول الله سوى أربعة أحاديث لصغر سنه ويقول ابن القيم فى كتابه "الوابل الصيب من الكلم الطيب" أن ما سمعه ابن عباس من النبى لم يبلغ عشرين حديثاً .

وذلك الأقرب للصواب من خلال سيرة ابن عباس فى كتب التاريخ، فابن عباس أسلم مع أبيه قبيل فتح مكة وقابل الرسول بالجحفة وهو ذاهب لفتح مكة، ومات النبى بالمدينة وابن عباس فى مكة فى العاشرة من عمره، وفى رواية أنه كان فى الخامسة عشر من عمره.. أى رأى النبى مدة يسيرة وكان فيها طفلاً ملازماً لوالده فى مكة، فكيف يروى عنه مئات الأحاديث؟

وقد روى عكرمة حديث من بدل دينه فاقتلوه، وقد نسبه لابن عباس ضمن ما نسبه إليه من مئات الأحاديث، وقد روى ذلك الحديث عن عكرمة أحد الزهاد المشهورين فى عصره وهو أيوب السختيانى واسمه أبو بكر بن تميمة، ولم يذكره الذهبى فى ميزان الاعتدال مع شهرته، وقد ترجم له ابن سعد فى الطبقات الكبرى وابن الجوزى فى المنتظم ، وروى ذلك الحديث عن أيوب السختيانى تلميذه حماد بن درهم وقد ترجم له ابن الجوزى فى المنتظم وابن سعد فى الطبقات الكبرى، ولم يذكره الذهبى أيضاً فى ميزان الاعتدال. ويروى الذهبى– مع ذلك– فى ترجمة لعكرمة أن حماد بن زيد روى أن شيخه أيوب السختيانى سئل: هل كان عكرمة يُتّهم: أى كان مطعوناً فيه؟ يقول حماد بن زيد عن شيخه أيوب: فسكت ساعة ثم قال: أما أنا فلم أكن أتهمه. أى كانوا يتهمون عكرمة فى مجلس أيوب السختيانى ومع ذلك كان أيوب يصمم أنه لا ينبغى اتهامه. وقد قال يحيى بن سعيد أن عكرمة كان لا يحسن الصلاة فرد عليه أيوب وكان– أى عكرمة– يصلى.. أى كان أيوب يدافع عنه فى كل مجلس..

ويروى أن يحيى بن سعيد الأنصارى ذكر عكرمة فقال: أنه كذاب، فرد عليه أيوب السختيانى: لم يكن يكذب.. وأيوب السختيانى يعلل بذلك روايته عن عكرمة وأخذه عنه الأحاديث. وما رواه أيوب عن عكرمة نقله بعده تلميذه حماد بن زيد بن درهم ثم نقل الحديث عن حماد شيخ آخر هو محمد بن الفضل وكنيته أبو النعمان المتوفى سنة 224 وهو شيخ البخارى ولقبه عارم، "وعنه روى البخارى حديث عكرمة فى قتل المرتد، وجدير بالذكر أن أبا النعمان عارم قال فيه أبو حاتم أنه اختلط عقله فى آخر عمره، واعترف البخارى بأنه تغير عقله وقال عنه أبو داود: استحكم به اختلاط عقله". وقال فيه الدارقطنى: تغير– عقله– بآخره، وقال ابن حبان

اختلط فى آخر عمره وتغير حتى كان لا يدرى ما يحدث به فوقع فى حديثه المناكير الكثيرة فيجب التنكب عن حديثه ولا يحتج بشىء منها..

وذلك ما قيل عن أبى النعمان محمد بن الفضل الملقب بعارم، والذى كان أول السلسلة فى رواة حديث "من بدل دينه فاقتلوه" وكان عكرمة آخرها، فأول السلسلة خلط وهذيان عقل، وآخر السلسلة كذب وافتراء، وأما ما بينهما (حماد بن زيد، وأيوب السختيانى) فهما من الزهاد الذين لديهم استعداد لتصديق كل ما يقال..

* ونتوقف مع متن الحديث:

ويقول فيه عكرمة أنه جئ لعلى بن أبى طالب بزنادقة فأحرقهم.. ولم يحدث فى تاريخ على بن أبى طالب أن أحرق خصومه، بل كان مشهوراً بتفادى سفك الدماء ما أمكن ويظهر ذلك فى تاريخه فى حروبه وفى تعامله مع الخوارج، وحتى فى وصيته قبل موته بقاتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجى..

وإذا عرفنا كراهية الخوارج لعلى أدركنا لماذا وضع عكرمة تلك العبارة فى سياق ذلك الحديث لتشويه سيرة على وليصل بعد ذلك إلى غرضه الأساسى فى إيقاع الاقتتال بين المسلمين طبقاً لقوله "من بدل دينه فاقتلوه..". والخوارج يرون كفر ما عداهم، ويستحلون دماء المسلمين جميعاً حتى النساء والأطفال.. وعكرمة يفتى بهذا الحديث لكل من يستطيع سفك الدماء أن يقتل ما استطاع وبتهمة أن الضحية بدل دينه.. والعبارة تتسع للتأويل حسب الهوى..

– وجاءت العبارة عامة "من بدل دينه فاقتلوه" لتشمل المسلمين والنصارى واليهود فمن بدل دينه من اليهود والنصارى ودخل الإسلام فاقتلوه، وذلك حتى يفرح عكرمة !!

– وجدير بالذكر أنها المرة الوحيدة التى يحتوى فيها حديث على كلمة الزنادقة، وهى كلمة فارسية– وعكرمة فارسى– وهى تعنى بالفارسية (زند وكرو) أى القائل بدوام الدهر، وقال الإمام ثعلب: ليس فى كلام العرب زنديق.. ولكن أدخل عكرمة هذه الكلمة فى الأحاديث ضمن ذلك الحديث المفترى الذى نسبه للرسول عليه السلام.

رابعاً: هل يصح قتل الناس بأحاديث الآحاد..؟

قام حد الردة المزعوم على مجرد حديثين أثبتنا كذبهما بمعايير الجرح والتعديل ومن خلال أدلة من كتب التراث نفسها، كما أثبتنا من قبل تناقضهما مع تشريع الإسلام الحقيقى فى القرآن الذى هو الفيصل فى سنة الرسول عليه السلام..

ولكن:

دعنا نفترض أن حديثى الردة حديثان صحيحان، ودعنا نفترض أن القرآن الكريم لا يعارضهما ولا يؤيدهما

فهل يصح الاعتماد على حديثين فى تأسيس تشريع؟

وهل يصح إقامة تشريع سنده الوحيد حديثان من أحاديث الآحاد؟

وهل يصح أن تقتل الناس بتهمة الردة اعتماداً على حديثين فقط؟

وهل تهون حياة الناس إلى هذا الحد؟

دعنا نرجع إلى آراء العلماء.. ونكتفى بهم والفضل ما شهدت به العلماء...!!

ونبدأ الموضوع بلمحة عن الحديث المنسوب للنبى عليه السلام..

فحين مات النبى عليه السلام لم يكن مع المسلمين إلا القرآن الكريم كتاباً مكتوباً مدوناً وأوصى النبى بالتمسك به. وذلك ما أورده البخارى ومسلم فى حديث يرويه كلاهما عن الصحابى عبد الله بن أوفى.

وقالوا إن عبد الله بن أوفى كان أحد الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة وقال فيهم الله تعالى ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ (الفتح 18) وشهد عبد الله بن أوفى مع النبى ست غزوات، وجرح يوم حنين، وهو آخر من مات من الصحابة بالكوفة..

سئل عبد الله بن أوفى هل أوصى رسول الله؟ قال: لا. قيل فلم وقد كتبت الوصية على الناس؟ فقال: وصى بكتاب الله..

وقال الحافظ بن حجر فى شرح هذا الحديث فى كتاب فتح البارى :

"أى التمسك به والعمل بمقتضاه، ولعله أشار إلى قوله صلوات الله عليه "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله" واقتصر على الوصية بكتاب الله لكونه أعظم وأهم ولأن ما فيه تبيان كل شىء أما بطريق النص وإما بطريق الاستنباط فإذا اتبع الناس ما فى الكتاب عملوا بكل ما أمرهم به".

والحديث رواه مسلم فى سياق حجة الوداع إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا. وفى رواية أخرى عن جابر لما خطب الرسول يوم عرفة: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا إن اعتصمتم به كتاب الله".

وقد تلاعبوا بذلك الحديث فقالوا كتاب الله وسنتى، مع أن سياق الحديث فى البداية يدل على التمسك بشى واحد "تركت فيكم ما إن تمسكتم به.." و(به) يرجع إلى شىء واحد هو الكتاب ولو كان مع الكتاب شىء آخر لقال "ما إن تمسكتم بهما..".

ويروى البخارى حديث رفيع: قال دخلت أنا وشداد بن معقل على ابن عباس فقال له شداد بن معقل أترك النبى من شىء قال ما ترك إلا ما بين الدفتين، دخلنا على محمد بن الحنفية فقال ما ترك إلا ما بين الدفتين.."

أى سئل ابن عباس وابن الحنفية (محمد بن على بن أبى طالب) عما تركه النبى فرد كلاهما بأنه المصحف "ما بين الدفتين".

ثم تكاثرت الرواية على النبى وبدءوا فى كتابة أحاديث عنه مع أنه عليه السلام قال فيما يرويه أحمد ومسلم والدارمى والترمذى والنسائى "لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن فمن كتب عنى غير القرآن فليمحه".

ونهى أبو بكر عن رواية الأحاديث، وجاء فى تذكرة الحفاظ للذهبى أنه قال: إنكم تحدثون عن رسول الله أحاديث تختلفون فيها والناس بعدكم أشد اختلافاً فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه".

وتشدد عمر فى رفض كتابة الأحاديث، وقال فيما يرويه البيهقى وابن عبد البر "إنى كنت أريد أن أكتب السنن، وإنى ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فانكبوا عليها وتركوا كتاب الله. وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدا..".

ولكن تكاثرت روايات الأحاديث بعد دخول المسلمين فى الفتنة الكبرى والحكم الاستبدادى الأموى ثم العباسى حيث احتاج كل فريق لتعزيز موقفه بالأحاديث وبعد أن أسالوا دمائهم أنهاراً كان سهلاً عليهم أن يجترئوا فى الكذب على رسول الله..

وأفزعت كثرة الأحاديث الكاذبة نفراً من العلماء فهبوا لتنقيتها وتمحيصها ونشأ ما يعرف بعلم الجرح والتعديل وتمحيص أحوال الرواة..

وقد قسموا الأحاديث إلى قسمين: متواتر وآحاد.

فالمتواتر هو أخبر به جماعة بلغوا فى الكثرة مبلغاً يستحيل معه تواطؤهم على الكذب وهو بهذا يفيد اليقين.

وهو بهذا لا يدخل فى موضوع الجرح والتعديل وعملية الإسناد، لأن الجرح والتعديل قائم على الشك فى الحديث رواته، والمتواتر منزه عن الشك..

ولذلك قالوا أن إثبات التواتر فى حديث ما عسر جداً. وقال الشاطبى: أعوز أن يوجد عن رسول الله متواتر، وقال ابن حبان السبتى أن الأحاديث كلها المروية عن الرسول أحاديث آحاد، وقال النووى فى التقريب: المتواتر من الأحاديث المعروفة فى الفقه وأصوله قليل جداً لا تكاد توجد..

أما أحاديث الآحاد فهى كل المرويات عن الرسول من أحاديث فى نظر أغلبية المحققين، ولذلك يقسمون أحاديث الآحاد حسب درجتها من الصحة إلى صحيح وحسن وضعيف وكلها تفيد الظن ولو كانت عندهم صحيحة، إلا أنهم فى ذلك التقسيم مختلفون لأنه علم قابل للشك واختلاف وجهات النظر..

والملاحظ أن أحاديث الآحاد كانت تتكاثر وتتوالد كلما تباعد الزمن عن عهد ، فقد كانت فى عهد الأمويين أقل منها فى العصر العباسى الأول، وعلى سبيل الرسول المثال فإن الإمام مالك كتب الموطأ فى أواخر عهد المنصور العباسى أى فى سنة 148، وعدد أحاديثه (1008 حديثاً) بعضها منسوب للنبى وبعضها منسوب للصحابة فقط.

بعد أن غربلها ونقل وأسقط منها الكثير.

وبعده بقرن من الزمان جمع البخارى (600) ألف حديث اختار منها البخارى ما بين (3: 4) آلاف حديث، ومات البخارى سنة 256 هـ وبعد البخارى زاد تضخم الأحاديث إلى درجة أن كتب ابن الجوزى (ت سنة 597) فى الأحاديث الموضوعة.. وهكذا تضخمت أحاديث الآحاد بمرور الزمن لأن كل زمن كان يصنع من الأحاديث ما يعبر عن أحوال الناس فيه..

وكل تلك الأحاديث غريبة عن العصر المضىء عصر النبى عليه السلام، وهى بنفس القدر تعبر عن العصور التى صيغت فيها. لذلك كان المحققون فى العصور المتأخرة كالسيوطى (ت 911) أكثر تساهلاً فى قبول الأحاديث وتصحيحها وأكثر دفاعاً عن الباطل منها.

– ثم جاء عصر الصحوة الإسلامية فكان الإمام محمد عبده لا يأخذ بحديث الآحاد مهما بلغت درجته من الصحة فى نظر المحدثين، ولذلك فإنه مثلاً استنكر حديث اليهودى الذى سحر النبى مع أن ذلك الحديث مذكور فى البخارى ومسلم وأحمد والنسائى..

وحديثا الردة المطعون فيهما من أحاديث الآحاد.. فهل يمكن الأخذ بهما؟ وهل يمكن لهما الاستقلال بالتشريع؟ إن كتاب الفقه على المذاهب الأربعة الذى تحدث عن حد الردة يقول أن الحدود الشرعية التى اتفق عليها الفقهاء "هى ثلاثة فقط (السرقة– الزنا– القذف) أى ليس هناك اتفاق على ما يسمى بحد الردة.. أى أن بعض الفقهاء لم يأخذ بحديثى الردة المطعون فيها، وبمعنى آخر ليس هناك إجماع بين الفقهاء حول حد الردة.

والشيخ محمد الغزالى الذى تحمس لحد الردة جاء فى كتابه "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث" ما يؤكد على نفى حد الردة.. يقول "أحصيت أكثر من مائتى آية تتضمن حرية التدين وتقيم حدود الإيمان على الاقتناع الذاتى وتقصى الإكراه عن طريق البلاغ المبين" إلى أن يقول "فأما تصوير الإسلام بأنه يتحرش بالآخرين ويتعطش لدمائهم فهو افتراء على الله والمرسلين، ومع أننا أشبعنا هذا الموضوع بحثاً فى كتبنا الأخرى فإن الحاجة إلى الكلام فيه لا تزال ماسة، ذلك أن حديث الإفك لا ينقطع"، ثم يقول "وفى هذه الأيام النحسات شاعت الخلافات فى أرجاء الأمة وقتل بعضها بعضاً بل أن حصيلة القتلى فى الفتن الداخلية أربى من القتلى فى محاربة الاستعمار الصليبى" وتأسيساً على ما قاله الشيخ الغزالى فإن حد الردة المزعوم يناقض الآيات القرآنية التى تتضمن حرية التدين وتنفى الإكراه فى الدين، والفقرات التى نقلناها من كلامه تنطبق تماماً على المروجين لحد الردة المزعوم والمتخصصين فى اتهام الغير بالكفر والردة والمتعطشين لدماء المسلمين، ويقول الغزالى أن الحديث يسقط إذا كانت به علة فادحة أو كان شاذاً، وحديثاً الردة ينطبق عليهما الاثنان معاً طالما أن سيرة النبى باعتراف الغزالى تنفى أن النبى قتل واحداً من المرتدين.

والغزالى يقول أن حديث الآحاد– حتى لو كان صحيحاً– فإنه لا يفسد اليقين "أما الزعم بأنه يفيد اليقين كالأخبار المتواترة فهى مجازفة مرفوضة".

ويعنى أنها مجازفة أن نسفك دماء المسلمين اعتماداً على حديث صحيح يفيد الظن فكيف إذا كان حديثاً كاذباً؟ والشيخ الغزالى يوضح الأمر بالنسبة للأحاديث الضعيفة فيتسامح معها بشرط أن تكون بعيدة عن العقائد والتشريع يقول: "من حق المهتمين بالأحاديث الضعيفة أن يذكروها بعيدة عن دائرة العقائد والأحكام التشريعية فإن الدماء والأموال والأعراض أكبر من أن نتداول فيها شائعات علمية"!!.

وعليه فإن حديثى الردة- وهما من الشائعات العلمية- ينبغى ألا يقام عليها تشريع يسفك دماء المسلمين ظلماً وعدواناً..

ثم يهاجم الشيخ الغزالى المتمسكين بالأحاديث الباطلة ويقول "وقد ضقت ذرعاً بأناس قليلى الفقه والقرآن كثيرى الظن فى الأحاديث يصدرون الأحكام ويرسلون الفتاوى فيزيدون الأمة بلبلة وحيرة، ولازلت أحذر الأمة من أقوام بصرهم بالقرآن كليل وحديثهم عن الإسلام جرئ واعتمادهم على مرويات لا يعرفون مكانها من الكيان الإسلامى" .

وهو بذلك يضع النقاط فوق الحروف فى موضوع الردة المعتمد على مرويات قل من يعرف مكانها من الكيان الإسلامى.

والشيخ الغزالى استشهد بفتوى الأزهر فى كتابه "تراثنا الفكرى" والفتوى تتحدث عن الذى ينكر استقلال السنة بالإيجاب والتحريم أى التشريع هل يعد كافراً أم لا..

يقول الشيخ الغزالى فى كتابه المذكور: "بيد أن بعض الفتية يوقدون فى عصرنا هذا فتناً محرمة بسوء مسلكهم" إلى أن يقول "أننى أذكر هذا الكلام وبين يدى فتوى أصدرها الأزهر الشريف حسماً لفتن شديدة أشعلها فتية أغرار باسم إقامة السنة وتحت عنوان السلفية وقد توسع الفتوى فى شرح الأحكام والأدلة حتى تسد الطريق أمام أصحاب الشغب والغرض".

وأتى الشيخ بنص الفتوى: "السيد الأستاذ رئيس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد: فهل من أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم يعد كافراً أم لا؟ نرجو الإفادة بالرأى مع الاستدلال وشكراً:

الفتوى:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين وبعد..

تنقسم الأحكام عند الجمهور إلى خمسة أقسام:

1- الواجب: وهو ما يثبت طلبه من المكلف بنص صريح قطعى الثبوت وقطعى الدلالة، بمعنى أن له معنى واحداً فلا يختلف فى معناه المجتهدون من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة.

2- الحرام: هو ما طلب الشارع من المكلف تركه بدليل قطعى الثبوت وقطعى الدلالة من كتاب الله أو سنة رسوله المتواترة.

3- المندوب: ما طلب الشارع فعله طلباً غير حتم ولا جازم يثاب على فعله ولا يعاقب على تركه.

4- المكروه: ما طلب الشارع تركه طلباً غير حتم ويثاب على تركه ولا يعاقب على فعله.

5- المباح: ما خير المكلف بين فعله وتركه، أو لم يرد دليل فيه بالتحريم.

وتنقسم السنة إلى متواترة وآحادية:

فالمتواترة ما رواها جمع عن جمع يستحيل أو يبعد أن يتفقوا على الكذب، قال الحازمى فى شروط الأئمة الخمسة ص 37: "وإثبات التواتر فى الحديث عسر جداً"، وقال الشاطبى فى الجزء الأول من الاعتصام ص 135: "أعوز أن يوجد حديث عن رسول الله متواتر"، وعلى الرغم من ندرة الحديث المتواتر واختلاف علماء

السنة على ثبوته وعدده، يرى الجمهور أن من أنكر استقلال السنة المتواترة بإثبات واجب أو محرم فقد كفر.
والسنة الأحادية هى ما رواه عدد دون المتواتر عن النبى ، وقد اختلف العلماء فى استقلال السنة الأحادية بإثبات واجب أو محرم..
فذهب الشافعية ومن تبعهم إلى أن من أنكر ذلك فى الأحكام العملية كالصلاة والصوم والحج والزكاة فهو كافر، ومن أنكر ذلك فى الأحكام العلمية كالإلهيات والرسالات وأخبار الآخرة والغيبيات فهو غير كافر لأن الأحكام العلمية لا تثبت إلا بدليل قطعى من كتاب الله وسنة رسوله المتواترة.
وذهب الحنفية ومن تبعهم إلى أن السنة الآحادية لا تستقل بإثبات واجب أو محرم سواء أكان الواجب علمياً أو عملياً وعليه فلا يكفر منكرها، وإلى هذا ذهب علماء أصول الفقه الحنفية فقال البرذوى: "دعوى علم اليقين بحديث الآحاد باطلة لأن خبر الآحاد محتمل لا محالة ولا يقين مع احتمال ومن أنكر ذلك فقد سفه نفسه وأضل عقله"، وبهذا أخذ الشيخ محمد عبده والشيخ أبو دقيقة وغيرهما، ويقول المرحوم الإمام محمد عبده: "القرآن الكريم هو الدليل الوحيد الذى يعتمد عليه الإسلام فى دعوته أما ما عداه مما ورد فى الأحاديث سواء صح سندها أو اشتهر أم ضعف فليس مما يوجب القطع"، كما ذكر الشيخ شلتوت فى كتابه "الإسلام شريعة وعقيدة" قوله: "إن الظن يلحق السنة من جهة الورود (السند) ومن جهة الدلالة (المعنى) كالشبهة فى اتصاله والاحتمال فى دلالته".
ويرى الإمام الشاطبى فى كتابه "الموافقات" أن السنة لا تستقل بإثبات الواجب والمحرم لأن وظيفتها فقط تخصيص علم القرآن وتقييد مطلقه وتفسير مجمله ويجب أن يكون ذلك بالأحاديث المتواترة لا الآحادية.
يؤيد آراء من سبق ذكرهم ما جاء فى صحيح البخارى باب الوصية وصية الرسول قبل وفاته: عن طلحة بن مصرف قال: "سألت عبد الله بن أبى أوفى: هل أوصى رسول الله قال: لا. قلت كيف وقد كتب على الناس الوصية أو أمروا بها ولم يوصى قال: أوصى بكتاب الله، قال ابن حجر فى شرح الحديث أى التمسك به والعمل بمقتضاه إشارة إلى قوله: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله. واقتصر على الوصية بكتاب الله لكونه فى تبيان كل شىء إما بطريق النص أو بطريق الاستنباط فإذا اتبع الناس ما فى الكتاب عملوا بكل ما أمرهم به.
وحديث سلمان الفارسى: "الحلال ما أحله الله فى كتابه والحرام ما حرمه الله فى كتابه وما سكت عنه فهو عفو لكم".
وأجاب الشاطبى عما أورده الجمهور عليه من قوله تعالى ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم﴾ بأن المراد من وجوب طاعة الرسول إنما هو تخصيصه للعام وتقييده للمطلق وتفسيره للمجمل وذلك بالحديث المتواتر، وإن كل ما جاء به النبى يجب أن يكون من القرآن لقول عائشة رضى الله عنها عن النبى "كان خلقه القرآن"، وأن معنى قوله تعالى ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء﴾ أن السنة داخلة فيه فى الجملة، وأكد الشاطبى ذلك بقوله تعالى ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شىء﴾ وقد رد على ما استدل به الجمهور مما روى عن النبى قوله "أيوشك أحدكم أن يقول: هذا كتاب الله ما كان من حلال فيه أحللناه وما كان من حرام حرمناه إلا من بلغه منى حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله" أن من بين رواة هذا الحديث زيد ابن الحباب وهو كثير

الخطأ ولذلك لم يرو عنه الشيخان حديثاً واحداً. وجاء بمسلم الثبوت والتحرير: "خبر الواحد لا يفيد اليقين لا فرق فى ذلك بين أحاديث الصحيحين وغيرهما".

ومما سبق يتضح أن الإيجاب والتحريم لا يثبتان إلا بالدليل اليقينى القطعى الثبوت والدلالة، وهذا بالنسبة للسنة لا يتحقق إلا بالأحاديث المتواترة، وحيث أنها تكاد تكون غير معلومة لعدم اتفاق العلماء عليها فإن السنة لا تستقل بإثبات الإيجاب والتحريم إلا أن تكون فعلية أو تضاف إلى القرآن الكريم.

وعلى هذا فمن أنكر استقلال السنة بإثبات الإيجاب والتحريم فهو منكر لشىء اختلف فيه الأئمة ولا يعد مما علم من الدين بالضرورة فلا يعد كافراً".

وقد أصدر هذه الفتوى الشيخ عبد الله المشد رئيس لجنة الفتوى بتاريخ 1/2/1990 . وبناء على فتوى الأزهر فإن السنة لا تستقل وحدها بإصدار تشريع يوجب شيئاً لازماً، وبالتالى فإنها لا تستقل بإصدار تشريع فيه سفك دماء الناس، خصوصاً إذا كان ذلك التشريع معتمداً على مجرد حديثين مطعون فيهما وكلاهما يخالف القرآن وما كان عليه رسول الله عليه السلام.

وعليه فإن الفتوى السابقة للأزهر تنفى حد الردة وتلغى العمل به.

****

الخاتمة

حد الردة حكم بقتل الناس جميعا:

سيطر المعتزلة على الخلافة العباسية فى عصر المعتصم والواثق واضطهدوا ابن حنبل وأتباعه، وفى عهد الخليفة الواثق حوكم أحمد بن نصر الخزاعى امام الخليفة الواثق وقتله الخليفة بيده معتقداً أنه يتقرب إلى الله بدمه ومتهماً إياه بالردة أو أنه زنديق.

وكان المعتزلة يرون أن القرآن مخلوق وأن رؤية الله تعالى مستحيلة وكان الحنابلة يرون أن القرآن غير مخلوق لأنه كلام الله تعالى وأن رؤية الله جائزة، وكان لكل فريق أدلته من تأويل الآيات ومن الأحاديث التى توافق مذهبه.

وننقل من تاريخ ابن الجوزى الحنبلى محاكمة ابن نصر الخزاعى إمام الخليفة الواثق يوم السبت غرة رمضان 231 قال له الخليفة: ما تقول فى القرآن. قال: هو كلام الله. قال: أفمخلوق هو؟. قال: هو كلام الله. قال: أفترى ربك فى القيامة؟. قال: كذا جاءت الرواية. قال: ويحك يرى كما يرى المخلوق هو؟. قال: هو كلام الله. قال: المحدود المجسوم ويحويه مكان ويحصره الناظر؟ أنا أكفر برب هذه صفته.. ما تقولون فيه؟. فقال عبد الرحمن بن إسحق القاضى: هو حلال الدم. وقال جماعة الفقهاء كما قال، فظهر ابن أبى داود (شيخ المعتزلة) أنه كاره لقتله، وقال: يا أمير المؤمنين شيخ لعل به عاهة أو تغير عقله، يؤخر أمره ويستتاب. فقال الخليفة الواثق: ما أراه إلا مؤذناً بالكفر قائماً بما يعتقده منه. ودعا الخليفة الواثق بالصمامة (سيف عمرو بن معد يكرب) وقال: إذا قمت فلا يقومن أحد معى فإنى أحتسب خطاى إلى هذا الكافر الذى يعبد رباً لا نعبده ولا نعرفه بالصفة التى وصفه بها، ثم أمر بالنطع (كساء يجلس عليه المحكوم عليه بالإعدام حتى لا يلوث المكان بدمه) فأجلسه عليه وهو مقيد، وأمر بشد رأسه بحبل، وأمرهم أن يمدوه، ومشى إليه، حتى ضرب عنقه، وأمر بحمل رأسه إلى بغداد، فنصب إلى الجانب الشرقى أياماً وفى الجانب الغربى أياماً، وعلقت ورقة فى أذنه فيها: "بسم اله الرحمن الرحيم: هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك دعاه عبد الله الإمام هارون الواثق بالله أمير المؤمنين إلى القول بخلق القرآن ونفى التشبيه فأبى إلا المعاندة فعجله الله إلى ناره..".

أى أن الخليفة الواثق حكم بكفره وقتله بيده وحكم أيضاً بدخوله النار..!!

أى أن الخليفة الأحمق ما ترك لله تعالى شيئاً..

وظل رأس أحمد بن نصر مصلوباً ببغداد، وظل جسده مصلوباً بسامراء إلى أن أنزل وجمع بين رأسه ويديه ودفن فى مقبرة..

– وأشاع الحنابلة كرامات حول رأس أحمد بن نصر وأشاعوا كثيراً من الأحاديث التى تعزز مذهبهم، وتؤكد على أهمية تغيير المنكر باليد وكان أحمد بن نصر فى حياته من المشهورين بتغيير المنكر باليد، وفى النهاية رأى الخليفة المتوكل العباسى أن يقتنع بفكر الحنابلة فاستطاعوا اضطهاد خصومهم من الصوفية واستطاعوا اضطهاد النصارى واليهود..

– ومرت الأيام وأصبحت للصوفية المكانة والسيطرة، فاضطهد الصوفية خصومهم من فقهاء الحنابلة، وفى القرن الثامن الهجرى كان ابن تيمية أكبر فقيه حنبلى يواجه اضطهاد الصوفية وأعوانهم من الفقهاء، وكان يخرج من السجن إلى النفى س، إلى محاولات القتل، وانعكس ذلك على فتاويه فصار أكثر حدة فى الحكم على خصومه وأكثر جرأة فى الإفتاء بقتلهم..

ونظرة سريعة إلى فتاوى ابن تيمية نزاه يوزع القتل على كل من يخالفه فى الرأى، فصاحب البدعة يستحق القتل، ومن السهل أن ترمى كل فرقة الفرقة الأخرى بأنها صاحبة بدعة، وإذا عرفنا أن المسلمين فرق وطوائف شتى أدركنا أن ابن تيمية يعطى مبرراً تشريعياً لأن تقتل كل طائفة غريمتها بتهمة الردة..

ويفتى ابن تيمية بتكفير المسلم الذى يجهر بالنية فى الصلاة حتى لو كان فى جهره يعتقد أن ذلك مما يأمر به الله تعالى.. ويدعو ابن تيمية إلى قتله..

ويفتى ابن تيمية بقتل المسلم الذى لا يلتزم بالصلاة فى وقتها أو يؤخر صلاة الفجر إلى بعد طلوع الشمس أو يؤخر صلاة الظهر والعصر إلى بعد غروب الشمس.

ويفتى بقتل المسلم الذى يحضر المسجد ولا يشارك فى صلاة الجماعة.

ويفتى بقتل المسلم الذى يخالف رأى ابن تيمية فى قصر الصلاة فى السفر. وفى كل ذلك يشترط الاستتابة.

بل إنه يفتى بقتل أى مسلم بدعوى أنه منافق يبطن الكفر ويظهر الإسلام، أى يعطى الحجة لأى فرد لكى يقتل من يشاء من المسلمين بهذه التهمة وبدون استتابة فيقول ابن تيمية "أما قتل من أظهر الإسلام وأبطن الكفر فهو المنافق الذى تسميه الفقهاء بالزنديق فأكثر الفقهاء على أنه يقتل وإن تاب".

أى لا تجديه التوبة.. طالما رأى الفقهاء أنه زنديق..

أى يفتى بقتل الناس جميعاً..

ولم يستطع ابن تيمية تنفيذ تلك الفتاوى إذ أخمد الصوفية وأعوانهم من الفقهاء والمماليك حركته وتسيد التصوف وخرافاته العصرين المملوكى والعثمانى، ثم صحا المسلمون على الاستعمار الأوروبى يدق عليهم الأبواب..

وبدأت حركتان للنهضة.. حركة فى الجزيرة العربية قام بها الوهابيون تحارب التصوف ورموزه وتعيد دعوة ابن تيمية وتعتمد على الفقه الحنبلى والتشدد السلفى.. وحركة فى مصر تتطلع للأخذ عن أوروبا قام بها محمد على الذى أسس فى مصر الدولة الحديثة وأرسل البعوث لأوروبا فى نفس الوقت الذى قضى فيه على الرموز القديمة من المماليك والحامية العثمانية وسلطة الشيوخ فى الأزهر.. بل أرسل جيوشه تقضى على الدولة الوهابية وتدمر عاصمتها الدرعية، وتخلص بهذا من بقايا الجند العثمانيين، وبدأ فى إنشاء جيش عصرى حديث..

ومرت الأيام ورحل الاستعمار العسكرى، وقامت الدولة السعودية الثالثة وبرزت بتأثيرها النفطى فى المنطقة. فى نفس الوقت الذى تراجع فيه الدور المصرى فى الثمانينيات مما أتاح للفقه السعودى السلفى أن ينتشر وأتيح لفتاويه أن تعمل.

وتلونت الصحوة الدينية المعاصرة بالفقه البدوى الحنبلى المتشدد. وركزت على الجانب العقابى واحترفت الحظر والتحريم ورفعت شعار حرب الردة ترهب به الخصوم..

ومن الطبيعى فى هذا الجو أن يكون الإسلام العظيم متهماً بالإرهاب والتطرف وسفك الدماء..

هذا مع أن الله تعالى أرسل رسوله الكريم رحمة للعالمين وليس لسفك دماء العالمين. هذا مع أن المسلم إذا ذبح دجاجة استأذن الله تعالى وذكر اسمه. ولكن محترفى التدين يحكمون بقتل الناس جميعاً وباسم الله وبالمخالفة لتشريع الله..

إن مفهوم الردة كما تعلمناه فى الأزهر هو قول كفر أو اعتقاد كفر أو فعل كفر، وبهذا المفهوم يكون من السهل أن تتهم الناس جميعاً بالردة ويكون من السهل أن تحكم بقتلهم جميعاً..

وقد كان ذلك مجرد سطور فى كتب الفقه التراثية المقررة علينا فى سنوات الدراسة الإعدادية بالأزهر..

ولكنهم نشروا هذا الكلام على أنه الإسلام وأتاحت لهم الدولة السيطرة على أجهزة الإعلام فنشأ جيل جديد قد رضع التطرف على أنه الإسلام، ولأنه جيل قد صودرت أحلامه وضاعت حقوقه الطبيعية فى العثور على عمل ومسكن وحياة كريمة فقد كفر بالدولة وكفر بالمجتمع وحكم بكفر الجميع، وبالتالى استحل دماء الناس جميعاً، وعرفت مصر لأول مرة فى تاريخها أن يقوم بعض أبنائها بالقتل العشوائى فى الشوارع فتنفجر القنابل ويموت الأبرياء من الأطفال والنساء والصغار والكبار.

وهذا القاع الذى وصلنا إليه له بداية.. هى فتوى بقتل نفس بغير حق.. ويترتب على هذه الفتوى استباحة قتل الناس جميعاً مصداقاً لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾. صدق الله العظيم

ودائماً صدق الله العظيم

المسكوت عنه من سيرة عمر

مقدمة :

عناوين للمقال البحثي

الدولة الاسلامية لا يمكن ان تكون غازية محتلة بالقوة لبلاد الاخرين .

عدل عمر تمتع به المسلمون الاحرار فقط ، دون مواطني البلاد المفتوحة .

دولة عمر حين أشرفت علي العالم تعاملت بمنطق العالم وقتها ، منطق الجاهلية والعصور الوسطي وليس منطق الدولة الاسلامية .

كل سلبيات الامويين والعباسيين وحتي العثمانيين بدأت جذورها في دولة عمر .

عمر بن الخطاب : بيانات البطاقة الشخصية والعائلة

اللقب : الفاروق

الكنية : ابو حفص

الاسم بالكامل : عمر بن الخطاب بن عبد العزي بن رباح بن عبد الله بن قرط بن زراح بن عدي بن كعب .

اسم الام : حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

اسماء الزوجات والابناء :

1. زينب بنت مطعون : انجبت له عبد الله وعبد الرحمن وحفصة .
2. ام كلثوم بنت جرول : انجبت زيدا الاصغر وعبيد الله .
3. ام كلثوم بنت علي بن ابي طالب وفاطمة بنت الرسول : انجبت زيدا الاكبر ورقية .
4. جميلة بنت ثابت : انجبت عاصم .
5. ام ولد (جارية) اسمها لهية : انجبت له عبد الرحمن الاوسط .
6. ام ولد (جارية) اسمها فكيهة : انجبت له زينب .
7. ام ولد (مجهولة الاسم) انجبت له عبد الرحمن الاصغر .
8. ام حكيم بنت الحارث . انجبت فاطمة .
9. عائكة بنت زيد بن عمر : انجبت له عياض .

تاريخ الميلاد : قبل حرب الفجار بأربع سنين ، وبعد الفيل بثلاث عشرة سنة .

تاريخ اسلامه : في السنة السادسة من النبوة ، وكان عمره ستا وعشرين سنة .

تاريخ تولية الخلافة : يوم الثلاثاء ، 22 جمادى الاخرة سنة 13 .

تاريخ موته : اغتيل صباح الاربعاء 26 ذو الحجة 23 وقيل صباح الاحد اول المحرم سنة 24 .

مدة ولايته : عشر سنين وخمسة اشهر واحدي وعشرون ليلة .

صورته الشخصية : ابيص تعلوه حمرة ، ضخم جسيم ، اعسر ايسر ، اصلع ، ثم تحول لونه الي السواد بسبب جوعه الاختياري لمواساة المسلمين العرب في مجاعة الرمادة .

اهم القضايا في سيرة عمر : المسكوت عنه في تاريخ عمر .

مقدمة : في اعتقادنا انه ليس في الاسلام ايمان بشخص ، انما الايمان بالوحي الذي يصير به النبي مرسلا . وعمر بن الخطاب شخصية تاريخية انسانية ، فيها كل ما في الانسان من ضعف وقوة ، وظلم وعدل ، الا ان التأريخ لعمر وقع بين طرفي نقيض ، فالشيعة لم يتركوا فيه منقبة حسنة ، بل ملأوا سيرته سبا وذما ، والسنة جعلوه ملاكا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، واتفق الشيعة والسنة معا علي خلق شخصية لعمر من خيالاتهم الشخصية بعيدة عن التصور الانساني ، وضاعت الشخصية الانسانية الحقيقية لعمر بين هؤلاء وهؤلاء ، ونحاول في هذه الورقة المتعجلة ان نتوقف مع اقدم روايات اهل السنة عن عمر لنخرج منها بالجانب الاخر لتكون الصورة متوازنة ، مع تأكيدنا علي ان الحقائق التاريخية حقائق نسبية يجوز فيها الصدق والكذب ، وبهذا فهي تختلف عن حقائق القرآن التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ولأن عمر ليس من حقائق القرآن وانما هو من حقائق التاريخ ، فكل ما يقال عنه يخرج عن دائرة الايمان ويدخل في دائرة البحث التاريخي .

فتعالوا بنا الي المسكوت عنه في تاريخ عمر مما كتبه مؤرخو السنة .

1. يقول ابن سعد في الطبقات الكبري ان عمر كان يأمر الولاة بأن يوافوه في موسم الحج ، ثم يخطب في العرب المسلمين فيقول (ايها الناس اني لم ابعث عمالي عليكم ليصيبوا من ابشاركم " أي اجسادكم" ولا من اموالكم ، وانما بعثتهم ليحجزوا بينكم وليقسموا فيئكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم) فقام رجل فقال ان الوالي فلان ضربني مائة سوط ، فأمر عمر ان يضرب ذلك الوالي مائة سوط ، فتوسط عمرو بن العاص حتي ارضوا الرجل الشاكي بأن دفع له الوالي مائتي دينار بدلا من ان يضربه الرجل مائة سوط .(الطبقات الكبري 3/211[.الواضح في الخبر هو ان عمر كان يتحري العدل بين العرب في الامصار المختلفة المفتوحة ، لا فارق بين جندي وقائد ، وهذا شئ جميل.

ولكن المسكوت عنه انه اذا كان الظلم يحدث بين العرب المسلمين بحيث يضرب احدهم الاخر مائة سوط ظلما، فماذا كانوا يفعلون مع الغلابة ابناء البلاد المفتوحة ؟. اذا حاولت ان تجد الاجابة.. يقال لك: اسكت هس!!

ومشهورة قصة المصري مع ابن عمرو بن العاص ، حين تسابقا فسبقه المصري ، فاغتاظ ابن عمرو ، فضرب المصري قائلا : كيف تسبق ابن الاكرمين ، فجاء المصري الي المدينة وشكي ابن عمرو واباه ، فأمر عمر بأن يضرب المصري ابن عمرو، وقال لعمرو : (متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) .

وقد اصبحت تلك المقولة من مآثر عمر ، واصبحت مثلا من الامثال الدالة علي المساواة والعدل .

وهذا كلام جميل ، وان لم ترد هذه القصة في اقدم المصادر التاريخية الموثقة ، ولكن مع افتراض صحتها ، فأن ذلك المصري الفارس الماهر كان من ابناء الاكابر ، لذلك لم يحتمل الاهانة وسافر علي نفقته وتحدث

بالعربية شاكيا ، او ربما وجد له مترجما ووجد بأمواله من يساعده للوصول الي الخليفة في المدينة ليطلب منه حقه .. فما بالك بملايين المصريين وقتها (كان عدد المصريين حينئذ يزيد عن عشرة ملايين [.
المسكوت عنه هنا هو ملايين الآهات في الريف المصري الناطقة باللغة القبطية ، والتي لا تستطيع التفاهم مع عمر ، ولا تستطيع ان تصل له ، والتي لم يأبه بها احد .
فاذا حاولت ان تعرف حجم الظلم الذي تعرض له اجدادانا المصريون في الدلتا والصعيد في عصر عمر والذي تجاهله الرواة ، يقال لك : اسكت .. هس !!.

وحدثت مجاعة الرمادة في الجزيرة العربية فاستغاث عمر بوالي مصر عمرو بن العاص وكتب له يقول (من عبد الله امير المؤمنين الي العاصي بن العاصي .. سلام عليك ..، اما بعد فتراني هالكا ومن قبلي ، وتعيش انت ومن قبلك ، فياغوثاه .. ثلاثا[.
وسرعان ما كتب له عمرو] : لأبعثن لك بعير اولها عندك واخرها عندي [فبعث له بالطريق البري الف بعير بالدقيق والمؤن ، وبعث له بالطريق البحري عشرين سفينة محملة بالغذاء . والمسكوت عنه هنا .. كيف تم الاسراع بجمع كل هذه الاغذية من المصريين في الدلتا والصعيد ..هل بالتبرع عن طيب خاطر .. ام بالمصادرة والضرب ؟ .. اذا حاولت ان تعرف الاجابة قيل لك .. اسكت .. هس !!

ويروي الاحنف في مناقب عمر:] : كنا جلوسا بباب عمر فمرت جارية فقالوا : سرية امير المؤمنين (أي محظيته) فقالت الجارية : ماهي لأمير المؤمنين بسرية وما تحل له ، انها من مال الله ، فقلنا فماذا يحل له من مال الله ؟ فما هو قدر الا ان قد بلغت ، وجاء الرسول فدعانا ، فأتيناه ، فقال ، ماذا قلتم ؟ (فأخبروه) فقال : انا اخبركم بما استحل منه : يحل لي حلتان ، حلة في الشتاء وحلة في القيظ ، وما احج عليه واعتمر ، وقوتي وقوت اهلي كقوت رجل من قريش ، ليس بأغناهم ولا بأفقرهم)(طبقات ابن سعد 3/ 197 .[
الواضح هنا عدل عمر في انه لا يميز نفسه عن باقي المسلمين ..
ولكن المسكوت عنه هو حكاية الجارية التي جئ بها ظلما من اهلها الاحرار في البلاد المفتوحة ، واصبحت سلعة تباع وتشتري ، او حسب قولهم وقولها (من مال الله) . فاذا حاولت ان تجد توضيحا قيل لك : اسكت ... هس !!

ويقول ابن سعد ان عمر كان لا يأذن للسبي من الاسري من الرجال بدخول المدينة . واستأذن المغيرة بن شعبة حتي سمح عمر بأن يأتي للمدينة ابو لؤلؤة فيروز المجوسي ، وكان من سبي نهاوند ، ويقول عنه ابن سعد (كان خبيثا ، اذا نظر الي السبي الصغار يأتي فيمسح رؤوسهم ويقول ان العرب اكلت كبدي ..) وفي النهاية قتل عمر انتقاما .
والمسكوت عنه هم هؤلاء الالوف من الصبية والاطفال او الذراري الذين سباهم العرب المسلمون من اهاليهم من ايران والرافدين ومصر ، وفرقوا بينهم وبين اهاليهم وجعلوهم رقيقا بدون ذنب جنوه هم واهاليهم .. وهل

يصح هذا في عدالة الاسلام .. اذا تحدثت تطلب المزيد من المعلومات ، ولم تجد شيئا عنهم وعن آلامهم قيل لك .. اسكت .. هس !!

حسنا .. نحن لن نسكت ... ولن نهس !!
سنبحث الموضوع المسكوت عنه .. ليس طلبا للموضوعية العلمية فقط ، ولكن لتوضيح الرؤية الاسلامية القائمة علي القسط والعدل .. ولأن من بين اولئك المظاليم اجدادنا المصريين ، ونكاد نتحسس صراخهم بين روايات تاريخنا الاسلامي ، تلك الروايات التي تدور دائما حول الحاكم وتترك المظاليم .. و اذا كان الله تعالي يتسامح مع المظلوم اذا رفع صوته جاهرا بالسب واللعن ، بل ان الله تعالي يحب ذلك ، (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم : النساء 148) فكيف صادر اولئك المؤرخون حق اجدادنا في الصراخ .. انحيازا منهم للظالم ؟؟!!

تعالوا بنا الي بداية الموضوع :ماهو حكم الاسلام في الفتوحات الاسلامية ؟
هل الفتوحات العربية في عصر الراشدين تتفق مع تشريعات القرآن للدولة الاسلامية ؟
ان هذه الفتوحات كانت رد فعل لهجوم المرتدين علي المدينة في اول خلافة ابي بكر ، وقد هزمهم ، ثم طارد المرتدين الاخرين الي ان وصل الي اطراف الجزيرة العربية حيث تخوم الامبراطوريتين الفارسية والرومية . وبعد اخضاع المرتدين اراد ان يتخلص من شوكتهم الحربية بتصديرها الي الهجوم علي ممالك وولايات الامبراطوريتين ،و هكذا بدأت الفتوحات أو الغزوات ، والويل فيها للمغلوب دولة او شعبا . وكان الشعار المرفوع وقتها لتسويغ الفتوحات هو تخييرهم بين واحدة من ثلاث : اما الاسلام واما الجزية واما الحرب ، وهذا التخيير من جيش يقتحم حدود الاخرين متأهبا للهجوم عليهم لا يعني سوي اجبارهم علي الاسلام او دفع الجزية مع الذلة والعبودية او الدخول في حرب مع عسكر (يحبون الموت كما يحب اولئك الناس الحياة) .. وبذلك اكتسب الجهاد عند المسلمين معني جديدا يخالف معناه القرآني الذي كانت عليه دولة الاسلام في عصر النبي عليه السلام .
فالجهاد ان تضحي بالمال والنفس دفاعا عن عقيدتك وعن حرية العقيدة لك وللاخرين ، و ليس بأن تقتحم علي الاخرين بلادهم لتجبرهم علي الاسلام والا فالجزية ، والا فالحرب . ان ما كتبوه في سيرة النبي يؤكد علي الطبيعة الدفاعية للغزوات مع كثرة الاكاذيب في الروايات ، والتي تختلف عن حديث القرآن عن غزوات النبي (ص) ، ثم ان هذه الفتوحات تتناقض تماما مع القرآن في تشريعاته وقصصه .
ان تشريعات الجهاد في الاسلام تبدأ بالكلمة والموعظة القرآنية ، أي الجهاد بالقرآن (فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا : الفرقان 52) ويقترن ذلك بتحمل الاذي . و الطرد ومصادرة المال والهجرة . ثم يضطر المسلمون للدفاع عن انفسهم مخافة الاستئصال ضد عدو يطاردهم حتي بعد هجرتهم ، وحتي لا تتهدم بيوت العبادة لكل المؤمنين من صوامع لليهود وبيع للنصاري وصلوات لكل صاحب عقيدة ، ومساجد للمسلمين (الحج 40) وفي كل الاحوال فتشريعات القتال في الدولة الاسلامية تدور بين اوامر تشريعية

تخضع لقواعد تشريعية ، فالاوامر هي (قاتلوا) والقواعد التشريعية هي (في سبيل الله) بمعني ان يكون القتال دفاعيا فقط او قتال اولئك الذين يقاتلونكم وبدون اعتداء عليهم ، يقول الله تعالي (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين) .. (فمن اعتدي عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدي عليكم ، واتقوا الله : البقرة 190 ، 194) .أي ان المسلمين حين يعتدون علي من لم يعتد عليهم فانهم لم يتقوا الله .!!

وذلك العدو المعتدي اذا هزمته الدولة الاسلامية فمن حقها ان تجبره علي دفع غرامة حربية هي الجزية ، وذلك عرف مألوف في تاريخ العصور الوسطي ، وفي التاريخ الحديث والمعاصر ، ولنتذكر ما حدث لألمانيا بعد الحربين العالميتين ، وما حدث مع صدام حسين ، ومن حقها ايضا ان تحصل منه علي غنائم تركها في ميدان المعركة ، ولكن ليس من حقها ان تحتل ارضه لأن آية الجزية (التوبة 29) بما فيها من اوامر انما تخضع للقواعد التشريعية والمقاصد التشريعية التي تؤكد علي القسط والعدل ، ومعني ان الدولة المعتدية تعطي الجزية بعد هزيمتها أي انها تظل قائمة علي ارضها وشعبها ومواردها دون ان يحتلها المسلمون ، بالضبط كما حدث حين دفع الروم البيزنطيون الجزية للدولة الاموية والعباسية والعكس ، في اطار الحروب وما تداولوه من نصر وهزيمة ، وكل من الدولتين كانت في موقعها وعلي حدودها .

ولكن كل ذلك كله يخالف ما جري في الفتوحات العربية في عهد عمر ، لأن عمر بعد ان اسقط الدولة الفارسية فرض علي اهلها الجزية وفرض علي ارضها الخراج ، وهؤلاء الناس (الغلابة) لم يحاربوا احدا ، بل ان الدولة الفارسية نفسها لم تعلن الحرب علي الدولة العربية ، ولم تقتحم الجزيرة العربية ، بل العكس هو ما حدث ، فالعرب المسلمون هم الذين اقتحموا علي الفرس دارهم ، وبعد ان هزموا الجيوش في مواقع متعددة داخل بلادها ، سلبوا كنوز الفرس في كل مدينة ، واسترقوا الذرية من النساء والاطفال فيما بينهم ، ثم بعدها فرضوا علي المساكين اهل البلاد المفتوحة جزية علي الرءوس ، ثم ضريبة علي الارض ، ولا يتفق ذلك مع تشريعات القرآن بكل تاكيد .

وما حدث في مصر كان افظع ..

فالفرس كانوا اصحاب الملك ، وكانوا احدي أقوي قوتين في العالم ، لذلك حاربوا دفاعا عن النفس ، اما المصريون فقد كان البيزنطيون يحتلون ارضهم ويضطهدونهم في دينهم ، لذلك عاونوا العرب في فتح بلادهم نكاية في الروم ، واسهب المقريزي في توضيح انواع المساعدة التي قدمها المصريون لجيش عمرو الضئيل منذ ان نزل الفرما الي ان فتحوا له ابواب الاسكندرية خلسة .. ومع ذلك كافأهم عمر وعمرو بفرض الجزية عليهم ، وحين ترفق عمرو في تحصيل الجزية من المصريين عزله عمر بن الخطاب وعين مكانه عبد الله بن ابي السرج الذي ارهق المصريين بخراج اكثر وجزية اكبر ، وقال عمر بن الخطاب لعمرو يعايره (ان اللقحة – أي الناقة – قد درت بأكثر من درها الاول) يعني ان البقرة الحلوب قد زاد ايرادها بعد عزل عمرو عنها ، فقال عمرو لعمر (لأنكم اضررتم بالفصيل) أي لأنكم اضررتم بولدها ، أي اكلتم حقوق ابنائها واجعتم المصريين .. وهذه هي نظرة عمر وعمرو لمصر والمصريين .. انهم مجرد ماشية !!

لقد اتسعت الفتوحات العربية في عهد عمر فيما بين (14 : 23 هـ) لتمتد فيما بين اصفهان في شرق ايران الي طرابلس ليبيا ، ففي سنة 14 كانت فتوحات دمشق وحمص وبعلبك وموضع البصرة وهي الابلة ، وفي سنة 15 تمت فتوحات الاردن وانتصر العرب علي الروم في اليرموك ، وعلي الفرس في القادسية ، وفي سنة 16 تمت فتوحات الاهواز والمدائن والانتصار في جلولاء وهزيمة الامبراطور الفارسي يزدجر وهروبه ، ثم فتوحات تكريت شمال العراق ، ثم تسلم عمر بن العاص بيت المقدس ، وتمت فتوحات قنسرين وحلب وانطاكية ومنسج وسروج وقريقساء ، وفي سنة 18 تمت فتوحات جندباسبور وجلوان و الرهاد وسميساء وحران ونصيبين والموصل والجزيرة فيما بين العراق وسوريا ،وفي سنة 19 فتوحات قيسارية ، وفي سنة 20 فتحوا مصر غربا ، وتستر في ايران ، وفي سنة 21 فتح الاسكندرية ، ثم في نهاوند في ايران ، وفتح برقة في ليبيا ، وفي سنة 22 فتح اذريبجان والدنيور وماسبذان وهمذان والري وعسكر وقومس في اواسط اسيا ، وفتح طرابلس الغرب في ليبيا .

وفي السنة التي قتل فيها عمر كان فتح كرمان وسجستان ومكران واصفهان سنة 23هـ .

وخلال هذه السنوات العشر سالت دماء مئات الالوف من الابرياء في كل تلك المناطق ظلما وعدوانا تحت اسم الاسلام والجهاد ، وتشتت مئات الالوف من العائلات والاسر فيما بين اواسط اسيا الي ليبيا ، ونهب العرب كنوز المنطقة بعد المعارك وقسموا بينهم الذرية والنساء .

ونأخذ مثالا علي احدي المعارك التافهة ، والتي سجلها الطبري في اربع صفحات وقام بتلخيصها ابن كثير في ثلاثة اسطر ، تحت عنون (خبر سلمة بن قيس الاشجعي والاكراد : بعثه عمر علي سرية ووصاه بوصايا كثيرة ، فساروا فلقوا جمعا من المشركين فدعوهم الي احدى ثلاث خلال ، فأبوا ان يقبلوا واحدة منها ، فقاتلوهم ، فقتلوا مقاتليهم ، وسبوا ذراريهم وغنموا اموالهم ، ثم بعث سلمة رسولا الي عمر بالفتح والغنائم) (تاريخ ابن كثير 7/ 133 ، التفاصيل في تاريخ الطبري 4/ 186 : 190) لم تكن للاكراد دولة ، ولم تكن لهم علاقة بالعرب من أي نوع . وكل ما هنالك انهم فوجئوا بجيش لا يعرفون لغته يقتحم عليهم ديارهم ، فدافعوا عن وطنهم واموالهم واعراضهم ، فانهزموا ، وبعد ان قتل العرب] مقاتليهم) اخذوا النساء والاولاد والبنات سبيا ، واخذوا الاموال ، وكالعادة بعثوا بالخمس الي عمر ، واقتسموا فيما بينهم الاربعة اخماس من الغنائم المالية والبشرية . وتخيل نفسك تعيش في قرية ثم فوجئتم بجيش يهزم المدافعين عن القرية ، ثم يستبيح بيوت القرية ويستحل الدماء والاعراض والاموال ويصل الي بيتك ، يأخذ اموالك ، ويأخذ امك وزوجتك واختك وبناتك واولادك ، وقد يقتلك اذا قاومت ، فاذا استسلمت يفرض عليك جزية بحجة انه يحميك !! ثم يفرض ضرائب علي بيتك ، وارضك وانتاجك ، ثم تكون بعدها مواطنا من الدرجة الثانية ، وذلك تحت لافتة انك اهل ذمة النبي ، والنبي عليه السلام لم يشهد هذه الفتوحات ، ولم يكن يعلم الغيب حتي يعرف ما سيحدث بعده ويضع له تشريعا ، ناهيك ان النبي لا يملك التشريع ، وانما يتلقي التشريع ، و الا ما كان الله تعالي يقول له (يا ايها النبي لم تحرم ما احل الله لك تبتغي مرضاة ازواجك[.

وسلب الاموال وسبي الذرية لم يكن قاصرا علي البلاد التي يختار اهلها الحرب دفاعا عن انفسهم ، فقد كان يلحق السلب والنهب بالبلاد التي تختار الصلح والجزية ، يقول ابن كثير (وساق القعقاع الي حلوان فتسلمها ،

ودخلها المسلمون ، فغنموا وسبوا واقاموا بها ، وضربوا الجزية علي من حولها بعد ما دعوا الي الاسلام فأبوا الا الجزية : تاريخ ابن كثير 7/ 71) أي تسلموها بدون حرب ، ولكن علي ان تدفع الجزية ، ومع ذلك فقد سلبوا وسبوا واخذوا الجزية !! . أي ان الهدف الاساسي هو السلب والنهي والاسترقاق بحرب او بدونها .
وهذا يذكرنا بتلك المقولة التي نسبوها لعمر (متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا) ونري انها رواية كاذبة ..لأن الواقع انهم استبعدوا الاحرار
وفي تاريخ الطبري مئات الصفحات عن القتل والسلب والسبي ، نقتطف هذه الاسطر التي يحكيها احد الجنود العرب وهو " محفز" الذي شارك في موقعة جلولاء سنة 16 هـــ ، في ايران ، يقول (ودخلوا المدائن ، ولقد اصبت بها تمثالا لو قسم في بكر بن وائل لسد منهم مسدا ، عليه جوهر فأديته) أي سلمه للجيش .. الي ان يقول (فاذا امرأة كالغزال في حسن الشمس فأخذتها وثيابها ، فأديت الثياب ، وطلبت في الجارية حتي صارت لي ، فاتخذتها ام ولد : الطبري [4/ 26 : 27) ويذكر الطبري عن غنائم العرب بعد فتح المدائن ما يفوق الخيال ، من الذهب والجواهر وكنوز كسري وعرشه ، حتي كانوا يجدون بعض البيوت مليئة بالذهب والجواهر ، وجمعوا اطنانا من عطر الكافور وحسبوه ملحا فخلطوه بالطعام فأصبح شديد المرارة (تاريخ الطبري 3/19 :20 ، تاريخ ابن كثير 7/ 66 : 67]
ونعود اليك ونطلب منك ان تتخيل نفسك شاهدا محايدا ، تري جيشا يستبيح مدينة آمنة في وطنها لم تعتد مطلقا علي هذا الجيش الذي يعتدي عليها ، ثم الدماء هنا وهناك ، وبعدها استباحة البيوت وتجميع الاموال في كومة كبيرة ، وتجميع النساء والاطفال والفتيات في صفوف اخري ، ثم يقسم المال اخماسا ، يبعثون بالخمس الي الخليفة ، ويفرقون الاربعة اخماس بين المقاتلين ، بالعدل والقسطاس ، ثم يلتفتون الي النساء والاطفال ، فيأخذون منهم الاربعة اخماس يفرقونه علي افراد الجيش ، ثم يبعثون بالخمس الباقي منها الي المدينة مع تنفيذ وصية الخليفة عمر الي امراء الجيوش ، بألا يبعثوا الي المدينة الا بالصبية الصغار . وتخيل ما تسمعه من صرخات الامهات وعويل الاطفال حين تتشتت الاسرة الواحدة ، بين رجال قتلي امام بيوتهم حين كانوا يدافعون عن انفسهم ، وزوجة قد اخذها فلان ، واخت امتلكها علان ، وصبي صغير يبكي وقد بعثوا به الي المدينة ، واخت له استحسنها القائد فاستأثر بها لنفسه . وما تتخيله هو ما حدث فعلا وتردد بين سطور التاريخ في الفتوحات . ودين الله تعالي القائم علي القسط والعدل والسلم يأبي ذلك .
ونعود الي ابن سعد وهو يقول عن عمر (وضع الخراج علي الاراضين ، والجزية علي جماجم اهل الذمة فيما فتح من البلدان ، ووضع علي الغني ثمانية واربعين درهما ، وعلي الوسط اربعة وعشرين درهما ، وعلي الفقير اثني عشر درهما ، وقال : لا يعوز " أي لا يرهق" رجل منهم " أي الفقراء" درهم في الشهر : الطبقات الكبرى لابن سعد 3/ 202) .
وتأمل نبرة الاحتقار في صياغة الخبر في قوله (وضع الجزية علي جماجم اهل الذمة) أي الجزية علي الرءوس كالانعام ، مع ان الجزية في شريعة القرآن الكريم هي مجرد غرامة تدفعها دولة معتدية مهزومة جزاء عدوانها ، ولا توضع الجزية علي الافراد المساكين في بلاد احتلها العرب وعاملوا اهلها بالظلم والاحتقار . ثم انهم فرضوا الجزية علي الجميع ، حتي الفقراء الذين لا يجدون قوت يومهم ، الا ان عمر يري

انه ليس من الارهاق عليه ان يدفع درهما كل شهر .اما الغني والمتوسط الذي يملك ارضا او حانوتا فأنه يدفع خراجا او ضريبة بالاضافة الي الجزية .وهذا بعد ان سلب العرب ثروة البلاد المنقولة واسترقوا افضل من فيها من نساء وذرية ، وقتلوا الشباب الابي الذي حاول الدفاع عن ارضه وعرضه .

والمحصلة النهائية ان الفقراء المعدمين في البلاد المفتوحة كانت تؤخذ منهم الاموال لاثرياء العرب الذين تكدست لديهم الاموال من الغنائم والخراج والجزية . ذلك ان كل كنوز وثروات الفرس والمصريين وثروات وكنوز الروم التي تركوها في الشام ومصر ، كل ذلك سلبه العرب في الفتوحات ، واقتسموه فيما بينهم ، فأصبحوا وقتها اثرى اثرياء العالم ، ومع ذلك لم يتورعوا عن اخذ الجزية حتي من الفقراء المعدمين لتصب في جيوب اولئك الاثرياء المتخمين بالكنوز . وذلك ليس مجرد تخمين ولكنه استنتاج لما جاء في تاريخ ابن سعد عن عمر ، فأبو هريرة جاء لعمر بخمسمائة الف درهم فوزعه علي الناس ، وجاء الي عمر كل من عثمان وابن عباس فأعطاهما مالا كثيرا ، يقول ابن عباس معبرا عن كثرة ذلك المال (اما عثمان فحثا ، واما انا فجثيت لركبتي) أي كانوا يعبئون المال بكل ما يستطيعون ، وفي موقف اخر يقول ابن عباس (دعاني عمر بن الخطاب فأتيته فاذا بين يديه نطع عليه الذهب منثور حثا ، قال : هلم فاقسم هذا بين قومك) وبعث عمر الي ام المؤمنين زينب بنت جحش بكومة ذهب ، فلما رأتها فزعت منها واستترت منها ، ثم القت عليها ثوبا ، وقالت لخادمتها (اقبضي منه واذهبي به الي بني فلان ، وما زالت توزعه حتي نفذ) ، واستمر عمر يوزع هذه الكنوز والاموال وهو يقول : لأزيدنهم ما زاد المال ، لأعدنه لهم عدا ، فأن اعياني لأكيلنه لهم كيلا ، فأن اعياني حثوته بغير حساب) ويقول في موقف اخر] واني لأرجو ان اكيل لهم المال بالصاع) :
(الطبقات الكبري لابن سعد 3 / 207 ، 215 :[218) أي ان الذهب اصبح لديهم اكواما يوزعه عمر كما يوزع القمح والشعير ، بينما يأخذون الجزية والضريبة من فقراء مصر والعراق والشام وفارس ، وهم – أي الفقراء– مستحقون للزكاة اصلا في شريعة الاسلام التي تنهي عن اكتناز الذهب والفضة ، فضلا عن سلبها من اصحابها ظلما وعدوانا .

ومن الغريب ان شرع الله تعالي يوجب الزكاة علي المسلمين لتذهب للفقراء والمساكين وبقية المستحقين المذكورين في الاية 60 من سورة التوبة ، واولئك المستحقون يستحقون الصدقة بالوصف وليس بالدين او الجنسية والعنصر ، أي يكفي ان يكون فقيرا او مسكينا او غارما ليأخذ الزكاة ، سواء كان مسلما او غير مسلم ، عربيا او غير عربي ، ولكن الفتوحات العربية وسياسة عمر اوجدت تشريعا اخر كان فيه الفقراء هم الذين يدفعون الاموال لمن يكنزون الذهب و الفضة والجوهر بالسلب والنهب والظلم .

ومنذ ان جاءت الاموال لعمر انشأ الديوان حرصا منه علي توزيعها بالعدل علي العرب المسلمين سنويا ، بحيث كان لا يبقي منه شيئا للعام التالي وبدأ انشاء الديوان في محرم سنة 20هـــ بتسجيل اسماء جميع العرب وفرض مرتبات لهم حسب قواعد معينة ، وتراوح المرتب السنوي لكل عربي مسلم فيما بين خمسة الاف لأهل بدر الي اثنتي عشر الف لأمهات المؤمنين ، ثم الفين الي ثلاثة الاف للباقين . وكان يفرض للوليد الرضيع العربي مائة درهم فاذا ترعرع فرض له مائتين ، وبسبب غياب الرجال في الغزو ، فقد تكاثر اللقطاء

في الجزيرة العربية ، فاضطر عمر ان يفرض للقيط مائة درهم ، ويجعل رضاعته ونفقته علي بيت المال ، وكان من قبل لا يفرض للوليد حتي يفطم

، فسمع بكاء طفل عربي فسأل امه فعرف انها تريد ان تفطمه قبل الاوان ، فبكى وقال : يا بؤسا لعمر .. كم قتل من اولاد المسلمين ، وامر بأن ينادى (لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فأنا نفرض لكل مولود في الاسلام عطاءا [.

وشمل عمر برعايته كل العرب ، ليصلهم المال مهما تباعدوا ، فقال (والله لأن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو في مكانه) والتفت بعين الرعاية الي سفلة العرب ومجرميهم ليجعل لهم حظا من هذا المال ، فقال (لئن بقيت لأجعل عطاء لسفلة الناس الفين) وهكذا لم يدع احدا من العرب الا فرض له مرتبا من الرضيع الي البعيد الي السافل . (طبقات ابن سعد 3/ 212 ، 216 ، 219 [.

هذا العدل الرائع حرمه عمر علي غير العرب من الفقراء و النساء والاطفال ، اذ كانت تتعالي صرخات اطفال السبي في المدينة بالقرب منه دون ان يشعر بهم ، وهو يعلم ان اهلهم قد تعرضوا للقتل والسبي والاسترقاق ، وان ذلك الطفل قد فرقوا بينه وبين امه كما فرقوا بين الاب وابنائه والزوجة وزوجها والاخ واخوته ، وبينهم وبين اوطانهم .

تعصب عمر للعرب والمسلمين

ان الواضح في سيرة عمر انه كان لا يري غير العرب المسلمين وغير الجزيرة العربية ، لذلك اخرج اليهود من الحجاز واخرج النصارى من نجران ، واسكن اليهود في الشام واسكن النصاري في الكوفة ،ومنع الرجال من سبي البلاد المفتوحة من دخول الجزيرة العربية ، حتي تكون الجزيرة خالصة للعرب . ثم قام بتمهيد الطريق بين مكة و المدينة واقام فيه محطات للمؤن لاستضافة المسافرين ، وحين اصيب العرب بمجاعة عام الرمادة بلغ من شفقته بهم انه امتنع عن اكل اللحم والسمن ومعاشرة زوجاته ، أي اجاع نفسه باختياره ، حتي تحول لونه الي السواد .

وهذا التطرف في العدل والشفقة بالعرب ، يقابله تطرف اخر من عمر في ظلم المساكين من ابناء البلاد المفتوحة بلا ذنب جنوه ، وكان الاولي بعدل عمر ان يتسع ليشمل كل الفقراء والجوعي ، خصوصا ضحاياه من اهل البلاد المفتوحة ، ولكن عمر – الذي ما ترك الجزيرة العربية بعد الاسلام الا مرة واحدة – لم يكن يعتبر نفسه خليفة مسئولا الا عن العرب المسلمين وحدهم ، ويتردد هذا في أقواله ، فهو القائل (لا يسألني الله عن ركوب المسلمين البحر ابدا) أي يخاف عليهم من ركوب البحر ، ولذلك كانت وصيته الاخيرة تقول :] اوصيكم بكتاب الله فأنكم لن تضلوا ما اتبعتموه ، و اوصيكم بالمهاجرين .. واوصيكم بالانصار ، واوصيكم بالاعراب .. فأنهم اصلكم ومادتكم .. وفي رواية ، فأنهم اصل العرب ومادة الاسلام ، واوصيكم باهل الذمة فأنهم ذمة نبيكم وارزاق عيالكم .. : طبقات ابن سعد 3/ 243 ") فالأعراب الذين وصفهم القرآن بأنهم (اشد كفرا ونفاقا [يجعلهم عمر اصل العرب ومادة الاسلام . ويجعل اهل البلاد المفتوحة اهل ذمة للنبي عليه السلام ، مع ان النبي لم يرهم ولم يكن يعرف ماذا سيحدث معهم لأنه عليه السلام لا يعلم الغيب . ويري عمر

ان وظيفة اهل الذمة هي ان يكونوا بقرة حلوبا لرزق عيال العرب ولهذا يوصي بهم ، أي كما يوصي الرجل ولده بالعناية ببقرته التي يقوم عليها رزقه .
ووصلت عناية عمر بأفراد الجيش الي درجة هائلة يحس بها من يقرأ وصاياه الي قادة الجيش ، فقد كتب الي حذيفة:] ان اعطي الناس اعطيتهم وارزاقهم) فكتب له حذيفة (ان قد فعلنا وبقي شئ كثير) فكتب له عمر (انه فيؤهم الذي افاء الله عليهم ، ليس هو لعمر ولا لآل عمر ، اقسمه بينهم [. ووضع عمر قواعد للتجنيد تقوم بها رعاية العرب المسلمين ، فالافضلية للتجنيد للاعزب عن المتزوج ، و للفارس عن الراجل أي المترجل . وكان يجعل لهم اجازات ، وكان ينهى ان يحمل الغازي معه ذريته الي الحرب ، أي كان يخشى علي ذرية العربية ويحتفظ بها ويحافظ عليها داخل الجزيرة العربية . وفي نفس الوقت لا يؤرقه ان تمتلئ طرقات المدينة بصبيان السبي ، وكلهم اطفال ايتام فقدوا آباءهم بالقتل او بالاسر ، أو بالاسترقاق وتباعدت بينهم وبين وطنهم واهلهم المسافات فيما بين المدينة وفارس او مصر او الشام او العراق .
وامتدت عناية عمر لتشمل نساء المقاتلين الغزاة، واثناء طوافه الليلي بالمدينة سمع امرأة تنشد شعرا:
تطاول هذا الليل تسري كواكبه وارقني ، الا ضجيع الاعبه
فسأل عنها عمر فعرف ان زوجها غائب في الغزو منذ عدة اشهر ، فكتب الي امراء الجيش الا يغيب زوج عن اهله اكثر من اربعة اشهر ، وجاءته شكوى بالبريد تتهم (جعدة بن سليم) بأنه يدخل علي نسائهم وهم في الغزو ، فاستدعاه ، وضربه مائة جلدة بدون اثبات او بينة ونهاه ان] يدخل علي امرأة مغيبة) أي غاب عنها زوجها في الغزو . ونفى نصر بن حجاج بدون ذنب ، لمجرد ان امرأة عشقته ، اذ كان يمر ليلا فسمع امرأة تقول :
هل من سبيل الي خمر فأشربها ام هل سبيل الي نصر بن حجاج
فأصبح عمر فاستدعي نصر بن حجاج فرآه وسيما جميلا ، فنفاه الي البصرة خوفا علي نساء المقاتلين من جماله . واسترق عمر السمع الي نسوة يتحدثن فسمعهن يقلن ان اصبح (اجمل) رجال المدينة هو ابو ذئب ، فاستدعاه عمر فاذا هو اجمل الناس ، فقال له (انت والله ذئبهن) ونفاه الي البصرة حيث نفي ابن عمه نصر بن حجاج من قبل .
هذا مع ان اولئك الغزاة كانوا يتمتعون في البلاد المفتوحة بالسبايا الحسناوات من فارس و العراق و الشام مصر .وما كان يحدث من انتهاك لأعراضهن تحت شعار السبي ، لا يؤرق ابدا– عمر.
انهم دائما يمدحون عمر بقوله (لو ان دابة عثرت علي الفرات لخشيت ان يسألني الله عنها لماذا لم تمهد لها الطريق ؟) ويتخذون من ذلك دليلا علي اهتمام عمر بالبلاد المفتوحة بأرضها وناسها ، ويتناسون ان عمر لم يمهد طرقا في البلاد المفتوحة .واصل الرواية كما جاء في طبقات ابن سعد – اقدم مصدر تاريخي – هو قول عمر (لو مات جمل ضياعا علي شط الفرات لخشيت ان يسألني الله عنه)(طبقات ابن سعد 3/ 220) ، أي ان عمر يهتم بالجمل العربي حتي ولو كان في العراق ، ومبعث ذلك اهتمامه الاساسي بالعير ، أي ابل الصدقة والغزو ، لذلك ذكر ابن سعد مقالة عمر السالفة ضمن اخبار اخرى عن عناية عمر بأبل الصدقة وابل الجهاد ، حتي انه كان يحمل علي ثلاثين الف بعير سنويا للجهاد ، وقد جعل لها اماكن محمية ، أي نزع

ملكيتها لترعى فيها تلك الابل وهي مناطق الربذة والشرف . وقد احتج اعرابي ، فقال لعمر (يا امير المؤمنين بلادنا ، قاتلنا عليها في الجاهلية ، واسلمنا عليها في الاسلام ، ثم تحمي علينا) أي تمنع عنا نرعى فيها ، يقول الراوي (فجعل عمر ينفخ ويفتل شاربه) وكان يفعل ذلك اذا حمي غضبه ..أي بعد ان عمل للأعراب كل ما عمل يأتي هذا الاعرابي فيحتج عليه في امر تافه كهذا .
وكان عمر يصلح بنفسه ادوات الابل المعينة للجهاد ، يصلح براذعها واقتابها . وليته اعطى بعض هذا الاهتمام الي ابناء البلاد المفتوحة .. ليته عاملهم كما عامل حيوانات العرب ...

تشريع السبي باسترقاق الاحرار :

لقد نزل القرآن بحقوق الانسان ، الا ان خرق هذه الحقوق بدأ في عصر عمر الذي اعاد تشريع السبي والاسترقاق من خلال الفتوحات ، ثم جاء تراث المسلمين ليقيم تشريعا يجيز هذا وذاك ، ونقول ان الجاهلية هي التي عرفت تشريع السبي والاسترقاق ضمن ما تعارف عليه العصور الوسطي ، ثم جاء الاسلام فأبطل ذلك ، الا ان عمر بفتوحاته اعاد عادات الجاهلية حين كانت تستحل الاموال والاعراض في الغارات المتبادلة بين القبائل ، ولم يكن عيبا سبي النساء العربيات وتداولهن بين ايدي الغزاة حسب الاكثر قوة ، وكان فارس الجاهلية اثناء ظهور الاسلام هو عمرو بن معدي يكرب اشهر من سبي السبايا في الجاهلية ، ثم اسلم ثم ارتد ثم عاد الي الاسلام ، وعاد معه طليحة بن خويلد الذي ادعي النبوة في حركة الردة ثم عاد الي الاسلام ، وقد بعث عمر بطليحة بن خويلد وعمر بن معدي يكرب للمشاركة في فتوحات فارس وليمارسا نفس ما كانا يفعلان في الجاهلية ، ويذكر المسعودي في مروج الذهب (1/ 538 : 541) ان عمر بن معدي يكرب روي لعمر بن الخطاب مآثره في سبي النساء في الجاهلية وكيف لم يفلح في سبي زوجة الشاب ربيعة بن مكدم الذي غلبه في المبارزة واضطره للهرب من امامه .وبنفس العقلية توجه عمر بن معدي يكرب للفتوحات يقتل ويسلب ويسبي . وذكر ابن حجر بلاءه في الفتوحات في (الاصابة 3/ 18)
وبعد ان اصبح الاسترقاق والسبي والاستحلال شريعة لدي المسلمين في الفتوحات في تعاملهم في البلاد المفتوحة ، انتقل هذا داخل المسلمين في الحروب الاهلية بينهم ، حتي ان قتلة عثمان قد فكروا في سبي زوجته ، ثم توسع المسلمون في ذلك في العصور الوسطي اللاحقة بنفس ما كان يحدث بين العرب في الجاهلية قبل الاسلام ، ثم جرى تدوين التراث في العصر العباسي علي اساس تشريع ذلك السبي وتسويغه بأدلة مصنوعة . ولكن يبقى كتاب الله تعالي حكما في هذه القضية ، وبأيجاز شديد نقرر الاتي في موضوع السبي والاسترقاق :

1. لا يجوز استرقاق الاسري ، لأن الله تعالي يقول (فشدوا الوثاق ، فأما منا بعد واما فداء ، حتي تضع الحرب اوزارها محمد 4) وفي ارض المعركة يشد وثاق الاسير وبعدها يتم باطلاق سراحه ، اما بالافتداء بالمال وتبادل الاسري واما بالمن عليه لاطلاق سراحه بدون مقابل . وان طابت نفس الاسير بما يدفعه من مال الافتداء ، فأن الله تعالي يعده بتعويض افضل وبغفران اشمل ان كان في قلبه خير ، وان خان الاسير المسلمين بعد اطلاق سراحه بدون مال ، فالله تعالي هو الذي يتولي عقابه (الانفال 70 : 71) وبعد اطلاق

سراحه يتحول الاسير الي ابن سبيل ، له حقه علي المسلمين في الصدقة والزكاة والرعاية ، طالما يسير في بلادهم . اذن فالاسر للمقاتلين ليس من منابع الاسترقاق في شريعة الاسلام ، خصوصا وان الله تعالي يقول (وان احد من المشركين استجارك فأجره حتي يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه : التوبة 6) أي ان المقاتل في الجيش المعتدي اذا استسلم مستجيرا من القتل فعلي المسلمين حمايته وايصاله سالما الي اهله بعد ان يسمعوه كلام الله تعالي ليكون حجة عليه ، واذا كان هذا بالنسبة للمقاتلين المعتدين ، فأنه بالتالي يحرم استرقاق المسالمين الذين لا شأن لهم بالقتال اصلا وخصوصا الذرية والنساء . الا ان العصر العباسي كي يسوغ العرف السائد في السبي والاسترقاق فقد افتري ان النبي عليه السلام قتل اسري بني قريظة و سبي ذريتهم ونساءهم ، هذا مع ان الله تعالي يقول عن معركة بني قريظة الذي نقضوا العهد وتآمروا علي المؤمنين في موقعة الاحزاب (وانزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا واورثكم ارضهم وديارهم : الاحزاب 26 : 27) أي في المعركة انهزموا وقتل المسلمين بعضهم واسروا البعض الاخر ، وعومل الاسري حسب الشرع ، وورث المسلمين ارضهم وديارهم بعد الاتفاق علي الجلاء ، وجلا يهود بني قريظة عن المدينة وهم اولئك الاسري والنساء والذرية ، دون قتل او سبي .

2. المصدر الوحيد لوجود الرقيق في الدولة الاسلامية هو الفئ الذي يأتي من الخارج بدون قتال (الحشر : 6) وقد يأتي الفئ بهدية قد يكون فيها بعض الرقيق الاتي من الخارج ، كما حدث حين اهديت للنبي عليه السلام السيدة مارية القبطية فتزوجها النبي ، وذلك معني قوله تعالي للنبي (يا ايها النبي انا احللنا لك ازواجك اللاتي اتيت اجورهن وما ملكت يمينك مما افاء الله عليك : الاحزاب 50) وملك اليمين طبقا لتشريع القرآن يوجب علي المالك ان يعقد زواجه علي من ملكت يمينه ويدفع لها الصداق اذا اراد الزواج بها .ولكن لا يلتزم بالعدل بينها وبين زوجته الحرة (النساء 3، 25، الاحزاب 50]

3. وفي كل الاحوال فأن تشريعات القرآن تعمل علي تحرير ذلك الرقيق الوافد من الخارج بعد تجفيف منابع الرق في الداخل ، وتعمل علي حسن رعايته ، وشرح ذلك يطول ، وليس موضعه هنا ، ولكن نكتفي منه بتأكيد القرآن علي حق الرقيق في ان يتساوى مع سيده في الرزق (النحل 71 ، الروم 28) لذا كان النبي يامر ان يلبس العبد مما يلبث سيده وان يأكل مما يأكل منه سيده ، أي يكونون سواء ، كما امر القرآن .

وخلافا لحث القرأن علي عتق الرقيق فأنه لم يرد في سيرة عمر مطلقا انه اعتق عبدا ، كل ما هنالك ان عمر اوصي عند موته بعتق السبي العربي ومن اسلم من السبي فقط ، قال (انه من ادرك وفاتي من سبي العرب من مال الله فهو حر) واوصي (ان يعتق من كان يصلي السجدتين من رقيق الامارة ، وان احب الوالي من بعده ان يخدموه سنتين فذلك له)(ابن سعد 2/ 264) والواضح ان عمر يعتبر اولئك المساكين ملكا خاصا له يتصرف في حياتهم كيف يشاء ، مع انهم لا يستحقون السبي والاسترقاق اصلا .

وقبل موته كان عمر لا يعطي احدا من الرقيق حقه من الزكاة ، خلافا لتشريع القرآن في الامر بتحرير الرقيق العادي وعتقه (النور 33، البلد 13) فكيف باسترقاق الاحرار وظلمهم ، وقد قال عمر (ما علي الارض مسلم لا يملكون رقبته الا له في هذا الفئ حق) أي ان كل مسلم حر له حق في الفئ ، اما العبد حتي لو اسلم

فليس له حق في الفئ ، وقال عمر ايضا (والله الذي لا اله الا هو ، ما من الناس احد الا له في هذا المال حق .. وما احد بأحق من احد الا عبد مملوك ..)(ابن سعد 3/ 215 ، 216) وحدث ان قسم عمر اموال الفئ بين اهل مكة فأعطي رجلا منهم ، فقيل له انه مملوك ، فقال : ردوه .. ردوه ، ثم قال : دعوه)(ابن سعد 3/ 218) أي انه في النهاية ترفق به وتركه .

وهذا الظلم الشنيع للبلاد المفتوحة نتجت عنه كوارث هي اغتيال عمر نفسه ، ثم اغتيال عثمان ودخول المسلمين في الفتنة الكبري التي لا زلنا نعيش اثارها حتي الان .

كيف ادي هذا الظلم الي اغتيال عمر ؟وكيف ادي للفتنة الكبري ؟

السبب هنا هو السبي . يقول ابن سعد ان عمر كان يكتب الي امراء الجيوش (لا تجلبوا علينا من العلوج احدا جرت عليه المواسي ، فلما طعنه ابو لؤلؤة قال : الم اقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج احدا فغلبتموني) (الطبقات الكبري 2/ 253) أي كان يصف ابناء البلاد المفتوحة بأنهم علوج جمع علج ، وذلك احتقارا لهم ، وينهي عن احضار الشباب والرجال منهم الي المدينة خوفا من ان ينتقموا منه ، فكل من استعمل الموسى في حلاقة لحيته كان محرما عليه ان يأتي الي المدينة ، ولذلك كان يتجول حاملا الدرة يضرب بها من يشاء تأديبا وهو آمن مطمئن وسط قومه ، ورآه الهرمزان وهو اسير فارسي سابق دخل في الاسلام – رأى عمر مضطجعا في المسجد – فقال :]هذا والله الملك الهنئ)(ابن سعد 3/ 211[

وبالطبع كان الهرمزان الامير الفارسي السابق الذي اخذ امانا من عمر – مع اسلامه – يحقد علي عمر . وجاءته الفرصة حين وفد الي المدينة اثنان من الموالي باذن خاص وهما جفينة وابو لؤلؤة المجوسي ، كان جفينة قد اتي بتوصية من سعد بن ابي وقاص "، وكان ابو لؤلؤة قد اتي بتوصية من سيده المغيرة بن ابي شعبة .

وابو لؤلؤة المجوسي كان من سبي نهاوند اضاع العرب المسلمون بيته واسرته واطفاله ووطنه دون ان يقدم لهم اساءة وبعد ان فقد كل شئ جئ به اسيرا الي المغيرة بن شعبة ليعمل لديه ، ثم ارسله الي المدينة ، حيث كان يؤرقه منظر الاطفال من السبي وهم يملأون طرقات المدينة ، ولعله كان يبحث فيهم عن ملامح اطفاله واطفال عائلته ، يطوف بينهم يستمع الي بكائهم وصراخهم ويتخيل معاناتهم حين كانوا يساقون ويحشرون علي طول الطريق من بلادهم الي صحراء الجزيرة العربية حتي يصلوا الي المدينة ،وهذه المعاناة ضمن المسكوت عنه ، ويذكر ابن سعد ان ابا لؤلؤة اعتاد ان يلتقي بأطفال السبي ، وانه حين كان يراهم يبكي ويتحسس رءوسهم ويقول (ان العرب اكلت كبدي) ثم قتل عمر انتقاما مما فعله بالسبي ، وحين اغتيل عمر قال (ما كانت العرب لتقتلني) وسأل من حوله (عن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذي اصابني ؟) فلما عرف ان قاتله لم يكن عربيا حمد الله . وتلك هي النتيجة الاولي .

النتيجة الثانية لظلم البلاد المفتوحة هي اغتيال عثمان وما تبع لك من الفتنة الكبري ، واذا كان السبي للاطفال والرجال هو السبب في قتل عمر ، فان المال الذي سلبه عمر والمسلمون من البلاد المفتوحة كان السبب في النتيجة الثانية ، وهي اغتيال عثمان والفتنة الكبري . لقد حرص عمر علي العدل في تقسيم الاموال بين العرب المسلمين ، وجمع مع العدل الحزم في تعامله مع العرب ، ولم يكن عثمان في نفس عدل عمر او

حزمه . وحتي لو كان في عدل عمر او حزمه ، فأن ذلك المال الحرام كان بتكدسه لدي العرب سيوقع التنافس والاختلاف فيما بينهم ، وكان حتما سيؤدي بهم الي الاختلاف فالاقتتال . أي كان حتما مقتل عثمان بعد عمر ، ولعل ذلك ما تنبأ به ابو عبيدة بن الجراح الذي مات في طاعون عمواس قبل عمر ، اذ قال (سترون ما اقول لكم ان بقيتم ، اما هو – أي عمر – فان ولي وال بعد عمر فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطع له الناس بذلك ، ولم يحملوه . وان ضعف عنهم قتلوه)(ابن سعد 3/ 271 [.
وفعلا فقد تبرم العرب بحزم عمر اذ كانوا يريدون الانطلاق بالتمتع فيما امتلكوه من خزائن الدنيا وكنوزها ، واحس عمر بذلك فكان في اواخر ايامه يدعو الله (كبرت سني واتسعت رعيتي فأقبضني اليك [وجاء عثمان لينا هينا مع اقاربه ضعيف الشخصية ، فاتسعت عليه المشاكل وجرفته الاحداث فقتله المسلمون واقتتلوا فيما بينهم ، وكانت الاموال المكتنزة هي اساس الخلاف ،وربما نفهم من توزيعها موقع كل منهم مع الحق او مع الباطل .
وهنا نرجع الي اشهر المصادر التاريخية في الفكر السني لنتعرف علي ثروات الصحابة التي جاءت منذ من فتوحات عمر ، ثم تكاثرت بعده:
عثمان نفسه مع شدة كرمه وكثرة عطاياه كان له يوم مقتله ثلاثون الف الف درهم وخمسمائة الف درهم ومائة الف دينار ، وقد نهبها الثوار الذين قتلوه ، بالاضافة الي ما قيمته مائتا الف دينار من الاصول .
الزبير ابن العوام : كان لديه 35 الف الف درهم ومائتا الف دينار ، ويقال 51 الف الف درهم او 52 الف الف درهم ، بالاضافة الي مساكن وعقارات وخطط في الفسطاط والاسكندرية والبصرة والكوفة ، كما ترك غابة او بستانا هائلا بيع بـــ الف الف وستمائة الف .
عبد الرحمن بن عوف : الذي مات سنة 32 هـــ قبيل عثمان ، ترك ذهبا كانوا يقطعونه بالفئوس حتي محلت ايدي الرجال منه .
سعد ابن ابي وقاص : ترك 250 الف درهم ، ابن مسعود : توفي 32 هـــ وكان من ضحايا عثمان وقد حرمه عثمان من عطائه سنتين ومع ذلك ترك 90 الف درهم .
طلحة بن عبيد الله : كان في يده خاتم من ذهب فيه ياقوته حمراء ، وكان ايراده من ارضه في العراق الف درهم يوميا او ما بين 400 الي 500 الف درهم سنويا في رواية اخري ، وترك بعد موته الفي الف درهم ومائتي الف درهم ، و مائتي الف دينار ، وترك اصولا وعقارات بثلاثين الف الف درهم .وترك مائة بهار مليئة بالذهب في كل بهار ثلاثة قناطير او اثنين من الارادب ، أي ترك 300 اردبا ذهبا او 200 قنطار ذهبا (طبقات ابن سعد 3/ 53 ، 76 ، 77، 157) (المسعودي مروج الذهب 1/ 544 : 545].
عمرو بن العاص : ترك عند موته سبعين بهارا من الذهب ، أي 210 قنطارا او 140 اردبا من الذهب ، واثناء موته عرض هذه الاموال علي اولاده فرفضوا وقالوا : حتي تعطي كل ذي حق حقه ، أي اعتبروها سحتا ، فلما مات عمرو صادر معاوية هذا المال وقال (نحن نأخذه بما فيه) أي بما فيه من سحت وظلم (خطط المقريزي 1/ 140 ، 564)

ويذكر المسعودي في مروج الذهب (1/ 544) ان زيد بن ثابت حين مات ترك من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس سوي الاموال والضياع ، ومات يعلي بن امية وخلف خمسمائة الف دينار وديونا علي الناس وعقارات تبلغ 300 الف دينار].

وهذه مجرد امثلة لأن الثروات الاكبر لم تقترب منها الروايات التاريخية ، مثل ثروات معاوية ومروان بن الحكم لأن ثرواتهم استغلوها في اقامة ملكهم الاموي لتتسع هذه الثروات وتكون بيت المال الذي كان ملكا للخليفة الاموي نفسه . الا ان هذه الامثلة تثبت ان ما تم نهبه من اموال وثروات الامم المفتوحة قد تحول الي اطنان من ذهب لدي افراد قلائل ، فمن المنتظر ان تسهم هذه الاموال في اشعال نار الفتنة بين الصحابة الذين كانوا من قبل اصدقاء مناضلين في طريق الحق ، فانتهي بهم الامر الي العداء والاقتتال ، خصوصا وان من بين الصحابة من رفض هذا السحت وذلك الظلم ، وحاول ارجاع الامر الي ما كان عليه في عهد النبي (ص) ونقصد به الامام علي بن ابي طالب الذي عانى في خلافته الشاقة العسيرة التي استمرت حوالى 5 سنوات ومات قتيلا سنة 40 من الهجرة ، وكانت تركته 700 درهم فقط ويقال 600 ويقال 250 درهما ، وهذا هو الفارق بين علي و بين اصحابه الذين حاربوه دفاعا عما اكتنزوا من الاموال الحرام .

ونعود الي عمر ونعتبره مسئولا عما حدث والذي مازلنا نعاني منه ، وقد دفع الثمن من حياته هو ومن اتي بعده خلال الفتنة الكبري التي انقسم بسببها المسلمون الي شيعة وخوارج وغيرهم ولا يزالون مختلفين ..

ومع ان كلمة (لو ") ليس لها محل في التاريخ ، الا اننا في احلام اليقظة نفترض انه (لو) اكتفي المسلمون بعد النبي بما فعله النبي عليه السلام من ارسال الكتب للحكام المجاورين تدعوهم سلميا للاسلام وتحملهم المسئولية امام الله تعالي ، دون الفتوحات التي حملت اسم الاسلام واستهدفت حطام الدنيا واشاعت سفك الدماء وظلم الاحياء ممن تبقي من ابناء الامم المفتوحة . لو اكتفي المسلمون بذلك لدخل الناس في الاسلام – دين السلام – افواجا ، كما حدث في عهد النبي – ولنتذكر ان الاسلام انتشر بالتجارة في آسيا وافريقيا في العصور الوسطي اكثر من انتشاره بالسيف والعنف والظلم .. بل بالعكس ، ان احتلال العرب المسلمين للبلاد المفتوحة هو الذي اوجد المذهبية والفرقة بين المسلمين العرب وغير العرب ..

ونفترض في احلام اليقظة] لو) اخري .. (لو) اكتفي عمر بحرب الملوك الجبابرة المستبدين ، وبعد اسقاط عروشهم شمل اهل البلاد بعدله مثلما فعل مع العرب ، وجعل هدف حربه تخليص الشعوب من الظلم واعطاءهم حقوقهم التي كفلها الاسلام من العدل وحرية العقيدة والمساواة بين الجميع .. لو فعل ذلك لتجنب المسلمون وغيرهم فظائع كثيرة ..

نقول (لو) مع ان التاريخ لا يعترف بها .. لكنها واحة نلجأ اليها من قسوة تاريخنا العربي الاسلامي المكتوب منه والمسكوت عنه .. والمسكوت عنه افظع .. ولله تعالي الامر من قبل ومن بعد ..

أبو بكر الصديق ماذا تبقّى منه في الفكر السنّـي؟

بياناته الشخصية

اللقب: الصديق، عتيق

الكنية: أبو بكر

اسم الشهرة: أبو بكر الصديق

الاسم بالكامل: عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة .

اسم الأم: أم الخير سلمي بنت ضحي بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة

اسماء زوجاته:

الأولى: قتيلة بنت عبد العزي بن عبد الله . انجبت له عبد الله واسماء .

الثانية: ام رومان بنت عامر بن عويمر . انجبت له عبد الرحمن وعائشة .

الثالثة: اسماء بنت عميس . انجبت له محمدا

الرابعة: حبيبة بنت خارجة بن زيد . انجبت له ام كلثوم بعد وفاته .

اسماء اولاده:

عبد الله . شهد مع ابيه حرب الطائف ومات متأثرا بجراحه في خلافة والده .

اسماء (ذات النطاقين] تزوجها الزبير بن العوام، ثم طلقها، وعاشت مائة عام .

عبد الرحمن: شهد بدرا مع المشركين، ثم اسلم .

عائشة: ام المؤمنين .

محمد: تربى في بيت (علي ابن ابي طالب) بعد ان تزوجت امه اسماء بنت عميس من الامام علي، وشارك في الهجوم علي عثمان، وعينه الامام علي في خلافته علي مصر، وقتله عمرو ابن العاص .

ام كلثوم: ولدت بعد وفاة ابيها، وتزوجها رفيق ابيها الصحابي طلحة بن عبيد الله في شيخوخته.

صورته الشخصية: كان ابيض نحيفا، خفيف العارضين، احدب، معروق الوجه، غائر العينين، بارز الوجه .

تاريخ ميلاده: بعد مولد النبي (ص) بسنتين واشهر .

تاريخ البيعة بالخلافة: بيعة السقيفة يوم وفاة النبي } ص) اول ربيع الاول سنة 11هـ .

ثم البيعة العامة في اليوم التالي، يوم الثلاثاء 2 ربيع الاول سنة 11هـ .

تاريخ الوفاة: مساء الاثنين 22 جمادى الاخرة سنة 13هـ .

مدة خلافته: سنتان واربعة اشهر الا عشر ليال .

اهم القضايا التي تثيرها خلافة ابي بكر:

1. المناقب
2. ولاية الحكم
3. الردة والفتوحات
4. الذمة المالية للحاكم

وهي كلها قضايا متداخلة . ونتعرض لها في هذه المقالة البحثية العاجلة.

اولا: المناقب:

والمقصود بها المناقب التي وضعها اهل السنة في ابي بكر مقابل الذم الذي وضعه فيه الشيعة، والفريقان معا استخدما نفس الاساليب، وهي الروايات والاحاديث التى وضعها الشيعة في ذم ابي بكر، ووضعها السنة في مدح ابي بكر وتعداد مناقبه ومكارمه .

صار من اسس التدين الشيعي التبرؤ والتولي، أي التبرؤ من ابي بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة والزبير وعمرو ومعاوية، في مقابل تولي ونصرة علي بن طالب وبنيه الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية، وذرية الحسن والحسين. وفي اطار التبري والتولي هم يختلفون، منهم من يبالغ في التبرؤ الي درجة تكفير ابي بكر

وعمرو وعثمان.. الخ .. ويبالغ في موالاة "علي" الي درجة التأليه والتقديس له ولذريته من الائمة، مع اختلاف في شخصيات الائمة، ومنهم من يتوسط كالزيدية الاوائل، فيكتفي بتفضيل علي على ابي بكر وعمر وعثمان، ويعترف بخلافة الراشدين، ولا يؤله عليا وذريته .

وفي المقابل فان السنة اتفقوا علي أفضلية ابي بكر ثم عمر ثم عثمان علي "علي" بنفس ترتيب الخلافة، الا انهم لم يطعنوا في علي، بل حرموا الطعن في كل الصحابة، واعتبروهم مثل النجوم في الهداية، ونهوا من خلال حديث صنعوه عن اتخاذ الصحابة غرضا للهجوم ..

وهكذا بدأت كتابة المناقب في فضائل الخلفاء الراشدين في التراث السني في مقابل التراث الشيعي الذي يقدس عليا والائمة .

الا ان كتب المناقب السنية لم تلبث ان عرفت تنوعا في عصور التخلف والتقليد. اذ لم يقتصر الامر علي تزايد التقديس للخلفاء الراشدين، وانما ضموا الي دائرة المناقب ائمة المذاهب الفقهية، حيث انعدم الاجتهاد وانحصرت الحياة العقلية في ترديد ما قاله الائمة، خصوصا مع تزايد الانخراط في التصوف وسيطرته، وافضي ذلك الي دخول شيوخ التصوف في مجال المناقب، فكتبوا مصنفات في مناقب وكرامات شيوخ التصوف.. واصبح ذلك عنصرا اساسيا في تدين المسلمين وحياتهم الفكرية يُعبّر عما يسمي بعبادة الابطال. ومن الطبيعي ان يتم تصوير اولئك الابطال بطريقة تختلف تماما عن حقائق التاريخ. ولكن يتم تسويغها بصنع الاحاديث المنسوبة للنبي، تلك التي جعلوها تمدح الخلفاء الراشدين وائمة المذاهب، بالاضافة الي المنامات الصوفية التي جعلوا فيها النبي يشيد بائمة التصوف، الذي ظهر بعده بعدة قرون .

اذن، كانت البداية في كتابة مناقب ابي بكر في اطار الصراع الشيعي السني، وتبارز الفريقين بالاحاديث المصنوعة. ولا شك ان من يكتب في تاريخ ابي بكر قلما ينجو من الاستشهاد بتلك المناقب دون ان يدري خلفيتها السياسية والاجتماعية، وأن كتابتها قد بدأت في عهد التدوين بعد أبي بكر بقرنين و أكثر.

علي اننا نلاحظ تفاوتا من حيث الكم والنوع بين المناقب المكتوبة في ابي بكر في عصر الازدهار الفكري وبين مثيلتها المصنوعة في عصور التقليد والتخلف. وذلك امر طبيعي لأن عبادة الابطال او صناعتهم انما تروج في عصور التخلف التى يأخذ فيها العقل اجازة مفتوحة. والفكر السلفى الوهابى المسيطر الآن على معظم افئدة المسلمين قد استعاد تقديس الأسلاف وتراثهم واعتبره صحيح الاسلام ومن اجله يتهم بالكفر كل من يجرؤ على مناقشته من داخله ومحتكما فيه للقرآن الكريم. وهو نفس ما فعلته قريش فى جاهليتها حين تمسكت بثوابتها الدينية المتوارثة ورفضت الاحتكام بشأنها الى القرآن "البقرة 170ــ 171" "المائدة 104" "لقمان 21" "الزخرف 22ــ 24".

و الله جل وعلا يجعل القرآن العظيم حكما فيما نجد عليه اباءنا لنقوم بعملية تصحيح مستمرة لواقع عقائدنا حتى لا تنشأ فجوة بين ما يجب أن يكون عليه الواقع العقيدى للمسلمين وعقيدة الاسلام التى لا تقديس فيها الا

لله تعالى وكلامه او قرآنه الكريم. الا أن اسناد تراث المسلمين ــ زورا ــ لله تعالى ورسوله جعله دينا موازيا للاسلام يتمسك به السلفيون ومن اجله ينكرون القرآن طالما تعارضت آياته مع مجرد حديث واحد من مفتريات البخارى وغيره.

المهم انه بدأت عبادة الأبطال او تقديس الأسلاف فى تاريخ المسلمين بكتابة مناقب الصحابة الكبار ثم تطورت نوعيا وكميا بين عصر الأزدهار الفكرى وعصر التخلف العقلي الذى لا زلنا نتمتع به بفضل نفوذ السلفيين البتروليين.

ونعطي علي ذلك امثلة ..

المؤرخ محمد بن سعد{ توفى 222 من الهجرة} صاحب "الطبقات الكبري" وتلميذ الواقدي وصديق احمد بن حنبل وصاحبه في قضية خلق القرآن، هذا المؤرخ لم يذكر من المناقب التي اشاعتها الاحاديث عن ابي بكر سوي حديثين هما }:من سره ان ينظر الي عتيق من النار فلينظر الي هذا} يعني ابي بكر، وحديث اخر في جعل ابي بكر وعمر سيدي كهول اهل الجنة وشبابها ما عدا النبيين والمرسلين .

وقد توفي ابن سعد سنة 222، وبعده بقرن من الزمان عاش الطبري خصم الحنابلة والذي كان ضحية لانغلاقهم الفكري. ونري الطبري لم يذكر في تاريخه عن مناقب ابي بكر الا حديثا واحدا هو الذي يزعم ان النبي قال له (انه عتيق من النار). والواضح ان تلقيب ابي بكر بلقب عتيق هو الذي اوحي لهم بعتقه من النار .

وقد توفي الطبري سنة 310 هـ، وبعده بنحو ثلاثة قرون جاء المؤرخ الحنبلي ابن الجوزي المتوفي سنة 597 وهو من كبار علماء الحديث. ومع ذلك فلم يذكر من احاديث مناقب ابي بكر الا اربعة فقط. وهو (هذا عتيق الله من النار) و (من سره ان ينظر الي عتيق من النار فلينظر الي هذا) . وحديث فظيع يفتري فيه الراوي ان جبريل نزل علي محمد عليه السلام وكان أبو بكر يرتدي عباءة قديمة، فقال جبريل للنبي: ان الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول لك: قل لابي بكر: أراضٍ انت عني في فقرك هذا ام ساخط؟ فقال أبو بكر: أأسخط عن ربي؟ انا عن ربي راضٍ..). ثم حديث آخر يزعم فيه احدهم ان محمد بن الحنفية قال لأبيه علي بن ابي طالب (أيّ الناس خير بعد رسول الله؟ قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت ان اقول من فيقول عثمان، فقلت: من انت؟ فقال: ما انا الا رجل من المسلمين). وبهذا الحديث انتزعوا اقرارا بأفضلية الخلفاء الثلاثة على "علي" وذلك وفقا لعقائد اهل السنة .

أي اننا خلال محطات فكرية ثلاث من القرن الثالث الي نهاية القرن السادس –من بداية عصر الازدهار الفكري الي خفوته– لم نعثر لدى محققي المؤرخين والمحدثين السنيين الا على بضعة احاديث في مناقب ابي بكر. فاذا قفزنا الي القرن العاشر الهجري، بداية العقم الفكري والتخلف العقلي، وجدنا تنوعا في تأليف مناقب ابي بكر يعبر عن تطور هائل في عقلية عبادة البطل وتقديس السلف و تأليه الصحابة وتحصينهم من النقد

والنقاش وهو موضوع طويل يستحق بحثا مستقلا. ولكن نكتفى ببعض الأشارات التى تتجلي فيما كتبه السيوطي (ت 911) في "تاريخ الخلفاء" عن ابي بكر، ونقرأ في العناوين: الصديق افضل الصحابة وخيرهم، الآيات التي نزلت في مدحه او تصديقه، الاحاديث الواردة في فضله، الاحاديث المشيرة الي خلافته، حديث في فضله، وتحت هذه العناوين تفصيلات، نأخذ منها بعض الامثلة:

فهناك احاديث تجعل ابا بكر شعيرة دينية وضمن معالم الايمان، مثل حديث (حب ابي بكر وشكره واجب علي كل امتي [، وحديث يقول فيه علي ابن ابي طالب (لا يجتمع حبي وبغض ابي بكر في قلب مؤمن [وفيه اتهام للشيعة بالكفر، وحديث (حب ابي بكر وعمر ايمان، وبغضهما كفر)، وحديث] حب ابي بكر ومعرفتهما من السنة) وحديث (اني لأرجو في حبهم لابي بكر وعمر ما ارجو لهم في قولة لا اله الا الله) . أي مساواة بين شهادة الاسلام وألوهية الله تعالي بحب ابي بكر وعمر!

واحاديث تجعل النبي ينطق بالغيب وبما سيحدث لابي بكر، علي مثال حديث: (انت عتيق الله من النار)، مثل حديث النبي الي جبل أحد حيث تحرك بزعمهم، فقال النبي للجبل (اسكن فانما عليك نبي وصديق وشهيدان). وحديث ابي هريرة الذي يقول (تباشرت الملائكة يوم بدر فقالت: اما ترون الصديق مع رسول الله في العريش). والمتخلفون عقليا الذين وضعوا هذا الحديث لم يعرفوا ان ابا هريرة وقت غزوة بدر كان كافراً، لأنه لم يسلم الا بعد غزوة خيبر!

وحديث ابن عباس: (هبط جبريل وعليه طنفسه وهو يتخلل بها، فقال له النبي: ما هذا يا جبريل؟ فقال جبريل ان الله تعالي أمر ملائكته ان تتخلل في السماء كما يتخلل أبو بكر في الارض"!. وحديث (ان الله يكره فوق سمائه ان يُخَطّأ أبو بكر) أي يرميه الناس بالخطأ .

وحديث (اما انك يا ابا بكر فأول من يدخل الجنة من امتي) وحديث (انت صاحبي علي الحوض) وحديث (عرج بي السماء فما مررت بسماء الا وجدت فيها اسمي محمد رسول الله، وأبو بكر خليفتي) وحديث ان ملك الموت سيقول لابي بكر عند موته (يا ايتها النفس المطمئنة) وحديث (الناس كلهم سيحاسبون الا ابا بكر) وحديث (دخل النبي المسجد وهو آخذ بيدي ابي بكر وعمر وقال: هكذا نبعث) وحديث (انا اول من تنشق عنه الارض، ثم أبو بكر ثم عمر [.

واحاديث اخري مسندة كذبا للصحابة أو التابعين تجعل المتحدث يعلم غيب السرائر الذي لا يعلمه الا الله تعالي وحده، مثل حديث عمر (لو وزن ايمان ابي بكر بايمان اهل الارض لرجح بهم). وقول الزهري (من فضل ابي بكر انه لم يشك في الله ساعة قط) .

واحاديث تفضله علي الناس جميعا ما عدا الانبياء، مثل (ما طلعت الشمس ولا غربت علي احد افضل من ابي بكر الا ان يكون نبيا). وحديث (اتاني جبريل فقلت له يا جبريل حدثني عن فضائل عمر بن الخطاب، فقال: لو حدثتك بفضل عمر مدة ما لبث نوح في قومه ما نفذت فضائل عمر، وان عمر حسنة من حسنات ابي

بكر). وقال الربيع بن يونس: مكتوب في الكتاب الاول (ولا نعرف طبعا ما هو ذلك الكتاب الاول): مثل ابي بكر الصديق مثل القطر (المطر) اينما وقع نفع) ويقول الربيع بن يونس ايضا (نظرنا في صحابة الانبياء فما وجدنا نبيا كان له صاحب مثل ابي بكر الصديق) وهذا الرجل المفتري الربيع بن يونس لم يجد من يسأله هل تعلم عدد الانبياء اولا قبل ان تعرف اصحابهم ؟ وهل لديك علم بسرائرهم؟ ولكنه التهاون بقدسية الغيب الالهي الذي جعلهم يتجرأون علي قول هذه الطامات .

هذا بالاضافة الي " تفسيرهم" لايات كثيرة علي انها نزلت في ابي بكر وفعلوا مثل ذلك مع عمر .

واضاعوا حقائق الاسلام

واولي هذه الحقائق: انه ليس في الاسلام ايمان بشخص، حتي ولو كان شخص النبي، وانما الايمان يكون بالوحي الذي نزل علي شخص النبي، وليس بشخص النبي البشري. يقول تعالي (والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل علي محمد وهو الحق من ربهم.. محمد 2). لم يقل وآمنوا بمحمد، وانما (وآمنوا بما نزل علي محمد) أي الايمان بالوحي، أي بالقرآن الذي يكون فيه محمد نفسه اول المؤمنين به. اما الايمان بشخص محمد فذلك يعني البداية لتأليهه، ولا اله مع الله ولا اله الا الله. ولذلك نزلت ايات كثيرة لتؤكد علي بشرية النبي وتؤكد علي اخطائه هو والانبياء لتظل العصمة للنبي بالوحي فقط، وليظل التقديس خالصا لله تعالي وحده. واذا كان شخص محمد خارج القرآن قضية تاريخية ــ كما هو الحال فى الروايات التاريخية فى السيرة النبوية وما بينها من تعارض داخلى، بالأضافة الى تعارضها مع حقائق القرآن "وهذا أيضا يستحق بحثا منفصلا" ــ فأنه بالتالي لا يكون لابي بكر او عمر او علي وسائر الشخصيات التاريخية موقع في عقائد الاسلام. وبالتال – ايضا يكون ادخال هذه الشخصيات في تديّن المسلمين ابتعادا عن حقائق الاسلام، خصوصا وان ذلك تم عن طريق احاديث كاذبة .

وثاني هذه الحقائق: ان النبي محمدا عليه السلام لا يعلم الغيب، وليس له ان يتكلم في الغيبيات. وبهذا نزلت اكثر من عشرين آية قرآنية، منها ما يؤكد ان النبي لا يعلم ما سيحدث له او لغيره في المستقبل في الدنيا او في الاخرة "الأعراف 187 ــ 188" " الأحقاف 9"، ومنها انه لا يعلم ما سيحدث من احوال الاخرة وعلامات الساعة ووقتها ، النازعات 42 ــ 46 وانه لا يعلم سرائر الناس وما تخفيه صدورهم من ايمان او نفاق حتى اولئك الذين يحيطون به." التوبة 101 . أي ان تلك الافتراءات المنسوبة للنبي انما تعكس عقليات عصرها وعقائدهم، ولا شأن للاسلام او خاتم النبيين بها .

وثالث هذه الحقائق، ان تزكية النفس او الغير بالتقوي ممنوعة. فلا يصح ان تمدح نفسك او غيرك بالصلاح (الجمعة 5: 6، البقرة 94: 96، النساء 49: 50) وقد قال تعالي (فلا تزكوا انفسكم، هو اعلم بمن اتقي: النجم 32]

وهناك حقائق اخري يطول شرحها. ولكن نكتفي بذلك لندخل في ملامح الدولة الاسلامية في خلافة ابي بكر .

ثانيا: ولاية الحكم

الاسلام دين ودولة. الا ان دولة الاسلام ليست دولة دينية ولكنها دولة مدنية هدفها الاول (اقامة القسط بين الناس] (الحديد: 25). اما الدولة الدينية فهدفها ادخال الناس الجنة بالاكراه وحد الردة وتغيير المنكر بالقوة، وذلك بالمخالفة للقرآن الذي يجعل الهداية مسئولية شخصية]الاسراء 15، القصص 56 [.

ودولة الاسلام المدنية تجعل الامة مصدر السلطات، ولو كان النبي وهو الحاكم فظا غليظ القلب لانفض الناس من حوله، واذا انفضوا من حوله فلن تكون له دولة، بل ستعود اليه قصة المطاردة والاضطهاد. لذلك جعله الله تعالي هينا لينا مع الناس، وامره بأن يستتشيرهم لأنهم مصدر السلطة والقوة (آل عمران 159). اما في الدولة الدينية فالخليفة يزعم انه يستمد سلطته من الله، وانه مسئول امام الله عن الرعية، أوالاغنام التي يحكمها او يملكها، ويعاونه في حكمها الملأ او اهل الحل والعقد وهو ما يذكرنا بفرعون وملائه وحرص القرآن الكريم على ترديد قصته وملامح الأستبداد وذهنية الحاكم الطاغية فيها لكى يفهم المسلمون. ولكنهم ما فهموا ولن يفهموا طالما يقدسون الطغاة وينتفضون غضبا اذا حاول باحث مسلم عرض تاريخهم على القرآن الذى يزعمون الايمان به.

وفي دولة الاسلام فالمسلم هو كل انسان مسالم بغض النظر عن عقيدته، لأن العقائد مرجعها لله تعالي يوم القيامة، أي ان الدين لله تعالى والوطن للجميع على قدم المساواة والعدل. اما في الدولة الدينية فالمواطنون درجات اعلاهم الخليفة والمقربون منه، ثم جهاز السلطة من الفقهاء والجند والموظفين، ثم الذين علي مذهب السلطان من المسلمين، ثم الويل كل الويل لاصحاب المذاهب الاخري والاديان الاخري في داخل الدولة .

وفي دولة الاسلام لكل فرد فيها – بغض النظر عن عقيدته– الحق المطلق في شيئين: العدل وحرية العقيدة والفكر، ولكل فرد حقوق نسبية على قدر امكاناته في المشاركة السياسية ــ أي الحكم – وفي الامن وفي الثروة .ويكون المجتمع هو صاحب الحق المطلق في الثروة والسلطة والامن. اما في الدولة الدينية فالخليفة هو الذي يملك الارض ومن عليها، وهو الذي يحتكر السلطة والثروة والامن وعقائد الناس وقلوبهم، ومن عصاه فمصيره القتل في الدنيا والجحيم في الاخرة، او هكذا يزعمون .

وهذه الدولة الاسلامية اقامها النبي فعلا في المدينة (فالدولة هي شعب + ارض + نظام حكم). الا ان بداية التغيير في اسس هذه الدولة الاسلامية حدث في خلافة ابي بكر نفسه، ثم تفاقم التغيير في عهده بالفتوحات العربية التى حملت اسم الاسلام زورا وبهتانا , وهى التى أوصلت المسلمين بعده الي الحرب الاهلية في الفتنة الكبري التى أسقطت الدولة الاسلامية نهائيا وبدأت عصر الخلفاء غير الراشدين . ومع ذلك تبقي الدولة الأسلامية واقعا تاريخيا حيا لا مجال لانكاره , أقامه خاتم النبيين ــ عليه و عليهم السلام ــ ثم أضاع اصحابه ملامحها شيئا فشيئا . و لأن الدولة ألأسلامية كانت واقعا حيا في العصور المظلمة فانه من الممكن اعادتها فى عصرنا الحالي,و هذا ما نجح فيه الغرب حين انهى سيطرة الكهنوت و التراث الدينى وتمسك بدلا منهما

بحقوق الانسان و القيم الأنسانية العليا. و حقوق الأنسان و القيم الأنسانية العليا هى جوهر ألاسلام فيما يخص تعامل البشر فيما بينهم , وهى جوهرالشريعة الأسلامية الحقيقية والدولة الأسلامية على نحو ما فصلناه فى مؤلفات لنا سابقة .

وحقوق الأنسان والقيم الأنسانية العليا هى جوهر الخلاف بين الدولة الأسلامية و نقيضتها الدولة الدينية, تلك الدولة التى عرفها المسلمون بعد دولة ما يسمى بالخلفاء الراشدين تمييزا لهم عن الخلفاء غير الراشدين ممن احترفوا الظلم والأستبداد تحت لافتة الاسلام. وفى عهدها تم تدوين التراث ونسبته ــ زورا ــ لله تعالى ولرسوله ليصبح مقدسا محميا من النقاش و مصونا عن النقد. وفى عصرنا البائس هذا يراد لنا ان نبتلع هذا التراث دون نقاش لكى نتيح لأصحابه ان يركبوا ظهورنا حكاما باسم الأسلام وهم اعدى اعدائه. ويكفى ان الأسلام اصبح بهم متهما بالارهاب والتخلف والتعصب والرجعية والجمود. و هو فى الأصل دين السلام والعدل و الحرية والتقدم والتسامح , ورسوله ــ عليه السلام ــ بعثه الله تعالى ــ ليس ليقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله وليكرههم على دخول الاسلام كما يقول ذلك الحديث الكاذب , ولم يبعثه ربه جل وعلا بالسيف بين يدى الساعة كما يردد دعاة الوهابية ــ وانما بعثه ربه جل و علا رحمة للعالمين. ان اقرب النظم اقترابا من نموذج الدولة الاسلامية هى دولة الاتحاد السويسري ودول اسكندنافيا التى تطبق الديمقراطية المباشرة، وتظل ابعد الدول عن نموذج الدولة الاسلامية هي الدولة الدينية التى اقامها المسلمون فى العصور الوسطى بعد فترة انتقالية بين الدولة الأموية ودولة الرسول محمد ــ عليه وعلى كل الأنبياء السلام ــ وهذه الفترة الأنتقالية هى ما يسمى بالدولة الراشدة , و كان أبو بكر اول خلفائها, وجاءت دول المسلمين الدينية لتجعل منه ومن اصحابه جزءا من مقدساتها لا يجوز لأحد الأقتراب منهم الا بالتحميد والتمجيد حيث لم يعودوا بشرا يخطئون ويصيبون مثلما وصف الله تعالى أنبياءه فى القرآن الكريم .

ان تدوين التراث قام في ظل الدولة الدينية العباسية، لذلك اهمل التدوين كل ما يخص الشوري وفرضيتها كالصلاة والزكاة (الشورى 38 آل عمران 159) والتأكيد علي حضور مجالسها في المسجد لكل الناس (الايات الثلاث الاخيرة في سورة النور) وما كان يحدث في مجالس الشوري من امور عرضت لها سورة المجادلة . هذه التربية السياسية الديمقراطية ضاعت ولم يتم تدوينها في عصور الاستبداد السياسي العباسي، ولم يبق من دليل عليها الا ايات القرآن الكريم .

ان الدولة الاسلامية التي انشأها النبي عليه السلام كانت ضد منطق العصور الوسطي القائم علي الاستبداد الديني والسياسي، ولكن وجود النبي ونزول الوحي كان مما يعين هذه الدولة علي الثبات، خصوصا مع دخول الناس في دين الله افواجا خلال قوى الاعراب والقريشيين بعد فتح مكة،فلما مات النبي وانقطع الوحي نزولا اجبرت القوى الجديدة هذه الدولة ان تبدأ التنازلات علي حساب القرآن وما كان عليه النبي عليه السلام .
وبدأها أبو بكر في بيعة السقيفة وحرب الردة والفتوحات، أي انه اضطر للتعامل مع العصور الوسطي بمنطقها علي حساب المعتقد الاساسي للدولة الاسلامية. وكان حتما ان ينتصر في النهاية منطق العصور

الوسطي, فانتصر بالامويين ثم العباسيين. وحين انتصر منطق العصور الوسطي في العصرين الاموي والعباسي زالت كل ملامح الدولة الاسلامية، واصبحت الحاجة ماسة الي تشريع مخالف للقرآن، وتمت صياغة هذا التشريع عن طريق علماء السلطة بالاحاديث المفتراة والفتاوي وهجر القرآن وتشريعاته تحت مسميات شتى كالنسخ والتأويل والفقه والتفسير. ولنا مع كل منها وقفات توضح التناقض بينها وبين الأسلام.

بعد هذا التوضيح نعود الي ابي بكر والخريطة السياسية للمنطقة في عهده بعد موت النبي محمد عليه السلام.

في اواخر ما نزل من القرآن نعرف ان الناس قد دخلوا في دين الله افواجا، وهذا ما كان يبدو علي السطح. ولكن الوحي الذي انزله عالم الغيب قد اخبر ان المنافقين من الصحابة كانوا صنفين، صنف مكشوف معروف، وصنف مرد أو أدمن النفاق لا يعلمهم النبي بل الله وحده الذي يعلمهم. بل ان الآية التي تحدثت عن محمد والذين معه ووصفتهم باستدامة الركوع والسجود وان سيماهم في وجوههم من اثر السجود، هذه الاية تقول في النهاية (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما: الفتح 29) أي قالت (منهم) ولم تقل جميعهم. أي انه بغض النظر عن علامات الخشوع والسجود فان ما في القلب شيئا اخر. وهكذا فان اهل المدينة منهم السابقون ومنهم من خلط عملا صالحا واخر سيئا، ومنهم من ارجأ الله تعالي امره اليه يوم القيامة، ومنهم المنافقون المعروفون – ومنهم المنافقون المجهولون، ثم ممن كان حولهم من الاعراب منافقون (التوبة 46-، 61 -، 67-، 74-، 97- 110) . والقرآن يتحدث دائما عن اصناف لا عن اشخاص . ثم يضاف الي ذلك الملأ القرشي، اشراف قريش من بني امية الذين اسلموا بعد الفتح حرصا علي الجاه والثروة بعد تاريخ حافل بالعداء لله تعالى ورسوله. وليس معقولا ان ينمحى هذا العداء وثاراته بمجرد التسليم الظاهرى والجلوس مع النبى بضع مرات قبل موته.

وقد كان النبي بشخصيته وهداية الوحي له يستطيع التعامل مع كل هذه الاصناف بدليل نجاحة في ضمهم جميعا للاسلام بمعناه الظاهري، وهو ايثار السلم (الحجرات 14-،) فدخلوا فيه افواجا . ولكن تغير الوضع بعد موته، ولذلك تحتم التنازل عن الملمح الاول من ملامح الدولة الاسلامية، وهو ولاية الحكم . ولنستعد هنا لمفاجأة .

اذ ليس في الدولة الاسلامية حاكم بأي معني من المعاني المألوفة سياسيا. الحاكم المستبد يناقض شريعة الاسلام وعقيدته، والحاكم بمفهوم العقد الاجتماعي العلماني الغربي مرفوض ايضا في شريعة الاسلام. في العلمانية الغربية يتنازل الشعب عن السلطة لمن يقوم بانتخابهم ومن يمثلونه وينوبون عنه في السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية، اما في الدولة الاسلامية فالدولة هي الشعب، بمعني ان الشعب هو الذي يحكم نفسه بنفسه في نظام يقوم بادارة الحكم فيه اولو الامر، واولو الامر أي اصحاب الشأن والخبرة والاختصاص في الموضوع المطروح بحثه وتنفيذه (النساء 59، 83]. وطاعتهم مقيدة فى اطار طاعة الله تعالى ورسوله, اى الرسالة اى القرآن الكريم.

والشوري الاسلامية تعني الديمقراطية المباشرة في كل حي وفي كل قرية ومدينة، وحضورها فريضة عينية علي كل انسان ذكر او انثي، ولا يجوز التسلل منها او الاعتذار عنها الا بعذر قهري (النور [62: 64) وفيها يتم الحكم والمساءلة، ولذلك فان اوامر السياسة كانت تتوجه الي مجتمع المؤمنين، علي سبيل المثال: سورة المائدة 8، 33-، 51-، 54، 75 النساء، 2-، 5-، 25-، 29-، 58-، 71-، 94-،[وليس الي حاكم، بل ان كلمة " حكم " ومشتقاتها فيما يخص التعامل بين الناس تعني في القرآن الكريم الحكم بين الناس أي في امور التقاضي لأن الاساس الاول في الدولة الاسلامية هو اقامة القسط مع العدو والصديق. والموضوع طويل ونكتفي منه بالتأكيد علي ان دولة النبي في حياته كانت تدار بالناس وليس عن طريق حاكم، وذلك وفقا لآليات يطول شرحها عرضنا لها فى كتابنا عن ديمقراطية الأسلام، ولكن المهم ان ابا بكر ضحي بذلك كله وهو يواجه الوضع الجديد بعد موت النبي، فكانت بيعة السقيفة التي اسفرت عن تعيينه حاكما او خليفة علي خلاف ما كان مألوفا في عهد النبي، ولو كان تعيين حاكم من اسس الدولة الاسلامية النبي لبادرالنبى محمد عليه السلام الي تعيين من يخلفه، الا انه تركهم علي ما كانوا عليه يحكمون انفسهم بأنفسهم، فكان ما كان ..

بعد موت النبي ارتفعت رءوس المنافقين، ويلاحظ كثرة حديث القرآن ــ في اواخر ما نزل ــ عن المنافقين. ثم بعد انقطاع الوحي نزولا وبعد موت النبي انقطع الحديث القرآني عن المنافقين فى المدينة وخارجها، فهل قدموا استقالتهم من نادي النفاق ؟!! المنتظر ان يكونوا عنصرا هاما في العمل علي اسقاط الدولة التي يكرهونها، خصوصا وان حمي الردة انتشرت بين الاعراب المنافقين حول المدينة، وقد ربطت الايات بين الفريقين في قول الله تعالي (وممن حولكم من الاعراب منافقون، ومن اهل المدينة مردوا علي النفاق، لا تعلمهم نحن نعلمهم: التوبة 101 [ثم الي جانب ذلك هناك القريشيون من مسلمة الفتح وزعماؤهم من بني امية وقد اسلموا حديثا بعد طول عداء، وازاء هذه الاخطار كان اول ما يفكر فيه المخلصون من المسلمين هو البيعة وأخذ العهود والميثاق علي التكاتف سويا لمواجهة خطر الاستئصال خلف قائد حربي في هذه الظروف الاستثنائية .

ومفهوم البيعة في القرآن وفي ثقافة عصر النبي لا يعني البيعة لحاكم، وانما البيعة علي التمسك بالاسلام او الجهاد في سبيل الله حين التعرض للخطر (الفتح 10، 18، الممتحنة 12، الاحزاب 15 [ولكن البيعة في السقيفة اكتسبت مفهوما اخر، انتهز فرصة الخطر الداخلي والخارجي ليكسب البيعة مفهوما سياسيا اصبحت بها تعنى تولي الحكم أوالعهد بالحكم . سواء كان ديمقراطيا بعض الشيء في عهد الخلفاء الراشدين، ام كان وراثيا استبداديا، كما في عهد الخلفاء غير الراشدين وأذنابهم من مستبدى حكام المسلمين فى عصرنا البائس.

ونرتب الاحداث حسبما جاءت في روايات التراث السنّي.

فبعد موت النبي مباشرة اجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة، واتفقوا علي تولية سعد بن عبادة الذي كان مريضا، ولم يمنعه مرضه من الحضور، وخطب فيهم سعد موضحا حقهم في الحكم ــ ولو كان الوحي ينزل لأخبر عن مكائد المنافقين فى هذا اليوم ــ ووصل الخبر الي عمر فأسرع الي ابي بكر وكان مع "علي"

يشرف علي تجهيز جثمان النبي للدفن. وخرج أبو بكر مع عمر الي السقيفة وفي الطريق لحقهم أبو عبيدة بن الجراح. وفي السقيفة خطب أبو بكر متوددا للانصار وقال لهم: نحن الأمراء وانتم الوزراء. فاحتج عليه الحباب بن المنذر مطالبا بحق الانصار، وقال: فان أبى هؤلاء فمنا امير ومنهم امير. فرد عليه عمر بعنف فاشتعل الشجار وامتشق الحباب سيفه، فالتقطه منه عمر واتجه به ليقتل سعد بن عبادة. ولكن اسرع أبو بكر فأنقذ سعدا، فقال له عمر: قتله الله انه منافق. وانتهي الامر ببيعة ابي بكر البيعة الخاصة، ثم بويع البيعة العامة في المسجد في اليوم التالي .

ورفض سعد بن عبادة ان يبايع ابا بكر، وقيل له: (لئن نزعت يدا من طاعة او فرقت جماعة لنضربن الذي فيه عيناك [. ورد سعد رافضا البيعة (والله لا ابايع حتي اراميكم بما في كنانتي واقاتلكم بمن تبعني من قومي وعشيرتي). ونصح بشير بن سعد ابا بكر بألا يرغم سعدا علي البيعة " لأنه لن يبايع حتي يقتل، ولن يقتل حتي يقتل معه ولده وعشيرته ولن يقتلوا حتي يقتل الخزرج، ولن يقتل الخزرج حتي يقتل الاوس، فلا تحركوه، فأنه ليس يضركم، انما هو رجل واحد طالما تركتموه) فتركوه .

وكان سعد بن عبادة من اشد الناس غيرة، ما تزوج الا امرأة بكرا، وما طلق امرأة فتجاسر احد علي زواجها بعده، وكان بعصبيته وماله وشخصيته عنصر قلق لأبي بكر وعمر بعد الاهانة التي لحقت به في السقيفة، خصوصا بعد تولي خصمه عمر الخلافة. لذلك لم يطق الامر وترك المدينة بعد ان قسم امواله علي ذريته. وحدث انه بعد وفاته في الشام ولدت احدي نسائه ولدا فقال عمر لابنه قيس ان يدخل الوليد معهم في الميراث، فقال قيس بن سعد: "اني لا اغير ما قال ابي سعد ولكن نصيبي لهذا الولد". الي هذا الحد بلغت طاعة قيس لابيه بعد موته، مما يعطينا لمحة عن خطورة سعد السياسية والشخصية .

وهذا يفسر لنا من ناحية اخري موتته الغامضة في حوران بالشام، اذ عثروا علي جثته هناك مقتولا، وقد تغيرت ملامحه، واشيع في المدينة ان الجن قتلته، وان الجن قالت في ذلك شعرا:

قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة   رميناه بسهم فلم نخطئ فؤاده

وبهذا تم التخلص نهائيا من معارضة الانصار، وبقيت معارضة بني عبد مناف .وآل عبد مناف هم الهاشميون والامويون، فهم معا ابناء رجل واحد هو عبد مناف .

ومن الطبيعي ان يحتج علي هذا الوضع ــ تولية أبى بكر الخلافة ــ أبو سفيان ومن علي شاكلته من اصحاب الثقافة القريشية الجاهلية. بل ان ابا قحافة والد ابي بكر كان ينتمي الي هذه الثقافة. اذ تعجب كيف يصبح ابنه حاكما في وجود بني امية وبني هاشم وهم كبار قريش، لذلك لا نعجب اذ ردد أبو سفيان نفس المعني ثائرا حين قال (ما بال هذا الامر في اقل حي من قريش) وقال (ما لنا ولابي فصيل) يتندر علي ابي بكر، (انما هي عبد مناف) وصرح (اين المستضعفان: علي وعباس) ودعا الي بيعة علي، فزجره "علي" قائلا (طالما عاديت

الاسلام واهله فلم تضر شيئا). وأخيرا هدأ أبو سفيان حين استرضاه أبو بكر بتعيين ابنه يزيد قائدا، فقال حين بلغه الامر (وصلته رحم [.

وكانت بيعة ابي بكر شيئا جديدا بالنسبة لعلي المشغول بدفن النبي وتجهيزه. واجتمع بعض المهاجرين المحتجين في بيت علي ومعهم الزبير بن العوام (وأمه صفية عمة النبي) وتخلفوا عن بيعة ابي بكر. وامتشق الزبير سيفه وقال: لا اغمده حتي يبايعوا عليا. أي طالما في الامر حاكم فعلي هو الاولي. وجاءهم عمر فقال: والله لأحرقن عليكم البيت او لتخرجن الي البيعة. فخرج عليه الزبير بالسيف فتعثر فوقع فأخذوا منه السيف و.. وبايعوا ابا بكر. وتسكت المصادر السنية عندها، وتترك فجوات تحتاج الي من يملأها، خصوصا في العلاقة الحميمة بين ابي بكر وعمر وموقفهما معا من على وآل بيته (طبقات ابن سعد 3/1/128–، 3/2/144– تاريخ الطبري 3/218: 223، تاريخ ابن كثير 7/ 33].

ثالثا: الردة .. والفتوحات:

بعد تأمين الجهة الداخلية بتعيين ابي بكر حاكما كان لا بد من مواجهة خطر الردة .

وليس صحيحا ان ابا بكر حارب المرتدين. ولكن الصحيح ان المرتدين هم الذين حاربوا ابا بكر والمدينة. والروايات التي دونها العصر العباسي عن حركة الردة فيها تناقض، واحدة منها تقول ان ابا بكر صمم علي قتال مانعي الزكاة، وعارضه عمر ــ مع أنه المشهور بشدته ــ قائلا (كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله امرت ان اقاتل الناس حتي يقولوا لا اله الا الله وان محمدا رسول الله، فمن قالها عصم مني ماله ودمه الا بحقها وحسابه علي الله) فقال أبو بكر: والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة [

وهذا الرواية كاذبة. فليس صحيحا ان الرسول قال (امرت ان اقاتل الناس حتي يقولوا ..). فذلك الحديث المزعوم الذي يستحل قتل الناس يعارض قوله تعالي (لا اكراه في الدين) وعشرات الايات الاخري فى تشريع القتال فى الأسلام. ثم انه يعني الاستئصال التام لأهل الكتاب ومن يطلق عليهم " اهل الذمة " وهم لا ينطقون الشهادتين، وقد آن الأوان لاعلان تبرئة النبي من هذا الحديث الدامي الذي لا يزال يحرض علي الارهاب .

وليس صحيحا ايضا ان النبي كان يأخذ الزكاة من القبائل. بل ان الزكاة كانت تؤخذ من اغنياء اهل الحي لكي يتم توزيعها علي فقراء الحي انفسهم، أي انها ليست حجة للمرتدين علي الاطلاق في ان يواجهوا ابا بكر برفض الزكاة، لأنهم حسبما تعودوا في عصر النبي هم الذين يدفعون الزكاة لفقرائهم .

وليس صحيحا ايضا ان هناك إكراهاً وإرغاماً من السلطة علي تحصيل الزكاة. اذ انه قبل ذلك بقليل تكاسل المنافقون عن دفع الزكاة، فأمر الله تعالي النبي الكريم بألا يقبل منهم الزكاة، وقال (قل انفقوا طوعا او كرها لن يتقبل منكم، انكم كنتم قوما فاسقين، وما منعهم ان تقبل منهم نفقاتهم الا انهم كفروا بالله وبرسوله، ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالي، ولا ينفقون الا وهم كارهون، فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم: التوبة 53ــ 55–.[

وليس منطقيا ايضا ان يبادر أبو بكر بحرب طاحنة لأناس يقبلون الطاعة الا دفع الزكاة وهو في حالة ضعف سياسي وحربي .

والمنطقي والصحيح ان العصر العباسي وضع ملامحه في هذه الرواية، خصوصا ارغام (الرعية) علي دفع الاموال والا اعتبرهم مرتدين.

والرواية التي نقبلها هي التي تؤكد بين سطورها ان الاعراب المحيطين بالمدينة اعدوا جيشين لغزوها في مكانين مختلفين، وبعثوا بوفد للتفاوض، واهدافه الحقيقية رصد دفاعات المدينة. وفهم أبو بكر انهم جواسيس فرفض التفاوض معهم، وقام بتدعيم قواته داخل المدينة وحولها. وفعلا، وكما توقع أبو بكر هاجم القسم الاول من المرتدين المدينة، فبعث حرس المدينة يستغيثون بأبى بكر فأمرهم بالثبات، ثم انطلق أبو بكر باهل المدينة الي طليعة المرتدين فقهرهم، فهربوا الي حيث الكمين او القسم الثاني في منطقة ذي حسي. وانتهت المعركة بهزيمة كاملة للمرتدين، وأكد أبو بكر هذا النصر بانتصارات اخري علي الاعراب المرتدين من عبس ومرة وذبيان وكنانة وهزمهم في ذي القصة، ثم تتابعت حروب الردة الي ان اوصلت جيوش المسلمين الي مشارف الشام والعراق، فكانت الفتوحات .

ذلك ان ابا بكر اراد تصدير الشوكة الحربية للاعراب الي خارج الجزيرة العربية ليستفيد من قوتهم الحربية في اكتساب ارض جديدة ويتخلص من متاعبهم، والا كان سيظل في معارك متصلة مع قبائل تحترف القتل والاقتتال والاستحلال طلبا للعيش، وتلك حياتهم التي استمرت قرونا قبل الاسلام، وبعده ايضا.. الا ان الفتوحات جعلت ابا بكر يتغاضي عن ملحمين اثنين اخرين من ملامح دولة النبي، وهما: ان يكون القتال في الدفاع عن النفس فقط، وليس للهجوم، وان يعاقب العدو المعتدي بأرغامه علي دفع الجزيرة اذا انتصر المسلمون، والجزية غرامة يدفعها المعتدي المهزوم في كل زمان ومكان .

الذي حدث هو ان القواد الغزاة في دولة ابي بكر وعمر كانوا يطلبون قبل الهجوم – ممن جعلوه عدوا: اما الاسلام، واما الجزية واما الحرب، او بمعني اخر، ارغامه علي الاسلام والا فالجزية، والا فليحارب قوما اعتبروا الغزو جهادا يضمنون به الجنة او النصر. وتلك ثقافة لم يعرفها عصر النبوة، الا انها ثقافة العصور الوسطي التي تعامل بها أبو بكر، انها ثقافة الاكراه والارغام التي تخالف الاسلام .

رابعا: الذمة المالية للحاكم:

الا ان ابا بكر حافظ علي ملمح هام للدولة الاسلامية، وهي الشفافية والطهارة المالية. فاذا كانت الدولة الدينية تجعل الخليفة يملك الارض ومن عليها، وليس عليه رقيب فيما ينفق وفيما يجمع من اموال، فأن الدولة الاسلامية تجعل الثروة: ملكا للمجتمع، وهي للافراد طالما احسن الفرد استثمارها، والا وجب الحجر عليه وكان سفيها، يقول تعالي]: ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها: النساء 5[. وهنا نلاحظ ان المسلمين حتى اليوم يعطون اموالهم طوعا أو كرها لأكثر المخلوقات سفاهة ــ أى حكامهم

الذين يتندر العالم المتحضر على مخازيهم وسفههم ــ وقد أضاعوا البترول وحقوق الأجيال القادمة فيه فى اللهو والأنحلال و قتل بعضهم البعض واكتناز اموال لا يستحقونها وسلاح لا يستعملونه الا في قتل انفسهم، وفى الدعوة للكهنوت الوهابى وتكذيب حقائق القرآن والأسلام. أن الأسلام الحق هو اعظم نعمة وقد أضاعوه واستخدموا نعمة البترول فى الصد عن سبيل الله تعالى. اقرأ فيهم وفى غيرهم قوله جل وعلا: "ألم تر الى الذين بدلوا نعمت الله كفرا و أحلوا قومهم دار البوار.."ابراهيم 28" واقرأ ما بعدها للعظة و الأعتبار.

وفي الغرب، فأن الحاكم هناك يأخذ راتبه من اموال دافعي الضرائب بعكس ما نتمتع به في عالمنا الثالث، حيث يمتن علينا الحاكم بأنه ينفق علينا في الصحة والتعليم والخدمات، كما لو كان ينفق من ضيعته او حر ماله، ثم ينفق اموال الامة بما يحلو له. ولكن الواقع التاريخي يثبت انه في ظلام العصور الوسطي كان أبو بكر اول حاكم يأخذ مرتبة او عطاءه من المجتمع. او بتعبير السيوطي "اول خليفة فرض له رعيته العطاء". اذ كان يعمل تاجرا، وبعد الخلافة ذهب الي السوق كعادته الا ان عمر وبعض المسلمين ارجعاه والزماه ان يتفرع للحكم مقابل مرتب سنوي قدره الفان، وطلب علاوة "فقال زيدوني فان لي عيالا وقد شغلتموني عن التجارة، فزادوه خمسمائه" .

وعند احتضاره امر أبو بكر ابنته السيدة عائشة ان تعيد " العهدة" الي بيت المال، وقال لها "اما انا منذ ولينا امر المسلمين لم نأكل لهم دينارا ولا درهما، لكنا اكلنا من جريش طعامهم ولبسنا خشن ثيابهم". وامرها ان تعيد لبيت المال عبدا وبعيرا وقطيفة .

وبعد موته جئ بهذه " العهدة " الي عمر فقال باكيا: "رحم الله ابا بكر، قد اتعب من بعده ".

وتلك هي المنقبة التي تسجل لأبي بكر .

أبو هريرة والكلاب

ــ هل تريد ان تكون مفكرا ؟ ضع نصب عينيك سؤالا واحدا يقول :" لماذا ؟" احمله على كاهل عقلك تواجه به كل مألوف من الثوابت المحيطة بك . منذ صغرى وأنا أحمل هذا التساؤل يسعدنى ويشقينى ويفعل نفس الشيء مع من يقرأ لى .

2 ــ أول "لماذا" طرأت على عقلى هى أخطر "لماذا" على الاطلاق .
كنت صبيا صغيرا يرى فى أبيه المثل الأعلى ، أبى كان فقيرا كريما عفيف النفس متسامحا مبتسما دائما برغم مرضه وضعف صحته . كان مأذون القرية الذى يتنازل عن معظم أتعابه رغم فقره ، ويتنازل عن الأجرة من الطلبة الفقراء الذين يقوم بتعليمهم القرآن وتأهيلهم لدخول الأزهر، ويمضى يومه بين الصلاة والقرآن والقراءة معتكفا عن الناس . مات فى الخامسة والأربعين حين كنت فى الرابعة عشر من عمرى، ولا زلت أذكر كيف حببنى فى التاريخ والسؤال والاستفهام بلماذا حتى أفهم التاريخ والحياة بصدق.
كان أبى يرحمه الله تعالى هو موضوع أول وأخطر " لماذا " فى حياتى .
فى ظل الاحتراف الدينى السائد والتدين السطحى الغالب كنت أقارن بين أبى الأزهرى والشيوخ الشعبيين المشهورين بالولاية الذين تشاع عنهم أساطير الكرامات، بينما هم فى الحقيقة جهلة ومنحرفون، أى أنهم عند الله تعالى فئة " مسجل خطر " وعند الناس أولياء الله تعالى الذين لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . لا وجه للمقارنة بينهم وبين أبى ،" فلماذا " أصبحوا هم أولياء لله بينما ظل أبى شيخا عاديا مع علمه وورعه ؟. فى صغرى قلت لنفسى اذا كان هذا هو الاسلام فهو ظلم أرفضه ، واذا كان الاسلام يرفض ذلك الظلم فلا بد أن أتأكد بنفسى . هذا هو السبب الذى جعلنى أختار التصوف لبحث الدكتوراه . دخلت فى البحث فى التصوف فتبين لى وجود فجوة هائلة بين الاسلام والمسلمين ، بالتعمق فى بحث الفقه والتراث السنى اتسعت تلك الفجوة لتصبح تناقضا وعداءا مستحكما بين الاسلام ومعظم المسلمين.
الفضل فى هذا الاكتشاف الذى أتعبنى واتعب غيرى يرجع لكلمة " لماذا ؟" .

3ــ "لماذا" أخرى ظريفة تسللت الى عقلى وجعلتنى اقف موقفا متشككا من الفقه والحديث والسنة منذ كنت طالبا فى الاعدادى الأزهرى
تعلمنا فى الفقه أن الكلب نجاسة مغلظة لا بد من التطهر منه سبع مرات احداهن بالتراب. ولكن القرآن الكريم يقول شيئا مختلفا . لو كان الكلب حيوانا نجسا ما صحبه أهل الكهف معهم وهم يتسللون لواذا من قريتهم الظالم أهلها . أهل الكهف شباب أطهار وصفهم الله تعالى بأنهم فتية آمنوا بربهم وزادهم الله تعالى هدى ، فكيف لمن كان فى منزلتهم فى التقوى والايمان أن يصحب معه كلبا اذا كان الكلب نجسا يتأفف المؤمن من الاقتراب منه كما نفعل نحن الان ؟.

لقد أباح الله تعالى لنا أن نأكل مما تصطاده لنا كلاب الصيد ، فاذا ماتت الفريسة بين انيابها فلا حاجة لذبحها بل نطهوها مباشرة لأن أسنان الكلب طاهرة مثل السكين الذى نذبح به. وأذا كان رب العزة قد جعل هذا تشريعا فى كتابه الحكيم { المائدة 4 } فلماذا يكون الكلب نجسا نجاسة مغلظة وهو الذى نأكل مباشرة مما يصطاده لنا بأسنانه ؟

سألت نفسى " لماذا " جعل الفقهاء السنيين الكلب نجسا بالمخالفة لتشريع الاسلام ؟

وتتابعت "لماذات " كثيرة عن الكلب المظلوم فى تراثنا الفقهى وحياتنا المعاصرة.

4 ــ يلفت النظر أن الكلب – عكس القط – مشهور بالوفاء لصاحبه وخدمته باخلاص ، يستوى فى ذلك ان كان الانسان يعيش فى الصحراء الجليدية أو فى الريف المصرى أو فى الصحراء العربية. أن من أقذع الهجاء فى العصر الأموى ما قاله جرير الخطفى فى قوم الأخطل.

قال يصفهم بالبخل الشديد :

قوم اذا استنبح الضيفان كلبهم قالوا لأمهم بولى على النار

فتمنع البول ــ شحا أن تجود به ــ وما تجود الا بمقدار

كان من عادة العرب فى البوادى أن يشعلوا النار ليهتدى بضوئها الضيوف . وكان من عادة الضيوف ــ السائرين فى ليل الصحراء اذا اقتربوا من مضارب قبيلة ما – أن يتحرشوا بالكلاب لتنبح فيعرف أهل القبيلة أن ثمة ضيوفا قادمين فيتأهبون لاستقبالهم . ويتهم جرير قبيلة الأخطل انه اذا استنبح الضيفان كلبهم ليلا أطفأت أمهم النار – ببولها ــ حتى لا يصل اليهم الضيوف .

بغض النظر عن تلك الصورة الشعرية المضحكة الموحية والنابضة بالحياة التى رسمها جريرفى شعره فان الكلب هنا يبدو فيها عنصرا هاما فى الحياة العربية ، ولا يزال . والقصص فى التراث كثيرة عن ذكاء الكلب ووفائه لصاحبه .

والسؤال هنا أيضا لماذا يعامل الفقه السنى الكلب بهذا الاحتقار مع عظيم فائدته ووفائه واخلاصه ؟

5 ــ ان أقوى قبيلة فى العصر الأموى كانت قبيلة " كلب " التى كانت تنتمى الى قبائل العرب اليمنية القحطانية مثل الأنصار. كانت "كلب "هى القبيلة التى كانت تسيطر على الطرق المؤدية للشام ، وكانت لها صلات وثيقة بالأمويين فى مكة . تزعم الأمويون رحلة الشتاء والصيف ، وبتحالفهم مع قبيلة "كلب " كانت قوافل قريش تسير فى الشام لا يتعرض لها أحد . ثم اختار الأمويون الدخول فى الاسلام حرصا على مصالحهم السياسية والتجارية ، وبعد اخماد حركة الردة أقنعوا أبا بكر والمسلمين بفتح الشام والعراق . وأحيا الأمويون التحالف القديم مع قبيلة "كلب " فسهلت " كلب " للمسلمين غزو الشام والعراق . وتوثق التحالف بين " كلب " ومعاوية اثناء ولايته على الشام ، و بسيوفهم استطاع أن يقيم ملكه . مذ كان معاوية أميرا على الشام فى خلافة عمر تزوج ابنة بحدل الكلبى أشهر زعيم لقبيلة "كلب" وانجب منها ابنه " يزيد ". كانت ميسون بنت بحدل الكلبى منذ أن استقر بها المقام فى قصر معاوية فى دمشق تحن الى حياة الصحراء وخشونتها ، وقالت فى ذلك شعرا مشهورا ، كان منه:

ولبس عباءة وتقر عينى   أحب الى من لبس الشفوف .
فطلقها معاوية وأرسلها لأهلها ومعها ابنها يزيد ليتربى هناك فى مضارب أخواله فى الصحراء ليتعلم الفروسية والفصاحة. ولم يؤثر هذا الطلاق فى الحلف بين معاوية وقبيلة " كلب " بدليل أنهم هم الذين أرسوا توارث الحكم لأول مرة فى تاريخ المسلمين بتعيين ابن ميسون الكلبية "يزيد بن معاوية" ولى عهد لأبيه ثُم خليفة بعده.
وظل تاريخ الدولة الأموية يتأرجح فى أتون الصراع بين قبيلة "كلب " أقوى القبائل العربية القحطانية اليمنية وقبيلة " قيس " المضرية أقوى القبائل العربية الشماليةالعدنانية، حتى انشقت " كلب " على الأمويين وانضمت للدعوة الجديدة التى أقامها العباسيون فانهارت الدولة الأموية .
هذه القبيلة المشهورة – التى أقامت الدولة الأموية وأسقطتها والتى قامت على أكتافها الفتوحات العربية من بدايتها حتى وصلت الى آسيا الوسطى شرقا وجنوب فرنسا غربا – كان اسمها " كلب ". لم يستنكف أحدهم ان يقول بملء فمه أنه "كلبى " ، أوانه " ابن كلب " فلماذا أصبحت كلمة " ابن كلب " لعنة وسبا فى حياتنا الاجتماعية المتاثره بالفقه السنى ؟

6 ــ أكثر من ذلك انك لو بالغت فى شتم عدو لك ستقول له أنه " ابن ستين كلب " أو ما يعنى انه :" ابن كلاب " والمثل الشعبى المصرى يقول " كلب أبيض وكلب أسود ، قال : كلهم أولاد ستين كلب " أى "أولاد كلاب " وليس كلبا واحدا. مع اننا نعرف ان احد اجداد النبى محمد عليه السلام اسمه "كلاب "، يعنى اذا نسبت النبى محمد لجده " كلاب " وقلت انه "ابن كلاب " فقد قلت نسبه الحقيقى الشرعى ولا عيب فى ذلك ، ولكن الفقيه السنى سيصاب بامساك واسهال فى بطنه و" حول " – بفتح الحاء وفتح الواو – فى عينيه اذا طرأت له هذه الفكرة.

7 ــ باختصار : أننا ــ نحن العرب ــ الشعب الوحيد الذى يعترف بفضل الكلاب ولكن يجعلها نجسه ومحتقرة ويجعلها شتيمة وسبا ولعنة. والسؤال هنا " لماذا"؟ .
سألت نفسى منذ الصغر لماذا هذا الظلم لهذا الحيوان المخلص الوفى . وتجدد السؤال الى أن عثرت على السبب ، أنه أبو هريرة ، أكبر وأشهر كذاب فى تاريخ المسلمين وتراثهم.

8 ــ أبو هريرة مع شهرته الا ان اسمه الحقيقى مختلف فيه، طغت على اسمه كنيته :" أبوهريرة" بسبب شهرته بحمله للقطط الصغيرة . ولو ظل رجل يحمل قطة صغيرة فى ذهابه وايابه وسيره وحله وترحاله بحيث يطلق عليه : أبو هريرة لكان محلا للسخرية من الناس. وهكذا كان أبوهريرة فى حياته كما جاء فى تاريخه ، كان الناس يستهزئون به وكان يستمرىء منهم هذا الاستهزاء حتى وهو شيخ فى أرذل العمر ، حتى وهو أمير على المدينة فى الخلافة الأموية ، اذ كان يستهزىء به الكبار والأطفال طبقا لما جاء فى تاريخه . وموعدنا مع مقال خاص عما قالوه فى التراث السنى ذاته عن أبى هريرة حين كان "مسخرة " للمعاصرين له.

انه أقل الناس صحبة للنبى محمد عليه السلام ، الا أن شهرته ترجع لعاملين: لأنه عاش طويلا بعد موت كبار الصحابة ، ولأنه انحاز الى الأمويين يفترى لهم الأحاديث التى تناصرهم ، ويقوم القصاصون برواية احاديثه بعد الصلاة حيث كان القصاص وظيفة رسمية فى العصر الأموى تعادل منصب القضاء ،حيث كان القصاص يقوم بوظيفة وزير الاعلام فى عصرنا.

وابو هريرة – بأحاديثه التى نشرها القصاصون وتداولها الناس بالرواية الشفهية – هواشهر مؤسسى الثقافة السمعية التى لا زلنا أسرى لها حتى الآن ، وهى المسئولة عن تخلفنا العقلى والفكرى والدينى خصوصا بعد تدوين هذه الثقافة السمعية الشفهية ونسبتها كذبا وزورا للنبى محمد عليه السلام فى العصر العباسى ، اذ أصبحت دينا اسمه " السنة " وله تشريع يسمى " الفقه السنى ".

9 ــ أبو هريره فى تخلفه العقلى كان متعصبا للقطة منحازا لها فى كراهيتها للكلب ، أبو هريرة المسكين كره الكلاب لأن الهرة تكره الكلاب. وانعكس هذا فى أحاديثه التى جعلت الكلب نجسا محتقرا، تقول : (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرار). (إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات). (طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب). رواه مسلم حديث رقم 279)

وجاء الفقه السنى يأخذ بأحاديثه ويجعلها دينا، ويختلف فى التفصيلات كالعادة .

ننقل هنا بعض الفتاوى السنية الوهابية المعاصرة التى أحيت التخلف السنى فى عصر الانترنت ، تقول الفتوى "المباركة" :

" ذهب الجمهور إلى نجاسة الكلب بجميع أجزائه وذهب الحنفية في الأصح عندهم إلى نجاسة سؤره وطهارة بدنه، وذهب المالكية إلى طهارة سؤره وبدنه، والراجح هو مذهب الجمهور، قال الإمام النووي في المجموع: مذهبنا أن الكلاب كلها نجسة، المُعَلَّم وغيره، الصغير والكبير، وبه قال الأوزاعي وأبو حنيفة وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد ، . واحتج أصحابنا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات. رواه مسلم .

وعن أبي هريرة أيضاً قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب. رواه مسلم ، وفي رواية له: طهر إناء أحدكم إذا ولغ الكلب فيه أن يغسل سبع مرات.

والراجح نجاسة الكلب، ونجاسة جميع أجزائه، وإنما يجب غسل ما أصاب من ثوب أو بدون أو غيره بسؤره أو بدنه المبلول. والله أعلم."

ولتأكيد وجهة نظر أبى هريرة اخترع السنيون أحاديث أخرى نسبوها لأم المؤمنين عائشة، ورواها البخارى ومسلم تزعم أن من يقتنى كلبا ينتقص من أجره كل يوم قيراطاً. وأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.

نكتة يضحك منها كل مكتئب محزون أن يقال أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة. لا يوجد الآن بيت فى العالم لبس فيه صورة انسان أو حيوان أو نبات، كما أن معظم البشر يحملون أوراق هوية أو جوازات سفر

تحمل صورهم. فاذا كانت الملائكة لا تقترب من اى صورة مرسومة أو فوتوغرافية { فضلا عن السينما والتليفزيون) فالمعنى الوارد أن الملائكة لن تدخل بيتا على الاطلاق ، فهل نجارى التخلف السنى ونسأل ببراءة : هل يعنى هذا أن الملائكة ستقضى ليالى البرد القارس فى الشارع معرضة للاصابة بالبرد والانفولنزا ؟؟

ذلك الافتراء الذى يزعم أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة أو كلب يخالف الحقيقة القرآنية التى تؤكد أن النبى محمد عليه السلام لا يعلم الغيب وليس له ان يتكلم فيه . ولكن الجهل السنى افترى هذه الأحاديث ليؤكد الخرافة ويجعلها دينا.

نكتة أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب تخالف أيضا القرآن الكريم . المؤمن بالقرآن الكريم يعلم ان هناك اثنان من الملائكة يلازمان كل انسان ويسجلان كل ما يلفظ من قول أو ما يفعل من فعل. طبقا لذلك التخلف السنى الوهابى من الممكن لأى شخص أن يتصور نفسه فى بيت مليء بالعاهرات يفعل ما ما يشاء وسيضمن أن معاصيه لن يتم تسجيلها اذا اوقف كلبا على باب البيت ليطرد البوليس والملائكة أيضا. وهناك تطبيقات أخرى لهذه الفكرة الجهنمية لكل سارق وقاتل وخائن ومرتشى ونصيحة لهم باصطحاب الكلاب لطرد الملائكة وخداعها.

الفضل لهذه الأفكار العبقرية يرجع للتخلف السنى وأحاديثه المضحكة البائسة.

نعود الى أبى هريرة امام الفقه السنى لنرى كيف حاباه ذلك الفقه المتخلف فى أحاديثه وتشريعاته . فأكثر مما سبق تخلفا وسذاجة هو انحياز الفقه السنى للقطة واعلان طهارتها كيدا فى الكلب ، ووفاء لشيخهم أبى هريرة المأفون ، فرووا أحاديث تؤكد على طهارة القط – لاغاظة الكلب، ونقلت الفتاوى الوهابية هذا التخلف كالعادة فى عصر الانترنت. تقول احدى فتاويهم :" ..فإن الهر طاهر. ففي الموطأ والمسند والسنن أن أبا قتادة دخل على كبشة بنت كعب بن مالك وهي زوجة ابنه ، فسكبت له وضوءا ، فجاءت هرة لتشرب منه ، فأصغى لها الإناء حتى شربت. قالت كبشة: فرآني أنظر إليه. فقال: أتعجبين يا ابنة أخي؟ فقالت: نعم. فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إنها ليست بنجس ، إنما هي من الطوافين أو الطوافات." فالحديث صريح في طهارة الهر كما هو واضح. وإذا كان طاهراً فلا يؤثر استلقاؤه على فراش المصلي ، ولا ملامسته له على صحة صلاته. ولكن يجب التحرز من بوله لأنه نجس عند الجمهور. ولمزيد من الفائدة فإن الكلب نجس على الراجح من أقوال أهل العلم، ونجاسته مغلظة يجب غسلها سبعاً على الراجح من أقوالهم أيضاً، وهو بعد موته أشد نجاسة منه قبل الموت، فما أصاب منه من رطوبة ثوباً أو بدناً أو غيره، فإنه يغسل سبعاً إحداها بالتراب. "

المهم أن الصراع بين القطة والكلب قد جعله أبو هريرة دينا وتشريعا ، وتأكد ذلك التخلف المضحك بالفقه السنى فى العصور الوسطى وظلاميتها. ثم جاءت الصحوة السلفية الوهابية لتبعث ذلك الافك المفترى وتنسبه للاسلام .

وفى الوقت الذى ينوء فيه المسلمون بكل أوزار العصر من تخلف وديكتاتورية وفساد وحروب أهلية وزلازل وفقر ومرض وانحلال يقوم الوهابيون السلفيون بنشر هذا التخلف المضحك لمناصرة القط والكيد للكلب ووفاء لشيخهم المقدس أبىهريرة ــ حامى حمى القطط والعدو اللدود للكلاب .

وبهذا التراث السنى الفقهى وبالصحوة السلفية المعاصرة تأثرت ثقافتنا السمعية المتخلفة فكافأنا الكلب على اخلاصه وخدمته لنا بجعله نجسا ولعنة متناسين تشريع القرآن والمكتوب فى تاريخنا نفسه. كل ذلك بسبب كذاب أشر وأفاك أثيم اسمه أبو هريرة .

10 ــ كل ذلك أيضا لأن احدا لم يسأل السؤال السحرى " لماذا "

هل تعرفون " لماذا" لا نسأل "لماذا" ؟

لأن اسرى الثقافة السمعية المتخلفة – الذين يعبدون الثوابت وما وجدنا عليه آباءنا – لا يسألون لماذا . هم قطيع من الأنعام طبقا لما وصفهم به رب العزة فى القرآن الكريم { البقرة 170 ــ 171 } بل هم أضل سبيلا : (الفرقان 44).

11 – المفجع ان الاخوان المسلمين – فى عصر الانترنت – يريدون أن يحكمونا بشريعة أبى هريرة التى لا يعرفون غيرها ..!!

والسؤال لك عزيزى القارىء الذكى هو : "لماذا "؟

النبى محمد عليه السلام كان يقرأ ويكتب، وهو الذى كتب القرآن بنفسه

مقدمة :

المستشرق الفرنسى جاك بيرك كان مشهورا بصداقته لشيوخ الأزهر. هذا المستشرق ترجم القرآن للفرنسية ثم كتب بحثا بالفرنسية بعنوان (اعادة قراءة القرآن) طالب فيه باعادة كتابة المصحف وفق ترتيب النزول .
وردد نفس الهراء القائل بأن القرآن كان يكتبه الصحابة على الرقاع والجلود ، وذلك بحضرة النبى محمد الذى كان لا يقرأ ولا يكتب . لم يستطع أحد من أصدقاء جاك بيرك فى الأزهر أن يفند دعواه فى اعادة كتابة القرآن وتغيير مواضيع آياته. قام الدكتور وائل غالى شكرى بترجمة هذا الكتاب الى العربية ، وطلب منى الناشر أن أكتب مقدمة للكتاب أرد فيها على المؤلف المستشرق جاك بيرك . كتبت ـــ متطوعا ـــ مقدمة الكتاب ، محللا ومنتقدا منهج جاك بيرك فى دعواه ، ورددت عليها . وفى أساس الرد أثبت خطأ الزعم الذى قاله علماء التراث بأن النبى محمدا عليه السلام لم يكن يقرأ ولم يكن يكتب ، وأن هناك من كتب الوحى .لأنه بناء على هذا الزعم الباطل بنى جاك بيرك دعواه ، بل على أساس هذا الزعم الباطل يتأسس الطعن فى القرآن ، وهذا الطعن فى القرآن بدأه علماء التراث أنفسهم فيما يعرف " بعلوم القرآن " وفقا لما كتبه الباقلانى والسيوطى وغيرهما. لو قرأ مسلم بعض صفحات مما يعرف بعلوم القرآن وصدق الروايات والأساطير التى فيها خرج مكذبا للقرآن شاكّا فى كل آياته وسوره. باختصار فان اكذوبة أن محمدا عليه السلام لم يكن يقرأ ولم يكن يكتب وأن هناك كتبة للوحى ، ـــ هذه الاسطورة الكاذبة هى أساس الطعن فى القرآن. ثم جاء جاك بيرك وقال اذا كان القرآن مكتوبا بهذا الترتيب غير المنطقى بيد كتبة الوحى فلماذا لا نعيد كتابته بترتيب موضوعى أو حسب السنين. رددت عليه وتم نشر الكتاب عن طريق دار النديم للنشر فى أواسط التسعينيات. فى حينه كتب الكاتب الصحفى حسين جبيل فى الأهرام المسائى مشيدا بالفكرة الجديدة التى أتيت بها ، وقوة الاستشهادات التى تؤيد أن النبى محمدا عليه السلام كان يكتب ويقرأ وأنه هو الذى كتب القرآن بنفسه. ومع ذلك فلم يسمع أحد بالموضوع ، ومرّ الحدث بدون جدل أو تعليق، الى أن أعادت روز اليوسف القصة فثار الجدل ، واحتدم النقاش ، وأصبحت معركة فكرية امتدت من روز اليوسف الى صحف المتطرفين والاخوان ، حيث كتب المتطرفون ومنهم الشيخ سيدعسكر أمين مجمع البحوث وقتها يحكم بتكفيرى بسبب هذه القضية. لم أرد عليهم الى أن طلبت منى روز اليوسف الرد فرددت .
فى فترة ازدهار نسبى للصحافة المصرية كانت مجلة روز اليوسف رائدة فى التنوير و مطاردة الفساد .قادها وقتئذ الكاتب النابه عادل حمودة و معه فريق من الشباب الليبرالى فى مقدمتهم ابراهيم عيسى. أوسعت لى روز اليوسف نافذة لنشر مقالاتى ، فكنت أنشر فيها كل بضعة أشهر مقالا على قدر احتمال المجلة الليبرالية لآرائى وأفكارى. وفى شهر رمضان فى احدى سنوات التسعينيات نشرت لى أربع مقالات متتابعة فيما أذكر.

وأكتسبت روزاليوسف الكثير من الاحترام ، وكان ما تكتبه يصبح قضية الأسبوع أو الشهر أو العام. ، ولكن ما لبثت أن فقدت كل هذا الاحترام حين تم عزل رئيس تحريرها الاستاذ محمدالتهامى وابعاد عادل حمودة وابراهيم عيسى، وجىء بصحفى حكومى ليتولى رئاستها فانحط بروزاليوسف وبتاريخها وسمعتها الى الحضيض.

طلبت منى روز اليوسف كتابة تعليق على من يقول باعادة كتابة المصحف لتنطبق كتابة القرآن مع الكتابة العربية العادية، فوجدتها فرصة لتنشر لى روز اليوسف ــ بنفوذها الواسع وتوزيعها الضخم ــ ما سبق وأن كتبته من قبل فى مقدمة كتاب " اعادة قراءة القرآن " والذى لم يلتفت له أحد . بادرت بارسال ملخص المقدمة المشار اليها فى مقال صغير وفق ما تسمح به مساحة النشر فى روز اليوسف.

وصدرالمقال فى روز اليوسف بتاريخ 21/10/96–عدد(3567) صفحات : 74/75/76

نشرت روز اليوسف ما يلى مقدمة لمقالى قالت فيها:

(فى عام 1971 نشرت مجلة الهلال دراسة للدكتور احمد حسين الصاوى طالب فيها بصراحة بضرورة تغيير رسم المصحف وقال وقتها : إن هذه مشكلة ملحة جدا ، إذ لا يقبل عاقل أن(ترسم) بعض كلمات المصحف بخلاف ما تعلمه قراء العربية من هجاء وإملاء ، وحين قرأنا المقال مرة اخرى طلبنا من الدكتور احمد صبحى منصور وهو عالم درس فى الأزهر، وكان يدرس فى جامعته ،أن يوافينا برأيه . حين طلبنا منه أن يكتب مقالا حول هذا فاجأنا بقنبلة من نوع مختلف حول ما نؤمن به جميعا ، وهو ان نبينا محمد عليه الصلاة والسلام كان يقرأ و يكتب وهو كاتب القرآن. ومعه أدلة ، ونحن ننشر ونطرح الأمر للجدل)

أعيد هنا الآن نشر المقال كما هو، ثم أذكر ما حدث بعد نشره:

هل كان النبى عليه الصلاة والسلام يقرأ ويكتب.. ؟

دكتور احمد صبحى منصور

إذا اراد شخص أن يطعن فى القرآن فعليه بكتب التراث . خصوصا ما يعرف منها بعلوم القرآن . فإذا قرأ بضع صفحات وصدق ما قرأ خرج متشككا فى آيات القرآن وسوره وكتابته وكل شئ. وقد وفرت تلك الروايات التراثية الفرصة العظمى للمستشرقين فى كل إتهاماتهم للقرآن وآخرهم المستشرق الفرنسى جاك بيرك . فى كتابه :(إعادة قراءة القرآن) .

اما إذا اردت ان تعرف الحق من القرآن عن القرآن فلتقرأ معنا بعين نقديه ما يلى:

المشهور فى كتب التراث ان النبى محمدا صلى الله عليه وسلم كان لا يقرأ و لا يكتب وانه استعان بمن يكتب له الوحى ،وان احد كتبة الوحى ارتد . ذلك كله يوحى بالشك فى تدوين القرآن ، ولكن الاخطر فى تلك الرويات هو ما قالوه عن جمع عثمان للمصحف ، وتأثر هذا الجمع بالفتن السياسية التى صاحبت خلافة عثمان ، ثم أراء أخرى تنسب للحجاج بن يوسف تغيير بعض الكلمات فى القرآن .. فأين الحق فى هذا كله ؟!

موقف شيوخنا الابرار غاية العجب، فهم يدافعون عن التراث وما يسمى بعلوم القرأن بكل ما فيها من طعن في القرآن وفي خاتم النبيين (ص) ،ولا يجرءون على مناقشتها وتوضيح خطورتها ، ثم اذا تصدى مفكر مسلم لمناقشة هذه الروايات البشريه اتهموه بالكفر وإنكار السنه . فاذا قام بعض المفكرين بنقل هذه الرويات والاعتماد عليها اتهموه بالطعن في القرأن ،مع انه ينقل من التراث "المقدس"الذي يتركونه لينفجر في عقائد الناس وعقولهم.

دعونا نسأل اولا :

هل صحيح أن النبي محمد(ص) كان لا يعرف القراءة والكتابه ؟

وهل صحيح انه عهد لأصحابه بكتابة القرأن فكتبوه حسبما تيسر على اوراق الشجر، وعلى الحجر وعلى الرقاع ؟

وهل صحيح انه ظل كذلك حتى جمعه ابو بكر الجمع الاول من أفواه الصحابه، ومن على الوراق والاحجار والرقاع؟

ثم جمعه عثمان الجمع الأخير....؟؟!!!

هل يعقل أن يكون النبي محمد(ص)الذى كانت معجزته القرأن لا يقرأ ولا يكتب؟ ذلك القرآن الذي هو معجزةعقلية لكل البشر في كل زمان ومكان، هل يعقل ألا يستطيع تدوينها فيترك ذلك لاصحابه ؟

وهل يعقل ان يكون النبي محمد (ص)لا يعرف القراءة والكتابة وهو الذي كان يتاجر للسيدة خديجة في الشام ، فكيف يكون الوكيل التجاري لايعرف القراءة والكتابة وهو يتعامل مع أهل الشام المشهورين بمهارتهم ودهائهم التجاري؟

لا يعقل طبعا .

ثم ناتي للقرأن بعد العقل........

إن القرأن الكريم يؤكد على أن النبي محمدا (ص) كان يقرأ ويكتب .

فأول ما نزل للقرأن هو امر إلهي :(اقرأ)، والله تعالي لا يأمره بالقراءة إلا إذا كان قارئا.....

ولانتصورعقلاً ان يقول له ربه : (اقرأ) فيرفض قائلاً : (ما انا بقارئ)، كما لا نتصور عقلا ان يكون ذلك الراوي لتلك الرواية حاضرا مع النبي محمد(ص) حين نزلت عليه الآية، وحتى لو حضر فكيف يسمع حوار الوحي.إذن هي رواية ملفقة.

والقرآن يؤكد على ان النبى محمدا (ص) كان يقرأ القرآن من صحف مكتوب فيها القرآن :(رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً) "البينة 2" اى كان يتلو بنفسه من صحف ،وليس من أوراق الشجر او الاحجار او الرقاع .

والقرآن يؤكد على ان النبى محمدا (ص) قبل البعثة كان لا يتلو كتبا سماوية ،وكان لا يخطها أو يكتبها ، فلما اصبح نبيا تعلم القرأة والكتابة ، واصبح يتلو القرآن ويكتب آياته ،يقول تعالى :(وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ "العنكبوت 48".

ويقول تعالى عن مشركى مكة واتهامهم للقرآن بانه " أساطير الاولين " : (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا).. " الفرقان 5" ، ويهمنا هنا ان المشركين اعترفوا بان النبى محمدا(ص) كان هو الذى يكتب القرآن بيده، وان أصحابه كانوا لا يكتبون القرآن ، وإنما كان دورهم فى تملية النبى (ص) فقط إذا ارادوا نسخ بعض السور ليقرأوها ، وكانوا يملون عليه من نسخة أخرى ، وكان ذلك يحد ث بكرة واصيلا فى الصباح والمساء ، أى أنه ليس هناك كتبة للوحى كما زعموا .

بل إن هناك ايات عديده تؤكد كلها ان النبى محمدا كان استاذا للمؤمنين، يتصرف معهم كما يتصرف الاستاذ الذى يعلم التلاميذ القرآن، يتلوه عليهم ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة(البقره 151،129، ال عمران 77،الجمعه 2).

ثانيا :

ولكن القرآن يصفه بانه (أمى)أى لا يعرف القراءه والكتابه ، وهذا هو مفهوم (الأمى) فىالتراث.

ولكن مفهوم (الأمى)و (الأميين)فى القرآن يعنى الذين لم ينزل عليهم كتاب سماوى سابق .

فاليهود والنصارى هم اهل الكتاب او الذين أوتواالكتاب ,وغيرهم من سكان الجزيره العربيه هم (أميون)اى لم يأتهم كتاب سماوى قبل القرآن ، وبهذا كان يميز القرآن بين اهل الكتاب العرب وبقيه العرب الذين لم يكونوا يهودا,او نصارى، واقرأ فى ذلك قوله تعالى :(وَقُل لِّلَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ)و(وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ)....(ال عمران 20، 75)....(فالأميون)أي العرب الذين لم يأتهم كتاب سماوى فى مقابل اهل الكتاب العرب ،وخصوصا ان مصطلح(عربي) لم يات فى القرآن وصفا لاهل الجزيرة العربية اولبعضهم دون الاخر،إذ كانوا جميعا عربا، وإنما جاء وصفا للسان العربى الذى يتكلمون به ، ونزل به القرآن .إذا كان الطريق الوحيد فى التمييز هو وصف بعضهم بانهم اهل كتاب ووصف الاخرين بانهم "أميون". بل وصف القرآن بعض الذين يقرأون ويكتبون من اليهود بأنهم "أميون" حيث كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يزعمون انه من عند الله .. فقال أنهم "أميون" لانهم جهلوا بالكتاب السماوى فاصبحوا كباقى العرب الذين لم يأتهم كتاب سماوى ، والخلاصة ان كلمة "أمى" لا تعنى الجهل بالقرءة والكتابة ، وإنما تعنى غير اليهود والنصارى .

المهم أن نفهم القرآن بمصطلحاته هو ، وليس بمصطلحات التراث ، والمهم أيضا ان وصف النبى محمد (ص) بالامى يعنى الذى لم ينزل عليه كتاب من قبل القرآن ، مثل قومه الأميين .

ثالثا:

نفهم مما سبق انه ليس هناك كتبة للوحى ، بل هناك كاتب وحيد للوحى هو محمد (ص) نفسه، وهو وحده المؤتمن على كتابة القرآن . والسؤال الهام هو: لماذا ؟.

لأن للقرآن الكريم نوعية خاصة من الكتابة ، وهذه الكتابة القرآنية لا تزال حتى الان مختلفة عن الكتابة العربية

العادية ، وهى ما يعرف الان بالرسم العثمانى نسبة الى الخليفة الثالث عثمان بن عفان ،والذى حدث ان النبى (ص) اتم بنفسه كتابة وجمع القرآن وترتيبه فى نسخة اصلية ، ومات (ص) تاركا هذه النسخة لدى أم المؤمنيين حفصة. وكانت تلك النسخة الاصلية مرجعا للتلاوة ،وفى عهد أبى بكر قام بنسخ –اى كتابة– أول مصحف.. فالذى فعله أبو بكر ثم عثمان هو نسخ المصحف من النسخة القرآنية الاصلية المكتوبة بخط النبى (ص) وليس كتابة او جمع القرآن ، بل ان كلمة "مصحف" ليست من مصطلحات القرآن ،بل هو اصطلاح نبت بعد النبى (ص) ليدل على الحصول على نسخة من القرآن تتكون من "صحف القرآن بين دفتين " فيكون ذلك مصحفا، وذلك ما فعله أبو بكر و الصحابة خلال الفترة الاولى قبل الفتنة الكبرى. وفى عهد عثمان توطدت الفتوحات وانتقل القرآن بالمصاحف الى تلك البلاد بعيدا عن المدينة ،وحدث خلط فى نقل المصاحف حيث نقلوا بعضها بالكتابة العربية العادية المخالفة لنوعية الكتابة القرآنية. وكان حتما ان تختلف القراءة وان يختلف المسلمون، ولذلك اسرع عثمان فجمع المصاحف المخالفة واحرقها وألزم الناسخين بنقل النص القرآنى بالكتابة القرآنية الفريدة .

ولا زال ذلك مرعيا حتى الان ، وهو ما يعرف بالرسم العثمانى نسبة الى عثمان .

ونعود الى نفس السؤال :

لماذا كان النبى (ص) هو الوحيد الذى كتب القرآن ، ولماذا يكتب القرآن بهذه الكيفية المختلفة عن الكتابة العربية العادية ؟

نعود الى الآية الكريمة التى عرضت لاستهزاء المشركين بالنبى ، وهو يكتب القرآن بنفسه يمليه عليه اصحابه : (وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا).. " الفرقان 5")، ويأتى الرد من الله تعالى بإشارة غير متوقعة :(قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً) الفرقان 6)

أى فالقرآن ليس اساطير الاولين ، بل إن الله تعالى الذى انزله هو الذى (يعلم السر فى السماوات والارض).

وهو تعالى الذى ادخر سرا فى نوعية الكتابة القرآنية ليكون أحد مظاهر الاعجاز فى عصور ستأتى فيما بعد . ونعطى بعض الامثلة السريعة ، ان هناك سرا فى ان كلمة واحدة مثل "الايكة" تكتب بطريقتين مختلفتين ، ففى سورة (الحجر:78) ، وسورة (ق:4) تكتب هكذا (الأَيْكَةِ) ، وفى سورة (الشعراء:176) ، وسورة (ص: 13) تكتب هكذا (لئيكة) ، وكلمة(إذن) تكتي احيانا (إذن) واحيانا (إذا) .

والالف تحذف من بعض الكلمات ويعوض عنها بالف صغيرة مرسومة مثل : (الرحمن ، السموات) ، وتبقى الألف فى كلمات اخرى (الناس) ، (السيارة) ، واحيانا تاتى نفس الكلمة بألف مثبتة احيانا ، ومحذوفة الالف احيانا مثل كلمة (تبارك) و(تبرك) .

ولا شك ان هناك قواعد سرية للكتابة القرآنية ، ولكن لم يكشف عنها النقاب بعد ، لانها مرتبطة بأعجاز عددى ورقمى بدأت ملامحه تظهر ، وستتوالى الاكتشافات مع دخول العالم فى عصر ثورة المعلومات حيث تصبح الارقام هى اللغة العالمية السائدة بالكمبيوتر، وحيث تتضح وتتأكد علاقة الكتابة القرآنية وحروفها بالارقام ، وحيث يتأكد الغرب المتقدم الذى لا يؤمن الا بالعلم المادى ان الذى انزل القرآن لا يمكن ان يكون

سوى خالق السماوات والارض ، والذى يعلم السر فى السماوات والارض ، وحيث يتأكد من يعبدون التراث ان ذلك التراث أساء للقرآن الكريم حين كتب عنه هذه الروايات .

رابعا:

ومما يبعث على الفخر أن المصريين هم اول من فتح الباب فى اكتشاف الإعجاز العددى للقرآن. ذلك الإعجاز الذى يرتبط إرتباطا وثيقا بنوعية الكتابة الفريدة للقرآن .

1–بدأ ذلك الدكتور عبد الرزاق نوفل فى كتابه(الإعجاز العددى فى القرآن الكريم) ودار كتابه حول التناسق الغريب بين كلمات القرآن . فمثلا كلمة (الدنيا)وكلمة(الآخرة)كل منهما تكرر فى القرآن (115) مرة.

2–ومن خلال الكمبيوتر إكتشف الدكتور رشاد خليفة إعجاز الرقم (19) فى كلمات وحروف وآيات القرآن . والعلاقات المعقدة بينها . وكان ذلك الإعجاز الذى اكتشفه فوق تحمل إمكاناته العقلية فإدعى النبوة .ولقى مصرعه... وكنت شاهدا على طرف من حكايته .

3– وتلقف منه الراية مصرى مقيم فى كندا وهو الاستاذ محمد مصطفى صادق . وأجرى ابحاثه حول الرقم (7) فى القرآن . وعثر على نتائج غريبة فى تناسق الحروف والكلمات فى الكتابة القرآنية .

4– ثم إختار الأستاذ مراد الخولى –المصرى المقيم فى كندا ــ نهجا آخر فى كشف الإعجاز فى الكتابة القرآنية . هو حساب قيمة الكلمة القرآنية عدديا طبقا لعلم الحرف . حيث يكون لكل حرف قيمة عددية . ووصل إلى نتائج مذهلة .. وربط احيانا بين هذه النتائج والأعجازات المتصلة بألرقم (19) . (7)

والواضح أن البحث لا يزال فى بداية الطريق .. وأن الإعجاز العلمى للكتابة القرآنية يستلزم المزيد من الجهد ، وسيكون حديث الدنيا فى القرن الواحد والعشرين .. والله تعالى اعلم .)

انتهى المقال ، ولكن بدأت الضجة فى صحف المتطرفين ومجلاتهم ، منها ما كان حزبيا ومنها ما كان حكوميا ، وتعدى الأمر الى المساجد ، وتفنن الجميع فى الهجوم والتكفير والالحاح على أن هناك مؤامرة دفعتنى الى هذا القول للنيل من معجزة القرآن. كلام لا يقوله الا المجانين، والعادة انه حينما يتحكم التعصب يقدم العقل اجازة مفتوحة. لم يسأل أحدهم نفسه من منا الذى يدافع عن القرآن ؟ أنا بهذا المقال أم هم بغوغائيتهم وجهلهم وصراخهم وغبائهم المصنوع محليا وتراثيا؟

كالعادة لم أرد. وحتى لو أرسلت ردا الى تلك الصحف فلن تنشره، بل قد تنشر الرد على ردى دون أن تنشر ردى نفسه كما فعلت جريدة الوفد حين كان يهيمن عليها جمال بدوى . فوجئت بعدها بالصديق عادل حمودة يتصل بى ليلا يخبرنى أن ردا على مقالى جاء من عميد احدى الكليات الاقليمية بجامعة الأزهر، وانه ــ أى عادل حمودة ــ يريد نشر هذا الرد من ذلك الشيخ مشفوعا بردى أنا أيضا عليه. وأن فرصتى الوحيدة فى الرد عليه هو أن أقرأ رد ذلك الشيخ وأكتب الرد فى نفس الليلة وأرسله صباحا ليلحق الطبع. أرسلت ابنى على عجل الى روز اليوسف فجاء بنسخة من المقال، وسهرت الليل حتى كتبت الرد عليه ، وفى الصباح الباكر كان ردى جاهزا أمام عادل حمودة الذى بادر بنشر مقال الشيخ ومقالى متجاورين. وكان هناك ردّ آخر

بذىء لا يستحق الرد عليه فتجاهلته عقابا لصاحبه ، وهذه هى طريقتى فى تأديب السفهاء .. وما أكثرهم فى هذا الزمن الردىء

(ملاحظة : أرسلت لى روز اليوسف مقال "الدكتور العميد محمد جبل " بكامله وكان طويلا ، ولكنهم عند نشر مقاله لاحظت أنهم حذفوا بعض أجزائه ــ ربما لضيق المساحة ــ ونشروا ردى على المقال بالكامل ومنه الرد على بعض ما حذفوه من المقال المذكور)

وبتاريخ 18 /11/96 ، وفى عدد [3571] نشرت روز اليوسف فى صفحاتها : 54_55_56_57_58 ما يلى :

خلافات أزهرية فى قضية فقهية

هل كان النبى (ص) يقرأ ويكتب ؟

نشرنا مقالا للدكتور احمد صبحى منصور نفى فيه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أميا ..وقال انه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ ويكتب وأن (الأمى) لفظ لم يكن يطلق على من لا يعرف القراءة والكتابة ..وقد وصلنا ردان حول هذا الموضوع ننشرهما وننشر تعليقا للدكتور احمد صبحى منصور.

النبى محمد لم يكتب القرآن

كلمة(أمى) معناها فى كتب التفسير .. لا يقرأ ويكتب

حين قال النبى(ما أنا بقارئ).. لم يكن يرفض امر الله

هذه النظرية فبركة وخيانة للعلم والناشئة والأمة

بقلم د. محمد جبل

نشر فى عدد 21/10/96، من روز اليوسف بحث للدكتور احمد صبحى منصوريقرر فيه أن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يقرأ ويكتب ، وأن وصف النبى محمد بأنه(أمى) معناه أنه ليس من أهل الكتاب الذين هم اليهود والنصارى .

وقد إحتج د.احمد صبحى منصور لرأيه المذكور بأدلة عقلية من ناحية ، وبآيات من القرآن من ناحية أخرى، كما أنه ابدى رأيا فى فى محتويات التراث فى مجال علوم القرآن.

وهذه مناقشة علمية للبحث المذكور :

اولا:

وصف القرآن الكريم النبى محمد(صلى الله عليه وسلم) بأنه النبى الأمى فى آيتين فقال فى الأولى :(... ورحمتى وسعت كل شئ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الذكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل ...)(الأعراف 156_ 157)وقال فى الأخرى (... فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى ...)(الأعراف 158)

والمرجع هو بيان المعنى اللغوى لأى كلمة فى اللغة العربية . ولا مجال للإجتهاد فى المعنى اللغوى إلا فى حدود تحرير التعبير عن ذلك المعنى أى تدقيقه .
والمرجع فى بيان المعنى المراد بألكلمة القرآنية هوكتب تفسير القرآن، وهو مجال للإجتهاد لمن توافرت فيه الأهلية والأدلة ، وبشرط الإلتزام بإطار المعنى اللغوى . وهو إطار واسع يشمل المجاز والكناية ودليل الخطاب الخ ..والالتزام بإطار المعنى اللغوى ضرورى تماما . لأن التحلل منه يلغى اساس التفاهم الذى هو وظيفة اللغة . وإذ بدا تعارض بين نص محترم (مقدس أو تشريعى) فالواجب الأول هو الإجتهاد لدفع التعارض الظاهر .وبيان أنه لا حقيقة له . وهذه أمور ليست ــ أو لا ينبغى ــ محل خلاف بين اهل العلم .
وقد أجمعت المعاجم العربية القديمة التى ذكرت لفظ (أمى) (لسان العرب وتاج العروس ومفردات القرآن والقاموس ومقاييس اللغة والمصباح) . على معنى لفظ (الأمى) هو (الذى لا يكتب) وأضافت الثلاثة الأولى(و لا يقرأ من كتاب)أو (لا يقرأ المكتوب) وسنبين قيمة هذه الإضافة بعد قليل .
أما كتب التفسير فقدى أجمعت ايضا على أن معنى الأمية عدم معرفة الكتابة (تنظر تفسير الطبرى ,, وتحقيق شاكر ’’ 2/259 و 282 وابن عطية(ط قطر) 1/363 والزمخشرى(دار المعرفة) 1/78 والقرطبى(دار الكتاب)7/289 وأبى حيان 4/403 وابن كثير ، مكتبة التراث الإسلامى 1/116) وقد اضاف ابن عطية(ولا يقرأ فى كتاب) وعبارة القرطبى لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها ’’ أى قراءة الكتابة ’’ وهى اضافة توضيحية قيمة . ولكن يمكن الإستغناء عنها . لأن الفيصل فى الأمية من عدمها هو معرفة الرموز الخطية للكلام (الحروف وتركيباتها، وممارسة رسم هذه الرموز بألخط . فمن عرف الرموز ومارس رسمها فليس أميا ، وهو يستطيع قراءتها عادة. ومن لم يعرف الرموز ولم يمارس رسمها ولم يمارس رسمها فهو أمى وهو لا يستطيع قراءة الرموز حينئذ، ومع ذلك فالأضافة المذكورة جيدة لأنها تضيف توضيحا يجنب اللبس الذى يظهر فى عبارة الطبرى 2/257. والفخر الرازى فى تفسيره (ط الغد العربى) 7/306 . حيث عرف الأميين بأنهم الذين ’’ الذين لا يكتبون ولا يقرأون ’’ هكذا دون أن يقولوا ’’ ولا يقرأون المكتوب ‘‘ – مما يوهم أن مجرد القاء الكلام المحفوظ عن ظهر قلب مثلا هو من القراءة التى تتنافى مع وصف الأمية . وهذا غير صحيح .
والأساس اللغوى لذلك التحريرهو أن كلمة’ الأمى ’هى على صيغة النسب إلى ’ الأم ’ والأم هنا معناها أصل الشئ ومبتدؤه. جاء فى لسان العرب ’ ام كل شئ اصله ..‘ . ومن ذلك الأم: الوالدة لأنهامبدأ الولد(فتح البارى الحلبى 9/222) .أى المصدر الظاهر لوجوده فى عالم الأفراد . فالأمى هو انسان على أصل خلقته ومبتدئها كما ولد .. وهو على الفطرة ولم يكتسب مهارة تكسر هذه الفطرية وتنهيها . والكتابة هى اهم المهارات الصناعية والكتابة هى أهم المهارات التى تخص الإنسان وتنهى فطريته أى اميته . ومما يشهد لهذا التحرير تفسير – الرسول صلى الله عليه وسلم – الأمية ’’إننا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب ’’ صحيح البخارى ط الشعب 3/53 ’’ ولم يذكر القراءة . ومعنى هذا الحديث اننا لا نفتقر فى عبادتنا ومواقيتها الى إلى كتاب (أى كتابة) ولا حساب(تفسير ابن كثير 1/116) فالأمية هى عدم معرفة الكتابة ولا قراءة المكتوب .
والقراءة التى تنافى الأمية هى القراءة مطالعة من صحيفة أو كتاب . أى قراءة المكتوب .

والخلاصة أن هناك إجماعا فى المعاجم العربية وكتب التفسير التى ذكرناها – بإستسناء عبارتى الطبرى والفخر الرازى المذكورتين – على معنى الأمى وهو: الذى لا يكتب ولا يقرأ المكتوب .

ثانيا :

فى مقابل لفظ (الأمى) فى وصف النبى – صلى الله عليه وسلم – بأنه لا يكتب ولا يقرأ المكتوب جاءت الفاظ فى بعض الآيات القرآنية يوهم ظاهرها أن النبى صلى الله عليه وسلم يكتب ويقرأ ويتلوا صحفا– مما يتعارض مع التفسير المذكور. وهذه الألفاظ الموهمة هى التى إعتمد عليها د.صبحى فى إدعائه ان – صلى الله عليه وسلم كان كان يكتب ويقرأ المكتوب ، وأن لفظ (أمى) إنما يعنى(الذى ليس من اهل الكتاب) الذين هم اليهود (اهل التوراة) والنصارى (اهل الأنجيل) . وسنقف الآن على الألفاظ الموهمة التى إعتمد عليها د. صبحى .

1- القراءة .. فى قوله تعالى – فى أول مانزل ((إقرأ باسم ربك..)) اول سورة العلق . يقول د. صبحى (إن الله لا يأمر نبيه بألقراء إلا إذا كان قارئا) . ويقول : (ولا نتصور عقلا أ، يقول له ربه إقرأ ، فيرفض قائلا ما أنا بقارئ ، كما لا نتصور عقلا أن يكون ذلك الراوى لتلك الرواية حاضرا مع النبى – صلى الله عليه وسلم – حين نزلت عليه الآية ، وحتى لو حضرفكيف يسمع حوار الوحى ، إذن هى رواية ملفقة) هذا كلام د. احمد ، وهذه الفقرة من كلامه مزدحمة بإلأخطاء .

(أ) فالمعنى الأصلى الدقيق للقراءة هو حفظ المادة المقروءة أى وعيها فى القلب . لأن التعبير بالقراءة مشتق من قول العرب عن الناقة أو الشاة بأنها (قرأت) أى حملت جنينا فى بطنها . ويقولون قرأت النجوم أى غابت(فى جوف الأفق) وأقرأت الحية أى اجتمع سمها فى مقره فى جوف بدنها (لسان ا لعرب ,قرأ, . وثلاثة كتب فى الأضاد 1/6) ففى كل هذه الأمثلة تعبير عن مادة تدخل فى الجوف الباطن. وهكذا المعنى الأصلى للقراءة . وقد جاء هذا الإستعمال الأصلى للقراءة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى ((سنقرئك فلا تنسى)) حيث اجمع المفسرون على أن هذه الآية وعد من الله أن يجعل نبيه يحفظ القرآن فلا ينساه .

ثم إن القراءة تستعمل فى فرعين لذلك المعنى الأصلى أحدهما : مطالعة الكلام المكتوب – من حيث ان تلك المطالعة هى رافد تكون الكلام المقروء ومعانيه فى القلب . فاستعمل اللفظ فى سبب المعنى الأصلى .

وثانيهما القراءة بمعنى أن ينطق بلسان ماهو مختزن فى قلبه . فاستعمل لفظ الأصل للتعبير عن المسبب عنه وقد جاء الإستعمالان فى القرآن الكريم ، فمن قراءة المكتوب ((حتى تنزل علينا كتابا نقرأه)). الإسرء /93 –فهذا صريح فى القراءة مطالعة من كتاب . ومن القراءة بمعنى الإلقاء دون مطالعة من كتاب قوله تعالى ((فإذا قرأنه فإتبع قرآنه)) فهنا لا يحتمل أبدا أن تكون(قرأناه) معناه طالعناه من كتاب . تعالى الله عن ذلك والآن فإن د.صبحى يظن أن للقراءة معنى واحدا هو مطالعة كلام مكتوب . وفسر به قوله تعالى :(إقرأ بإسم ربك) وهذا غلط والصواب معناها – إقرأ القرآن باسم ربك أى مستعيننا أو مبتدئا هذا الأمر به – تفسير ابن عطية 15/58 والفخر دار الباز 23/ 14-15 . والقرطبى 20/ 119 . وابى حيان 8/492 . وأبى السعود)– أى ليعه قلبك أو ليحفظه بأمر الله ، كما قال تعالى ((سنقرئك فلا تنسى)) فالآية الكريمة إفتتاح لنزول القرآن على قلب النبى – صلى الله عليه وسلم – ((نزل به الروح الأمين على قلبك ...)) الشعراء 194 .وفى البقرة

97 ((فإنه نزله على قلبك ...)) وهو إفتتاح مصحوب بإعداد قلبه الشريف لوعى ما ينزل عليه بمعونة الله تعالى .ومن اجل ذلك كرر الأمر إقرأ ثلاث مرات .

وقد بينا من قبل أن القراءة التى تنافى الأمية هى القراءة مطالعة لمكتوب .والأمر هنا ليس فيه مطالعة لمكتوب حسب الروايات الصحيحة .

(ب) أما عبارة الرسول(ما أنا بقارئ). فليست رفضا – ولا يعقل أن يرفض بشر أمر ملك من السماء –وإنما هى بهذه الصيغة نفى أى انا الرسول – صلى الله عليه وسلم – يخبر عن نفسه أنه ليس لديه ما يقرأه أو ما يعيه ويلقيه كما أنه لا يقدر أن يقرأ مطالعة , وهناك عبارة اخرى للرواية وهى ماذا أقرأ أو كيف أقرأ .. [فتح البارى مصطفى الحلبى 1/ 26] فهذا إستفهام واضح المناسبة.

(ج)أما كلام د.صبحى عن راوى حديث بدأ الوحى هذا وانه لم يكن حاضرا وحتى لو كان حاضرا فكيف يسمع .وأن الرواية ملفقة . فهو كلام جزافى سوقى إذ لم يقل أحد على الأطلاق أنه كان هناك راو حضر المقابلة بين النبى صلى الله عليه وجبريل . ثم روى ماحصل . وإنما الذى أخبر عن الذى حدث فى هذا اللقاء الخطير هو النبى نفسه– صلى الله عليه وسلم– حدث به عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وهى روته بألفاظه –صلى الله عليه وسلم– ففى صحيح البخارى 1/3 (فجاءه الملك فقال إقرأ قال ما أنا بقارئ . قال أى النبى فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى : فقال إقرأ قلت ما أنا بقارئ فأخذنى ...) الخ .. فألرواية صحيحة تماما وقد سبق بيان معنى (إقرأ) فيها . حسب ما اسلفناه .

2– التلاوة يستند د. صبحى فى إدعائه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكتب ويقرأ المكتوب إلى قوله تعالى(رسول من الله يتلو صحفا مطهرة) البينة 2. كما إحتج بقوله تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لإرتاب المبطلون) العنكبوت 48.

1– التلاوة لها فى اللغة معنيان .أحدهما إلقاء الكلام والنطق به أى دون مطالعة من صحيفة – كما جاء فى لسان العرب(تلا) حيث قال فى قوله تعالى (وإتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان ..) البقرة 102.قال عطاء إى ماتحدث وتقص وقيل ما تتكلم به كقولك فلان يتلو كتاب الله أى يقرأه ويتكلم به . أى أنا إستعمال تلا هنا يرادف الإستعمال الفرعى الأخير لكلمة إقرأ حسب ما اسلفنا ه. وقد جاء هذا الاستعمال فى القرآن الكريم كثيرا جدا . لكن أوضح ما جاء من ذلك واقطعه للجدل ما اسند فيه فعل التلاوة الى الله عز وجل مثل: (نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق)" القصص 3" ، (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) "البقرة 252" وآيات اخرى ، إذ لا يستطيع احد ان يزعم ان الله عز وجل يتلو من صحيفة ، والاستعمال الثانى للتلاوة هو القراءة من كتاب او صحيفة –وهذا الاستعمال يرادف استعمال القراءة بالمعنى الفرعى الاول الذى اسلفناه . وقد جاء فى القرآن الكريم : (قل فأتوا بالتوراة فاتلوها) " أل عمران 93" . والان فإن المفسرين فسروا قوله تعالى (رسول الله يتلو صحفا مطهرة)بانه يقرأما تتضمن الصحف من المكتوب :اى يلقى عن ظهر قلب ما صار صحفا لانه انزل من قبل ودون اى يعيد قراءته ، او ما يصير صحفا بعد ان يسمعه الكتبه ويدونوه . وعبارة الفخر " انه اذا تلا مثل المسطور فى تلك الصحف كان تاليا ما فيها " (ينظر تفسير الفخر 16/574 والقرطبى

2/142 وايضا تفسير ابن عطية 15/528) . وتفسير ذلك ان النبى (ص) كان مكلفا ان يتلو على الناس للهداية والتذكير فى كل موقف يناسب ذلك .وقد جاء التعبير عن هذا التكليف فى قوله تعالى على لسان رسوله :
(وأمرت ان اكون من المسلمين . وان اتلو القرآن) " النمل 91/92"-
فهذه الآية (يتلو صحفا) ليس فيها دليل مكتوب على ان البنى كان يقرأ المكتوب.
اما الآية الثانية وهى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) "العنكبوت 48)" واحتجاج د. صبحى بهذه الآية قائم على اساس ان عبارة "من قبله" اى من قبل نزول القرآن عليه (ص) تعطى ان الرسول اصبح – بعد نزول القرآن عليه- يتلو من كتاب ويخط اى ان الاحتجاج هنا هو احتجاج بما يسمى دليل الخطاب او مفهوم المخالفة . وبصرف النظر عن عدم اعتداد كثير من الائمة بمفهوم المخالفة ، فإن الذين قبلوا الاحتجاج به وضعوا لذلك شروطا منها ان لا يعارضه ما هو ارجح منه (إرشاد الفحول للشوكانى 179) ، وهذا عارضته الاخبار المستفيضةباستمرارأميته (ص).

2- اكتتب : استدل د. صبحى ايضا على ان الرسول (ص) كان يكتب بقوله تعالى حاكيا ادعاء الكفار (وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا)"الفرقان 5" حيث ظن د. صبحى ان اكتتب معناها كتب ، ثم صور الامر كان النبى (ص)يجلس بين أصحابه ليكتب لكل منهم نسخة من القرآن وهم يملونه ما كتب . واسف ان اقول ان هذا تصور قمىء جدا بناه د. صبحى على غلطة فى فهم الفعل اكتتب ، والكفار اذكى من ان يدعوا ادعاء يسهل كشف زيفه لان الذين كانوا يكتبون فى ذلك العصرالجاهلى كانوا معدودين مشهورين ولم يكن محمد منهم . والصواب ان الفعل اكتتب على صيغة افتعل ، وهذه الصيغة قد تستعمل للطلب كما يقال اقتصد فلان اى طلب او كلف من يقصده . وكذلك احتجم اى طلب او امر من يحجمه: وهذا المعنى يسميه الصرفيون التصرف والطلب والاجتهاد (كتاب سيبويه : تح هارون 4/74).

3- والمقصود بالاجتهاد هنا بذل الجهد لتحصيل الفعل . وعبر بعض الصرفيين عن هذا المعنى بالتسبب.
الخلاصة ان معنى الآية هو ان الكفارقالوا عن القرآن انه اساطير الاولين اى هو كلام مما سطره القدماء فى كتب او صحف. وان النبىصلى الله عليه وسلم كلف من يكتب له نسخة من تلك الاساطير ثم انه كلف او استأجر من يمليها عليه اى يقرأها عليه صباحا ومساء ليحفظها ثم يقول انها اوحيت اليه . هذا هو ادعاء الكفار وإذا فمعنى "اكتتب" هنا هو طلب من يكتب له فهو يدل على الامية لا على الكتابة كما ادعى د.صبحى .

بنى د. صبحى على ادعائه ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ المكتوب أدعاء اخر هو انه لم يكن هناك كتبة للوحى . وأنما كان النبى هو الذى يكتب الوحى بنفسه . وهذا تسور على حقائق ثابته تاريخيا: فان امر كتبة الوحى للنبى صلى الله عليه وسلم ثابت ومشهور . جاء فى صحيح البخارى (ط الشعب 6/225) قال ابو بكر (لزيد ابن ثابت) انك رجل شاب عاقل لا نتهمك . وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ...) وفيه(6/226 – 227) باب كاتب النبى صلى الله عليه وسلم عن البراء بن عازب – وهو صحابى قال : لما نزلت (لا يستوى القاعدون من المؤمنيين غير أولى الضرر والمجاهدين فى سبيل الله) ("

النساء 95" قال النبى صلى الله عليه وسلم (ادعى لى زيدا وليجىء باللوح والدواة والكتف او الكتف والدواة)...الخ وفيه (5/60) فجاءه زيد ومعه الدواة واللوح او الكتف فقال اكتب ..) الخ (اللوح : كل مسطح عريض من العظم او الخشب . وكانوا يكتبون على عظم الكتف لعرضه) فهذه الاخبار والتفاصيل قاطعة بوجود كتبة للوحى منهم زيد بن ثابت . ومنهم الخلفاء الاربعة وأبى بن كعب والزبير بن العوام .. (واكثر من 15 منهم عبد الله بن سرح الذى كان يكتب الوحى ثم ارتد ثم عاد الى الاسلام يوم فتح مكة – وأنما خص زيد بن ثابت بلقب كاتب النبى صلى الله عليه وسلم لانه كان اكثر الجميع ممارسة لكتابة الوحى (ينظر فتح البارى "الحلبى" 10/396) .

د– ذكر د. صبحى ان استعانة النبى صلى الله عليه وسلم بمن يكتب له الوحى – دون ان يتولى ذلك بنفسه . وان ارتداد احد كتاب الوحى – كل ذلك يوحى بالشك فى تدوين القرآن – على ما قال د . صبحى ، واقول إن الرؤساء والكبار والقادة فى كل زمان كانوا – ومازالوا – يستعينون بافراد يثقون فى أمانتهم ويختارون بعناية شديدة ، والقاعدة ان هؤلاء الافراد يلتزمون (مثلا هل افشى سر توقيت حرب العاشر من رمضان ؟ . او سر توقيت تاميم قناة السويس ؟ وهناك الاف من الامثلة) ، ثم ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحفظ القرآن بمجرد تنزيله عليه,قال تعالى (سنقرئك فلا تنسى) "الاعلى 6" ، (إن علينا جمعه وقرآناه)..(إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وكان صلى الله عليه وسلم يتلوه على الصحابة من حفظه لا من صحف ، وإنما كان تسجيله كتابة إلهاما من الله ليكون إحدى وسائل تحقيق نزوله استمرت نحو ثلاثة وعشرين سنة ، فكان يكتب فى صحف متفرقة لانه ما زالت تتنزل منه آيات الى ما قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بايام (فتح البارى 9/272) ، وكان جبريل يحدد للرسول (ص) السورة والترتيب الذى توضع فيه الآيات الجديدة .

(ينظر تفسير القرطبى 1/61 و 3/375).ثم انه عند جمع القرآن فى مصحف فى عهد ابى بكر اعتمد فى ذلك سندان: الحفظ والخط ، " قال ابو بكر لعمر وزيد : اقعدوا على باب المسجد ، فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه (كتاب المصاحف لابن ابى داود 12) قال ابن حجر : وكان المراد بالشاهدين الحفظ والكتاب (يعنى الكتابة) .او المراد انها شاهدان من الرجال يشهدان على ان ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم (فتح البارى 10/388).

ثانيا : 1– كلام د. صبحى عن التراث خلاصته ان به روايات تثير الشبهات ، واذا سلمنا بهذا جدلا فإن التصرف العلمى هو ان نقرأ ونتدبر ونمحص ونستخلص الحقائق الصحيحة ونقدم للناشئة هذه الخلاصات ، وندع الروايات كما هى يدرسها القادرون على التمحيص والاستخلاص ، اما ما يريده د. صبحى وهو بناء صور للحقائق تكون ملساء خالية من كل ما يثير شبهة ، وتستمد من تصوراتنا لذلك فهذا هو عين التزييف (والفبركة) والخيانة للعلم وللناشئة وللامة والبناء القائم على صخور خشنة خير الف مرة من بناء مملس الظاهر باطنه كئيب مهيل.

ب– كلام د.صبحى عن اسرار الرسم القرآنى ، وعن علاقته بالارقام بعضه له معنى ، والبعض الاخر متاهات غريبة جن بسسبها د. رشاد خليفه – كما قال د. صبحى . والقرآن كتاب دين وتشريع – وهذه رسالته

للناس عامة ، أما الالغاز الرياضية فهى –ان صحت – لاهلها من الخاصة ، ويمكن تكلفها وتقليدها ، والقرآن الكريم معجز لا يقلد .

أستاذ أصول اللغة والعميد السابق لكلية اللغة العربية بالمنصورة – جامعة الازهر

بعدها نشرت روزاليوسف ردى على هذا الرد.

الدكتورأحمد صبحي منصور يرد:

القرآن فوق تفسيره

النبى (ص) كان يقرأ ويكتب وهو الذى دون القرآن

كتب التراث متناقضة والذين يستخدمون التراث متناقضون

النبى(ص) قال:(هلموا اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده)

(ذكرتنى ردود الافعال على مقالى الذى يؤكد ان النبى (ص) كان يقرأ ويكتب وانه كتب القرآن بنفسه ، باللهجة التى ثارت فى الاندلس بعد ما اعلنه الفقيه أبو الوليد الباجى (403–474)هجرية أن النبى محمدا (ص) كان يقرأويكتب ، فثار عليه الفقيه ابوبكر بن الصائغ واتهمه بالكفر ، واشتعلت مأذن الاندلس وقتها بتكفير الفقيه الباجى ، وهجوه بالقصائد.

كأن التاريخ يعيد نفسه ، فهذا عميد لإحدى الكليات يكررالكلام المعروف المعتاد ، ولا ينسى ان يتطاول علينا فيقول :"ان هذا تصور قمىء جدا بناه د.صبحى على غلطة فى فهم الفعل اكتتب" ويقول :" ما يريده د. صبحى وهو بناء صور للحقائق تكون ملساء خالية من كل ما يثير الشبهة ..فهذا هو عين التزييف والفبركة والخيانة للعلم وللناشئة وللامة " اى اننا نقدم تصورا قميئا جدا ، وهو عين التزييف والخيانة ..فهل هذا الاسلوب فى الحوار يتفق مع آداب الاسلام وأخلاق العلماء؟!

ومع اننى لا أهتم كثيرا بالرد على الخصوم فى الرأى ، الا اننى أجدها فرصة لتوضيح الفارق بين منهجين فى التفكير الاصولى: منهجى الذى اسير عليه وهو الاجتهاد بالتعامل المباشر مع القرآن العظيم بعد دراسة متعمقة للتراث بكل محاسنه ومساوئه وتناقضاته ، والمنهج الاخر الذى لا يرى القرآن إلا من خلال المشهور والمتداول من كتب التراث المشهورة ، وأذا تعارض القرآن مع رواية تراثية وأقوال للائمةفما يقوله التراث هو الصحيح . لأن القرآن عندهم(حمّال أوجه).. ولو أنصفوا لعرفوا ان القرآن الكريم" كتاب احكمت آياته "، وان لا مجال فيه للعوج والاختلاف ،وانه "لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه "، وانه لا يمكن ــ على حد قولهم ــ ان يوجد تعارض بين ظواهر الأيات طالما نفهم القرآن من خلال القرآن وبمصطلحات القرآن نفسه وليس من خلال التراث ، وان التراث هو الذى لا يوجد فيه حد أقصى لتناقضاته ، وكل طالب فى الازهر قد اصيب رأسه بصداع مزمن من تكرار الكلمة المأثورة "اختلف فيها العلماء ".

والأستاذ العميد اوضح المنهج الذى يسير عليه حين قال : إن المرجع فى بيان المعنى هو معاجم اللغة العربية ، والمرجع فى بيان المراد للكلمة القرآنية هو كتب التفسير . أى بدون المعاجم اللغوية وروايات التراث لا نستطيع فهم القرآن .

ولن نرد على ذلك بالأيات القرآنية التى تؤكد ان القرآن "كتاب مبين "وأن آياته " بينات" ، اى واضحات المعنى ،ولن نردد ما أكده رب العزة الذى جعل القرآن ذاته " أحسن تفسيرا " ، ولن نستشهد بما قاله ابن كثير فى مقدمة تفسيره من ان أحسن التفسير ان القرآن يفسر بعضه بعضا، ولن نلفت الاذهان الى ان كلمة " تفسير" ذاتها تحوى أهانة للقرآن الواضح المبين ، لان الكتاب الغامض الذى يحوى لوغاريتمات هو وحده الذى يحتاج الى تفسير ، ولن ننبه الى انه ليس مما يليق برب العزة أن ينزل علينا كتابا عسيرا الفهم الى درجة يحتاج معها الى أطنان التفاسير البشرية المختلفة والمتناقضة .

لن نرد بهذه الحقائق وغيرها ، ولكن نكتفى بهذه الملاحظات :

1_لكى تفهم القرآن لابد أن تتدبره وتتعقله من خلاله هو ، وبمفاهيمه هو ، وخصوصا أن القرآن لم ترد فيه إحالة إلى شروح أخرى تعين على فهمه .

2_ إن المعاجم اللغوية قد تم تدوينها بعد القرآن بقرون ، وهى خير دليل على أن اللغة العربية كائن متحرك تختلف فيها معانى الألفاظ من عصر لأخر ، ومن مكان لأخر ، ولولا القرآن الكريم لاندثرت اللغة العربية كما أندثرت الآرامية قبلها ، وكما اندثرت السريانية واللاتينية بعدها حيث تحولت اللهجات الناتجة عنها الى لغات مكتلمة،

المهم أنه لا يجوز أشتراط فهم القرآن بمعاجم لغوية كانت ترصد حركة اللغة حتى عصرها ، ولذلك فإننا نجد عجبا حين نرجع إليها فى عصرنا ، ولعل الأستاذ العميد لا يعرف أن كلمة(عميد) ظلت حتى العصر العباسى تعنى(المريض حبا)، وفى ذلك يقول الشاعر :" وإنى من حبها لعميد.." ، ويقول الفيروز آبادى ، فى معنى كلمة عميد " هدّه العشق" اى أمرضه العشق ..فهل نحاسب ذلك العميد بمعاجم اللغة العربية طبقا لمنهجه ونطلب له الشفاء من العشق؟.

3_ إن مصطلحات القرآن تختلف عن مصطلحات المسلمين التى نبتت فى عصور لاحقة طبقا لحركة اللغة ، والامثلة كثيرة ، ليس فقط فى كلمة "الامى" و"الاميين" ، ولكن أيضا كلمات مثل "حد" ، "حدود" التى تعنى فى القرآن الحق المشروع ، وهى عندنا تعنى العقوبة ، وكلمة "السنة" التى تعنى فى القرآن (الشرع الإلهى) أو " المنهاج الإلهى " وجعلنا لها معنى اخر ، وكلمة "التعزير" التى تعنى فى القرآن التقديس والمناصرة والتكريم . وتعنى عندنا الاهانة ..الخ.. فكيف نفهم القرآن بغير مصطلحاته هو ؟!

4_ أما ان يكون التراث بتفاسيره ورواياته هو المرجع فى بيان القرآن، فالتراث هو مجال تخصصنا ، وهو كما قلنا ملىء بالتناقض حتى فى هذه القضية، ونعطى للأستاذ العميد ما يؤكد له من التراث ان النبى كان يقرأ ويكتب، يروى الطبرى فى تاريخه (2/300: 301) ، حديث نزول جبريل بالوحى يقول : "فجاءنى وانا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال : اقرأ فقلت ما اقرأ.."، الى ان يقول : فقرأته .."، اى انه يقرأ من الكتاب .

وفى تاريخ الطبرى ايضا عن اشتداد مرض الموت بالنبى ، وذلك مذكور فى البخارى (3/91 حاشية السندى مكتبة زهران) أنهم اختصموا عند النبى ، وهو يحتضر ، فقال لهم : "هلموا أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ..فاختلف اهل البيت واختصموا ، منهم من يقول : قربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ، ومنهم من يقول غير ذلك ، فلما اكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله (ص) قوموا ، قال ابن عباس : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين ان يكتب لهم ذلك الكتاب .."، اى انه حسبما تؤكد روايات التراث انه كان يكتب.
ولكن المشكلة ان روايات التراث تتناقض حتى فى الموضوع الواحد ،وهذا ما يجعلنى فى الابحاث الخاصة بالقرآن الكريم والرسول الكريم لا اعول عليها كثيرا اكتفاء بالقرآن ، وصدق الله العظيم (ومن اصدق من الله حديثا).

والطريف ان ابن هشام فى روايته عن صلح الحديبية وكتابته يقول: "فبينا رسول الله (ص) يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو.."، ثم يقول : " فلما فرغ من الكتاب أشهد على الصلح رجالا .."،ثم يناقض نفسه فى اخر الرواية فيقول عن على بن ابى طالب انه "كان كاتب الصحيفة".

ومن الطبيعى فى هذا التناقض ان نحتكم الى القرآن الكريم ..وقد احتكمنا إليه .. وهذا هو منهجنا ، ومانرجو ان نلقى الله تعالى عليه .

اما منهج العميد فهو اعلاء مفاهيم التراث فوق القرأن وآياته البينات ، وهو يقول بجراة هائلة على كتاب الله " جاءت الفاظ فى بعض الايات القرآنية يوهم ظاهرها ان النبى (ص) يكتب ويقرأ ويتلو صحفا .. مما يتعارض مع التفسير المذكور ، وهذه الالفاظ الموهمة هى التى اعتمد عليها د. صبحى فى ادعائه .."، اى ان الفاظ القرآن العظيم "موهمة" اى تفيد الوهم ،اي ليست محكمة ،وأن لها ظاهرأ يجلب ذلك الوهم ، اى ليست محكمة ، اما الباطن فيها فعلمه عند أهل الباطن، أي أئمة التراث ، وبالتالي فإنه إذا تعارضت هذه الألفاظ القرآنيه مع مفاهيم التراث ،فهي (موهمه)، ولابد من إخضاعها للتراث . وإذا كانت مفاهيم التراث ورواياته متعارضة،واذا كان فهم القرآن من خلال التراث يجعله (حمال أوجه) ويجعله متعارضا ، فإن الاستاذ العميد ينصح بالاجتهاد لدفع هذاالتعارض ،فكيف أنتهى به اجتهاده؟!

إن منهج العميد التراثى قد اوقعه فى التناقض مع نفسه :

فهو يقول بثقه شديدة " أجمعت كتب التفسير على ان معنى الامية عدم معرفة الكتابة"، ثم يقول فيما بعد ان بعض المفسرين "قالوا فعلا بان الأميين تعنى غير اهل الكتاب "،فكيف يكون هناك إجماع إذا على ان الأميين هم الذين لا يعرفون القرأءة والكتابة؟!

ومع انه يؤكد ذلك الاجماع على ان النبى (ص) كان أميا بمعنى لا يقرأ ولا يكتب ، ومع انه يتعجب من رأينا بانه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ ويكتب ، فيقول :" لم يقل بذلك اى من المفسرين طوال اثنى عشر قرنا من الزمان"إلا انه يناقض نفسه فيقول : ان هناك من قال بان النبى (ص) عرف القرأءة والكتابة بعد ان نزل عليه القرآن ، وانهم احتجوا بقوله تعالى : (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك)، وانهم احتجوا بنفس الاية التى احتج بها د .صبحى "، اى ان الاستاذ العميد اجتهد بمنطق التراث وتناقضه فتناقض مع نفسه.

مع هذا يتطاول علينا الاستاذ العميد ويتهمنا بالتصور القميء "جدا" لأننا غلطنا فى فهم الفعل "اكتتب" فى قوله تعالى : (وقالوا اساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا) .. وقد قلنا ان المشركين كانوا يمرون على النبى وهو يكتب القرآن بنفسه لاصحابه ،ويمليه عليه بعض اصحابه ، والعميد يرى ان معنى "اكتتب" اى طلب ان يكتبوها له ، فإذا كان النبى يطلب منهم ان يكتبوها له فمن كان يمليها عليه ؟ لأن العميد الفاضل نسى ان يكمل الآية (..اكتتبها فهى تملى عليه) ، والذى يملى عليه شيء لابد ان يكتبه بنفسه .. أليس كذلك؟!

وقد اجهد العميدالفاضل نفسه لكى يؤكد من خلال اللغة ان كلمة "اكتتب" تعنى طلب ، وهو هنا يخلط بين اكتتب و"استكتتب " لان السين والتاء فى بداية الفعل الماضى هى التى تفيد الطلب ، تقول استقتل اى طلب القتل ، استمات اى طلب الموت ، استحضر ،استكتب..وهكذا.. أما اكتتب أو ما ياتى على وزن افتعل ، فالمشهور أنها تفيد التصرف والاجتهاد فى الفعل ، وقد ذكر هذين المعنيين المشهورين وتجاهلهما ، لأنهما لا يناسبان المفهوم القرآنى فى قوله تعالى : (اكتتبها) ، اى اجتهد وتصرف فى كتابتها المعجزة ، وقد اوضحنا فى مقالنا السابق ان هناك إعجازا سريا فى الكتابة القرآنية ، وهذا يفسر لنا بقاء الكتابة القرآنية الفريدة بخط النبى (ص) دليلا على ان القرآن محفوظ بقدرة رب العالمين .

وبنفس الطريقة فى الانتقاء يقول العميد ان للقرأءة والكتابة معنيين : قراءة المكتوب وتلاوته ، وقراءة المحفوظ فى القلب وتلاوته ، وهو ينفى عن النبى ان يكون قارئا وتاليا للمكتوب فى القرآن ،ويبذل قصارى جهده فى تأويل هذه الآيات البينات حتى يخضع القرآن لروايات البشر ، وكان يكفيه قوله تعالى للنبى : " وما كنت تتلو قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك " ، اى ما كنت تقرأ كتابا سماويا قبل القرآن ، وما كنت تكتتب بخطك كتابا سماويا قبل القرآن، ولكن بعد نزول القرآن عليك اصبحت تقرأ القرآن المكتوب ، وتكتتبه بيدك. وكان يكفيه ــ اى العميد لو اراد ــ ان يرجع الى سياق الآيات فى سورة العنكبوت ليتأكد ان المقصود بالكتاب هنا ليس اى كتاب ، وأنما الكتاب السماوى ، اى انه عليه الصلاة والسلام لم يقرأ كتبا سماوية قبل القرآن ولم يكتبها ولم يكن لديه علم بها ، وإن كان يعرف القراءة والكتابة ، فلما نزل عليه القرآن كتبه وقرأه.

اخيرا..ومن خلال منهجنا فى فهم الفاظ القرآن العظيم من القرآن العزيز نفسه ،اثبتنا بالآيات القرآنية ان كلمة "أمى " تعنى غير اهل الكتاب من سكان الجزيرة العربية ، وكان منهم النبى ، ولا تعنى الجهل بالقراءة والكتابة ،واثبتنا ان النبى كان يقرأ ويكتب ، وانه الذى كتب القرآن بيده تلك الكتابة الفريدة التى يحفظ الله تعالى بها كتابه حتى الان ، فوق كل تحريف ، وقلنا ان فى هذه الكتابة سرا عدديا ورقميا بدأت الابحاث تتجه اليه ،وسيكون الاعجاز القرآنى للعصر القادم ، وقلنا ان ما فعله ابو بكر وعثمان هو جمع المصحف ،وليس القرآن ، وذلك من خلال النسخة الاصلية المكتوبة بخط النبى ،والتزم عثمان بهذا الرسم العثمانى . وان كلمة المصحف مصطلح جاء بعد النبى .

وما دفعنا الى هذا الاجتهاد هو ذلك الطعن فى القرآن اعتمادا على روايات التراث التى تتهم النبى (ص) بالجهل بالقراءة والكتابة ، والتى تجعل كتابة القرآن عملية بدائية فوضوية ،وكلها تناقض ما جاء فى القرآن من ان جمعه وكتابته كانت بوحى تماما ، كما تكفل رب العزة بان يكون بيان القرآن فى داخل القرآن (إن علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، ثم ان علينا بيانه)..".القيامة 17" .

ولكن يبدو ان بعض الناس لا يؤرقه الطعن فى القرآن ،ولكن يؤرقه الطعن فى بعض الروايات التى يتخذها المستشرقون وسيلة للنيل من القرآن ،ولا بأس فى ذلك فكل منا قد أختار طريقه.)

انتهى المقال، ونعيد التذكير به بعد حوالى عشر سنوات للتأكيد على حقيقتين:
ألأول : لا يزال أغلبية الفكر الدينى لدى المتطرفين محصورا ومحاصرا بأئمة العصور الوسطى دون تجديد ، فلا ينظرون للقرآن الكريم الا من خلال ما قاله أعداؤه الحقيقيون من أئمة التراث فى العصور الوسطى ، ولذا فلا يزالون ضد أى تجديد أو تفكير مستقل..
الثانى : انهم ينشرون القرآن مكتوبا على الاترنت بطريقة كتابة حديثة مخالفة للرسم العثمانى المعتمد مما يفقد القرآن الكريم اعجازه العددى وسر كتابته الفريدة التى تحوى سرا لم نكتشفه بعد.وهذا يدخل أيضا فى دائرة العداء للقرآن الكريم الذى بدأه أئمتهم التراثيون..
نقول ذلك للتوضيح ، والله تعالى المستعان.

اضطهاد الأقباط فى مصر بعد الفتح الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

اضطهاد الأقباط فى مصر بعد الفتح الإسلامى

قصة هذا البحث

1-فيما بين 1977-1980 كنت فى صراع مع شيوخ الأزهر، كانوا يصممون على تغيير ما كتبت فى رسالتى للدكتوراة لأنها تنشر حقائق لا يريدون اظهارها،وأنا مصمم على مناقشة كل المسكوت عنه طلبا لأصلاحه. كان من بين ما أثار حفيظتهم فصل فى الرسالة عن التعصب الدينى ضد الأقباط فى مصر المملوكية بتأثير شيوخ التصوف. أخيرا وصلنا الى حل وسط فى صيف 1980 وبمقتضاه حذفت ثلثى الرسالة، وهما بابان كبيران عن أثر التصوف الدينى والأخلاقى. واكتفيت ببحث آثاره السيئة فى النواحى السياسية والاجتماعية والعلمية والعمرانية..الخ. بمقتضى الاتفاق كنت ملزما بحذف فصل التعصب الدينى لأنه يقع فى الباب الدينى، لكننى احتلت على ابقائه بأن أعدت ترتيب الباب السياسى وأضفت اليه الفصل الخاص باضطهاد الأقباط كأحدى ثمار العلاقة السياسية بين الشيوخ والمماليك. ونجحت فى فرض رأيى على الشيوخ الذين لا يقرأون واذا قرأوا لا يفهمون .

2- فى أول كتاب لى " السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة" سنة 1982نشرت بعض أجزاء رسالتى التى نوقشت ومنها مؤامرة الشيوخ الأحمدية واحراقهم الكنائس المصرية فى وقت واحد. وكنت أول من أماط اللثام على هذه الفاجعة وحققها تاريخيا وأنا الوحيد الذى عرف شخصية المدبر لهذه الحادثة والذى عجزت السلطة المملوكية عن الوصول اليه، اذ كان الرئيس السرى لتنظيم شيعى فشل من قبل زعيمه- السيد البدوى –الولى المشهور حتى الآن – فى قلب نظام الحكم المملوكى فانتقم الاتباع فيما بعد باحراق الكنائس ليوقع الخلل فى الدولة المصرية ليسقطها من الداخل وكاد أن ينجح.

3- فى سنة 1984 قررت على الطلبة فى الجامعة عدة كتب من تأليفى كان منها كتابى " شخصية مصر بعد الفتح الاسلامى" وعقدت فيه فصلا عن اضطهاد الأقباط بعد الفتح الاسلامى ، كان أول وآخر كتاب مقرر فى جامعة الأزهر يقدم للطلبة هذه الحقائق وينبه على مخالفتها للاسلام.

4- كل هذا ولم أكن قد قابلت فى حياتى مصريا قبطيا ولم أكن قد تعاملت مع أى منهم بحكم بيئتى الأزهرية. وظللت هكذا بعيدا عن الأقباط أدافع عنهم دون معرفة حتى بعد تركى الأزهر الى أن تعرفت بصديقى طيب الذكر الدكتور فرج فودة ، فتعرفت من خلاله على كثير من الأقباط ،منهم من أفخر بمعرفته حتى الآن ومنهم من أعتذر عنه لنفسى امام نفسى معللا تعصبهم بقسوة الاضطهاد الذى تحملوه.

5- حين انطلق شيطان التطرف يقتل الأقباط فى الصعيد وغيرها فى أوائل التسعينيات كونت مع مجموعة من المصريين النبلاء (الجبهة الشعبية لمواجهة الارهاب) وكنت مقررها الفكرى ومستشارها الدينى، وكان لها نفوذ تبرعت به الدولة وقت ضعفها أمام سطوة الجماعات الشيطانية فى الصعيد والأحياء الشعبية بالقاهرة فكنا

نذهب الى معاقل التطرف نزور الضحايا ونهاجم الجناة ونندد بهم فى لقاءات مفتوحة فى وقت قبع فيه كتبة الحكومة وخدمها داخل مكاتبهم مذعورين وبعضهم أخذ يغازل المتطرفين بين سطور كتاباته يحجز لنفسه مكانا فى الاتوبيس القادم. بعد أن استعاد الحكم المستبد سيطرته اتبع معنا سياسة " الاستدعاء والاستغناء " أى يستدعينا اذا احتاج ويستغنى عنا اذا لم يعد محتاجا لخدماتنا التطوعية . طالبنا بتفعيل دورنا الفكرى لنقطع دابر التطرف الفكرى بعد كسر حدة الهجمة الارهابية العسكرية ولكن الحكم الاستبدادى كشر لنا عن أنيابه فتوارينا عن الانظار خوف الاعتقال – ومعظمنا ذاق مرارته. الا اننى واصلت الطريق من خلال الجمعية المصرية للتنوير ثم مركز ابن خلدون وندوة ابن خلدون الاسبوعية والمقالات الاسبوعية والشهرية فى الصحف المصرية.

6- جاءتنى فكرة عقد مؤتمراسلامى مصرى خالص يناقش قضية أضطهاد الأقباط من منظور اسلامى فى مركز ابن خلدون أو المنظمة المصرية لحقوق الانسان. كتبت هذا البحث وعرضت الأمر على صديق قبطى صحفى مشهور فاقتنص الفكرة لنفسه ، وبدلا من دعوة المفكرين المسلمين المستنيرين دعا أثرياء الأقباط للحديث وكانت الورقة الوحيدة هى ورقتى التى قرءوها وتحدثوا فى موضوعات شتى غيرها، وانتهى الأمر بتجاهلهم لطبع ورقتى ونشرها ، وهى أساس المؤتمر الذى لم يسمع به أحد ، والفائز الوحيد هو الصديق القبطى الذى جمع الأموال ممن دعاهم وتحول المؤتمرالاصلاحى الذى كنت اتمناه الى جلسة "مصاطب" للتسلية.

7- رجعت احلل الموقف طيلة ليلة بأكملها.كان أملى هو الاصلاح من داخل الاسلام لان المشكلة فى داخل الفكر السلفى الذى يرفع لواء الاسلام زورا. وورقتى البحثية تثبت ذلك وتعطى اساسا للنقاش بين المفكرين المسلمين الذين تغيب عنهم الكثير من الحقائق، ولو كسبنا بعضهم لكان فى ذلك نصر كبير لمصر والأقباط. وسألت نفسى : لماذا هذا التجاهل ؟ قد أكون الوحيد الذى يدافع عن الأقباط بدون أن يحول دفاعه عنهم الى استرزاق، فقد دافعت عنهم دون أن تكون لى أدنى معرفة بأى منهم ، ودافعت عنهم داخل الأزهر ذاته وكسبت عداءات داخل جامعتى وأصحابى من أجل من لم أعرفهم.

8- فى النهاية عرفت السبب وبطل العجب. اننى دون أن أدرى – أدافع عن دينى أولا وأخيرا. اهاجم المتطرفين لأدافع عن الاسلام وليس الاقباط. ومعظمهم لا يريد ذلك . المتعصبون منهم لا يرانى مختلفا عن بقية الشيوخ طالما أتحدث مثلهم من داخل القرآن وبالتراث. ولأنه يكره الاسلام أصلا فانه يحلو له أن يظل الاسلام متهما بالارهاب أفضل من ان آتى أنا وأضع الحقائق الفاصلة بين الاسلام والمسلمين، بل بين المسلمين المستنيرين والمتطرفين. ولهذا يكره ما أعمل ويتمنى ألا أفعل. هو بذلك يلتقى مع المتطرفين الوهابيين، فتلك طبيعة الأشياء فى تلك الدائرة حيث يتلامس أقصى اليمين المتعصب مع أقصى اليسار المتشدد. الا أن طبيعة الأشياء نفسها تؤكد أن الطرفين المتطرفين – بسكون الياء – ليسا كل الدائرة انما مجرد طرفين متباعدين. الذى يصنع الحقائق على أرض الواقع وفى صفحات التاريخ هم غير المتعصبين . وفى عصرنا لم يعد كثير متسع للتعصب.

فى مقابل التعصب القبطى – الذى اتفهمه وأعذره – هناك رفاق من نبلاء الأقباط تحلو بهم الدنيا مهما اكفهر وجهها. لكثرة اسمائهم لا يتسع المقال لذكرهم . وهم دائما فى القلب . حتى اذا كان القلب .. فى المنفى ..!!
آسف عزيزى القارىء لهذه المقدمة الطويلة لهذا البحث الذى كتبته منذ أكثر من عشرة أعوام ولا يزال صالحا "للاستهلاك الآدمى "..

أحمد صبحى منصور

الاسكندرية – فرجينيا – مايو 2005

اضطهاد الأقباط فى مصر بعد الفتح الإسلامى

<u>"المقدمة"</u>

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُــمْ وَأُفَوّضُ أَمْرِيَ إِلَى اللّهِ إِنّ اللّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

(غافر 44)

وبعد..

هذه ورقة بحثية عن.

وتضم العناصر الاتية:

1- موقف الإسلام من اضطهاد غير المسلمين.

2- بداية اضطهاد الأقباط فى عصر الخلفاء الراشدين.

3- اضطهاد الأمويين للأقباط عنصرياً.

4- الاضطهاد الدينى للأقباط بعد الأمويين.

والواضح أن التركيز ههنا على الاضطهاد الذى لاقاه الأقباط بعد الفتح الإسلامى وجذوره الدينية والتاريخية، والورقة تركز على ذلك لتبرئ الإسلام منه، ولتحذر بعض المنتسبين للإسلام من استعادة بعض مظاهر التعصب التى سادت فى العصور الوسطى والتى تخالف سماحة الإسلام وشريعته.

وأكثر ما فى هذه الورقة جاء تلخيصاً لمؤلفات سابقة بعضها تم نشره مثل (السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة)، (شخصية مصر بعد الفتح الإسلامى).وبعضها لم يحظ بعد بالنشر مثل رسالتى للدكتوراه فى جامعة الأزهر، وأبحاث أخرى مثل "حقوق الأقليات فى الإسلام"، "الحياة اليومية لأجدادنا المصريين منذ خمسمائة عام.."، "الشورى الإسلامية: أصولها، تطبيقها.." بالإضافة إلى عشرات المقالات المنشورة التى ناقشت بعض الموضوعات السابقة، ونشرتها (القاهرة)، (الأهالى)، (الأحرار)، (الأخبار) وإصدارات المنظمة المصرية لحقوق الإنسان..

ونأمل أن تتلو هذه الورقة البحثية دراسات وأبحاث لمثقفين آخرين تتصدى بشجاعة لإنصاف المظلومين وتبرئة الإسلام مما يرتكبه بعض المسلمين..

والله تعالى المستعان..

د. أحمد صبحى منصور

أكتوبر 1994

أولاً: موقف الإسلام من اضطهاد غير المسلمين

ليس من المألوف أن نتحدث عن اضطهاد معين دون إثباته أولاً ثم يأتى بعد ذلك توضيح موقف الإسلام منه.إلا أن انتماء المؤلف الإسلامى وحرصه على تبرئة دينه ومعايشته للتاريخ الإسلامى والتراث كل ذلك جعله يبدأ بتوضيح موقف الإسلام وتبرئته من أعمال بعض المسلمين، ثم يسير مع وقائع الاضطهاد والمسئولين عنها.

ويرى المؤلف أن السياق التاريخى يتفق مع وجهة نظره..

فقد ظهر الإسلام بدعوته الإصلاحية التحررية أولاً.. ثم ما لبس أن تحول على يد المسلمين إلى إمبراطورية فاتحة تراعى مقتضيات الحكم والسياسة والسيادة على حساب تعاليم الإسلام نفسه، بل إن أعوانها من علماء الدين كانوا يصوغون لها من الأحاديث المزورة والفتاوى ما يبرر لهم تصرفاتهم التى تخالف القرآن الكريم، ثم يزعمون أن تلك الأحاديث والفتاوى أبطلت أحكام القرآن الكريم تحت مصطلح النسخ.

ثم إننا نشهد الآن بعثاً للاضطهاد الذى كان سمة العصور الوسطى، وذلك الاضطهاد يقوم على رعايته والدعاية له تيار التطرف الذى يرفع لواء الإسلام.. لذا كان لابد من توضيح موقف الإسلام منذ البداية.

ولن نكرر الكلام المعتاد المعروف عن سماحة الإسلام الذى يكرره نجوم التيار المدنى للتطرف بعد حوادث العنف ضد الأقباط، إذ من المعتاد أن يشحنوا النفوس بالبغضاء والتعصب، فإذا وقعت حوادث العنف وسالت دماء أسرعوا يتوضأون بدماء القتلى ثم يتحدثون عن سماحة الإسلام ويستنكرون ويشجبون. ومع أن حديثهم عن سماحة الإسلام صحيح لأنه مستمد من نصوص قرآنية، ولكن كان يلزمهم لإبراء الذمة أن يوضحوا عبث وتزوير الأحاديث المنسوبة كذباً للنبى (عليه الصلاة والسلام) والتى يقوم عليها أسس التطرف والإرهاب ويعلنوا تبرئة الرسول والإسلام منها ومن إساءة الاستخدام للتفسير القرآنى الذى وضعه علماء الدين فى العصور الوسطى، عصور التعصب والظلام.

والمهم أننا وفى توضيحنا لموقف الإسلام سنعتمد منهجاً جديداً.. يجيب على أسئلة محددة وبحقائق قرآنية مؤكدة وحقائق تاريخية متواترة..

من الحقائق التاريخية المتواترة أن الشعب المصرى- والأقباط بالذات- شعب مسالم يكره العنف ويستريح للصبر على ظلم الحاكم وقلما يثور عليه وهذا الشعب المسالم المأمون الجانب ما هو التوصيف القرآنى له؟.

والإجابة من نص القرآن الكريم تؤكد أنه شعب مسلم مؤمن، لأن الإسلام فى معناه الظاهرى فى التعامل مع البشر هو السلام والسلم، ولأن الإيمان فى معناه الظاهرى هو الأمن والأمان.

ونأتى إلى حقائق القرآن الكريم:

إن كلمة الإيمان فى معناها اللغوى والقرآن لها استعمالان: (آمن ب..)، (آمن ل..)

1- "آمن ب" أى اعتقد، مثل قوله تعالى ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة 285).

و"آمن ب" بمعنى اعتقد تعنى الإيمان القلبى الباطنى، أو التعامل مع الله تعالى. والبشر فى ذلك يختلفون حتى فى خلال الدين الواحد والمذهب الواحد. والقرآن الكريم يؤكد على تأجيل الحكم على الناس فى اختلافاتهم العقيدية إلى يوم القيامة. "البقرة 113، آل عمران 55، يونس 93، النحل 124، المائدة 48، الزمر 3، 46".

2- الاستعمال الآخر هو "آمن ل" أى وثق واطمأن وأصبح مأمون الجانب مأموناً من الناس وتكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم خصوصاً فى القصص القرآنى، ففى قصة نوح قال له المستكبرون ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء 111) أى كيف نثق فيك ونطمئن إليك وقد اتبعك الرعاع.. وتكرر ذلك المعنى عن "آمن ل" فى قصة إبراهيم (العنكبوت 26) وقصة يوسف (يوسف 17) وقصة موسى (الدخان 21، المؤمنون 47) وفى حديث القرآن عن أحوال النبى الخاتم فى المدينة (آل عمران 73، البقرة 75) ومواضع أخرى كثيرة.

والإيمان بمعنى الأمن والأمان هو بالطبع حسب التعامل الظاهرى، فكل من تأمنه ويكون مأمون الجانب هو إنسان مؤمن، أما عقيدته فهذا شأن خاص بعلاقته بالله، والله تعالى يحكم عليه وعليك يوم القيامة.

وقد جاء الاستعمالان معاً لكلمة الإيمان فى قوله تعالى عن النبى محمد "صلى الله عليه وسلم" ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة 61) أى أنه (يؤمن بالله) أى يعتقد فيه وحده إلهاً و(يؤمن للمؤمنين) أى يثق فيهم ويطمئن لهم.

وبتطبيق هذه الحقائق القرآنية على الشعب المصرى فهو شعب مؤمن لأنه شعب ينحاز دائماً للأمن والأمان، بل إنه قد يصبر على ظلم الحاكم إيثاراً منه للدعة والسكون. أما العقائد فمرجعها لله تعالى يوم القيامة وليس لنا، والتطبيق لنا حسب الظاهر فى التعامل، والظاهر هو إيثار الأمن والأمان، والله تعالى لم يعط أحداً الحق فى أن يتحدث بإسمه أو أن يقيم يوماً للحساب قبل يوم الحساب، ومن يفعل ذلك فقد تقمص دور الله وأصبح مدعياً للألوهية ومنبوذاً من الانتماء لتعاليم القرآن الكريم.

وبتطبيق هذه الحقائق القرآنية عن معنى الإيمان الظاهرى- على الأقباط بالذات- نراهم من خلال تاريخهم الطويل أكثر الناس تعرضاً للاضطهاد والصبر عليه، منذ اضطهاد الرومان فى حكم دقلديانوس وكراكلا، إلى الاضطهاد فى فترات مختلفة فى العصور الأموية والعباسية والمملوكية، ولا نقول العصور الإسلامية لأن الإسلام يرفض الظلم. كان الأقباط- ولا يزالون- يتحملون الاضطهاد ما استطاعوا، وورثوا حتى الآن صبراً على المكاره يدفعهم إلى المزيد من السلبية والسكون والمغالاة فى الحذر وتوقع الخطر وطلب الأمن والأمان بأى وسيلة. وذلك يجعلهم أكثر من غيرهم من المسلمين المصريين استحقاقاً لمعنى الإيمان الظاهرى، أى الأمن والأمان، وبالتالى فإن المعتدى عليهم يكون بنفس القدر أبعد الناس عن الإيمان بمعناه الظاهرى ومعناه الاعتقادى أيضاً حيث يخالف تعاليم القرآن الكريم التى سنتعرض لها فى حينها..

هذا فيما يخص معنى الإيمان..

فما هو نصيب الأقباط من معنى الإسلام؟

الإسلام كالإيمان له معنى ظاهرى، ومعنى باطنى قلبى اعتقادى، معناه الباطنى الاعتقادى الخاص بعلاقة الإنسان بربه هو الانقياد لله وحده. أى أن يسلم الإنسان نفسه طاعة لله وحده، والإسلام بهذا المعنى نزل فى جميع رسالات السماء على جميع الأنبياء وبكل اللغات، إلى أن نزل باللغة العربية وصار ينطق بكلام "الإسلام" التى تعنى فى الاعتقاد إسلام الوجه والقلب والجوارح لله تعالى، أو كقوله تعالى لخاتم الأنبياء ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيَ إِلَىَ صِرَاطٍ مّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مّلّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. قُلْ إِنّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ. لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام 161: 163) أى أن الله تعالى يأمر النبى بأن يقول أن الله هداه إلى دين إبراهيم الصراط المستقيم وهو أن تكون لله وحده صلاته ونسكه وحياته ومماته، وبذلك يكون أول المسلمين عند الله..

وهذا هو معنى الإسلام الاعتقادى القلبى الذى سيحكم الله تعالى عليه يوم القيامة، والله تعالى لن يقبل يوم القيامة ديناً آخر غير الخضوع أو الاستسلام له وطاعته وحده، وذلك معنى قوله تعالى ﴿إِنّ الدّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ﴾، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الاَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران 19،85)، فالإسلام هو الخضوع لله تعالى بكل اللغات وفى كل زمان ومكان وفى كل الرسالات، إلا أنه عندنا مع الأسف قد تحول إلى مجرد وصف وإسم فى خانة البطاقة والهوية مهما كان صاحبه ظالماً أو فاسقاً.

والله تعالى لا يأبه لما يطلقه البشر على أنفسهم من ألقاب وتقسيمات مثل الذين آمنوا والذين هادوا- اليهود- والنصارى والصابئين (أى الخارجين على دين أقوامهم) والقرآن الكريم يؤكد فى آيتين أن الذين يؤمنون إيماناً باطنياً وظاهرياً- (بالأمن والأمان مع البشر والاعتقاد فى الله وحده) ويعملون الصالحات ويؤمنون باليوم الآخر ويعملون له، فهم من أولياء الله تعالى سواء كانوا من المؤمنين (أتباع القرآن الكريم) أو من اليهود أو من النصارى أو من الصابئين، يقول تعالى ﴿إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَالّذِينَ هَادُواْ وَالنّصَارَىَ وَالصّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة 62). ويقول تعالى ﴿إِنّ الّذِينَ آمَنُواْ وَالّذِينَ هَادُواْ وَالصّابِئُونَ وَالنّصَارَىَ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الاَخِرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة 69). أى أن من يؤمن بالله واليوم الآخر ويعمل صالحاً فهو عند الله تعالى قد ارتضى الإسلام ديناً، أى استسلم لله طاعة وخضع له تعالى انقياداً. سواء كان من المسلمين أو اليهود أو النصارى أو الصابئين، وذلك بغض النظر عن الطوائف والمسميات. وذلك ما سنعرفه يوم الفصل أو يوم القيامة أو يوم الدين، وليس لأحد من البشر أن يحكم على إنسان بشأنه وإلا كان مدعياً للألوهية.

وهذا هو معنى الإسلام الباطنى القلبى الاعتقادى عند الله تعالى. استسلام لله تعالى وحده بلغة القلوب، وهى لغة عالمية يتفق فيها البشر جميعاً مهما اختلف الزمان والمكان واللسان..

أما الإسلام فى التعامل الظاهرى فهو السلام والسلم فى التعامل بين البشر.

يقول تعالى ﴿يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السّلْمِ كَآفّةً﴾ (البقرة 208) أى أمر لهم بإيثار السلم. وتحية الإسلام هى السلام.. واسم الله تعالى هو السلام.. وكل ذلك مما يعبر عن تأكيد الإسلام على وجهه السلمى. ويؤكد المعنى السابق للإيمان بمعنى الإيمان والأمان..

والإنسان الذى يحقق الإيمان فى تعامله مع الناس فيكون مأمون الجانب لا يعتدى على أحد.. ويحقق الإيمان الباطنى فى قلبه فلا يؤمن إلا بالله تعالى إلهاً يكون عند الله مستحقاً للأمن فى الآخرة.

والإنسان الذى يحقق الإسلام فى تعامله مع الناس فيكون مسالماً لا يعتدى على أحد، ويحقق الإسلام القلبى فلا يسلم قلبه وجوارحه إلا لله تعالى يكون عند الله تعالى مستحقاً للسلام فى الآخرة.

يقول تعالى ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام 82). أى أن الذين آمنوا بالله فى عقيدتهم وأمنهم الناس فلم يظلموا أحداً لهم الأمن فى الآخرة، لأن الجزاء من نفس العمل.

ويقول الله تعالى عنهم وهم آمنون فى الجنة ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ (سبأ 37).

ويقول تعالى عن الذين سلم الناس من أذاهم لأنهم كانوا مسالمين، وكانوا فى عقيدتهم مسلمين لله تعالى وحده: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام 127). أى لهم السلام فى الآخرة.. لأنهم أعطوا السلام للبشر.. لذا تقول لهم الملائكة وهم على أبواب الجنة ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ آمِنِينَ﴾ (الحجر 46) أى سلام وأمن. أى إسلام وإيمان فى الدنيا كان جزاؤه السلام والأمن فى الآخرة، فأصحاب الجنة هم الذين كانوا مسلمين مسالمين مؤمنين آمنين مأمونين.

ولكن ما هى صلة ذلك بوطننا مصر؟

إن مصر هى البلد الوحيد- بعد البيت الحرام- الذى ذكره القرآن مقروناً بالأمن، فالنبى يوسف عليه السلام حين استقبل أباه يعقوب عليه السلام وأخوته قال لهم ﴿ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اللّهُ آمِنِينَ﴾ (يوسف 99) ومصر ليست مجرد أرض وجغرافيا طبيعية.إنها قبل ذلك وبعد ذلك بشر يعيشون عليها فى أمن وأمان، أو هكذا تلون تاريخنا المصرى طيلة سبعين قرناً من الزمان استضاف فيها الغرباء والوافدين فتمتعوا بكرم الضيافة والأمن، وكان منهم يوسف الذى مكن الله له فى الأرض بمجرد دخوله مصر (يوسف 21) والمصريون أحق شعب فى شعوب العالم بأن يوصف بأنه شعب مسلم مؤمن حسب طبيعته التى تؤثر السلام.

والأقباط المصريون بالذات أكثر المصريين إيثاراً للسلام والمسالمة والأمن والأمان وهم بذلك أحق البشر جميعاً بوصف الإسلام بمعنى السلام والمسالمة وبوصف الإيمان بمعنى الأمن والأمان. أما عقائدنا- جميعاً- فى الله تعالى فالله تعالى هو وحده صاحب الحكم فيها ولم يعط ذلك الحق لأحد.. وقد جعل للفصل فى ذلك يوماً هو يوم الدين، وبذلك لم يعد لأحدنا الحق فى أن يتصدى بالتسفيه لعقائد الآخرين، بل أنه من أدب الحوار فى الإسلام أن نرتضى تأجيل الحكم إلى الله تعالى يوم القيامة، أما آيات القرآن الكريم التى تتحدث عن عقائد الآخرين فهى الحق الذى يقوله رب العزة فى شأن يخص ذاته ويرد به على ما يقوله البشر عنه، ومع تكرار تلك الآيات القرآنية فإن القرآن الكريم يؤكد للنبى نفسه- بعد توضيح الحق القرآنى فى حقيقة المسيح عليه السلام- أنه إذا جاءه أحد بعد ذلك التوضيح يجادله فى الموضوع فما عليه الا أن يبتهل بأن يجعل لعنة الله على الكاذبين، أى لم يأمره باتهامهم بالكفر أو المروق عن الحق، وإنما مجرد المباهلة لأن تكون لعنة الله على الكاذبين من الفريقين المتخاصمين.. (آل عمران 33: 57، 58: 61) .

وإذا لم يكن من حق النبى محمد (عليه السلام) نفسه أن يتهم من يجادله فى ذلك الموضوع بالكفر فليس من حق أحد بعده أن يتهم غيره من البشر والطوائف بالكفر بل عليه أن يحاور بالحكمة والموعظة الحسنة، فبذلك

أمر القرآن الكريم (النحل 125، الإسراء 53، فصلت 34، سبأ 24) بل عليه أن يصفح عن المختلفين معه ويصبر وينتظر الحكم عليه وعليهم يوم القيامة، فذلك ما أمر به الله تعالى فى القرآن الكريم (الحجر 85، الزخرف 88، الجاثية 14).

وإذا كان هذا عاماً فى التعامل مع المشركين الكافرين الذين يمدون أيديهم بالأذى للمؤمنين فإن لأهل الكتاب من النصارى واليهود تعاملاً خاصاً فى الجدال والحوار، وقد أوضح الله تعالى ذلك بالنهى عن الجدال معهم إلا بالتى هى أحسن، لأن أغلبهم يميل إلى السلم والسلام، أما الظالمون منهم فلا جدال معهم بل يكتفى المسلم بأن يقول لهم بأنه يؤمن بما أنزل إليه فى القرآن ما أنزل إليهم فى التوراة والإنجيل والكتب السماوية الأخرى، وأنه يؤمن بالإله الواحد الذى هو إله الجميع من المسلمين وأهل الكتاب، وهو يسلم وجهه لذلك الإله جل وعلا.. وذلك معنى قوله تعالى ﴿وَلاَ تُجَادِلُوٓاْ أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاّ بِالّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاّ الّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوَاْ آمَنّا بِالّذِيَ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَـَهُنَا وَإِلَـَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت 46). أى يقول ذلك ولا يتعداه اذا جاءه ظالمون من اليهود والنصارى ليجادلوه ويخاصموه.

ولكن نجوم التطرف فى عصرنا يحلو لهم تكفير النصارى ويفتحون الطريق لتكفير المجتمع كله وتكفير بعضهم البعض، ويترتب على التفكير استحلال الدماء والأموال.

وعلى سبيل المثال فإن آيات الموالاة فى القرآن قد تم توظيفها ضد الأبرياء من المصريين الأقباط، ويصرخ خطباء المساجد فى التحريض ضد الأقباط مستشهدين بقوله تعالى ﴿يَـَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنّصَارَىَ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلّهُمْ مّنكُمْ فَإِنّهُ مِنْهُمْ﴾ (المائدة 51). وهم فى ذلك الاستشهاد الخاطئ ويتناسون تشريعات الموالاة ومعناها، كما يتناسون تشريعات القتال وأنه للدفاع عن النفس وليس للاعتداء على الأبرياء. ان هذه الآية الكريمة لا علاقة لها بالأقباط مطلقا وليست لها علاقة بأى يهود ونصارى مسالمين أو بيننا وبينهم عهد وميثاق. تنطبق الآية فقط حين يقع اعتداء اجنبى حينئذ تحرم موالاة ذلك العدو الغازى ضد ابناء الوطن والأهل والعشيرة.

وحتى نفهم الخلفية التاريخية فى تشريعات الموالاة والقتال علينا أن نسترجع تاريخ المسلمين فى مكة وتعرضهم للاضطهاد والأذى فيها لمجرد أنهم اتبعوا ديناً جديداً مخالفاً لدين الأغلبية. ثم وصل بهم الاضطهاد إلى إرغامهم على ترك الوطن والأهل، وكان من أولئك الأهل من تطرف فى إيذائهم ومنهم من اعتدل، ومنهم من سكت عن الظلم. ولكنهم جميعاً لم يتركوا المسلمين فى حالهم بعد أن استولوا على ديارهم وأموالهم فى الإيلاف أو رحلة قريش التجارية فى الشتاء والصيف. فواصل المشركون اعتداءاتهم وقتالهم للمسلمين وتحمل المسلمون ذلك حيث لم ينزل لهم الإذن بالقتال. فنزل الإذن بالقتال للرد على قتال قائم يعتدى به المشركون على المسلمين فعلاً. وهذا معنى قوله تعالى ﴿أُذِنَ لِلّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنّهُمْ ظُلِمُواْ وَإِنّ اللّهَ عَلَىَ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أى أن المؤمنين كانوا يواجهون قتالاً واعتداءاً ظالماً فجاءهم الإذن برد ذلك الاعتداء الظالم بمثله، ثم تقول الآية التالية توضح خلفية أخرى لذلك الاضطهاد الذى واجهه المؤمنون فى مكة قبل أن يقاتلهم المشركون فى المدينة ﴿الّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقّ إِلاّ أَن يَقُولُواْ رَبّنَا اللّهُ﴾ (الحج 39،40) ثم توالت بعدها تشريعات القتال تربط الأوامر بالقواعد بالمقاصد، ونزلت تشريعات الموالاة فى إطار ذلك الصراح الحربى، ومنها نفهم

أن الموالاة أن تكون (مع) فريق (ضد) فريق آخر فى إطار الحرب مع/ضد، أى تعنى التحالف مع طرف ضد آخر. وبالتالى فإنه من المحرم والممنوع أن يتحالف بعض المؤمنين أى أن يوالوا المشركين المعتدين على قومهم المسلمين، وبهذا نزلت تفصيلات سورة الممتحنة.

وفيها الآية الثامنة– وهى آية محكمة فى تشريع الموالاة– تؤكد أن الله تعالى لا ينهى عن البر والقسط مع المخالفين فى الدين – ولم يصفهم الله تعالى بالمشركين لأنهم حسب التعامل الظاهرى مسلمون مسالمون لم يقاتلوا المسلمين بسبب دينهم ولم يخرجوهم من ديارهم– فقال تعالى عنهم ﴿لاَّ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ والآية التاسعة تحصر النهى عن الموالاة فى أولئك الذين قاتلوا المسلمين بسبب دينهم وأخرجوهم من ديارهم أو ساعدوا على إخراجهم من ديارهم، والنهى هنا عن موالاتهم والتحالف معهم ضد المؤمنين طبعاً ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

أولئك المتاجرون بالإسلام هم أحوج الناس لفهم تشريعات القرآن وحرصها على حقن الدماء، خصوصاً دماء المؤمنين الآمنين المسلمين المسالمين – ومنهم الأقباط المصريون حسب التوصيف القرآنى – وهم الذين لا يعتدون على أحد ولا يمكن أن يكون أحدهم قاتلاً إلا فى حالة واحدة هى القتل الخطأ.. وفى ذلك يقول تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً﴾ (النساء 92)، أى ما كان يصح ولا يمكن أن يتصور أن يقتل مؤمن مؤمناً إلا على سبيل الخطأ وعدم التعمد.

المؤمن الآمن المسلم المسالم قد يقتل مجرماً إذا حاول الاعتداء عليه لأن له حق الدفاع عن نفسه، وإذا قتل المعتدى فهو لم يرتكب جريمة قتل مؤمن مسالم وإنما قتل مجرماً معتدياً، فالمجرم المعتدى على الأبرياء المسالمين لا يمكن أن يكون مسلما مهما زعم.

ولكن المؤمن المسالم قد يقع فى الخطأ فيقتل إنساناً بريئاً مسلماً مأمون الجانب مؤمناً دون قصد، وحينئذ فعليه أن يدفع الدية كما فصلته الآية (92) من سورة النساء.

ولكن ذلك المؤمن الآمن المأمون الجانب المسلم المسالم إذا قتله مجرمٌ عمداً فما جزاء ذلك القاتل عند الله تعالى؟

تقول الآية التالية ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾ (النساء 93) وهى الآية الوحيدة فى القرآن التى حلفت بكل أنواع العذاب والغضب واللعنات.. وذلك يدلنا على فداحة قتل الإنسان المسالم البرىء..

وتقول الآية التالية تحدد لنا معنى المؤمن الذى يحرص القرآن الكريم على سلامته وحقن دمه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ (النساء 94) فالآية تتحدث عن الاشتباك الحربى بين المسلمين وأعدائهم المعتدين، اذ لا يجوز للمسلمين أن يحاربوا الا فى حالة واحدة هى الفاع عن النفس ضد المعتدين فقط. لذا تحذرهم الآية من قتل المسالمين حتى اثناء تلك الحرب

الدفاعية، وتؤكد على ضرورة أن يتبينوا عدوهم عند الاشتباك، فكل من ألقى إليهم السلام أو ألقى عليهم تحية الإسلام فهو مؤمن.. أى أن تحديد الإيمان أو المؤمن ليس بما فى القلب ولكن فيما يخص تعاملنا الظاهرى، فالإيمان هو مجرد إلقاء تحية الإسلام وعدم الاعتداء، ومن ألقى السلام فقد أصبح مؤمناً مسلماً بغض النظر عن دينه وملته وعقيدته ، وحتى لو كان موجودا فى صف الأعداء عند الاشتباك الحربى ولكن رفع صوته بالسلام يكون بذلك مؤمنا لا بد من حمايته، ومن يقع فى جريمة قتله يكون مستحقاً للعذاب الخالد واللعنة والغضب ونار جهنم.

لقد نزلت الآيات الكريمة- أول ما نزلت- على مجتمع عربى وبدوى أسرع ما يكونون إلى الحرب، وقد وصف القرآن البدو الأعراب الذين كانوا يحاصرون دولة النبى محمد عليه السلام بأنهم أشد الناس كفراً ونفاقاً، ومع ذلك فإن الله تعالى أوصى بحقن دمائهم بمجرد أن يلقى أحدهم السلام أو يبدى رغبة فى السلام واعتبره مؤمناً حسب الظاهر أو بمعنى الأمن والأمان. بل أنه فى حالة الاشتباك الحربى فإن العدو المقاتل إذا كف يده وأعلن رغبته فى السلم من الواجب حقن دمه وتوصيله إلى بيته آمناً سالماً بعد أن يسمع القرآن الكريم حتى يعلم الحق ويكون ذلك حجة عليه يوم القيامة ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة 6).

هذه تشريعات فى حقن دماء المحاربين ساعة الاشتباك.. وصيانة حياة المدنيين فى الحرب حتى لو كانوا مشتبهاً فى اشتراكهم فى الاعتداء كالأعراب الذين هم أشد الناس كفراً ونفاقاً والذين كانوا يتربصون بالمسلمين وينافقونهم ويكيدون لهم .

فما هو حكم الأقباط المسلمين الذين لم يعرفوا منذ عشرين قرناً إلا الصبر على الأذى والاضطهاد؟ ثم هل يجوز أن يتعرضوا لاضطهاد أولئك الذين يزعمون أنهم يؤمنون بالقرآن ويتمسكون بالإسلام؟ ثم ما هو حكم الإسلام فى أولئك الذين يتمسحون باسمه ويرتكبون تحت شعاره أفظع الجرائم؟! نرجو من كل من يهمه الأمر بأن يقرأ بقلب مفتوح وبتمعن الآيات الثلاث (92، 93، 94) من سورة النساء، ويتدبر حرص القرآن الكريم على حرمة النفس المسالمة حتى لو كانت من الأعراب المشهور عنهم السلب والنهب والكفر والنفاق والغدر والاعتداء على المسافرين والمسالمين.. ولكن القرآن يعطى الواحد منهم حصانة ضد القتل أثناء الاشتباك الحربى بمجرد أن يلقى بلسانه كلمة السلام. فما بالنا بالذين عاشوا فى أرضهم عشرات القرون فى سلم وسلام وإكرام للضيف ورعاية للغريب؟ الذين عاشوا مؤمنين آمنين مسلمين مسالمين يجد الغريب عندهم الأمن والسلام. أليس من يعتدى عليهم يكون مستحقاً لما جاء فى قوله تعالى ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾.

ونخلص مما سبق إلى أن أقباط مصر بالمفهوم القرآنى للإسلام والإيمان (الظاهرى) مؤمنون مسلمون، أى مأمونون مسالمون، والذى يقتل واحداً منهم يستحق اللعنة والغضب الإلهى والخلود فى جهنم مع عذاب عظيم، وتزداد جريمته حين يعتقد أنه بذلك يقوم بجهاد فى سبيل الله.. ويشاركه فى جريمته أولئك الذين يغررون به أو يتقاعسون عن تطهير الدعوة الإسلامية من الأحاديث المفتراه والفتاوى السامة التى تجعل دين الإسلام والسلام متهماً بالإرهاب والتطرف..

ثانياً: الاضطهاد للأقباط فى عصر الخلفاء الراشدين

الأعراب الذين هم أشد الناس كفراً ونفاقاً ما لبث أن أعلنوا الردة بعد وفاة الرسول عليه السلام وهاجم بعضهم المدينة، فقامت حروب الردة فى خلافة أبى بكر، وبعد إخمادها رأى أبو بكر أن يشغل الأعراب وأن يمتص طاقتهم الحربية فى الفتوحات خارج الجزيرة العربية، فأصبح المرتدون السابقون عماد الجيش الفاتح الذى قضى على الإمبراطورية الفارسية والذى قهر الإمبراطورية البيزنطية، وأصبحت مستعمرات الدولتين العظميين ضمن ولايات الإمبراطورية العربية الناهضة، وكانت مصر ضمن هذه الولايات، وقد دخل شعبها تحت ولاية العرب المسلمين أو فى ذمتهم ورعايتهم بتعبيرات القرون الوسطى.

وقد قاسى الأقباط من ظلم الدولة الأموية المشهورة بقسوتها وتعصبها للعرب ضد الشعوب الأخرى مثل موالى العراق وإيران وأقباط مصر. إلا أن الحقيقة المؤسفة التى يعزف عن بحثها الكثيرون ان اضطهاد الأقباط بدأ فى عصر الخلفاء الراشدين وأثناء ولاية عمرو بن العاص فاتح مصر والذى يشهد الكثيرون من الأقباط ومؤرخيهم بإنصافه وحبه للأقباط..

ويمكن أن نركز ملامح اضطهاد الأقباط فى تلك الفترة فى جانبين أساسيين هما فرض الجزية ومصطلح أهل الذمة..

فرض الجزية:

الآية القرآنية الوحيدة التى تحدثت عن الجزية تقول ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (التوبة 29).

وتشريعات القرآن لها درجات ثلاث، أوامر تشريعية تحكمها قواعد تشريعية تهدف إلى مقاصد تشريعية، فالأوامر التشريعية مثل (قاتلوا) أو (انفروا) تحكمها القواعد التشريعية التى تجعل أوامر القتال لا تكون إلا فى إطار الدفاع عن النفس ورد الاعتداء بمثله دون زيادة أو نقصان (البقرة 190، 194). ثم يكون الهدف النهائى للقتال فى الإسلام أو فى سبيل الله هو منع الفتنة فى الدين، والفتنة هى الاضطهاد الدينى أو إكراه الناس على تغيير عقائدهم، فالمقصد التشريعى من القتال فى سبيل الله أن تختفى الفتنة والإكراه وأن يكون الناس أحراراً فى اعتناق ما يريدون حسبما شاء الله تعالى حين خلقهم أحراراً، وجعل مرجعهم إليهم يوم القيامة ليحاسبهم على ما اختاروه بمحض إرادتهم وذلك معنى قوله تعالى فى الأمر بقتال المشركين العرب الذين يضطهدون مخالفيهم فى الدين ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة 193). واقرأ أيضاً آية 39 فى سورة الأنفال.

إذن لابد أن نفهم تشريعات القرآن الكريم فى الأوامر والقواعد والمقاصد حتى نعرف أن المقصودين بالقتال فى آية ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ هم أولئك المعتدون من أهل الكتاب و لا يمكن أن تمتد الى غيرهم من المسالمين الذين لم يعتدوا على دولة المسلمين ، لأنه لا مجال فى الإسلام لاعتداء على أحد وإنما لرد الاعتداء بمثله فقط..

والآية تتحدث عن دولة أو مجتمع عدوانى انعدم فيه الإيمان بمعنى الأمن وبمعنى الاعتقاد السليم، وهو يتجاوز حدوده إلى حدود المسلمين ليعتدى عليهم وحينئذ فلابد من القتال لرد الاعتداء بمثله، وبعد تحقيق النصر وطرده إلى دياره يجب إرغامه على دفع الجزية- وليس على دخول الإسلام- وهى غرامة حربية كالشأن فى عقوبة المعتدى، والذى يأخذ به المجتمع البشرى حتى الآن فى المعاهدات التى يعقدها المنتصر مع المهزوم خصوصاً إذا كان معتدياً مثل ما حدث مع ألمانيا بعد الحربين العالميتين وما حدث مع العراق بعد غزو الكويت.

وإذا طبقنا الآية الكريمة التى تتحدث عن فرض الجزية وجدناها تنطبق على الروم البيزنطيين، وقد ذكر التاريخ أنهم الذين بدءوا الاعتداء على الدولة الإسلامية فى عصر النبى (صلى الله عليه وسلام) وحرضوا ضدها القبائل العربية النصرانية مما أدى إلى غزوات مؤتة وتبوك...

والتاريخ يذكر أن البيزنطيين كانوا يدفعون الجزية للمسلمين بعد الهزيمة، وأنه كان يحدث العكس فيدفع المسلمون الجزية للبيزنطيين كما حدث مع معاوية حين دفع لهم جزية قدرها مائة ألف دينار سنوياً أثناء انشغاله بالحرب مع (على).. وكان الروم البيزنطيين يدفعون الجزية للمسلمين فى العصر العباسى الأول، فأصبح المسلمون فى العصر العباسى الثانى يدفعون الجزية للبيزنطيين.. وهكذا تبادل الفريقان المواقع كل حسب قوته.

وكان من المنتظر أن يدفع البيزنطيون الجزية لعمرو بن العاص بعد أن هزمهم وأجلاهم عن مصر.. ولكن حدث العكس. إذ دفعها المصريون الذين تحالفوا مع عمرو ضد البيزنطيين. ولذلك قصة نعرفها من المقريزى فى كتابه المشهور "الخطط".

فالمقريزى يشير بين السطور إلى مساعدة الأقباط المصريين للعرب الفاتحين ضد الروم. ومنذ أن دخل عمرو بجيشه إلى سيناء متوجهاً إلى مصر أرسل أسقف الأقباط فى الإسكندرية أمراً إلى الأقباط بأن يعاونوا العرب ويتنبأ بزوال دولة الروم، واستجاب الأقباط لتلك الأوامر. وحين نزل عمرو على أسوار مدينة الفرما كان الأقباط أعواناً له يمدونه بالمعلومات والمؤن. والأقباط هم الذين ساعدوا عمرو فى فتح الإسكندرية بعد حصارها الشديد. وظلوا شهرين يمدون العرب بالأطعمة والمؤن ويجمعون لهم الأخبار، والأقباط هم الذين استمالوا القائم على حراسة أبواب الإسكندرية- وكان قبطياً- ففتح أبوابها للعرب فاقتحموها، والمنتظر بعد هذا أن يحفظ عمرو الجميل للأقباط الذين ساعدوا جيشه الضئيل على فتح بلدهم كراهية منهم فى الروم البيزنطيين.

ولكن الذى حدث أن المقوقس- الوالى الرومى- هو الذى أقنع عمرو بأن يدفع الأقباط الجزية بدلاً من الروم المهزومين . وقد كان الأقباط يدفعون الجزية للروم حسب المعتاد فى العصور الوسطى ، فتعلم العرب المسلمون منهم هذا القانون الجائر وطبقوه على الأقباط الذين ساعدوهم على احتلال بلادهم !! فبعد حصار بابليون الذى استمر سبعة أشهر اقتحم العرب أبواب الحصن فاضطر المقوقس للتفاوض على أن يدفع الأقباط الجزية للعرب دينارين عن كل رجل. لأن الروم لن يقبلوا دفع الجزية ولن يقبل العرب إلا بالجزية أو الإسلام

أو الحرب وهكذا نجا المقوقس من غرامة الجزية التى يرفض الروم دفعها، ودفعها الأقباط الذين ساعدوا عمرو فى الفتوح، بل أنه فرض عليهم إلى جانب الجزية القيام بضيافة العرب فى قراهم ثلاث أيام.

وبلغ عدد المصريين الذين دفعوا الجزية يومئذ ستة ملايين.. وشرهت نفس عمرو لهذه الملايين وبعد أن رضى بدفع المصرى دينارين طلب أكثر،والمقريزى يذكر أن والى (إخنا) سأل عمراً عن مقدار الجزية الواجبة على أهل مدينة (إخنا) فقال له عمرو يشير إلى ركن الكنيسة "لو أعطيتنى من الركن إلى السقف ما أخبرتك، إنما أنتم خزانة لنا إن كثر علينا كثرنا عليكم وإن خفف عنا خففنا عنكم".

وكان ذلك سبباً فى خروج ذلك الرجل على الطاعة، فقد هرب إلى الروم وعاد بجيش بيزنطى استعاد الإسكندرية، وأعاد عمرو فتح الإسكندرية وتخليصها من الروم بصعوبة بالغة .

وعمرو بن العاص كان رائداً للدولة الأموية فى شراهتها فى جمع الجزية من الأقباط وغيرهم، وحتى من أسلم من الأقباط كانوا لا يعفونه من دفع الجزية، والاستثناء الوحيد من خلفاء بنى أمية كان الخليفة عمر بن عبد العزيز فى حكمه القصير ، فقد رفع الجزية عمن أسلم فكتب إليه والى مصر حيان بن شريح يخبره بتناقص الجزية بهذا القرار، فكتب إليه عمر ابن عبد العزيز يؤنبه ويقول له: ضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً..!!

وظلت الجزية نقطة سوداء فى تاريخ الولاة الأمويين والعباسيين يدفعها من بقى على دينه من المصريين إلى نهاية العصر المملوكى سنة 921/1517، وجاء الفتح العثمانى ففرض جزية على المصريين جميعاً مسلمين ومسيحيين، وظلت الخزانة المصرية تدفعها لتركيا بصورة عادية حتى تنبه لها عبد الناصر وألغاها..!!

ونعود إلى عمرو بن العاص وما كتبه المقريزى فى الخطط عن فتح مصر..

يقول أن عمراً أعلن لأهل مصر: أن من كتمنى كنزاً عنده فقدرت عليه قتلته!!

وقيل له أن قبطياً من الصعيد اسمه بطرس لديه كنز فرعونى فحبسه عمرو واستجوبه فأصر على الإنكار، وعلم عمرو بذكائه مكان الكنز فاستولى عليه وقتل المصرى وعلق رأسه على باب المسجد، فارتعب الأقباط ومن كان عنده كنز أسرع بتسليمه إلى عمرو..

ويذكر المقريزى أن عمراً اعتقل قبطياً آخر اتهمه بممالاة الروم واستجوبه وحصل منه على أكثر من خمسين أردباً من الذهب..!!

ومن مجموع هذه المصادرات تضخمت ثروة عمروالشخصية وحين حضرته الوفاة استحضر أمواله فكانت (140) أردباً من الذهب، وقال لولديه: من يأخذ هذا المال؟ فأبى ولداه أخذه وقالا له: حتى ترد إلى كل ذى حق حقه..

ومات عمرو واستولى الخليفة معاويةعلى كل تلك الأموال التى خلفها عمرو فى ميراثه وقال: نحن نأخذه بما فيه .. أى بما فيه من ظلم وسحت..!!

ومع ذلك فإن عمرو بن العاص هو أفضل من حكم مصر وأكثرهم رفقاً بالمصريين بالمقارنة بغيره.. والثابت أنه لم يكن مسرفاً فى سفك الدماء كما فعل غيره من الولاة كما أنه كان حسن السياسة فى جباية الخراج

والجزية، فلم يرهق المصريين، وكان يجمع الجزية 12 مليون دينار، فأصبح الوالى بعده عبد الله بن أبى سرح يجمعها 14 مليون دينار.

وأدى تطرف الولاة الأمويين فى جمع الأموال من المصريين إلى اضطرار المصريين للقيام بثورات متعاقبة، فأخمد الأمويين ثوراتهم بالحديد والنار.. وتطرفوا فى اضطهادهم والعسف بهم.. وسيأتى تفصيل ذلك..

مصطلح أهل الذمة:

لم يأت لفظ الذمة فى القرآن إلا فى موضعين فى الحديث عن طبيعة مشركى العرب البدوية العدوانية وكيف أنهم لا يراعون عهداً ولا ميثاقاً ولا ذمة إذا انتصروا ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلاّ وَلاَ ذِمّةً﴾، ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاّ وَلاَ ذِمّةً وَأُوْلَـَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (التوبة 10،8).

وظهر مصطلح أهل الذمة بعد الفتوحات العربية ضمن مصطلح آخر هو "الموالى" ليضع توصيفاً للشعوب التى دخلت فى حوزة العرب المسلمين.. والمعنى واحد لأهل الذمة والموالى فى أنهم أتباع ورعية العرب الحاكمين، وبالتالى هم مواطنون من الدرجة الثانية أو أقل.. والدليل العملى على ذلك هو ما عاناه الموالى من أبناء العراق وإيران وما عاناه أهل الذمة من الأقباط فى العصر الأموى تحت وطأة الاضطهاد والاستعلاء.. وبينما دخل مصطلح "الموالى" إلى متحف التاريخ بعد أن تمتع أبناء الفرس والعراق بحقوقهم فى الدولة العباسية التى أسهموا فى تأسيسها، فإن مصطلح أهل الذمة بقى مستعملاً ووصمة عار على كل من تمسك بدينه من أبناء الشعوب غير العربية، وكان المسيحيون العرب بمنجاة من هذا المصطلح وآثاره الجانبية لأنهم عرب، أما المسيحيون فى الشام والعراق ومصر فقد حملوا ذلك الوصف على كاهلهم، وقاسوا تحته أوزار الاضطهاد العنصرى فى العصر الأموى، ثم الاضطهاد الدينى بعده..

وتم تقنين تلك النظرة الاستعلائية المخالفة للقرآن الكريم فى كتب الفقه فيما يخص التعامل مع أهل الملل الأخرى غير الإسلامية، وأحدثوا لها كياناً تشريعياً من أحاديث مفتراه نسبوها للنبى عليه السلام تبيح اضطهاد أهل الكتاب والاستعلاء عليهم..

وتناسى أولئك حديث القرآن مع أهل الكتاب وأمره للمسلمين بمجادلتهم بالحسنى وكيف أن رب العزة جل وعلا أجرى حواراً معهم فى القرآن الكريم وكيف قال للنبى الخاتم عليه السلام ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّ مّمّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ (يونس 94). ومعناها واضح يغنى عن الشرح.. وكيف وصف القرآن النصارى بالذات بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا لأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (المائدة 82). وكيف أمر القرآن الكريم بمعاملة المخالفين فى الدين بالقسط والبر طالما لم يعتدوا بالقتال ولم يطردوا المسلمين من ديارهم ولم يتحالفوا مع عدوهم المعتدى عليهم (الممتحنة 8، 9).

وكيف أمر القرآن الكريم بمعاملة أهل الكتاب على نفس المستوى مع المسلمين فى الطعام والمصاهرة، طالما يعيشون مع المسلمين فى أمن وأمان وسلم وسلام، (وقد سبق توضيح معنى الإيمان والإسلام) فقال تعالى ﴿ الْيَوْمَ أُحِلّ لَكُمُ الطّيّبَاتُ وَطَعَامُ الّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلّ لّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلّ لّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ آتَيْتُمُوهُنّ أُجُورَهُنّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتّخِذِيَ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الاَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة 5).

والمصاهرة المشتركة والحياة المشتركة على أساس التساوى تعنى علاقات الدم والقرابة والحياة الاجتماعية المشتركة، حيث يتنفس أفراد المجتمع التسامح والتساوى فى الحقوق والواجبات ويصبح كل إنسان حراً فى عقيدته كيف يشاء بعد تدقيق وتحقيق أو بدون تدقيق وتحقيق، وهذا شأنه، وحسابه عند ربه يوم القيامة، والمهم أن يكون مسالماً آمناً مأمون الجانب أو مسلماً مؤمناً فى تعامله مع الناس لا يعتدى على أحد، وقد سلم الناس من لسانه ويده..

ضاع ذلك كله بسبب مصطلح أهل الذمة الذى أوجد التفرقة والاضطهاد..

وفرض الجزية فى عصر الخلفاء الراشدين كان هو التربة التى نبت فيها مصطلح أهل الذمة وما نتج عنه من آثار.

ولو لم يرض عمر بن الخطاب بفرض الجزية عليهم لكانوا على قدم المساواة مع العرب، ولكن أن يفرض عمر ثم عثمان الجزية على رؤوس الأفراد من الأمم الأخرى فالمعنى أنهم عنصر أقل شأناً ومواطنون من الدرجة الثانية، وكانت تلك البداية لمصطلح أهل الذمة واضطهادهم..

ثم سار الأمويين على طريق التصعيد فى الاضطهاد للأقباط فى مصر وللموالى فى العراق.

ثالثاً: اضطهاد الأقباط فى العصر الأموى

الأمويين عارضوا الإسلام وحاربوه حرصاً على مصالحهم التجارية، ثم انضموا إليه وآزروه حرصاً أيضاً على مصالحهم التجارية حيث كانوا قادة قريش فى رحلتى الشتاء والصيف، وعن طريقها وثقوا علاقاتهم بالقبائل العربية النصرانية على طريق الشام التجارى ثم بعد أن دخلوا الإسلام أثمر تعاونهم مع تلك القبائل فى إخضاع الشام فى الفتوحات الإسلامية، ثم ساعدتهم تلك القبائل على توطيد دولتهم الأموية.

لذلك لم يضطهد الأمويون نصارى العرب بل عاملوهم على قاعدة المساواة ، فالوالى فى العراق خالد القسرى أقام كنيسة لأمه النصرانية، والأخطل الشاعر العربى النصرانى كان نديم الخلفاء الأمويين يدخل عليهم وفى عنقه الصليب، والخليفة عمر بن عبد العزيز دفنوه فى دير سمعان بجوار دمشق..

إلا أن الأمويين- خلا عمر بن عبد العزيز- اشتهروا بالتعصب العنصرى ضد الأجناس غير العربية، فاضطهدوا الفرس والعراقيين، وألجأوهم للثورة المتكررة وتأييد كل ثائر شيعى أو علوى على الأمويين.. كما اضطهدوا المصريين لمجرد أنهم مصريون ومواطنون رعايا من الدرجة الثانية أو الثالثة، واعتبروهم بقرة حلوباً تدر لهم الخير، ولا بأس بأن يمتصوا لبنها ودمها إذا أمكن..

وأدى العسف فى جباية الجزية والخراج إلى ثورة المصريين، وهم أقدر شعوب الدنيا على احتمال الصبر، ولكن العسف الأموى كان فوق طاقة المصريون أنفسهم.!!

ونرجع للمقريزى فى الخطط..

يذكر أن الأقباط صاروا عوناً لعمرو على الروم حتى انتصر عليهم، وإن عمراً كتب أماناً لبطرك القبط سنة عشرين من الهجرة فأتى إلى عمرو وجلس على كرسى البطريركية بعد غياب ثلاثة عشر سنة. واحتمل المصريون جشع عمرو بسبب موقفه من البطرك بنيامين الذى كان له النفوذ الأكبر على قلوب المصريين.

وتبدل الحال بعد تحكم الأمويين من أولاد مروان بن الحكم، ووصل الاضطهاد إلى البطاركة الأقباط والرهبان أنفسهم..

ففى ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر صودر البطرك مرتين، وأمر عبد العزيز – وهو بالمناسبة والد الخليفة عمر بن عبد العزيز – بإحصاء الرهبان وأخذ منهم الجزية، وهى أول جزية أخذت من الرهبان.

وتولى مصر عبد الله ابن الخليفة عبد الملك بن مروان فاشتد على النصارى، واقتدى به الوالى التالى قرة بن شريك فأنزل بالنصارى شدائد لم يبتلوا بمثلها من قبل على حد قول المقريزى. وأقام الأمويون مذبحة للأقباط سنة 107 هجرية حين ثاروا فى شرق الدلتا بسبب جشع الوالى عبد الله بن الحبحاب..

وفى خلافة يزيد بن عبد الملك تطرف الوالى أسامة بن زيد التنوخى فى اضطهاد الأقباط، فصادر أموالهم ووسم أيدى الرهبان بحلقة من حديد، وكل من وجده منهم بغير وسم قطع يده، وفرض غرامات على الأقباط، وصادر الأموال من الأديرة، ومن وجده من الرهبان فى تلك الأديرة بلا وسم ضرب عنقه أو عذبه، وهدم الكنائس وكسر الصلبان.

وفى خلافة هشام بن عبد الملك تشدد الوالى حنظلة بن صفوان فى زيادة الخراج، وأحصى الأقباط وجعل على كل نصرانى وشماً فيه صورة أسد ومن وجده بلا وشم على يده قطع يده.

وثار العرب المسلمون سنة 117 بسبب قيام الأقباط ببناء كنيسة يوحنا، وكان ذلك فى ولاية الوليد بن رفاعة. وأدت زيادة المظالم إلى قيام الأقباط بثورة عارمة فى الصعيد سنة 121 هجرية، وانتقلت الثورة إلى سمنود سنة 132 وإلى رشيد فى نفس العام وتولى الأمويون إخمادها بالعنف الشديد، وفى هذا العام انهزم مروان بن محمد آخر خليفة أموى أمام العباسيين فهرب إلى مصر فوجدها ثائرة على مظالم الأمويين، ومع ظروفه السيئة إلا أن الخليفة الأموى الهارب استنفذ ما بقى من قوته وعدته فى القضاء على ثورات الأقباط حتى قضى عليها، ثم واصل هروبه فى مصر أمام الجيش العباسى إلى أن لقى حتفه فى أبو صير، وكان يحتجز عنده البطرك القبطى ومجموعة من كبار الرهبان وزعماء الأقباط فأفرج عنهم الجيش العباسى .

ودخلت مصر فى العصر العباسى.. أو فى الاضطهاد العباسى..

رابعاً: اضطهاد الأقباط بعد العصر الأموى

انتهى العصر الأموى سنة 132 هجرية.

وتوالت على مصر دولة الخلافة العباسية والدول المستقلة فى إطار الخلافة العباسية كالطولونية والأخشيدية، ثم الدولة الفاطمية وبعدها الدولة الأيوبية التى انتهت بسيطرة المماليك، وبعدهم سنة 921 كان الفتح العثمانى والخلافة العثمانية التى سيطرت على مصر فعليا أواسميا حتى سقوطها .أى هى فترة تمتد إلى اثنى عشر قرناً من الزمان، وقد كان اضطهاد الأقباط فيها سمة بارزة تحتاج إلى مجلدات فى رصدها ولكننا نوضح الملامح الأساسية فى الموضوع على النحو التالى:

أولاً: من بداية الخلافة العباسية إلى سنة 235 هجرية فى خلافة المتوكل على الله العباسى:

وفى هذه الفترة واصل الأقباط ثوراتهم على ظلم الولاة العباسيين، وكان الاضطهاد فى أغلبه رسمياً من السلطة الحاكمة التى تريد اعتصار الضرائب بالقسوة، والعنف فلا يجد الأقباط طريقة إلا الثورة التى تنتهى بالهزيمة والمذابح.. ونعطى أمثلة سريعة:

• فى سنة 150 هجرية ثار الأقباط فى سخا وطردوا ولاة الضرائب فأرسل لهم العباسيون جيشاً يقوده يزيد بن حاتم، وهاجم الأقباط الجيش ليلاً وقتلوا بعض أفراده وهزموا بعض فصائله، إلا أن الإمدادات العباسية تلاحقت وحاصرت الأقباط وهزمتهم، وامتد الانتقام إلى حرق الكنائس. واضطر الأقباط إلى دفع غرامة قدرها خمسون ألف دينار للوالى العباسى سليمان بن على كى يكف عن حرق الكنائس إلا أنه أبى..

وتولى بعده الوالى موسى بن عيسى العباسى فاستمع إلى نصيحة الأئمة المستنيرين من الفقهاء المشهورين بمصر مثل الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، وقد أفتوا له بأن بناء الكنائس من عمارة البلد، فأذن الوالى بإعادة بناء الكنائس، ولكن ظلت المظالم على حالها..

• فى سنة 156 هجرية عاد الأقباط للثورة فى بلهيت، فأرسل لهم الوالى موسى بن عيسى جيشاً فهزمهم وحكم بقتل الرجال وسبى النساء والذرية . وجاء المأمون لزيارة مصر وأنب الولاة واعتبرهم سبب المظالم والثورات، وأمر ببعض الإصلاحات..

• وكانت ثورة 216 هجرية هى آخر ثورات الأقباط الحربية، وبعدها اتبعوا طريق المقاومة السرية، ونحن ننقل معاناة الأقباط عن المقريزى وهو الذى لا يخفى تعصبه ضد النصارى، يقول فى التعليق على ثورة 216 هجرية وآثارها "ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر ولم يقدر أحد منهم على الخروج على السلطان، وغلبهم المسلمون على عامة القرى، فرجعوا من المحاربة إلى المكيدة واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين..

ثانياً: وشهد عصر الخليفة المتوكل ظاهرة جديدة هى انتصار الفكر الحنبلى المتشدد وهزيمة الفكر المعتزلى العقلانى، وقد استمال السلفيون من أصحاب ابن حنبل ورواة الأحاديث الخليفة المتوكل إليهم، وبتأثيرهم دخلت الدولة العباسية فى اضطهاد مخالفيها فى المذهب والدين، فحوكم شيوخ التصوف وطورد الشيعة وهدم ضريح الحسين فى كربلاء، وصدرت قرارات لاضطهاد اليهود والنصارى، وانتشرت الروايات والفتاوى التى تضع الإطار التشريعى لتلك الممارسات، ومنها الحديث المشهور "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده..." ذلك الحديث الزائف الذى أثبتنا كذبه فى مقالة بجريدة الأحرار والذى يعتبر الدستور العملى للتطرف حتى الآن..

ويهنا أن هذه الفكرة كان لها ابلغ الأثر فى انتقال الاضطهاد للأقباط من دائرة الحكم والسياسة إلى الشارع والعوام، وساعدت الروايات والفتاوى وجهود الفقهاء والقصاصين وأهل الحديث فى شحن الأفراد العاديين بالكراهية ضد مخالفيهم فى المذهب سواء كانوا صوفية أو شيعة أو كانوا مخالفين لهم فى الدين أى من اليهود أو من النصارى.. وبالتالى تحول الاضطهاد الرسمى العنصرى للأقباط إلى اضطهاد دينى يشارك فيه المصرى المسلم ضد أخيه المصرى القبطى.. وبمرور الزمن تعاظم تأثير تلك الروايات والفتاوى وأصبحت ركائز دينية تفرق بين أبناء الشعب الواحد وتباعد بينهم وبين الدين الحق الذى نزل على خاتم الأنبياء عليهم السلام. والمؤسف أن المسلم اليوم – إذا أراد أن يتدين – يجد أمامه كتابات اولئك الأئمة فيما يعرف الآن

بكتب الفقه والسنن وقد احتوت على تلك الروايات والفتاوى فيأخذها عنهم كأنها الدين الحق ويصدق نسبتها الكاذبة للنبى محمد ، مع انها – أى تلك الأحاديث – قد كتبوها ونسبوها للنبى بعد موته بأكثر من قرنين من الزمان عبر اسناد شفهى مضحك. الا أن المسلم اليوم يصدق هذه الأحاديث المفتراة ويعتقد أن النبى محمدا عليه السلام قد قالها فعلا ، وعلى أساسها يعتقد أن كراهية المخالفين فى المذهب والاعتقاد من معالم الدين حتى لو كانوا من المسالمين الصابرين. والدليل على ذلك ما نراه فى عصرنا الراهن من اضطهاد للأقباط مع علو لنفوذ التيار الحنبلى السلفى والذى استعادته الدولة السعودية عبر مذهبها الوهابى وأصبح من علاماته التطرف والتعصب والانغلاق واضطهاد المخالفين والحكم بتكفيرهم وما يترتب على التكفير من سفك للدماء واستحلال للأموال..

أعاد ذلك لعصرنا الراهن ما ساد فى عصر الخليفة المتوكل العباسى من سطوة الفقهاء المتزمتين الذين سموا أنفسهم بأهل السنة واستمرت سطوتهم فى عصر من جاء بعده من الخلفاء حتى أصبحت سياسة متبعة . ثم اعاد التطرف الوهابى والنفوذ السعودى هذا التراث حيا فى عصرنا.وليس غريباً بعدها أن نعرف أن أئمة الحديث المشهورين عاشوا تلك الفترة من ابن حنبل إلى البخارى ومسلم والحاكم وغيرهم ،وقد أصبحوا الآن فى عصرنا آلهة منزهة عن الخطأ ومن يناقشهم – معتبرا اياهم بشرا يخطئون ويصيبون – يكون مصيره الاتهام بالكفروإنكار السنة.!!

ونعود إلى التطور الجديد فى اضطهاد الأقباط فى هذه الفترة.

فى سنة 235 هجرية أصدر الخليفة المتوكل مرسوماً يهدف إلى تحقير (أهل الذمة)فى كل الامبراطورية العباسية، وذلك بإلزامهم بارتداء زى معين ومظهر معين، مع هدم الكنائس الجديدة وتحصيل الضرائب والعشور من منازلهم وأن يجعل على أبواب بيوتهم صوراً للشياطين، ونهى المرسوم عن توظيفهم وتعليمهم عند المسلمين، وتسوية قبورهم بالأرض وألا يحملوا الصليب فى أعيادهم وألا يشعلوا المصابيح فى احتفالاتهم وألا يركبوا الخيول.. وقد طبق الولاة ذلك على أقباط مصر وأصبحت سنة متبعة.

ومفهوم تلك القرارات أن يشارك الناس فى إلزام الأقباط بها، ومن هنا بدأ انغماس العوام فى اضطهاد الأقباط.. وتعلموا أن ذلك يعنى إظهار الإخلاص للإسلام، وانتقل ذلك الفهم الخاطىء لبعض الولاة المتدينين مثل أحمد بن طولون الذى استقل بمصر ذاتياً فى إطار الخلافة العباسية، وكان معروفاً بتدينه وجرأته على سفك الدماء لصالح سلطانه، ولم يكن الأقباط يشكلون خطراً على نفوذه، بل كان يستعين بهم فى دواوينه وأعماله ومع ذلك فقد قام بعمليات اضطهاد ضد الأقباط كأفراد ومنشآت دينية.. ولم تكن له فيها دوافع سياسية، مما يرجح أن دوافعه كانت دينية نتيجة تأثره بالفكر السلفى السنى السائد، وقد كان معروفاً بإخلاصه لذلك الفكر.

والمقريزى يذكر أن أحمد بن طولون ألزم البطرك ميخائيل بدفع غرامة قدرها عشرون ألف دينار واضطره لبيع أوقاف الكنيسة، وفرض ابن طولون ضرائب جديدة على الأقباط..

وحدث سنة 300 هجرية إحراق كنيسة القيامة فى الإسكندرية..

وبعد انتهاء الدولة الطولونية اشتد الوالى ابن الجراح على الأقباط وألزم الرهبان بدفع الجزية فاستغاثوا بالخليفة العباسى المقتدر فأمر برفع الجزية عنهم اكتفاء بما دفعه عامة الأقباط.
وأقام محمد بن طغج دولته الأخشيدية بمصر فأرسل فرقة من جيشه إلى مدينة تنيس على ساحل المتوسط فى سيناء فصادر ما فى الكنيسة الملكية بها.
وقامت الدولة الفاطمية بخلافة شيعية فى مصر تناوئ الخلافة السنية فى بغداد . وفى بداية الفاطميين فى مصر كانوا متسامحين مع الأقباط واليهود، خصوصاً الخليفة المعز لدين الله وابنه الخليفة العزيز بالله إلا أن الخليفة الحاكم ابن الخليفة العزيز بالله الفاطمى كان مشكلة مزمنة لكل المصريين وخصوصاً الأقباط بسبب قراراته الغريبة المتناقضة وجرأته على سفك الدماء..
ففى سنة 393 هجرية أمر الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى باعتقال البطرك زخريس لمدة ثلاثة شهور. وكان التسامح مع الأقباط فى عهد المعز والعزيز قد مكن لكثير منهم العمل فى الدواوين والحصول على كثير من النفوذ والأموال، وبالتالى تعاظمت الشكاوى منهم من المنافسين والعوام بعد أن تم شحن القلوب بالتعصب الدينى . وأثمرت السعاية بهم فى إغضاب الحاكم بأمر الله – وكان لا يملك نفسه إذا غضب – لذلك أمر بقتل عيسى بن نسطورس وفهد بن إبراهيم وهما من كبار النصارى فى الدواوين . ثم أعاد الخليفة الحاكم العمل بمرسوم الخليفة المتوكل العباسى فيما يخص ارتداء النصارى أزياء معينة للتحقير والتشهير ومنعهم من الاحتفال بأعيادهم، وصادر أوقاف الكنائس وأحرق الصلبان ومنع الأقباط من شراء العبيد والجوارى، وهدم الكنائس فى المقس وخارج القاهرة وأباح للعوام نهبها فساهم فى زيادة التعصب بين أبناء الوطن الواحد والشعب الواحد.
وتطرف الحاكم بأمر الله الفاطمى فى تحقير الأقباط فألزمهم بتعليق صلبان خشبية ثقيلة (5 أرطال) فى أعناقهم ومنعهم ركوب الخيل، ومنع المسلمين من السماح لهم بالركوب على الحمير بالأجرة أو الركوب فى المراكب بأجرة..
ثم تطورت الحالة الجنونية بالخليفة الحاكم الفاطمى فأخذ فى هدم الكنائس كلها وأباح للناس ما فيها نهباً وإقطاعاً، فنهب العوام كل ما فى الكنائس واقتطعوا أرضها واقتسموها وبنوا مساجد مكانها وأقيمت الصلاة الإسلامية فى الكنائس المشهورة التى بقيت على حالها مثل كنيسة شنودة والكنيسة المعلقة.
وانتقلت الحمى للعوام فتكاثروا بالشكاوى على ديوان الخليفة يطالبون بمستحقات وهمية لهم على الكنائس وأمتعتها، وكانت السلطات الفاطمية توافقهم، فامتلأت الأسواق بالمنهوبات من أمتعة الكنائس والنصارى مثل أوانى الذهب والفضة والأيقونات والثياب الفاخرة وغير ذلك.
وانتقل الاضطهاد من القاهرة إلى الأقاليم فكتب الخليفة الحاكم إلى ولاته بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والأديرة فعم الهدم فيها منذ سنة 403 هجرية واستمر الهدم حتى وصل طبقاً لإحصاء المقريزى سنة 405 هجرية إلى أكثر من ثلاثين ألف منشأة دينية بين بيعة لليهود ودير وكنيسة للنصارى فى مصر والشام وتم نهب كل مقتنياتها وأوقافها.

ثم اشتدت الحالة العصبية بالخليفة فأصدر قراراً بنفى الأقباط وإخراجهم من مصر إلى بلاد الروم ومعهم اليهود، فاجتمع أعيانهم تحت قصر الخليفة يبكون ويصرخون حتى رحمهم الخليفة ورجع عن قرار النفى .!! واضطر كثيرون للدخول فى الإسلام.. وكان ذلك أفظع تجربة للاضطهاد الطائفى فى تاريخ مصر الوسيط.. وبعدها برزت بعض حركات الاضطهاد فى الدولة الأيوبية وفى بداية الدولة المملوكية.. إلا أن العصر المملوكى (الذى امتدت ملامحه الاجتماعية بعد سقوط الدولة المملوكية لتشكل ملامح العصر العثمانى) شهد ملامح خاصة فى التعامل مع الأقباط..

ثالثاً: فالدولة المملوكية

لم تر بأساً فى الاستعانة بالأقباط فى أعمالها الإدارية والمالية ، وفى نفس الوقت أوسعت للشيوخ نفوذاً فى إدارتها المدنية سواء ما كان خاصاً بالوظائف الديوانية كالوزارة أو كان خاصاً بالوظائف الدينية كالقضاء والحسبة ومشيخة الخوانق والمدارس والجوامع..

وفى هذا العصر – المملوكى– تسيد التصوف الحياة الدينية والعقلية ومن شأن التصوف السكون والتسامح والصبر على المكاره، أى كان منتظراً أن يعيش الأقباط أزهى عصور الوحدة الوطنية والتسامح فى العصر المملوكى .

إلا أن العكس هو الذى حدث.

ويرجع السبب إلى عامل أساسى نتجت عنه آثار جانبية زادت فى تأكيده وسيطرته . وقد أشرنا من قبل إلى خطورة ذلك العامل الأساسى وهو إدخال كراهية "أهل الذمة" فى الروايات والفتاوى الدينية التى أصبحت بالدراسة والتلقين والممارسة من أبرز طقوس التدين فى القرون الوسطى وهى عصر التعصب الدينى والحروب الصليبية والتطرف الشكلى فى التمسك بمظاهر التدين دون فهم حقيقى للدين.. وذلك ما ساد العالم وقتها، حيث تم تقسيم العالم إلى قسمين: موطن الكفار وموطن المؤمنين، وكل معسكر يتهم الآخر بالكفر وينعت نفسه بصحيح الإيمان. ثم لا ننسى الحروب الصليبية وأثرها فى تأزيم العلاقة بين المسلمين والنصارى على مستوى العوام والفقهاء .

جاء العصر المملوكى وقد تشبع المسلمون– من علماء وعوام– بأفكار التعصب التى نشرها الحنابلة والسلفيون منذ خلافة المتوكل وأصبحت كما يقال "من المعلوم من الدين بالضرورة". صحيح أن الحنابلة اضطهدوا الصوفية فى عصر المتوكل ومنذ القرن الثالث الهجرى حيث كان التصوف فى بدايته، وصحيح أن الصوفية منذ القرن السابع الهجرى ردوا التحية بأحسن منها فبدءوا فى اضطهاد ابن تيمية وفقهاء الحنابلة فى القرن الثامن الهجرى.. ولكن الصراع السياسى بين الحنابلة والصوفية فى العصر المملوكى وانتصار الصوفية – المشهورين بتسامحهم– على الفقهاء المتزمتين من تيار ابن تيمية لم ينعكس تسامحا سائدا على صعيد العلاقة بالأقباط ، بل ظل اضطهاد الفقهاء والصوفية للأقباط موجودا فى فترات مختلفةً لأن بعض الصوفية اتفق مع الفقهاء الحنابلة فى اعتبارالسنن المكتوبة فى العصر العباسى الثانى تراثاً دينياً يجب التمسك به . أى يتصارعون فيما بينهم ولكن يجتمعون على كراهية الأقباط.

وهذا التشبع بأفكار التعصب وممارسته ساعد على تسيده عوامل أخرى منها أن التصوف نفسه فى العصر المملوكى تحول من الفكر النظرى الملىء بالتسامح الذى كان يردده الحلاج وابن عربى وابن الفارض- وأحياناً أبو حامد الغزالى- إلى طرق صوفية عملية تسعى للسيطرة على الشارع المصرى وتجتذب لها الأعوان والمريدين وتسترزق بالتجارة بالدين فى الموالد الصوفية وحول الأضرحة.. ومن هنا لم يعد لأولئك الشيوخ الجدد متسع للتنظير أو مناقشة الأفكار السلفية التعصبية لخصومهم الحنابلة، بل أن التصوف فى تأثيره الشديد على الحياة العقلية لغير الصوفية قد هبط بها إلى حضيض الجمود وإغلاق باب الاجتهاد وتعقيم الحياة العقلية النقدية، مما أدى إلى ترسيخ المتوارث من الفكر السلفى وتحصينه ضد النقد والنقاش بل وتقديس أئمة الحديث والفقه وأسفارهم ومؤلفاتهم..

ومن ناحية أخرى فإن أشياخ التصوف فى سعيهم نحو السيطرة على المريدين وقعوا فى التنافس، وامتدت ساحات التنافس لتشمل صراعاً داخلياً بين أشياخ الطريق الصوفى الواحد، وبين أشياخ الطرق الصوفية ذات الأصل الواحد، والطرق الصوفية المختلفة، ثم بين الصوفية ومشاهير الفقهاء أصحاب الصيت والأتباع، ثم امتدت المنافسة لتشمل صراعاً بين الصوفية والرهبان وأصحاب النفوذ الدينى بين الأقباط مع غيرة أصحاب الموالد الصوفية من احتفال أو مولد دينى للأقباط.. وذلك التنافس أدى إلى تعصب فاضطهاد فحوادث مؤسفة.

وقريب من ذلك ما كان يجرى من تنافس سياسى على النفوذ إذ كان الحسد يلاحق بعض كبار الموظفين الأقباط فيلجأ بعض الشيوخ إلى إثارة الجماهير والفقهاء ضدهم وتثور حركات التعصب وتلجأ الدولة لترضية الشيوخ بالسماح باضطهاد الأقباط..

وبعض الأقباط كان يعلن إسلامه لينجو من دائرة الاضطهاد ويدعم مركزه الوظيفى فى الدولة المملوكية التى تقوم إدارتها على الظلم والعسف.. ويستخدم ذلك الذى أسلم نفوذه الجديد فى الانتقام ممن ساموه الذل والهوان وهو قبطى.. وهكذا كانت تدور طاحونة التعصب والاضطهاد فى العصر المملوكى فوق رؤوس الجميع.. وكم أحوجنا لدراسة التاريخ والاستفادة به..

ونعطى أمثلة تاريخية للتحليل السابق نراعى ترتيبها حسب السنين..

1- مأساة الراهب بولس الحبيس سنة 666 هجرية:

وقصته مع الظاهر بيبرس تشبه قصة عمرو بن العاص مع القبطى بطرس صاحب الكنز الذى قتله عمرو بعد أن استولى على كنزه بالحيلة..

كان الراهب بولس كاتباً نصرانياً ثم ترهب، وقد عثر على كنز فرعونى فأخفاه وأخذ يتصدق منه على فقراء المسلمين والأقباط وانتشر خبره فاعتقله السلطان الظاهر بيبرس وطلب منه ذلك الكنز فرفض وقال للسلطان أنه يساعد بذلك الكنز الفقراء والمحتاجين ومعظمهم ممن يصادر السلطان أموالهم أى أن الأموال تصل للسلطان فى نهاية الأمر، وكأن الراهب قد أعطى ضوءاً أخضر للسلطان الظاهر بيبرس فى مصادرة الأقباط بالذات، إذ تكاثر ضحايا السلطان من الذين أوقع بهم المصادرات وفرض عليهم الغرامات وقام ذلك الراهب بدفع الغرامات عنهم وإعانتهم، وانطلق الراهب بولس يسير فى المدن والقرى يعين المحتاجين ويطلق بأمواله

سراح المعتقلين والمحبوسين بسبب عجزهم عن دفع الغرامات والإتاوات ويتصدق على المحرومين من النصارى والمسلمين وغيرهم من النصابين محترفى الفقر، ومن النوادر التى تحكى أن بعضهم كان يقوم أمامه بتمثيلية، يقوم اثنان بجر رجل وهو يستغيث وهما يضربانه يمثلان دور رجال الشرطة فيستغيث المضروب بالراهب يقول له "يا أبونا أقضى ما علىّ من الديون، فيسأله الراهب عما عليه من الديون، ويكتب له ورقة بالمبلغ الذى يدعيه، فيأخذونه ويصرفونه من الصيرفى كما هو..

ووصلت للسلطان ستمائة ألف دينار عن طريق ذلك الراهب فيما دفعه عن المحبوسين والمصادرين، ولم يكن ذلك الراهب يأكل من ذلك المال، بل كان طعامه ونفقاته من صدقات النصارى، ثم حدث حريق غامض فى حى الباطنية فى سنة 663 وانتشر فى أحياء أخرى بالقاهرة واتخذها السلطان بيبرس فرصة ليصادر كل أموال الراهب فاتهم اليهود والنصارى بإشعال ذلك الحريق، وأصدر أمراً بإحراق كل اليهود والأقباط، ولكى يتقن هذه التمثيلية فقد جمع كبار اليهود والنصارى تحت القلعة وأحضر الحطب والوقود، وكان عددهم ألوفاً وارتفعت استغاثاتهم بالسلطان، فعفا عنهم السلطان نظير غرامة قدرها خمسمائة ألف دينار.. وكما توقع السلطان بادر الراهب بولس بدفعها على أخرها. فاكتسب شهرة فى كل أنحاء مصر، وصارت تتبعه مظاهرات أينما سار تتبرك به وتطلب منه المساعدات والأموال..

وتكاثرت تلك المظاهرات فى مدينة الإسكندرية وأثارت غيظ العلماء والشيوخ فأرسلوا فتاويهم للسلطان تحتم قتل ذلك الراهب حتى لا يفتن المسلمين فى دينهم، ورآها السلطان فرصة شرعية ليتخلص من الراهب ويستولى على كنزه الخبيئ فاعتقله واستجوبه للمرة الثانية عن الكنز فرفض الراهب الاعتراف، فأمر السلطان بتعذيبه حتى يعترف.. واستمر الراهب تحت التعذيب إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة ومات سنة 666 هجرية ومات معه سر الكنز .

2- الشيخ الصوفى خضر العدوى سنة 672 هجرية:

كان هذا الشيخ يتمتع باعتقاد السلطان الظاهر بيبرس.. ومشهوراً بانحلاله الخلقى وشذ 1وذه الجنسى وتعصبه ضد النصارى فى الشام ومصر، وأفسح الظاهر بيبرس له المجال فهدم كثيراً من الكنائس فى الشام ومصر، ومن الكنائس التى هدمها بمصر كنيسة الروم بالإسكندرية التى يشاع أن فيها رأس النبى يحيى عليه السلام (يوحنا)، وقد تحولت على يد الشيخ خضر العدوى إلى مسجد وسماه (المدرسة الخضراء) وأنفق فى تعمير هذه المدرسة الأموال الكثيرة من بيت المال.

3- واقعة النصارى سنة 682 هجرية:

بسبب الحروب الصليبية كان النصارى مقهورين فى سلطنة الظاهر بيبرس والسلطان المنصور قلاوون وانتهى ذلك بتولى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون الذى أنهى الوجود الصليبى فى الشام. الأشرف خليل بن قلاوون أتاح للأقباط النفوذ وعين منهم كبار الموظفين الأقباط الذين تولوا الكتابة فى الدواوين، فأتيح لهم

التنفيس عما فى صدروهم من مشاعر الانتقام، فتسلطوا على أرباب الحوائج من المسلمين يذلونهم.. وأدى ذلك فى النهاية إلى ما يعرف بواقعة النصارى سنة 682 هجرية.
وبدأت الواقعة بالكاتب القبطى المعروف باسم "عين الغزال" وقد اتهم سمساراً مسلماً بتأخير ما عليه من أموال للأمير المملوكى الذى يعمل عنده الكاتب القبطى عين الغزال.
ورأى الناس فى الشارع السمسار المسلم يعتذر للكاتب القبطى ويقبل قدمه وهو راكب حصانه والكاتب لا يزداد إلا تجبراً وهو يصمم على اعتقال السمسار وأخذه إلى بيت الأمير المملوكى، وتدخل الناس فى الشوارع وتجمهروا يحاولون تخليص السمسار من الكاتب وهو يرفض، فما كان من الناس إلا أن تكاثروا على الكتاب وألقوه من على دابته وخلصوا السمسار من يده. فذهب الكاتب إلى الأمير وأحضر عدة من الجنود وشرعوا فى القبض على الناس.. وثارت العوام وصاروا فى مظاهرة غاضبة إلى القلعة يهتفون "الله أكبر" فخاف السلطان من ثورة العوام حين عرف بما حدث ، فأمر باعتقال الكاتب القبطى عين الغزال وأصدر مرسوماً بعزل الكتبة الأقباط إن لم يدخلوا فى الإسلام ومن رفض منهم الدخول فى الإسلام ضربت عنقه. فاختفى الأقباط من الشوارع.. ووقع النهب فى بيوتهم.. والسبى فى بعض نسائهم، وأصبح الشارع مشحوناً بالمزيد من التعطش للعنف وأصبح المماليك أسرى للشعور الشعبى المتعصب ، فأمر السلطان بحفر حفرة كبيرة فى سوق الخيل لإحراق الكتبة النصارى، وحضر السلطان والأمراء، وتشفع الأمير بيدرا فى الأقباط.. وفى النهاية ارتضى الكتبة الدخول فى الإسلام، وكتبوا إقراراً بذلك.
ويقول المقريزى يعلق على تلك الحادثة "فصار الذليل منهم بإظهار الإسلام عزيزاً، يبدى من إذلال المسلمين والتسلط عليهم بالظلم ما كان تمنعه نصرانيته من إظهاره .
أى بمجرد النطق بالشهادة– أو الشهادتين– أنقذ كل منهم حياته وأصبح من حقه الانتقام من خصومه بسيف السلطة المملوكية وفى حمايتها.. وتلك ضريبة التعصب الدينى حين يسود مجتمعاً وينشر الفرقة والكراهية بين أبنائه.

4– واقعة الوزير المغربى سنة 700 هجرية:

قدم ذلك الوزير المغربى للقاهرة فى طريقه للحج واحتفت به السلطات المملوكية، ونزل ذلك الوزير المغربى يتجول فى القاهرة فى سوق الخيل فرأى رجلاً راكباً فرسه فى ثياب فاخرة وجماعة يمشون فى ركابه وحوله أصحاب الحاجات يتضرعون إليه ويقبلون قدميه وركابه وهو يصيح بغلمانه أن يطردوهم وهم يزدادون له خضوعاً، فسأل الوزير المغربى عن ذلك الراكب صاحب السلطان فعرف أنه كاتب نصرانى، فغضب وصعد للسلطان فلم يجده ووجد كبار الأمراء فأخذ يعظهم ويبكى ويحذرهم من نقمة الله إذ تركوا أعوانهم من الكتبة الأقباط يذلون المسلمين، ونجح الوزير المغربى فى إثارة الأمراء وانتهى الأمر باستصدار قرارات استرجعت مراسيم الخليفة المتوكل العباسى فى إلزام الأقباط بزى معين ومنعهم من ركوب الخيل، وكالعادة تطور الأمر بالوزير المغربى فقام يدعو لهدم الكنائس فوقف ضده قاضى القضاة المصرى ابن دقيق العيد وأفتى بأنه لا

يجوز أن يهدم من الكنائس إلا ما استجد بناؤه، ولكن اضطر الأقباط إلى غلق بعض كنائسهم خوفاً عليها من الهدم..

وانتقلت عدوى التخريب من الوزير المغربى إلى العوام فكثرت شكاويهم فى النصارى، وكالعادة استرضتهم السلطات المملوكية بالتضييق على الأقباط واليهود، ومنعهم من التوظف فى الدواوين.. ورآها العوام فرصة لفرض سيطرتهم على أغنياء الأقباط، فتتبعوهم بالضرب حتى اختفوا من الشوارع ولجأ بعضهم إلى إظهار الإسلام تكبراً من ارتداء الزى المفروض عليهم..

وأدى ذلك الاضطهاد إلى تدخل ملك برشلونة إذ أرسل هدية للسلطان المملوكى سنة 703 هجرية ويرجوه إرجاع الأقباط إلى وظائفهم وفتح كنائسهم.. فاستجاب له السلطان وفتح كنيسة فى حارة زويلة وأخرى بالبندقانيين..

5- حركة الشيخ البكرى سنة 714 هجرية:

والشيخ البكرى أحد الصوفية البارزين فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، وأحد خصوم الشيخ ابن تيمية. وحدث أن عرف الشيخ البكرى أن النصارى استعاروا من قناديل جامع عمرو شيئاً فهجم الشيخ البكرى على الكنيسة ونكل بالنصارى فيها، ثم عاد إلى جامع عمرو وأهان الموظفين فيه، ووصل أمره للسلطان فعقد له مجلساً للتحقيق، فأخذت العزة الشيخ البكرى وأغلظ القول للسلطان وهو يتصور أن السلطان يخضع له ويتعظ، ولكن فوجئ بالسلطان يأمر بقطع لسانه عقاباً له على جرأته.. فانقلب الشيخ البكرى إلى حالة أخرى، وأخذ يستغيث بالأمراء يرجوهم التشفع له عند السلطان حتى لا يقطع لسانه، ورق له الأمراء فتشفعوا فيه عند السلطان.. فأمر السلطان بنفيه..

6- واقعة الإحراق العام للكنائس المصرية فى وقت واحد سنة 721 هجرية:

فى كتابنا "السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة" المأخوذ عن رسالة الدكتوراة حققنا هذه الحادثة المجهولة والغريبة فى التاريخ المصرى وأثبتنا أن المسئول عنه هى حركة "أحمد البدوى" السرية الشيعية المستترة بالتصوف، إذ أنه بعد فشل تلك الحركة السرية فى قلب نظام الحكم المملوكى – لاقامة دولة شيعية تعيد الحكم الفاطمى لمصر والمنطقة – قامت بتفجير عملية ارهابية سرية لإحراج الدولة المملوكية: وهى التدمير العام للكنائس المصرية من الإسكندرية لأسوان فى وقت واحد وبطريقة واحدة..

إذ أنه بعد صلاة الجمعة يوم التاسع من شهر ربيع الأول سنة 721 هجرية فوجئ المصلون فى كل المدن المصرية التى بها كنائس بمجذوب مجهول الشخصية يقف صائحاً مضطرباً داعياً لحرق الكنائس، وحين يخرج المسلمون من المسجد يفاجأون بتدمير الكنائس فى المدينة وحرقها وقد سويت بالأرض . وفى ضوء الاعتقاد فى بركات المجاذيب الذى تسيد العصر المملوكى يؤمن الناس بأنها إرادة إلهية وانكشفت أمام بصيرة ذلك المجذوب "المكشوف عنه الحجاب". وسرعان ما يدب الحماس إلى العوام ويشاركون فى الإجهاز على ما تبقى من بنيان للكنيسة..

ووصل إلى علم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ما حدث ، جاءته الأنباء من ضواحى القاهرة بأن الكنائس فيها قد دمرت فى نفس الوقت وبنفس الكيفية.. وأن المجذوب المجهول قد صاح فى نفس الوقت وفى كل المساجد.. وفى اليوم التالى جاءت الأنباء من الإسكندرية والوجه البحرى والصعيد أن كل الكنائس– عدا الكنيسة المعلقة– قد أصابها الهدم والحريق فى نفس الوقت، أى فى ساعة الصفر. وبلغ عدد الكنائس ستين كنيسة.. وتعجب السلطان ووافق مقالة العلماء والقضاء على أنها إرادة الله، لأنه لا يستطيع بشر أن يفعل ذلك فى كل أنحاء مصر فى نفس الوقت، واقتنع السلطان برأى العلماء بألا يفعل شيئاً لأنها إرادة الله التى لا يقف فى وجهها إنسان.

إلا أن الأقباط لم يقتنعوا.. وصمموا على الانتقام..

فى الأيام التالية فوجئ سكان القاهرة باشتعال الحرائق فى المساجد فى نواح مختلفة، ولا يكادون يفرغون من إطفاء حريق حتى يفاجئهم حريق آخر، واستراح المسلمون إلى التفسير الغيبى القائل بأنها إرادة الله، لولا أنهم اكتشفوا فتيلة كبيرة ملوثة بالنفط قد ألقيت على بعض المساجد مع توالى الحرائق فى الجوامع والخوانق والمدارس.. فأشارت أصابع الاتهام للأقباط، وسرعان ما ضبطوا بعض الرهبان متلبسين واعترفوا فأحرقت السلطات أربعة منهم.. وانطلق العوام فى إيذاء الأقباط، واندلعت المظاهرات وكادت أن تتحول إلى مذابح، وأسرعت السلطات المملوكية بالسيطرة على الأمور وقبضت على بعض العوام ومثيرى الشغب وكان منهم بعض المتعممين والتجار، وأمرت السلطات بقطع بعضهم نصفين، أو ما يعرف بالتوسيط، وتدخل الكبار وتشفعوا فى كبار المتهمين وأفرج عنهم . إلا أن الحريق لم ينقطع، وضبط بعض النصارى متلبسين واعترفوا تحت التعذيب، وعندما علم العوام بما حدث حاصروا القلعة وواجهوا السلطان بصيحة رجل واحد تدعو لنصرة الدين فخشع لهم السلطان وسمح لهم بقتل كل من وجدوه من النصارى، ثم تعدل الأمر بقتل من يلبس العمامة البيضاء من النصارى ومن يركب دابة، وفرض عليهم ركوب الحمير بهيئة مقلوبة ولا يدخلون الحمامات إلا وفى رقابهم جرس ولا يرتدى أحدهم زى المسلمين، وألا يعملوا فى الوظائف، وعزل جميع الأقباط من الوظائف..

وكان ذلك أفظع اضطهاد واجهه الأقباط فى العصر المملوكى..

وكانت له آثاره الداخلية والخارجية..

فعلى الصعيد الداخلى احتدم العداء والحقد الطائفى بين المسلمين والأقباط فى السنوات التالية كما سنرى..

وعلى الصعيد الخارجى اشتد غضب ملك الحبشة الذى كان يعتبر نفسه مسئولاً عن حماية الأقباط المصريين فبعث باحتجاج شديد اللهجة إلى السلطان الناصر محمد ويهدد فيه باتخاذ إجراءات مماثلة ضد المسلمين عنده ويهدد بتحويل مجرى النيل، غير أن الناصر محمد لم يعبأ بهذا التهديد ولذلك بدأ سلطان الحبشة واسمه "عمد صيهون" الحرب ضد الإمارات الإسلامية المجاورة له، وتابع ابنه "سيف أرعد" أعماله ضد التجارة المصرية وممتلكات المسلمين المجاورة له..

وتمكن أحد ضحايا الاضطهاد لسنة 721 هجرية من الانتقام لقومه الأقباط من المسلمين.. وهو النشو الذى أظهر الإسلام لدى السلطان الناصر محمد وسماه السلطان عبد الوهاب شرف الدين، وأظهر للسلطان الورع

والفقر والزهد فحاز على ثقته وتعاظم نفوذه حتى أصبح المسيطر على الدولة المملوكية كلها لمدة سبع سنين وسبعة أشهر حتى قتله السلطان بعد تعذيب شديد فى يوم الأربعاء ثانى ربيع الآخر سنة 740 هجرية.
وما فعله النشو بالمسلمين فى إطار السلطة المملوكية وتحت شعارها كان لا يمكن تفسيره إلا فى ضوء الانتقام لقومه بعد أن ضمن رضا السلطان الناصر محمد عنه.. وقد تنوعت مظالمه للمسلمين ما بين قتل ومصادرة ونفى وتقطيع أطراف وخصاء، وكانت مصادرته لوجوه الناس وأرباب المناصب والتجار والعوام لا تنقطع.. وكان يجتمع كل ليلة مع خواصه والمقربين منه يفكر فى طريقة جديدة للانتقام من المسلمين وفرض ضرائب جديدة عليهم أو الإيقاع بأصحاب المناصب أو سلب الأوقاف على المساجد وبيوت العبادة..
وبرغم تنوع أعدائه واختلافاتهم وتفرقهم وصراعاتهم إلا أنهم اتحدوا ضد النشو، وحاولوا الكيد له مراراً إلا أن ثقة السلطان فيه وقفت حائلاً يحميه . وفى عهده ضاع صوت الاضطهاد ضد الأقباط.. بل أن اضطهاده للمسلمين جعلهم جميعاً يجتمعون فى المساجد للدعاء عليه.. وعندما علم النشو بذلك ما زال بالسلطان حتى منع الوعاظ من الوعظ. وتحدى النشو كبار الصوفية– وهم أصحاب النفوذ الدينى والشعبى– فطرد من مصر أشهر صوفى فى عصره وهو الشيخ الكردى الذى نفاه للشام، كما اعتقل شيخ خانقاه بهاء الدين أرسلان بالإسكندرية واتهمه بتهم باطلة . وفى النهاية ظهر للسلطان خيانته وسرقاته فاعتقله واعتقل أخاه وصهره وأعوانه، واكتشف السلطان حجم ما سرقه من أموال ونفائس.. فعذبه وقتله.. وكان التخلص منه يوم عيد، ذاعت فيه أساطير الكرامات وشتى الادعاءات ومنها أن النيل زاد ورؤيت المنامات الصالحة على حد قولهم، وسارت المظاهرات تحمل المصاحف والأعلام..
وبعد النشو عادت حركات متفرقة ضد الأقباط..
منها سنة 838 هجرية : هدم الشيخ سليم لكنيسة جددها النصارى فى الجيزة.
وسنة 841 هجرية : هدم الشيخ ناصر الدين الطنطاوى لدير العطش الذى يقام عنده مولد سنوى يضاهى مولد السيد البدوى، فأحس الشيخ ناصر الدين الطنطاوى بالغيرة فما زال يسعى حتى هدم الدير..
وكان مثله الشيخ النعمانى سنة 852 هجرية الذى تخصص فى هدم الكنائس التى يجددها أصحابها..
وكانت عادة سيئة فى تلك العصور أنه إذا حدث أوبئة أو مجاعات ونقصان للنيل فمن السهل أن يعتبر ذلك غضباً من الله تعالى بسبب التهاون مع "أهل الذمة" والسماح لهم بممارسة شعائرهم، لذلك كانت ترتبط المجاعات والأوبئة أحياناً بحركات اضطهاد طائفية تستجلب رضى الله تعالى بظلم الأبرياء !!
وفى النهاية..
فمع وجود كل تلك الاضطهادات فإن النظرة المنهجية تحتم الاعتراف بأنها كانت جملاً اعتراضية فى التاريخ المصرى الطويل بعد الفتح الإسلامى. لم تكن ظاهرة عامة فى تاريخ مصر فى العصور الوسطى. بل أن الظاهرة العامة هى سيادة التسامح بين أفراد الشعب. إلا أن الاستثناء كان يأتى من الحكام أساسا وهم غير مصريين أو من العلماء الوافدين. وجاءت حركات متفرقة قليلة من العوام حين تأثروا بالظروف التى خلقها الآخرون وهذا ما ينطبق حاليا على تلك الحركة السلفية الوهابية السعودية الأصل والمنهج والمخالفة لطبيعة التدين المصرى المتسامح.

وعدا تلك الحالات التى رصدناها كانت هناك ملامح إيجابية كثيرة للتسامح من بعض الحكام ومن العلماء الا انها كانت أساسية فى التعامل الشعبى. وهى تعبر عن حقيقة التدين المصرى الذى اشتهر فى العصور الوسطى بالاعتدال وإيثار السلام وكان ذلك التدين المصرى يثير إعجاب الرحالة والمؤرخين القادمين لمصر. كما حدث مع ابن خلدون وابن ظهيرة وغيرهما, وذلك موضوع آخر شرحه يطول..

وبعـــــد..

الخاتمة:

(1) فهناك حقائق ينبغى التسليم بها:

وهى أن دين الله تعالى فى كل عصر ينزل بالحق والخير والصلاح والسلام والعدل ويستحيل أن يكون مسئولاً عما يقع فيه البشر من ظلم وتعصب باسم الدين..

أن الله تعالى يقول ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد 25).أى أن هدف الرسالات السماوية هو إرساء القسط والعدل.. فهل من العدل أن تتسلط طائفة على أخرى بالظلم والقهر..؟ وهل من العدل أن ينتسب ذلك لدين الله تعالى؟.

إن الله تعالى يقول عن ذاته ﴿وَمَا اللّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران 108). ويقول ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر 31). أى أن رب العزة جل وعلا قد أدان الظلم وأوضح أن الظالمين هم أصحاب النار يوم الحساب ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾ (طه 111).فكيف يستسيغ من يدعى الإسلام أن يظلم من يختلف معه فى العقيدة، خصوصاً وأنه يعلم أن الله تعالى هو الذى شاء أن يجعل الناس مختلفين فى العقائد ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبّكَ لَجَعَلَ النّاسَ أُمّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ. إِلاّ مَن رّحِمَ رَبّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ (هود 118،119).ولذلك فإن القرآن الكريم هو الذى يدعو لأدب الحوار بين المختلفين فى العقائد ويؤجل الحكم فى العقائد إلى يوم القيامة. ويؤكد على أهمية التسامح والسلام والمساواة.. حتى يعيش البشر فى تعايش سلمى مع ذلك الاختلاف الذى خلقهم الله تعالى على أساسه.

أن الله تعالى يقول عن رسالته الخاتمة التى أرسل بها محمداً عليه السلام ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء 107) أى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين ولم يرسله لقتل واضطهاد الآخرين..فكيف يستسيغ بعضهم أن ينسب للنبى (عليه الصلاة والسلام) أحاديث لم يقلها فى اضطهاد البشر وإيذائهم؟..

(2) هناك حقائق تاريخية ظهرت بين العرض التاريخى الموجز.. وهى أن فاتورة الاضطهاد تتضخم حتى يدفعها الجناة بعد الضحايا، فالدولة الأموية سارت سياستها على أساس التعصب، بدأت التعصب للعرب ضد غير العرب، ثم تطرفت فى التعصب فتعصبت لقبائل ضد أخرى فى نطاق العروبة، ثم تطرفت أكثر فأصبح الخليفة يتعصب لابنه ضد أخيه، فيعزل أخاه من ولاية العهد ويولى ابنه مكانه.. وفى النهاية كانت العصبية هى السلاح الفتاك الذى قضى على الدولة الأموية فى شبابها.. وكانت أقوى دولة ووصلت فتوحاتها إلى أبعد مدى فى تاريخ المسلمين.. ولكن دمرتها العصبية من الداخل.. وهو درس- لو تعلمون- عظيم، فالتعصب حين يبدأ أو يستشرى لا ينتهى إلا بتدمير أصحابه والتعصب الدينى أيضاً يرتد سلاحه إلى أصحابه يتحول من تعصب دينى الى تعصب مذهبى داخل الدين الواحد ثم تضيق الحلقة تحمل معها اتهامات التكفير والتكفير

المضاد لتصل الى تكفير المجتمع كله كما يحدث الآن. وتتحول اتهامات التكفير الى قتل وعمليات ارهابية. وقد شهدنا أمثلة تاريخية ونشهد الآن صحوة سلفية تنشر الارهاب وتسفك الدماء، ولكن هناك ما هو أخطر.. فمعظم التحريفات الدينية فى عقائد المسلمين وتراثهم أدخلها علماء الموالى الأعاجم الناقمون وقد عجزوا عن الانتقام لأنفسهم فدخلوا فى الإسلام ليكيدوا للإسلام..

ومن أسف أن كتبهم وأسفارهم المقدسة ورواياتهم وفتاويهم تناقض الإسلام وتطعن فى القرآن وفى خاتم النبيين.. ومع ذلك فهى تحظى بالتصديق والتقديس أى أن انتقامهم مستمر حتى الآن !!

وبسبب الاضطهاد الدينى والعنصرى كان اعتناق الإسلام طريقاً سياسياً للانتقام من المسلمين.. ولو كانت هناك عدالة ومساواة وحرية دينية لما لجأ أولئك إلى خندق المقاومة السرية..

أن الاضطهاد العنصرى قصير العمر.. فقد انتهى اضطهاد الأمويين لغير العرب بينما بقى الاضطهاد الدينى الذى أدخله الحنابلة ورواة الحديث فى صميم التدين، ثم ساعد الجمود العقلى على بقاء ذلك التراث دون مناقشة، بل أخذ طريقه للتطبيق باعتباره من ملامح التدين..

وفى عصرنا ظهرت "الصحوة الدينية" تهدف للرجوع بنا إلى السلفية وأفكار العصور الوسطى القائمة على التخلف والتعصب والجمود العقلى..

والخطورة محققة من هذه الصحوة الدينية المزعومة لأنها تدعم نفسها بالاستناد الدينى، مما يجعلها قنابل موقوتة انفجرت وتنفجر فى وجوهنا جميعاً، لأنها كعادة الحركات والدعوات المتطرفة تبدأ بتكفير أصحاب الديانات الأخرى وتنتهى إلى تكفير الناس جميعاً، وتبدأ باضطهاد الآخرين وقتلهم وتنتهى إلى قتل الأهل والأقارب والزملاء داخل الخلية السرية الواحدة وقد رأينا أن حركات التعصب تبدأ بسيطة ثم تنتشر كالسرطان المدمر..

وخطورتها أنها تستمد مشروعية زائفة من الدين وترفع لواء الجهاد.

فالمطلوب أن نثبت زيف تلك المشروعية التى تخالف الكتاب العزيز.

وذلك يحتاج إلى إصلاح دينى للمسلمين، إن لم تقم به الحكومى فلتبادر إليه دوائر الاستنارة فى مصر، فالإصلاح الدينى هو الذى ينقذ مصر من التطرف والإرهاب ولن يكون الإصلاح الدينى إلا بالاحتكام للقرآن الكريم وعرض ذلك التراث عليه حتى ننصف الإسلام من بعض المسلمين.

﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الّذِيَ أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصّلاً وَالّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنّهُ مُنَزّلٌ مّن رّبّكَ بِالْحَقّ﴾ (الأنعام 114).

وصدق الله العظيم.. ودائماً صدق الله العظيم..

الولاء والبراء فى الاسلام ــ قراءة تحليلية لسورة الممتحنة

سورة الممتحنة – سورة 60 – عدد آياتها 13

1. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاء مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيلِ
2. إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاء وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ
3. لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
4. قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ
5. رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
6. لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ
7. عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
8. لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ
9. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ
10. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ
11. وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ
12. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

13. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ

أولا :

موجز معانى الآيات فى السورة:

الآية 1 :

يوجه الله تعالى خطابا مباشرا للمؤمنين فى عهد النبى محمد ينهاهم عن مناصرة وموالاة أقاربهم الكافرين ، واصفا أولئك الكافرين بأنهم أعداء الله وأعداء المؤمنين، وإذن لا يصح أن يعاملوهم بالمودة، فأولئك الكافرون جمعوا بين الكفر العقيدى ــ وهو الكفر بالقرآن الكريم ــ والكفر السلوكى وهو الاعتداء على المؤمنين والنبى محمد واخراجهم من بيوتهم بسبب أنهم آمنوا بالله تعالى وحده. وعليه فاذا كان المؤمنون قد فارقوا أوطانهم جهادا فى سبيل الله وابتغاء مرضاة الله تعالى فلا يصح أن يحتفظوا سرا بعلاقات المودة مع أولئك الظالمين. والله تعالى يعلم السرائر ويعلم الظواهر، ومن يوالى أؤلئك الظالمين فقد أصبح من الضالين عن الطريق المستقيم.

الآية 2 :

واقع الأمرأن أولئك الظالمين الكافرين سيظهرون أكثر على حقيقتهم العدوانية اذا اشتبكوا مع المؤمنين فى قتال، ولن يقتصروا على المواجهة الحربية بل ستنطلق أيديهم وألسنتهم بالسوء للمؤمنين. هذا فى الدنيا.

الآية 3 :

أما فى الآخرة فإن قرابتكم لأولئك المشركين الكافرين ــ سواء كانوا لكم أرحاما أو أبناء ــ لن تنفعكم يوم القيامة، حيث يفصل الله تعالى بينكم بحكمه ، وهو الذى يعلم ويبصر كل أعمالكم.

الآية 4 :

أن عليكم الإقتداء والتأسى بالنبى ابراهيم والمؤمنين معه ،وقد واجهوا نفس الاختبار، وقد تبرءوا من أهلهم ومن الآلهة التى يعبدها قومهم ، وأعلنوا كفرهم وعداءهم لتلك الآلهة ومن يعبدها،وسيستمر تبرؤهم من قومهم حتى يؤمنوا بالله وحده دون شريك. وقد قال ابراهيم وقتها لأبيه المشرك أنه سيستغفر الله له ولكنه لا يملك له نفعا ولا ضرا . وقال ابراهيم ومن معه انهم يتوكلون على الله تعالى وحده ، ويؤمنون به وحده ، واليه وحده يتوبون ، واليه وحده مصيرهم يوم القيامة.

الآية 5 :

وقالوا داعين الله تعالى : ألا يجعلهم عرضة لاضطهاد الكافرين المعتدين ، وان يغفر لهم ربهم ، فهو جل وعلا العزيز بقوته الحكيم بأفعاله.ومصطلح الفتنة فى السياق القرآنى يعنى الاضطهاد الدينى فيما يخص العلاقة بين المؤمنين والكافرين المعتدين، ويعنى الاختبار والامتحان فيما يخص علاقة الله تعالى بالانسان.

الآية 6 :

هذا الموقف الذى اتخذه ابراهيم والمؤمنون معه هو ما يجب على المؤمنين مع محمد التأسى به. بل على كل من يؤمن بالله تعالى واليوم الآخر أن يتأسى به ، وإن لم يفعل فان الله تعالى ليس محتاجا له ، فهو تعالى وحده المستغنى عن عباده المستحق للحمد.

الآية 7:

وفى هذه الآية يبشر الله تعالى المؤمنين مقدما بأنه عسى أن يأتى اليوم الذى تنتهى فيه العداوة ويحل فيه الوئام ، وليس هذا مستبعدا ، فالله عليه قدير، واذا تاب الكافرون ورجعواعن عدوانهم فالله تعالى سيغفر لهم وسيرحمهم يوم القيامة.

بعد المقدمات السابقة والتى تعتبر حيثيات لتشريع سيأتى ، يأتى تشريع الموالاة فى الآيتين الثامنة والتاسعة مترتبا على موقف المخالفين للمؤمنين فى العقيدة ، إذا كانوا مسالمين او معتدين:

الآية 8:

لا بد من التعامل بالبر والمودة والعدل والقسط مع المخالفين للمؤمنين فى العقيدة والدين طالما لم يعتدوا على المؤمنين ولم يقاتلوهم بسبب اختيارهم الدينى ولم يقوموا باخراجهم من بيوتهم وأوطانهم. هذا لأن الله تعالى يحب المقسطين القائمين على تحقيق العدل . ويلاحظ هنا أن الله تعالى أتى بوصف الاسلام الظاهرى بمعنى عدم الاعتداء، فكل من لم يقم بالاعتداء عليك فهو مؤمن مسلم ، وعليك أن تعامله بالبر والقسط والعدل. يسرى ذلك على الأفراد كما يسرى على الدول.

الآية 9:

أما الذين اعتدوا على المؤمنين بالقتال بسبب خيارهم الدينى ، وأخرجوهم من ديارهم أو ساعدوا الظالمين فى طرد المؤمنين من ديارهم ــ فانهم الكافرون الذين ينهى الله تعالى ينهى عن التحالف معهم وينهى عن موالاتهم. ومن يتحالف معهم وينصرهم ويؤيدهم فى عدوانهم الظالم على المؤمنين فهو شريك لهم فى الظلم.

بعدها انتقلت الآيات الكريمة لتضع تشريعات اجتماعية فى مشاكل الزواج والطلاق التى حدثت بعد الهجرة من مكة الى المدينة وما حدث من انقطاع تام بين أهل المدينة وأهل مكة، وترتب على هذه القطيعة تفكك بعض الأسر بين زوج كافر استمر فى مكة وزوجة مؤمنة تركت زوجها لتلحق بجماعة المؤمنين ، أو العكس ؛ زوجة تمسكت بدين أهلها المتوارث وظلت فى مكة رافضة أن تتبع زوجها الذى أسلم وهاجر.ثم هناك مشكلة أخرى ، فقد تأتى احداهن تزعم الايمان وهى فى حقيقة الأمر أتت لتتجسس على المؤمنين وتساعد المشركين فى اعتداء يعدون له ، حيث عزموا على ملاحقة المؤمنين الفارين بالقتال فى موطنهم الجديد الذى لجأوا اليه. وبالتالى لا بد أن يرسلوا جواسيس للتمهيد للعدوان. والنساء أفضل من يقوم بهذه المهمة. ومن السهل أن تأتى نساء كثيرات كل منهن تزعم الايمان ، ولا يعلم حقيقة ما فى القلب الا الله تعالى. لذا نزلت الآيات مقدما تطرح الموضوع وتضع له التشريع المناسب فى الآيات 10 ، 11 ، 12.

الاية 10 :

هذه الآية تخاطب المؤمنين أنه إذا جاءتهم إمرأة مهاجرة فعليهم امتحانها ،أى سؤالها عن سبب مجيئها واختبار حالها حتى لا تكون عينا للعدو، وحتى يتأكدوا حسب الظاهر من حالها ، أما حقيقة ما فى القلب فمرجعه الى

الله. وإذا عرفوا صدقها فلا يجوز ارجاعها الى الكفار الذين هربت منهم. إذ لا يحل لها أن تتزوج من كافر ولا يصح لكافر أن يتزوجها. وبالهجرة تحدد من اختار الايمان ومن اختار الكفر. واذا كانت المرأة المهاجرة زوجة تركت زوجها الكافر ولجأت للمؤمنين فعلى المؤمنين دفع المهر الذى دفعه من قبل الزوج الكافر تعويضا له ، ويمكن لها أن تتزوج مؤمنا فى موطنها الجديد ، وعليه أن يدفع لها مهرها. وبالعكس ، إذا اختارت الزوجة الكفر والبقاء فى مكة رافضة أن تصحب زوجها الى المدينة فعلى زوجها المؤمن فى المدينة أن يطلقها تماما ويفارقها حتى تتزوج من كافر مثلها مقيم فى نفس الموطن، وعلي الكفاردفع المهر الذى دفعه المؤمن من قبل.

الآية 11:

ولآن الكفار لا عهد لهم ولا ذمة ، وليس منتظرا منهم تطبيق هذا الحكم الالهى بدفع ما عليهم من مهور للأزواج المؤمنين الذين تركوا أزواجهم فإن تعويض هؤلاء الأزواج المؤمنين بالعدل يمكن أن يتم إذا تمكن المؤمنون فى المستقبل من الحصول على غنائم من الكفار.

وبعد استجواب المرأة المهاجرة واختبارها والتأكد من صدقها عليها أن تقوم بمبايعة النبى على الايمان والتمسك بالاخلاق الحميدة والطاعة فى المعروف، وهذا ما جاءت به الآية التالية:

الآية 12:

يقول تعالى للنبى أنه إذا جاءته المؤمنات للمبايعة فعليه أن يبايعهن على الامتناع عن : الوقوع فى الشرك والسرقة والزنا وقتل الأولاد والبهتان والكذب والزوروعصيان الأمر المعروف. واذا حدث وبايعن النبى على هذا فعلى النبى أن يدعو لهن ويطلب من الله تعالى الغفران لهن . والله تعالى غفور رحيم.

الاية الأخيرة رقم 13:

وتختتم السورة بآية اخيرة تؤكد على المؤمنين ألا يناصروا أو يتحالفوا أو يوالوا قوما قد غضب الله عليهم ، وقد كفروا باليوم الآخر ، ويئسوا منه بالضبط كما سييأس الكفار يوم القيامة من الأولياء المقبورين الذين يطلبون فى الدنيا شفاعتهم ثم يفاجأون يوم القيامة بأنهم لا يملكون نفعا ولا ضرا.

ثانيا:

تحليل موضوعى للسورة

المحور الأساسى للسورة هو قضية الموالاة، وعلى هامش هذا المحور تناثرت إشارات لقضايا أخرى جاء تفصيلها فى سور أخرى.

قضية الموالاة :

دار حول موضوع الموالاة كل آيات السورة ، إما تتناولها تناولا مباشرا، أو تناقش بعض القضايا المتصلة بها ، كاعطاء الحكم الشرعى للعلاقات المقطوعة بين زوجين منفصلين مكانا ووجدانا لكى يستأنف كل منهما حياته فى المجتمع الذى أراد الانتماء اليه.

معنى الموالاة

الموالاة عموما تعنى التحالف (مع) (ضد)، أى لا تكون إلا فى حالة حرب أو خصومة ملتهبة تستلزم ممن يهمهم الأمر تحديد الجانب الذى ينضمون اليه ، وبالتالى يكونون ضد الجانب الآخر. أى أن تكون مع واحد من خصمين ضد الأخر فى وقت خصام وحرب وما يستلزمه ذلك من معاداة الخصم الأخر.
الموالاة والتبرؤ فى الاسلام تعنى أن لا توالى أو تتحالف مع المعتدى الظالم الذى يهاجم المسالمين الآمنين، فاذا كف عن اعتدائه وتاب انتهت الخصومة.
الموالاة بالتعبير الأصولى فى الدين السنى تعنى (الولاء والبراء) وتعنى فى الدين الشيعى : (التبرى والتولى). وكل منها يختلف عن الباقين.
التبرى والتولى فى الدين الشيعى تعنى موالاة (على بن أبى طالب) وذريته فى إمامة المسلمين ، وتقديسه وآله وتفضيلهم على الجميع ، ويصل معظمهم فى التفضيل والتقديس الى درجة التأليه. هذا هو العنصر الأول. العنصر الثانى هو التبرؤ من خصوم على السياسيين من أصحابه وهم أبو بكر وعمر وعثمان والسيدة عائشة ومعاوية وعمرو وطلحة والزبير ..الخ. وتصل درجة التبرؤ الى التكفير والتحقير.
الولاء والبراء فى الدين السنى تعنى موالاة من يتفق معهم فى العقيدة وكراهية وعداء وقتال المخالف لهم فى عقيدتهم. وهناك درجات فى البراء ، وهناك خلاف فى موقفهم من المسلمين العوام الذين لا انتماء لديهم ، هل يصح معاملتهم كالأعداء أم لا.
مشكلة الموالاة اليوم : الوهابية وسوء استخدام الموالاة فى تشريع الارهاب
الوهابية تستغل نفوذها فى نشر عقيدتها فى البراء والولاء بزعم أنها تشريع الموالاة والتبرؤ فى الاسلام. على سبيل المثال فإن آيات الموالاة فى القرآن قد تم توظيفها ضد الأبرياء من المصريين الأقباط، وصرخ خطباء المساجد فى التحريض ضد الأقباط مستشهدين بقوله تعالى ﴿يَـَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنّصَارَىَ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلّهُمْ مّنكُمْ فَإِنّهُ مِنْهُمْ﴾ (5 / 51). وهم فى ذلك الاستشهاد الخاطئ يتناسون سياق الآيات وهى تتحدث عن عصر النبى محمد عليه السلام حين طرأت ظروف حربية خاصة فرضت تحالفات سرية بين المنافقين ــ وهم بعض الصحابة ممن كان يعيش داخل المدينة ــ وبعض القبائل اليهودية والنصرانية المعتدية على المسلمين. اذن هو تعليق على أحداث تاريخية ارتبطت بزمانها ومكانها وحكى القرآن الكريم بعض أحداثها وما دار فيها من أقوال فى الآية التالية (فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين)(5 / 52) .لا بد من تنفيذ هذا التشريع اذا تكررت ظروفه بحذافيرها ، كان يهجم علينا عدو معتديا فيتحالف معه فريق منا ضدنا ، أى يواليه فى عدوانه علينا ، هنا يستحق اللوم ــ فقط ــ طبقا لهذا التشريع القرآنى .
إلا إن الارهابيين الذين يعتدون على الأبرياء ويقتلون المدنيين لهم عقيدة أخرى فى الموالاة يسمونها البراء والولاء، أساسها تقسيم العالم الى معسكرين متحاربين ، دار الاسلام ودار الحرب. وهم يعتقدون أن واجبهم هو الهجوم على الآخرين باعتبارهم معسكر الحرب او دار الكفر لارغامهم على دخول الاسلام طبقا للحديث الكاذب الذى رواه البخارى والقائل " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ".وقد جاء اختراع هذا

الحديث بأثر رجعى فى العصر العباسى ليبرر الفتوحات العربية التى حملت اسم الاسلام زورا وبهتانا، والتى استولى بها العرب على الامبراطورية الفارسية وهزموا الامبراطورية الرومية ، واستمرت الحرب بينهم وبين الروم لتقسم العالم الى معسكرين : عربى يحمل اسم الاسلام ورومى غربى يحمل اسم المسيحية، وجرى تقسيم العالم الى دار للحرب ودار للاسلام فى التراث الفقهى .

وفى عصرنا الراهن ازدهرت هذه المفاهيم التراثية العصر أوسطية بتأسيس الوهابية وهى أشد المذاهب الفقهية تعصبا فى الدين السّنى. وانتشرت الوهابية فأرجعت عقيدة تقسيم العالم دينيا الى معسكرين متعاديين متحاربين. وكل مسلم لا يتفق مع الوهابيين يعتبرونه مشركا ، شأنه شأن الأفراد فى دار الحرب. وبالتالى فان الأقليات الدينية من غير المسلمين تتعرض لاضطهاد كفريضة دينية ــ مهما كانوا مسالمين ، بل يعتبر التعامل معهم بعدل واحسان وتسامح خطيئة دينية لأنها تتنافى مع البراء والولاء بالمفهوم الوهابى السنى.

فالبراء عند الوهابية يعنى التبرؤ من كل من يخالف الوهابية ، سواء كان من أهل الكتاب أو من المسلمين . الكافر عندهم هم اهل الكتاب ، أما المشرك عندهم فهو المسلم غير الوهابى ، خصوصا الشيعة والصوفية. ومعنى البراء والتبرؤ عمليا هو الكراهية لهم واستحلال خداعهم والتحايل عليهم عند عدم القدرة عليهم ، اما عند القدرة والتمكين فلا بد من قتلهم أو قتالهم وأخذ الجزية منهم . هذا ما كان يمارسه المسلمون والروم فى العصور الوسطى، وانتهى ذلك بالعصر الحديث، ولكنه عاد يؤرق العالم المتحضرتحت اسم الوهابية ، وهى العقيدة الدينية للاخوان المسلمين وكل التظيمات المتطرفة المنبثقة عنها. اما الولاء فهو مناصرة الوهابيين فى اعتدائهم الاجرامى على المسالمين والذى يسمونه جهادا. ولذلك تتوالى صرخات المتطرفين فى المساجد والصحف والفضائيات وفى كل وسائل الاعلام ووسائل المواصلات تحرض ضد جميع اليهود وجميع المسيحيين تستشهد بالآية القرآنية السابقة فى غير موضعها، ويتناسون تشريعات الموالاة ومعناها، كما يتناسون تشريعات القتال وأنه للدفاع عن النفس وليس للاعتداء على الأبرياء، وان فرض الجزية لا يكون الا على جيش اعتدى علينا فتمكنا من رد عدوانه ولا بد أن يدفع غرامة حربية " جزاء " عدوانه ، وهو قانون معترف به فى عصرنا ، عوملت به ألمانيا النازية وصدام.

هذه هى مشكلة الموالاة فى عصرنا الراهن. وقد كانت الموالاة أيضا مشكلة للمسلمين الأوائل استلزمت تدخل القرآن الكريم بالتشريع والنصح والتحذير.

مشكلة الموالاة فى عصر النبى محمد عليه السلام

الموالاة قد تكون موقفا لا خلاف عليه حين يهاجم عدوغريب بلدا أو قوما ، وبالتالى يكون الاجماع قائما حول الاتحاد معا أو موالاة الجميع بعضهم بعضا ضد العدو الغريب الذى يقتحم الديار ويقتل المسالمين من الوطن.ولكن تتحول الموالاة الى مشكلة حين يبدو تعارض ما بين القومية (أى الانتماء للقوم والأهل) والانتماء الدينى. دعنا نفترض أن أقلية مسيحية مضطهدة من الأكثرية ، مما استدعى تدخل قوة معتدية مسيحية كبرى خارجية لتأتى وتهاجم البلد بحجة الدفاع عن المسيحيين المضطهدين. ما هو موقف المسيحيين فى الداخل؟ هنا مشكلة التعارض بين الوطن والقومية وبين الانتماء الدينى.

كانت المشكلة أكبر مع المسلمين الأوائل فى مكة ثم بعد هجرتهم الى المدينة. معظم العرب فى ذلك الوقت لم يعرفوا الدولة أو الوطن . عاش معظم العرب قبائل متنقلة ، اى لا تلتزم بوطن ثابت، وبالتالى ليست لهم دولة بالمعنى المعروف. كانت القبيلة هى التى تمثل الدولة والوطن. أساس القبيلة هو الانتماء الى أصل واحد ونسب واحد تتفرع منه بطون القبيلة وفروعها وعائلاتها وأسراتها. العصبية القبلية كانت أساس التعامل داخل وخارج القبائل العربية ، والولاء للقبيلة وذوبان الفرد فيها وفخره به هو أساس حماية الفرد وكينونته. القبيلة كان يمثلها الكبار المترفون الظالمون ، ولم يكن هناك من سبيل لمواجهة ظلمهم ، بل المطلوب نصرتهم حسب القاعدة القبلية القائلة (انصر أخاك ظالما أو مظلوما). القرشيون لم يكونوا أعرابا يتنقلون من مكان الى آخر. كان لهم وطن وبلد ينتمون اليه ، وهذا الوطن هو مكة ، أعظم بلد فى الجزيرة العربية، وبالتالى فانتماؤهم هنا الى وطن وبلد مقدس ، يزيد فى الارتباط به حدة الشعور بالانتماء القبلى لقريش ، أعظم قبيلة عربية وقتها . كان صعبا التضحية بهذا الانتماء للوطن ــ مكة ــ والأهل ــ قريش ــ مقابل الانتماء لدين جديد، خصوصا وأن بين الذين آمنوا من كان مؤمنا بالمعنى السلوكى ــ اختيار الأمن والأمان ــ وليس بالمعنى العقيدى ــ اخلاص الايمان لله تعالى وحده.

لقد جاء القرآن بمنهج جديد يمنع الظلم ويرسى العدل والمساواة فأسلم المستضعفون والمهمشون بينما استكبر المترفون الظالمون. وبدأ الاضطهاد ، واضطر بعض المسلمين الى الهجرة مرتين الى الحبشة، واستنكف كبار قريش أن يفلتوا من أيديهم فبعثوا الى (النجاشى) حاكم الحبشة بوفد وهدايا يطلبون منه أن يسلم لهم أولئك الذين هاجروا اليه. ورفض. وعاد أولئك المهاجرون الى مكة، ثم كانت الهجرة الكبرى الى (يثرب) التى حملت اسم (المدينة) .كانت الهجرة للمدينة نقطة فاصلة فى العلاقة بين المشركين والمؤمنين ، ليس فقط لأن النبى محمدا عليه السلام هاجر ومعه معظم من آمن ، ولكن أيضا لأن الأغلبية العظمى فى المدينة آمنت وعقدت مع النبى عهدا بنصرته وإقامة دولة له. وتمكن النبى محمد من إقامة دولة حقيقية لها حدودها وشرعها ، وتم التآخى بين أبنائها من مهاجرين وأنصار، وتم عقد عهد بين كل أفراد هذا المجتمع والنبى محمد باعتباره قائدا لهذه الدولة. وتم عقد معاهدات مع قبائل اسرائيلية تعيش فى المحيط الملاصق للمدينة تؤكد حرية الفكروالمعتقد ، وتضع أساس الدفاع المشترك. هذه الدولة الجديدة لا بد أن تتمتع بولاء الأفراد الذين بايعوا النبى أو عقدوا مع القائد عقد انشاء الدولة الجديدة. ومسئولية هذه الدولة حماية المنتمين لها والذين يعيشون فى ظلها.

هنا بدأت المشكلة. فالمؤمنون المهاجرون منهم من كان مؤمنا بالسلوك أكثر منه مؤمنا بالعقيدة. أى كان مسالما يأمن الناس من شره ، يريد الابتعاد عن المشاكل والنجاة منها. وفى بداية الغربة عن الوطن (مكة) كان الحنين جارفا للأهل والمكان والذكريات. وجرى التسامح مع ذكريات الاضطهاد والتعذيب فى ظل هذا الحنين. وبدأت مشكلة التعارض فى الموالاة . هل هى للوطن الذى لا تزال ذكراه حية ، وللأهل مهما كانوا ظالمين ، أم للدين ؟. ونزلت آيات القرآن تضع تحديدا للموالاة فى الاسلام، وكيف أنها ليست ضد أشخاص المعتدين ولكن ضد الاعتداء كفعل إجرامى يقع منهم ، وأنها ليست مع أشخاص المؤمنين ولكن مع صفات الايمان من قيم عليا وأخلاق مثلى.

وهذا يستدعى شرحا قرآنيا.

الموالاة والتبرؤ فى الاسلام تتعامل مع صفات وليس مع أشخاص

الواضح من القرآن الكريم أن الخصومة التى تستوجب الموالاة تكون فقط ضد ما يقترفه الشخص من عدوان فإذا كف عن العدوان انتهت الخصومة. أى أن الخصومة ليست ضد الإنسان الشرير ولكن ضد الشرور التى يرتكبها ذلك الإنسان . هذا ينطبق أيضا على قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الظالمين ؛لقد تبرأ إبراهيم والمؤمنون معه من قومهم بسبب كفرهم واعتدائهم ، وقالوا أن هذا التبرؤ مستمر حتى يؤمنوا بالله تعالى وحده فإن آمنوا بالله تعالى وحده انتهى العداء والخصام. إذن هو عداء وخصام للإعتداء والكفر والظلم .

ونعطى المزيد من الأدلة من القرآن الكريم.

1ــــــ إن التحديد جاء بالوصف وليس بالشخص . فالآية الأولى تخاطب – ليس الأشخاص حول النبى محمد – ولكنها تصفهم " بالذين آمنوا " وتصف الآخرين بأنهم أعداء الله واعداء الذين آمنوا ، لأنهم كذبوا بالقرآن وارتكبوا ظلما آخر هو إخراج النبى محمد والمؤمنين من ديارهم لمجرد أنهم اختاروا الإيمان بالله تعالى، وبينت أن عداءهم سيتطور الى اعتداء بالقتال ، ثم تلمح الآية السابعة إلى إحتمال توبتهم وعندها سيحل الود محل العداء. إذن هو عداء للفعل وليس للشخص .

2 ــــــ ثم يأتى التشريع فى الآيتين الثامنة والتاسعة مرتبطا بفعل عدائى يبدأ بالقتال وطرد المؤمنين من بيوتهم وعليه تمتنع صداقتهم ، فإن لم يوجد ذلك الفعل المعتدى فإن الخلاف فى الدين لا يستوجب عداءا ، فطالما لا يقاتلون المسلمين ظلما ولا يخرجونهم من ديارهم فلابد من التعامل معهم بالود والبر والعدل.

3ــــــ ولأنها خصومة وعداء لأفعال إجرامية وليس لأشخاص فى حد ذاتهم فإن المفترض فى المؤمنين أن يتحلوا بصفات الخير ، بل وعليهم أن يبايعوا النبى محمدا على التمسك بصفات الخير والإمتناع عن الوقوع فى الكفر والسرقة والزنا والقتل والبهتان وعصيان أوامر الخير. والنساء عليهن أيضا مبايعة النبى بذلك .

وتختم السورة بالتأكيد على عدم موالاة اولئك الذين يرتكبون تلك الأفعال التى تستوجب غضب الله تعالى (الممتحنة 12:13) .

إن أفظع جريمة هى قتل نفس مسالمة بسبب أنها اختارت دينا يحض على السلم والحرية، ويتضاعف الجرم حين يتحول القتل الفردى إلى قتل جماعى يقوم فيه المشركون جميعا بالهجوم على المؤمنين المسالمين ، هنا تبلغ الجريمة درجة الشناعة التى لا مثيل لها . وهذا ما وقعت فيه قريش حين طاردت المؤمنين بالقتل والقتال فى المدينة. ومع ذلك فلم تصل الموالاة إلى خصومتهم كأشخاص أو كراهيتهم كبشر ، ولكن ظلت الخصومة مرتبطة بما يرتكبون من جرائم، ولذلك فإن الله تعالى عرض عليهم الغفران إن تابوا وانتهوا عن العدوان، جاء ذلك بعد إعتداءات القرشيين على المؤمنين فى السنوات الأولى من الهجرة (2/ 192-193) (8 / 38: 39) ولم يرتدعوا. ثم تكررالعرض عليهم بالكف عن القتل والقتال بعد فتح مكة وعودة أئمة الكفر إلى عدوانهم فنزلت سورة " براءة " تتبرأ منهم وتعطيهم مهلة للتوبة والغفران وتؤكد إنهم إذا تابوا فسيبصبحون أخوة للمؤمنين (9 / 5 ، 11)

4 ــ ولأن الخصومة والموالاة لا تتعامل مع أشخاص بل مع صفات متغيرة تقبل الزيادة والنقص لدى البشر جميعا فهناك حالات مختلفة تتطلب أحكاما مختلفة:

* فهناك مشرك كافر بالله تعالى ولكنه مسالم مأمون الجانب. هذا يجب التعامل معه بالبر والإحسان ، طبقا لما جاء به فى الأيتين (8 ،9) من سورة الممتحنة.

* وهناك مشرك كافر فى عقيدته . ولكنه فى سلوكه يقتصر على الإستهزاء بآيات الله تعالى دون الإعتداء الجسدىعلى المؤمنين. هنا تأتى الخصومة معه فى حدود الإعتداء الذى يقوم به، ويكون التشريع هنا بنهى المؤمنين عن الجلوس معه حين يستهزىء بالله تعالى وآياته ، فإذا تحدث فى موضوع آخر فلا بأس بالجلوس معه . أى ليس التشريع بكراهيته كشخص وليس بإجتنابه تماما وليس بمنعه عن الحديث ومصادرة حريته فى الإيمان والكفر ، ولكن فقط بالإبتعاد عنه حين يستهزىء بالله تعالى (70 / 42) (43/84) ، (6/68) ، (4 ،140) .

* وهناك مشرك كافر فى عقيدته ومجرم قاتل يسفك دماء المسلمين المؤمنين ويطردهم من ديارهم ويطاردهم فى الأماكن الأخرى التى لجأوا إليها . هذا الصنف الذى جاوز الحدود يجب المنع من إبداء أى مودة له لأنه أعلن الحرب على الله تعالى ، فإذا وصل الإجرام إلى القتل والقتال واخراج المسلمين من ديارهم والإستمرار فى هذا البغى فلابد من قطع كل صلات المودة .(58 /22)

ولقد نزلت سورة الممتحنة فى أوائل استقرار المسلمين المهاجرين فى المدينة ، وقبل بدء هجوم مشركى قريش عليهم ؛نزلت تهيىء المؤمنين لما سيحدث ، وتنهاهم عن موالاة المشركين لأنهم – حتى هذه اللحظة – كفروا بالله تعالى واخرجوا النبى والمؤمنين من ديارهم ، وتخبرهم أن عداء المشركين لهم سيظهر حين يبدأ المشركون فى القتال . وهذا ما حدث فعلا، وتحمل المسلمون الأوائل هجوم القرشيين عليهم فى المدينة ، والمسلمون مستسلمون لا يدافعون عن أنفسهم ، الى أن نزل لهم الاذن بالقتال ، وكان من حيثياته أن أولئك المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم وأموالهم ثم قاتلوهم معتدين . (22 / 39 : 40)

وقد استمر هذا الاعتداء ودارت حملات عسكرية بين المشركين والمؤمنين وتكرر نفس النهى عن موالاة المشركين العرب المعتدين ، والنهى عن مودتهم طالما يحاربون الله ورسوله حتى وإن كانوا من الآباء والأبناء والأقارب والأهل والعشيرة (58 / 22). واستمر هذا النهى إلى أواخر ما نزل من القرآن فى سورة التوبة (9 / 23 : 24). وحين تحالف كبار المنافقين مع زعماء اليهود والنصارى من قبائل العرب فى الجزيرة العربية نزلت آيتان فى النهى عن موالاة أولئك اليهود والنصارى وتعيب على المنافقين ذلك التحالف السرى بينهم وبين اولئك المعتدين (5/ 51 : 52)

* وهناك مسلم بعقيدته ولكنه يعصى ويقترف الإجرام والعصيان . وهذا الصنف موجود فى عصرنا وقبل عصرنا ، وقد كان موجودا فى عصر النبى محمد عليه السلام، وقد أمره الله تعالى بأن يتبرأ ليس من أولئك العصاة وإنما من أفعالهم الإجرامية فقط ، يقول الله تعالى(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ، فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون)(26 /215 :216) لم يقل فإن عصوك فاضربهم ، ولم يقل فإن عصوك فتبرأ منهم وإنما أمره تعالى أن يتبرأ من أفعالهم الإجرامية فقط وليس له أن يتبرأ من أشخاصهم .

5 ــ ولأنها صفات بشرية فهى صفات متغيرة تزيد وتنقص حسب رغبة الإنسان فى إصلاح نفسه أو إستسلامه لغرائزه وأطماعه .
إن الله تعالى قد خلق النفس البشرية وألهمها الفجور والتقوى وجعل الإنسان مسئولا عن اختياره الفجور أو التقوى، واختياره الفجور معناه الهبوط بأفعاله إلى الجرائم ، كما أن إختياره التقوى يعنى الفوز والسمو الخلقى (91 /7 : 10) والتقوى خشية الله تعالى فى العقيدة والسلوك، وخشيته تعالى فى العقيدة بمعنى أن لا تعبد سواه وخشيته فى السلوك بمعنى طاعته فى عمل الصالحات والإبتعاد عن الجرائم والآثام .
ولأن الإنسان ليس معصوما من الخطأ ولأن نفسه قد ألهمت الفجور والتقوى فإن إيمانه يزيد وينقص وأعماله تتراوح بين الطاعة والمعصية وبين الوقوع فى الجريمة والتوبة منها أو الاصرار عليها والتفاخر بها. وهذا التدرج والتغيرينعكس على موضوع الموالاة وقد رأينا تدرج موقف المشركين من مجرد الشرك العقيدى دون الشرك السلوكى ثم تدرج الإعتداء من مجرد الإستهزاء بالله تعالى وآياته إلى إعتداء يصل إلى القتل والقتال ، ومن الطبيعى أن يتدرج الولاء والتبرؤ تبعا لذلك .وقد كان للظروف الخاصة للعرب وثقافتهم القبلية (نسبة للقبيلة)أثره فى موضوع الموالاة .
وقد سبق القول بأن إنتماء العربى لقبيلته ونسبه وأهله كان أوثق ما يكون فى غياب الدولة والوطن بالمعنى المألوف حيث حلت القبيلة محل الوطن والقومية ، ومن هنا كان التحلل من هذا الإنتماء القبلى لصالح الإنتماء للدين صعبا على المؤمنين الأوائل وكان الأمر بإجتناب المشركين والإبتعاد عنهم فى مكة عسيرا على النبى وأصحابة المؤمنين، ولذلك كان يتكرر الأمر دليلا على أن الأمر الأول لم يتم تنفيذه فاحتاج الأمر لتكراره .
ونعطى أمثله :
* فى البداية كان المشركون يجتمعون للسخرية من القرآن فى حضور النبى محمد عليه السلام فنزلت عليه آية تامره ان يبتعد عن المشركين حين يخوضون فى آيات الله متلاعبين مستهزئين. لم ينفذ النبى محمد الأمر فنزلت نفس الآية فى سورة أخرى بنفس الكلمات (42/ 70) (43 /83).
ومع نزول الأيتين فى فترتين متلاحقتين إلا أن النبى محمدا لم ينفذ الأمر فظل يحضر مجالس المشركين وهم يتلاعبون ويسخرون من القرآن الكريم ، فنزل تحذير شديد يقول له أنه إذا رآهم يخوضون فى آيات الله ويستهزئون بها فلابد أن يعرض عن الذين يقومون بذلك ولا يجالسهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وأنه إذا أنساه الشيطان هذا الأمر الإلهى وتذكر فعليه ألا يجالس هؤلاء القوم الظالمين (6 / 68)
وهاجر النبى محمد والمؤمنون الى المدينة، ونشأ تخالف بين المنافقين والمعتدين اليهود والنصارى المحيطين بالمدينة ضد المسلمين. والمنافقون داخل المدينة كانوا يعقدون مجالس علنية للاستهزاء بالله تعالى والقرآن فتوعدهم الله تعالى بالعذاب (9 / 57 : 58). وفى بعض مظاهر استهزائهم بالاسلام كانوا يتحينون أوقات الأذان للصلاة لدى المسلمين ليتندروا بالأذان ، وكان لهم أصدقاء من المسلمين يشهدونهم يفعلون ذلك ويوالونهم عليه يالسكوت دون الاعتراض أو الاجتناب ، لذا نزلت الآيات تمنع المؤمنين من حضور تلك المجالس وموالاة أصحابها ضد الاسلام .(5 / 57 : 58)

ومع ذلك فقد استمر بعض المنافقين فى حضور تلك المجالس غير آبهين بأوامر الموالاة والتبرؤ ، فنزلت فيهم آيات شديدة اللهجة تقول : (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما) ثم يأتى السبب (الذين يتخذون الكافرين أولياء دون المؤمنين) ثم يأتى التحذير صريحا وواضحا يذكر المؤمنين بما نزل من آيات سابقة تحذرهم من مجالس الإستهزاء وموالاة أصحابها (وقد نزّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره . إنكم إذا مثلهم. إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) ثم بعد عدة آيات يكرر تعالى نفس النهى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) ثم يجعل المنافقين فى الدرك الأسفل من النار إلا إذا تابوا وأصلحوا وأخلصوا دينهم لله تعالى (4 / 138 : 146) .أى إن المنافقين إذا تابوا أصبحوا من المؤمنين؛ أى أنها موالاة لصفات الإيمان والعمل الصالح وبراءة وابتعاد عن الكفر بمعناه العقيدى ومعناه السلوكى أى ابتعاد عن الظلم لله تعالى والناس ، والإنسان الذى يقع فى الظلم يجب إجتنابه طالما يقع فى الظلم ويصمم عليه ، فإذا تاب عن الظلم فلا مجال لعدائه واجتنابه . وفى كل الأحوال فليس للدولة المسلمة أن تعاقبهم أو أن تصادر حريتهم . لأن حريتهم فى العقيدة وفى التعبير عنها مكفولة. وعليهم تحمل مسئولية ما يفعلون يوم القيامة. ولذلك كانت تنزل الآيات القرآنية تحذرهم من عذاب يوم القيامة ، ولا تطلب من النبى والمؤمنين إلا مجرد الابتعاد عنهم واجتنابهم حين يمارسون حريتهم فى الاستهزاء بالله تعالى ورسوله وكتابه.

الموالاة أساس فى جوهر الاسلام ومعناه السلوكى

أخلاقيات الإسلام تقوم على الإحسان فى القول والعمل والعدل فى التعامل مع الناس جميعاً. أما مع المخالفين فى العقيدة فلا بد من الصبر على الإيذاء والعفو والغفران إذا كانوا ظالمين بالقول واللسان، ولا بد من البر بهم والاحسان اليهم إذا لم يقاتلوا المسلمين ظلماً وعدواناً ولم يخرجوا المسلمين من ديارهم. وعليه فإن هذا الإحسان والصبر والغفران فى التعامل مع المخالف فى العقيدة يؤكد على أن الموالاة فى تشريع الإسلام هى فى الحقيقة موالاة للسلام والأمن، خصوصاً وأن معنى الإسلام هو السلام فى التعامل مع الناس، وأن معنى الإيمان هو الأمن والأمان فى التعامل مع الناس، وأن معنى المسلم هو الذى يسلم الناس جميعاً من لسانه ويده، وأن معنى المؤمن هو الذى يطمئن إليه الناس أو هو المأمون الجانب. وعليه فإنه فى إطار الوطن الواحد والدولة الواحدة حيث يجب أن يعم السلام بين الطوائف والجماعات فإن الانتماء الذى يجمع أولئك الناس هو العيش فى سلام، خصوصاً فى إطار حرية العقيدة ومسئولية كل إنسان على ما يختاره من مذهب أو دين، وإرجاع الحكم لله تعالى يوم القيامة أو يوم الدين، والموالاة هى بين أولئك المسالمين جميعاً ضد المعتدين الظالمين أو الإرهابيين بتعبير عصرنا.

وهنا يرتبط تشريع الموالاة بالإسلام الظاهرى أو الإسلام فى التعامل بين الناس على اختلاف عقائدهم فكل إنسان مسالم هو مسلم مهما كانت عقيدته بوذياً أو قبطياً أو سنياً أو شيعياً أو ملحداً.. المهم أنه مسالم لا يعتدى على أحد ولا يجبر أحداً على اعتناق عقيدته، ومرجعنا جميعاً إلى الله تعالى يوم القيامة ليحكم بيننا فيما نحن فيه مختلفون.

الموالاة أساس التحرك الايجابى فى المجتمع المسلم

قلنا أن الإسلام فى التعامل الظاهرى هو السلام، وفى التعامل العقيدى القلبى مع الله هو الطاعة والانقياد لله تعالى. ومن السهل الحكم على أى مجتمع يعيش أهله فى سلام بأنه مجتمع مسلم، وهنا يمكن تطبيق كل قواعد الإسلام وشرائعه على أساس القسط والعدل بين الجميع والإحسان والشورى، مهما اختلفت العقائد والمذاهب.أما من حيث الإسلام بمعناه العقيدى الباطنى فذلك ليس منوطا بالدولة الاسلامية ، بل مرجعه لله تعالى يوم القيامة، ولذلك نزل تشريع الله تعالى بتهذيب الناس واقامة العدل وحفظ حقوق الأفراد او حقوق الانسان وتأجيل الحكم فى العقائد لله تعالى يوم القيامة.

إن الله تعالى وحده هو عالم الغيب وهووحده الأعلم بما تخفيه الصدور وهووحده الذى يملك الحديث عن عقائد الناس ومصيرهم يوم القيامة. وليس لأحد من البشر أن يأخذ لنفسه هذه الحق الالهى ، وإلا كان مدعيا للالوهية ، حيث لا اله مع الله ولا اله إلا الله . الله تعالى قد قسم كل البشر إلى ثلاثة أصناف، حسب الأعمال والنيات، وذلك مالا يعلمه ولا يحكم عليه إلا الله تعالى.

طبقا لما جاء فى القرآن الكريم فإن البشر جميعا سيكونون يوم القيامة ثلاث درجات حسب ايمان كل فرد وعمله : السابقون فى الايمان والعمل الصالح ، وأصحاب اليمين ممن توسط فى ايمانه وعمله الصالح وتاب بعد معصية توبة حقيقية، وهذان الصنفان معا فى الجنة ، ثم الخاسرون أصحاب الشمال ، وهم أصحاب النار(56 / 7 : ـــ).

هذا ما سينطبق يوم القيامة على أهل الكتاب والمؤمنين بالقرآن. أهل الكتاب سيكونون يوم القيامة ثلاث درجات، أعلاهم المؤمنون السابقون، ثم المقتصدون المتوسطون، ثم فى النهاية الأكثرية الفاسقة. (5 / 66) (3 /110، 113: 115).وهو نفس التوصيف للمؤمنين بالقرآن: سابقون ، مقتصدون معتدلون ، وفاسقون(فاطر 32).بل هو نفس التقسيم لما يعرف تراثيا بالصحابة الذين عاشوا عصر النبى محمد عليه السلام وقابلوه وتعاملوا معه. : منهم السابقون ومنهم من خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، ومنهم المنافقون الصرحاء والذين هم فى الدرك الأسفل من النار ومنهم من مرد النفاق وخدع النبى محمدا بتقواه وإخلاصه وهو أشد الناس حقدا على الاسلام (9 /97 ـــ) (4 / 136 ـــ)

ولأن الله تعالى رب العالمين ورب الجميع، ولأن يوم القيامة (يوم الدينونية، يوم الدين) هو أيضاً للجميع فهى ثلاث درجات متاحة أمام الجميع حسب الإيمان والعمل وجوداً أو عدماً. وهم أحرار فى الاختيار، وكلهم إذا شاء وصل بإيمانه الحق وبعمله الصالح إلى الدرجة العليا ليسبق ويكون مقرباً من الله، وكل منهم إذا أراد وصل بكفره وظلمه إلى حضيض جهنم، يسرى ذلك على كل زمان ومكان، لأن الله تعالى رب كل زمان وكل إنسان وكل مخلوق فى كل مكان وزمان، ويسرى أيضاً على كل فرد فى مجتمع. ولهذا فإن المجتمع المسلم هو الذى يعيش أفراده فى سلام ووئام مهما اختلفت عقائدهم وأديانهم الأرضية. المطلوب منهم جميعاً أن يتنافسوا فى الاعمال الخيرية ليصلوا إلى أعلى الدرجات، مهما اختلفت مذاهبهم وشرائعهم السماوية. ومن هنا نفهم قوله تعالى عن المسلمين وأهل الكتاب ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَىَ الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (5 / 48)

أى أن مشيئة الله تعالى اقتضت أن يكون لكل فريق منهاجاً ليختبر كل فريق فيما أنزله عليه من كتاب، والمطلوب هو التسابق فى الخير وليس التعصب، ثم فى النهاية مرجعنا إلى الله تعالى يوم القيامة ليحكم بيننا فيما نحن فيه مختلفون من عقائد. وما الذى يعنيه التسابق فى الخير بين أهل الكتاب والمسلمين وهم يعيشون فى مجتمع آمن وفى سلام ووئام؟ إن ذلك يعنى التسابق لخير المجتمع ورفاهيته ورعاية المحتاجين فى أبنائه، ويعنى أن يتسابق المسلمون فى إقامة كنائس للمسيحيين، ويتسابق المسيحيون فى بناء مساجد للمسلمين.

التسابق فى الخير بين أهل الكتاب والمسلمين يؤكده تعاون على البر والتقوى وتعاون ضد الاثم والعدوان أمر به الله تعالى.(5 / 2) هذا التعاون على الخير ضد الشر هو التطبيق العملى للموالاة التى هى موقفف للدفاع عن الخير، والتبرؤ الذى هو موقف لمواجهة الشر. هذا التعاون بدوره يؤكده الايجابية الاسلامية فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتى تجعل المجتمع كله متحركا ينصح بعضه بعضا بالتمسك بالمعروف أى المتعارف عليه على أنه الخير والمثل العليا والابتعاد عن المنكر أى الذى ينكره الناس من الشر والبغى.

هذه الموالاة والانتماء للمثل العليا تحتاج الى عقد وميثاق والتزام ، حتى يمكن أن تتجمع قوى الخير فى مواجهة قوى البغى والاعتداء التى يمثلها الكفر ويقوم بها المعتدون أى (الذين كفروا) . وكما أن الذين كفروا يتحالفون معا فى الاعتداء والبغى فلا بد للذين آمنوا أن يتحالفوا ضد هذا البغى ، حتى تقام للعدل والحرية والتسامح أوطان فى هذا العالم.(8 / 73)

ولذا جاءت سورة الممتحنة باشارة الى البيعة؛ بيعة النساء للنبى محمد عليه السلام.

البيعة، أو العهد والميثاق

سبق الإسلام فى تعريف الدولة بأنها عقد بين الفرد والنظام الحاكم، وأن هذا العقد يستلزم التزامات معينة من الفرد مقابل قيام الدولة برعاية الفرد وحمايته .

وردت فى السور التى نزلت فى المدينة إشارات إلى وجود عقد أو ميثاق أو عهد بين افراد المسلمين والنبى يتضمن تعهد كل فرد بطاعة القائد وهو النبى محمد عليه السلام ؛ ليس طاعته كشخص وفرد ولكن طاعة القيم الأخلاقية المنبثقة عن الإيمان الحق بالله تعالى واليوم الآخر، تلك هى البيعة العامة . ثم هناك بيعة خاصة طارئة مؤقتة تستلزمها ظروف المواجهة العسكرية حين يتعرض المجتمع المسلم إلى هجوم لابد من صده ، وحينئذ يتطلب الأمر بيعة خاصة للإلتزام بالدفاع عن الدولة.وفى كل الأحوال (البيعة العامة والبيعة الخاصة) فإنها بيعة لله تعالى ؛ فمن يبايع النبى – أو القائد – إنما يبايع الله ، أى يلتزم أمام الله تعالى بالوفاء بالعهد والميثاق . وبالتالى فإن ضميره الشخصى هو الرقيب عليه فى مدى هذا الإلتزام بهذا العهد، أى أنه مسئول أمام الله تعالى يوم القيامة فقط فى مدى وفائه بهذا العقد أو العهد أو الميثاق أو البيعة.وفى كل الأحوال أيضا فإن تلك البيعة العامة والخاصة تشمل الرجال والنساء معا بما يعنى المساواة بين الرجل والأنثى .

ذكرت روايات السيرة النبوية أن النبى محمدا عقد معاهدة سرية مع وفد من المدينة قبل الهجرة ،وعقد معاهد أخرى مع وفد أخر فى العام التالى إلا أنها لم تذكر عقد معاهد عامة مع أهل المدينة . القرآن الكريم فى تعليقه على تباطؤ أو تخاذل بعض المؤمنين فى الوفاء بهذا العقد كان يذكرهم بالعهد الذى التزموا به .

الإيمان له معنى عقيدى هو الإيمان بالله تعالى ورسوله وله معنى سلوكى هو اختيار السلام والأمن والسكون والإبتعاد عن المشاكل ،وقد كان معظم من آمن من المستضعفين الذين اختاروا الأمن والأمان سلوكا مع بقاء عقيدتهم على المعتقدات المتوارثة بشكل مخالف للعقد الذى عقدوه مع الله تعالى . تلك المعتقدات المتوارثة المخالفة للإسلام كانت تؤثر على التزاماتهم فى الجهاد بالنفس والمال، إذ كانوا مطالبين بالإنفاق فى سبيل الله فيبخلون ، وكانوا مطالبين بالدفاع ضد عدو يعتدى فيتثاقلون تمسكا بالهوان وبالسلام السلبى مع عدو لا يجدى معه إلا دفع إعتدائه بالدفاع الصلب .

فى أوائل السور المدنية نجد القرأن الكريم ينهى المؤمنين عن خيانة الله ورسوله ، وخيانة العهد والأمانة ، ويأمرهم بالإستجابة وطاعة رسول الله (8 / 24 : 27) وتعبير الخيانة للعهد يعنى وجود عهد قائم بين الله تعالى والمؤمنين وأنهم لم يقوموا بالإلتزام بهذا العهد .

وفى أواخر السورة المدنية يتكرر الأمر للمؤمنين بطاعة الله ورسوله وأن يواجهوا إعتداء المشركين ، ليس بالوهن والإستسلام والحرص على حياة ذليلة وإنما بالدفاع البدنى والإنفاق المالى فى المجهود الحربى ، وإن لم يفعلوا فمصيرهم إلى الإستئصال ،وعندها يأتى رب العزة بمؤمنين آخرين خيرا منهم (47 / 32 : 38) كان البخل شائعا بين هذه النوعية من المؤمنين وترتب عليه أن توعد الله تعالى بالعذاب اولئك الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل وذلك بعد أن كررلهم أوامر العهد والميثاق وهى عبادة الله وحده لا شريك له والإحسان للوالدين والأقارب واليتامى والجيران وأصحاب وأبناء السبيل والرقيق (4 / 36 : 37) وفى مواجهة ذلك البخل ونسيان العهد والميثاق والبيعة ينزل القرآن يذكر المؤمنين بالإيمان بالله تعالى ورسوله والإنفاق فى سبيل الله ثم يعيب عليهم أنهم لا يؤمنون قلبيا وعقيديا بالله تعالى وحده ، مع استمرار دعوة الرسول محمد عليه السلام لهم بأن يكون إيمانهم بالله تعالى وحده إلها، وبرغم أنهم عاهدوا الله تعالى ورسوله على ذلك الا أنهم كانوا ينسون مما يستدعى تذكيرهم وتأنيبهم (57 /7 : 8)

وفى أواخر ما نزل من القرآن يتكرر نفس الموضوع فى تذكيرهم بالميثاق الذى عقدوه يوم بيعتهم ، وكيف أنهم قالوا سمعنا وأطعنا مع أن قلوبهم لم تكن مخلصة . ويحذرهم الله تعالى بأنه يعلم خفايا الصدور . (5 /7)

هذا العهد والميثاق أو البيعة العامة كانت لكل فرد يدخل فى إطار الدولة الإسلامية . وخلافا لما اعتاده العرب وما اعتادته ثقافة العصور الوسطى أعطيت المرأة نفس حق المواطنة الايجابية وحق المشاركة السياسية فى الدولة الإسلامية، فقد كان عليها أن تبايع نفس المبايعة ، وتضع يدها على يد النبى تعطيه البيعة. وهذا ما جاء فى سورة الممتحنة (60 /12) .

ولأنه أمر جديد لم يكن معروفا من قبل فإن الخطاب نزل للنبى محمد يوضح كيفية بيعة النساء للنبى ، فالمؤمنات إذا أتين مهاجرات ليصبحن مواطنات فى الدولة الجديدة فعليه أن يبايعهن على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يقعن فى بهتان ولا يعصين النبى فى معروف ، فإذا بايعن النبى على هذه البنود فعليه أن يستغفر لهن الله على ما سبق من ذنوبهن، لأنهن قد دخلن فى مرحلة جديدة من حياتهن. وهذا ما ينطبق على الرجال أيضا. .

والواضح أن كل بنود البيعة للمؤمنين والمؤمنات تتلخص فى تطبيق الإسلام والإيمان فى العقيدة وفى السلوك . تطبيق الإسلام فى العقيدة بعدم الوقوع فى الشرك والكفر ،أى بعدم الإعتقاد فى إله إلا الله الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، والإيمان والإسلام سلوكا بمعنى طاعة الله تعالى فى التعامل مع البشر بعدم الإعتداء على حياة الأخرين وأعراضهم وأموالهم أى التمسك بالقيم العليا المتعارف عليها من العدل ومنع الظلم .

إذن بنود البيعة تتلخص فى طاعة الله تعالى ، وهنا تكون المساواة بين المسلمين جميعا بما فيهم النبى نفسه، فهم مأمورون جميعا بطاعة الله الواحد عز وجل الذى لا شريك له فى الملك. وعليه فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو تناصح بالتمسك بالقيم العليا المتعارف عليها والإبتعاد عن الرذائل المستنكرة من جميع الناس، وهذا التناصح يعنى أن ينصح كل مؤمن أخاه أو أخته ، وأن تنصح كل مؤمنة أخاها أو أختها. وهنا مساواة المؤمنين جميعا رجالا ونساء ؛ كلهم يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر (103 / 3) ،أى ليست هناك طائفة تأمر الأخرين ولا يأمرها أحد.ليس فى الاسلام طائفة تحتكر إصدار الأوامر وتضع نفسها فوق القانون أو فوق الجميع بقوة القانون.

وبالتالى فليس هناك طاعة لشخص أو لحاكم حتى لو كان النبى نفسه . فالأية تقول عن أحد بنود البيعة عن النساء " ولا يعصينك فى معروف " لو قالت الأية " ولا يعصينك " فقط لكان ذلك فرضا بطاعة النبى طاعة مطلقة. ومصطلح النبى يعنى شخص النبى محمد وعلاقاته بمن حوله، لذا كان العتاب واللوم يأتى بصفة النبى بينما الطاعة تأتى مرتبطة بالرسول والذى يعنى أيضا الرسالة والقرآن. ولأن النبى هنا هو شخص النبى محمد فإن طاعته كشخص مرتبطة بأن تكون فقط فى "معروف "، والمعروف هو المتعارف عليه من القيم العليا التى جاء بها القرآن والتى تجلت فى سائر بنود البيعة . وإذا كانت طاعة النبى محمد – وهو القائد – مرتبطة بالمعروف وليست له طاعة كشخص ، فإنه لا يجوز لأى شخص أن يطلب من المؤمنين طاعته دون قيد أو شرط. ولذلك فقد اشتق الفقهاء المسلمون الأحرار قاعدة سياسية تقول " لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق " أى لا يصح الطاعة إلا فى إطار طاعة الله تعالى وحده ، فالمطاع هو الله تعالى وحده، ومن يطع القرآن ــ أو الرسالة الالهية الخاتمة بعد موت الرسول محمد ــ فقد أطاع الله تعالى (4 /80) وكل من يأمر بما جاء فى القرآن فيجب طاعة ما ينطق به من القرآن ، وليس طاعته هو كشخص. وهذا معنى الأمر بطاعة الله ورسوله وأولى الأمر، (4 / 59) ليس هنا تثليث ،أو عبادة لله والرسول واولى الأمر، بل أن طاعة ولى الأمر وطاعة الرسول فيما يقال من أوامر جاءت من الله تعالى فى كتابه الكريم ونطق بها الرسول وبلغها ، ثم يقوم على رعايتها أولو الأمر. وإذا زاغ أحد منهم عن أوامر الله تعالى فلا طاعة له ، بل يجب اعلان العصيان لأمره وتوضيح أنه يأمر بما يخالف القرآن ، حتى نبرىء دين الله تعالى من استغلال دينه العظيم من سوء الاستغلال والفساد والاستبداد. باختصار : إن البشر عليهم أن يطيعوا الله تعالى وحده ويحرم عليهم طاعة أمر يخالف تشريع الله تعالى ومبادئه .

يسرى هذا على البيعة العامة فى الدخول فى مواطنة الدولة الإسلامية كما يسرى على البيعة الخاصة التى تفرضها ظروف الحرب .

ليس فى الإسلام إكراه على فعل الطاعة . وليس فيه عقوبة يوقعها الحاكم المسلم فيما يخص حقوق الله تعالى من ايمان قلبى وعبادة . العقوبة لا تكون إلا فيما يخص حقوق الأفراد . وليس فى الإسلام إكراه على الجهاد أوالتجنيد. إن الجهاد بالمال واللسان والدعوة والنفس فريضة على كل مؤمن، وهو مسئول عن تأديتها أمام الله تعالى وحده يوم القيامة، وليس من سلطة الدولة المسلمة تجنيد الناس قسراأو سخرة كما تفعل بعض النظم فى عصرنا. وحين تثاقل المنافقون عن الدفاع عن المدينة واعتذروا بحجج واهية كان عقابهم الوحيد منعهم من الانضمام الى الجيش مستقبلا (9/83).

ولأنه ليس هناك تجنيد إجبارى للأفراد فإن مواجهة العدو المعتدى كان يحتاج إلى عقد أو عهد أو ميثاق أو بيعة بالإختيار الفردى . ولأن من بايع طوعا عليه أن يلتزم بما عاهد الله تعالى عليه إلا أن بعضهم كان فى وقت الشدائد يفر وينسى العهد والميثاق . فى غزوة الأحزاب حوصرت المدينة من كل الجهات بقيادة جيوش من عدة قبائل يقودها أبو سفيان الأموى ، فى مواجهة هذا الحشد والحصار كان لابد من المبايعة على الدفاع عن النفس والقوم والوطن والعقيدة ، وعندما اشتد الحصار ظهرت المواقف على حقيقتها ، منهم من ظهر نفاقه وجبنه فتخلى عن مواقعه الدفاعيه وبدأ ينشر التشكيك وهو يفر من مواقع المعركة ، وقد جعلهم الله تعالى مسئولين أمامه يوم القيامة على نكثهم للعهد،ولكن ليست عليهم مساءلة فى الدنيا وليست للدولة أن تعاقبهم (33 / 15). فى المقابل هناك من المؤمنين من وقف موقفا بطوليا رجوليا. وجزاؤهم الحسن ينتظرهم يوم القيامة. (33 / 23 : 24) .

فى موقف أخر خرج النبى محمدا بأصحابه للحج فى البيت الحرام ، ليس معهم سلاح إلا سلاح المسافر، كأنهم يرفعون الراية البيضاء دليل المسالمة؛ خرج عليه السلام مسالما ، فمنعته قريش من الدخول ، وتأهبت لحربه وأرسل النبى بعض أصحابه للتفاوض فاحتجزوهم ، وأشيع أن قريش قتلتهم وأنها على أهبة الإستعداد على الهجوم علىالمسلمين واستئصالهم . كان موقفا دقيقا استدعى من النبى أن يطلب من المؤمنين معه أن يبايعوه على القتال والمواجهة والصمود ، فليس أمامهم طريق آخر. وتحت الشجرة جلس وجاء كل فرد يبايعه على الصمود والقتال ،وكالعادة تكون البيعة لله ورسوله . هذا الموقف البطولى أخاف قريش فأحجمت عن هجومها ولجأت للتفاوض السلمى . ونزلت آيات القرآن تعتبر ذلك نصرا ، وتؤكد أن أولئك الذين بايعوا النبى محمدا إنما كانوا يبايعون الله تعالى ، وكل منهم مسئول عن تنفيذ ما التزم به أمام الله تعالى ، ومن يوفى منهم ببيعته فسيكون جزاؤه عظيما عند الله تعالى ، وتؤكد آية أخرى أن الله قد رضى عن الذين بايعوا النبى تحت الشجرة ، وقد اطلع على الإخلاص الذى عم قلوبهم فى هذه اللحظة الحرجة فزادهم سكينة وثقة وكافأهم بنصر قادم آت ، وكان هذا النصر هو فتح مكة سلميا بعدها. (48 / 10 ،18)

هذا هو مفهوم البيعة فى الاسلام، وذلك كان تطبيقه فى عهد النبى محمد عليه السلام.

تغير هذا كله بالتدريج فى تاريخ المسلمين بعد وفاة النبى محمد عليه السلام .

حوصر المسلمون بعد وفاة النبى بحركة الردة، حيث تجمع الأعراب (أشد الناس كفرا ونفاقا)حول المدينة يريدون الهجوم عليها فى ذلك الوقت الحرج ، فكان لابد من القيام بالبيعة لقائد يقوم بالأمر فتم اختيار أبى بكر وما لبث أن مات أبو بكر وقد دخل المسلمون فى حرب جديدة ضد الفرس والروم . واستلزم الوضع الجديد

البيعة لقائد جديد بعد ابى بكرفكان عمر . وبالفتوحات دخل المسلمون فى عهد جديد تناسوا فيه جوهر الإسلام (العدل وحرية الرأى والفكر) فكان لابد من نسيان البيعة بالمفهوم القرآنى فتتحول من بيعة لله تعالى تقوم على أساس طاعته وتنفيذ أوامره ويكون تطبيقها منوطا بضمير المسلم نفسه إلى بيعة خضوع لحاكم مستبد ليحكم مستبدا طيلة عمره دون رقيب أو حسيب ، وطبقا لتلك البيعة تجب طاعته طاعة مطلقة ، مهما استأثر بالحكم والسلطان والثروة . وهذا ما بدأ فى الدولة الأموية ولا يزال ساريا فى بعض دول المسلمين حتى الأن .

وعلى هامش الموالاة فى سورة الممتحنة نفهم بعض المصطلحات التى وردت فى السياق القرآنى

الكفر

تحدد الآية الأولى معنى الكفر، وهو نوعان: الكفر العقيدى والكفر السلوكى . الكفر العقيدى يعنى الكفر بالله تعالى ورسله وكتبه واليوم الأخر. الكفر السلوكى والذىعبرت عنه نفس الآية الكريمة بأنه إخراج الرسول والمؤمنين من ديارهم بسبب إيمانهم بالله تعالى .وعليه فإن الأكراه فى الدين والإضطهاد هو كفر سلوكى خصوصا عندما يتدرج فى الإكراه والإضطهاد إلى حد الإخراج من الديار والأوطان ثم القتال .

الجهاد :وفى نفس الآية يأتى معنى الجهاد مرتبطا بالهجرة فى قوله تعالى) إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) .كان يمكنهم البقاء فى مكة وتحمل الإضطهاد، وكان يمكنهم البقاء مع احتفاظهم بعقيدتهم سرا خشية العذاب، ولكنهم اختاروا الهجرة ابتغاء مرضاة الله تعالى .وهذا هو بعض معانى الجهاد.

إن الجهاد يعنى بذل الجهد فى سبيل الله تعالى؛ قد يكون بذل الجهد هجرة كما فى الأية الكريمة ، وقد يكون بالدعوة السلمية بالقرآن الكريم وهو الجهاد الكبير، كما جاء فى القرآن الكريم (25 / 52) وقد يكون بذل الجهد ببذل المال وبذل النفس فى الدفاع ضد المعتدين (8 / 72) ، وفى حالة الهجرة والإضطرار للدفاع ضد عدو كافر فلابد من أن يوالى المؤمنون بعضهم بعضا ضد العدو المشترك الذى يهاجمهم ، أما أولئك المؤمنون الذين يقوا فى دار العدو فليس هناك فرصة لموالاتهم إلا إذا هربوا من ذلك البلد وهاجروا إلى دولة المؤمنين فبذلك يكون فى إستطاعة المؤمنين الدفاع عنهم بعد موالاتهم للمؤمنين بالهجرة إليهم.

فإذا تعرضوا وهم فى دار العدو إلى إضطهاد كبير وطالبوا بنجدة المؤمنين فعلى المؤمنين نجدتهم إلا إذا كانت هناك معاهدة عدم إعتداء بين المؤمنين وأولئك المشركين (8 / 72) .

التأسى والإقتداء

تعرضت الآيتان (4 ، 6) من سورة الممتحنة لقضية التأسى أوالإقتداء. وواضح فيها أن التأسى ليس بشخص حتى لو كان هذا الشخص هو النبى إبراهيم عليه السلام، ولكنه التأسى بموقفه، والموقف هنا حين أعلن إبراهيم والذين معه تبرأهم من أقاربهم المشركين . ونفس الموضوع حين أمر الله تعالى المؤمنين بالتأسى بالنبى محمد وشجاعته فى غزوة الأحزاب (33 / 21) وهو أيضا نفس المعنى حين أمر الله تعالى محمدا بأن يتأسى بهدى الأنبياء السابقين ، فالهدى هنا هو الوحى الذى نزل عليهم ، وبنفس الوحى نزل القرآن (6 / 88:90) ، (4 / 163) ، (39 / 65) ، (41 / 43) ، (42 ، 13) .

وعلى هامش الموالاة فى سورة الممتحنة نفهم بعض الملامح التشريعية:

زواج المسلم بالكافرة المشركة وزواج المسلمة بالكافر المشرك

فى القرآن الكريم نوعان من الخطاب :خطاب التشريع وخطاب العقائد. الخطاب العقيدى هو خطاب خاص بالله تعالى وحده الذى يعلم ما فى القلوب والذى يحكم بين الناس يوم القيامة. هذا الخطاب لا مجال له فى تطبيق التشريعات الاسلامية الدنيوية الخاصة بتعامل البشر فيما بينهم . على سبيل المثال فان الله تعالى يصف أكثرية البشر بأنها لا تؤمن مهما بلغ حرص النبى على هدايتها ، وحتى لو آمنوا فإن ايمانهم هو مختلط بالشرك (12 / 103 ، 106). هذه حقيقة نلمسها فى التدين العملى لأغلبية البشر خصوصا أكثرية المتدينين تدينا ظاهريا سطحيا، فهم لا يؤمنون بالله إلا ومعه تأليه غيره من البشر والحجر ، أى لا بد أن يجمعوا بين تقديس الله تعالى وتقديس غيره من الأنبياء والأئمة والأحبار والرهبان والأولياء.، وهذا ما كان قبل القرآن الكريم واستمر بعده حتى بين المسلمين الذين يقدسون فى أديانهم الأرضية آلاف البشر بدءا من النبى محمد وأصحابه والأئمة والأولياء ، بل ويحجون الى آلاف القبور المقدسة ويقدسون الألوف من الجثث التى تحولت الى تراب وعدم. هذه الحقيقة العقيدية لا يمكن عمليا تطبيقها فى الزواج وإلا تحولت مؤسسة الزواج الى محاكم تفتيش على العقائد والسرائر وما تخفيه القلوب. إن الله تعالى يؤكد أن أكثرية البشر مشركون فهل يعنى هذا أن نحرم الزواج بأكثرية البشر؟ ثم هذه الأقلية التى تعتبر نفسها هى المؤمنة وحدها لا بد أن تختلف فى عقائدها وآرائها وتنقسم وتتفرع وبالتالى تتكاثر التحريمات وتتضاءل امكانات الزواج (العقيدى). إن تطبيق هذا الخطاب العقيدى فى الدنيا سينشر الظلم وسيدمر الزواج.
هذا الخطاب الالهى الخاص بالعقائد سيطبقه الله تعالى يوم القيامة بعد أن يتحدد مصير كل إنسان حسب عمله وإيمانه وعقيدته ومدى أخلاصه فى الطاعة أو مدى إنغماسه فى المعصية . ليس لنا أن نتعامل فيما بيننا فى هذه الدنيا وفق ذلك المقياس الإلهى لأن تحديد المشرك لا يكون الا بعد ان تنتهى حياة الانسان بخيرها وشرها وتحولاتها العقيدية والسلوكية من طاعة ومعصية وتوبة. بعد الموت يقفل كتاب أعمال الانسان ويتحدد مصيره وفق عمله واعتقاده. هذا كله من تخصص الرحمن جل وعلا، ولن يكون الفصل فيه إلا يوم القيامة، حيث يحكم بيننا رب العزة فيما نحن فيه مختلفون. أما فى هذه الدنيا فإن كل إنسان يظن نفسه على حق ويتهم خصومه بالكفر. ولا يصح أيضا تطبيق هذا الخطاب فى تكفير الأشخاص الأحياء المختلفين معنا فى العقائد ، لأننا خصوم فى مجال العقيدة ، ولا يصح أن يكون أحدنا خصما للأخر وحكما عليه فى نفس الوقت ، ولأننا جميعا فى مجال العقائد مختصمون فمرجع الحكم علينا جميعا هو الله تعالى يوم القيامة (22 / 19) وإلى أن يأتى هذا اليوم ينبغى أن نعيش فى سلام وأمن وعدل ، وبالتالى يكون تعاملنا حسب الظاهر فالمؤمن هو المأمون الجانب والمسلم هو المسالم بغض النظر عن عقيدته ورأيه فى الله تعالى والألوهية ، والكافر هو المعتدى الظالم الذى يصل ظلمه إلى القتل والقتال للمسالمين الآمنين الذين لم يبدءوا بالقتال. وفى مجال

التعامل البشرى يمكن لنا بامكاناتنا البشرية الحكم على سلوكيات الناس، فالمجرم واضح حين ثبوت الجرم عليه، والكافر المعتدى القاتل واضح وقوعه فى الكفر السلوكى بما ارتكبه من جرم .

هذا الكافر المشرك بالسلوك الإجرامى هو الذى يحرم تزويجه أو الزواج منه. لذلك نزلت بعد الهجرة أية سورة الممتحنة لتضع التشريع المناسب ؛ فالزوجة المؤمنة التى تركت زوجها الكافر وهاجرت إلى دولة الإسلام لا يحل لها أن تستمر فى الزواج بعد ذلك مع هذا الكافر ، ولا يصح أن ترجع إلى عصمته لأنه لا يحل لها ولا تحل له . وفى المقابل فأن المؤمن الذى فارق زوجته الكافرة التى رفضت أن تصحبه ، عليه أن يفارقها ويطلقها (60 / 10). وبهذا التشريع أمكن رسميا تطبيق الانفصال القائم فعلا بين زوجين يستحيل تواجدهما تحت سقف واحد. وحتى لو كانا فى فراش واحد وكلاهما مخلص لعقيدته قد وهب نفسه لها ويتصرف دفاعا عنها بكل ما يستطيع فإن فراش الزوجية بهذا المعنى يتحول الى ساحة قتال، وليس الى بيت للسكن والراحة والألفة والوئام بين الزوجين، لذا فالأفضل لهما الانفصال ليتزوج كل منهما بمن يوافقه فى عقيدته وميوله السلمية أو الاجرامية. هذا ما نفهمه من سورة الممتحنة.

وتأكد هذا التشريع بأية أخرى تمنع ان يتزوج مشرك بمؤمنة حتى يتوب عن اعتدائه ويرجع عنه ، وتمنع أن يتزوج مؤمن بمشركة حتى تمتنع عن الإعتداء (2 / 221) والملاحظ هنا هو قوله تعالى " حتى يؤمنوا " وبالطبع لا يمكن هنا الحكم على العقائد حيث أن محلها القلب إنما لنا الحكم على السلوك الظاهرى فإذا آمن أحدهم بمعنى عاد إلى الإستقامة الظاهرية مبتعدا عن الإجرام والإعتداء فقد صار مؤمنا حسب سلوكه ، وحينئذ يمكن له أن يتزوج مؤمنة مسالمه مثله ويمكن لها أن تتزوج من مؤمن مسالم مثلها.

ونفس الحال مع أهل الكتاب ، فطعامهم حلال للمسلمين وطعام المسلمين حلال لهم ، وحلال لهم أن يتزوجوا من المؤمنات المسلمات وحلال للمؤمنين أن يتزوجوا من نسائهم طالموا كانوا مسالمين ومسالمات ، وطالما جرى الزواج شرعيا بمهر وعقد شرعى (5/5).

الفهم التراثى لهذه الآية يحاول تعطليها بادعاء انها تخص أهل الكتاب السابقين ولا تنطبق على أهل الكتاب اليوم. وهذا خطأ فاحش، فأحكام القرآن على أهل الكتاب والمؤمنين سارية فى كل زمان بعد نزول القرآن الكريم طالما لا يأتى فى النص القرآنى ما يؤكد قصر التطبيق على وقت معين. أكثر من هذا فيما يخص موضوع الزواج بالذات فإن التشريع القرآنى لا يدع حالة فرعية استثنائية محدودة إلا وقد وضع لها حكما خاصا بها حتى مع العلم بأنها حالات محدودة غير قابلة للتكرار طبقا لتشريع القرآن نفسه. نحن نتحدث هنا عن تحريم القرآن الكريم الزواج ممن تزوجها الأب ، وتحريمه الجمع فى الزواج بين أختين. كان هذا معروفا قبل نزول التشريع القرآنى فى الزواج . ونزل التشريع القرآنى يحرمه، ولكن لا يطبق الحكم بأثر رجعى ، اى لا ينطبق الحكم على من سبق له الزواج ممن تزوجها أبوه أو ممن جمع بين أختين، فقال (إلا ما قد سلف) (4 / 22: 23). هى حالات محدودة محصورة بوقتها ولكن ذكرها القرآن الكريم ، فإذا كان تشريع الزواج من أهل الكتاب يسرى على عصر نزول القرآن فقط حسبما يقول فقهاء الدين السنى فلماذا لم ينص القرآن على ذلك ؟

و(المعتدلون) من فقهاء التدين السنى يقولون ان تشريع الزواج من أهل الكتاب يعنى أن نتزوج من نسائهم فقط دون أن يكون لهم الحق فى الزواج من نسائنا. وهذا التشريع السنى يحمل فى طياته الاستعلاء المعهود الذى كان يمارسه المسلمون ضد غير المسلمين فى العصر العباسى وما بعده. هذا الرأى السنى يخالف جوهر الآية الكريمة لأنها تتحدث عن أن طعام أهل الكتاب حلّ لنا وطعامنا حل لهم، وأردفت نفس الحكم على الزواج ، أى فكما يحل لهم الأكل من طعامنا يحل لهم الزواج من نسائنا، وكما يحل لنا الأكل من طعامهم يحل لنا الزواج من نسائهم. هذا الرأى السنى أيضا يخالف الجوهر الأخلاقى للتشريع الاسلامى وهو العدل ، إن الله تعالى يأمر بالعدل والاحسان (16 / 60) ، العدل الاسلامى يمنع هذا التعالى الذى يجعل من حق المسلم أن يتزوج كتابية وفى نفس الوقت لا يكون من حق الكتابى أن يتزوج مسلمة.

وهناك ناحية أخرى فى سورة الممتحنة فى موضوع الزواج الذى يحدث فى ظروف طوارىء وتأزم علاقات بين معسكرين متحاربين أحدهما مسلم مسالم والآخر مشرك كافر معتد ظالم. فالمرأة المؤمنة المهاجرة لا بد من اجراء اختبار (أمنى) لها ، ليس لاختبار عقيدتها ولكن لاختبار سلوكياتها السابقة وفق المتعارف عليه أمنيا حتى لا تكون جاسوسة للعدو. الآية تقول)يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ) أى فالاختبار ليس للايمان القلبى الذى لا يعلمه الا الله تعالى ولكن للايمان السلوكى الذى يمكن للبشر معرفته . نفس الحال تكرر فى موضوع الزواج حيث يشترط فى الزوجة أن تكون مؤمنة ، ليس الايمان العقيدى ولكن الايمان السلوكى أى الأمن والأمان والسلم والسلام، يقول تعالى : وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مِّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ) (4 / 25)، أى إن الله تعالى هو الأعلم بايماننا العقيدى، ولكن المطلوب منا هو اختبار الايمان السلوكى الذى فى استطاعتنا التأكد منه. ونفس الحال فى تحريم الزواج من المشرك والمشركة والزانية والزانى . المشرك يعنى الذى لا يتوب عن سلوكه الاجرامى فى قتل الآمنين ويعتبر ذلك فرضا دينيا وجهادا وفق عقيدته. الزانى والزانية اى المدمن على الزنى دون توبة، إما بأجر أو بدون أجر. كلاهما يحرم تزويجه والزواج منه (24 / 3).

الخلاصة: إنه يصح للمسلمة أن تتزوج أى إنسان مسالم بغض النظر عن دينه الأرضى أو السماى طالما تمسك بالسلم والسلام والأمن والأمان. كما انه يحرم على المسلمة أن تتزوج الارهابى الباغى القاتل للأبرياء المسالمين. هذا يأتى وفقا لمعنى الاسلام والايمان والكفر والشرك.

مكانة المرأة :–

فى هذه السورة ملمح واضح يدل على مساواة المرأة بالرجل فى الحقوق والواجبات فى الإسلام حيث يحق لها المشاركة السياسية وحقوق المواطنة كالرجل إذ عليها أن تبايع الحاكم شأن كل رجل .مشاركة المرأة السياسية أكدها القرآن الكريم ليس فقط على المستوى التشريعى ولكن أيضا على المستويين التطبيقى والتاريخى .

على المستوى التطبيقى كان للمرأة ان تجادل النبى وتشكوله ولا تقتنع باجاباته فتدعو الله تعالى ان ينزل لها وحيا يحل مشكلتها فينزل الوحى يقول : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ 58 /1). وكان مجتمع المدينة فى عصر نزول القرآن خلية نحل تموج

بالحركة والنشاط، حيث أباحت حرية الفكر والعقيدة والتعبير والحركة السلمية المعبرة عن العقائد أن تتألف جماعات من المنافقين والمنافقات يتحركون معا يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف فتقابلهم جماعات أخرى من المؤمنين والمؤمنات للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. (9 / 67 ، 71)هذا والدولة الاسلامية فى عصر النبى محمد لا تتدخل فى منع هذا او تاييد ذاك لأن مهمتها هى كفالة الحرية فى العقائد والتعبير عنها بالطرق السلمية دون أن يقوم طرف باكراه الآخرين أو اضطهادهم فى الدين.

على المستوى التاريخى فقد جعل الله تعالى المثل الأعلى للمؤمنين فى كل زمان ومكان إثنتين من النساء هما السيدة مريم العذراء وزوجة فرعون ، كما جعل المثل الأسفل لكل الكافرين فى العقيدة والسلوك امرأتين أيضا هما زوجة نوح وزوجة لوط .(66 / 10 ــ 12) . كما قص الله تعالى قصة ملكة سبأ (27 / 22 ــ 44)، وتكررت فى القرآن قصة فرعون موسى. والتدبر القرآنى ــ وهو فريضة منسية ــ يحمل المسلم على المقارنة بين إثنين من الحكام كلاهما تعامل مع نبى من الأنبياء بطريقة مختلفة، وفازت الحاكم الأنثى وخسر الحاكم الذكروأضاع عرشه وقومه. ليس المقصد هنا أن المرأة أفضل من الرجل فى مجال الحكم، ولكنها إشارة تاريخية الى أن إمرأة حكمت فكانت راشدة فى وقت يضل فيه أغلب الحكام الذكور. المقارنة هائلة هنا بين الاسلام والدين السنى . الدين السنى يجعل المرأة مخلوقا من ضلع أعوج يستحيل اصلاحه ، ويجعلها "ناقصة عقل ودين ".!! هل يصح أن يقال عن السيدة مريم عليها السلام أنها ناقصة عقل ودين بعد كل هذا المدح الذى قاله الله تعالى عنها فى القرآن الكريم؟

فى الحضارة الغربية لم يتم إعطاء المرأة حقوقها السياسية إلا مؤخرا ، ولكن الإسلام سبق الجميع فى ذلك. الإسلام لم يحرم على المرأة أى عمل حلال يقوم به الرجل ، ويسرى ذلك على الجهاد ، والدليل أن الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد هى أعذار تحدث للمرأة والرجل على حد سواء، فليس هنا حرج على الأعمى أو الأعرج أو المريض فى موضوع القتال الدفاعى فى الإسلام (48 / 17). هذه الأعذار تسرى هذا على الجنسين فى الذكر والأنثى . وحتى فى الصيام والحج كانت الشروط عامة للذكر و الأنثى ، بل أن الأمر يأتى بلفظ "الذين آمنوا " ، " يا بنى آدم " ، " يا أيها الناس " ليخاطب المرأة والرجل معا، وكل أمراة يشملها الأمر والنهى كالرجل تماما ، أكثر من هذا فإن النسق القرآنى فى تشريع الأحوال الشخصية من زواج وطلاق لا يذكر مطلقا لفظ زوجة وإنما يقول " زوج " دلالة على الزوج والزوجة ويأتى السياق يحدد المقصود بها.

والمقصود هنا هو المساواة الكاملة من حيث التكوين بين الزوج الرجل والزوج الأنثى فكلاهما واحد من حيث الأصل والنشأة ، وكلاهما لهما نفس الحقوق وعليهما نفس الواجبات طبقا للعدل . وهناك تفصيلات أخرى تأتى فى موضعها، وقد فصلنا القول فيها فى كتاب لنا لم ينشر عن تشريعات المرأة بين القرآن والفقه السنى.

هناك شيىء هام فى سياق آيات سورة الممتحنة يستلزم الإيضاح . هو حق المرأة فى السفر والهجرة وترك موطنها إلى حيث تريد طبقا لإختيارها العقيدى شأن الرجل تماما ، وهذا ما حققته المرأة فى عهد النبى محمد عليه السلام إذ هاجرت المؤمنات إلى الحبشة مرتين ثم مرة ثالثة إلى المدينة ، بعضهن كن عذاراى وبعضهن كن متزوجات هاجرن مع أزواجهن المؤمنين أو كن أزواج تركن أزواجهن المشركين . أى أن من حق المرأة فى الإسلام أن تهاجر إذا شاءت ، والهجرة أصعب أنواع السفر لأنه سفر يحتمل المطاردة والملاحقة .

وبالتالى فان من حقها السفر العادى بمفردها ،وليس لزوجها الحق فى منعها إلا إذا كان هذا الحق للزوج منصوصا عليه فى عقد الزواج .هذا فى الإسلام .ولكن فى دين السنة تم حرمان المرأة من هذا الحق فمنعوها حتى من السفر إلا بإذن زوجها ، بل وجعلوا لها كفيلا – إذا لم تكن متزوجه ـــ هو" المحرم " أى الذى يحرم عليها أن تتزوجه كالأب والابن والأخ والعم والخال ، أى اعتبروها شخصا غير كامل الأهلية، حتى لو كانت أما. وتخيل أن تربى الأم ابنها فاذا كبر أصبح آمرا ناهيا لها، يبلغ مبلغ الأهلية بينما تظل أمه مخلوقا ناقص الأهلية.

الدين السنى بذلك لم يظلم المرأة فقط بل ظلم معها الرجل ، فهى له الأم والأخت والزوجة والبنت . واذا كانت المرأة ناقصة الأهلية اجتماعيا ودينيا فليس من حقها المشاركة السياسية وليس لها من حق فى المواطنة المساوية للرجل. وبالتالى يكون من العبث الحديث عن حقها فى تولى الرئاسة فى الدولة.

هذا.. ولقد أثبتنا حق المرأة فى رئاسة الدولة الاسلامية فى بحث سالف.

من حق المرأة المؤهلة للإمامة أن تؤم الذكور فى الصلاة

فى المنامة عاصمة البحرين فى يوم 19 ابريل 2004 أوقفت الشرطة البحرينية في مسجد الفاتح سيدة تنكرت بزي إمام شقت طريقها بين الرجال، وقبل وصولها الى المنبر حيث أرادت أن تلقي خطبة، بحسب تعبيرها.

وفى نيويورك، الولايات المتحدة فى الخامس من مارس الحالى أمت امرأة أمريكية مسلمة صلاة الجمعة، وشارك في الصلاة رجال من الجالية المسلمة في نيويورك، رغم انتقادات حادة من قيادات مسلمة في الشرق الأوسط تقول إن ما فعلته يخالف العقيدة.

وكانت أمينة ودود، وهي أستاذة الدراسات الإسلامية في جامعة فرجينيا، أمت جموع المصلين في إحدى ضواحي منهاتن، وقالت ودود قبل بدء شعائر الصلاة إن "مسألة المساواة بين الرجل والمرأة أمر مهم في الإسلام، وقد استعمل المسلمون، وللأسف، تفسيرات تاريخية متشددة للعودة إلى الوراء."وأضافت "ونحن، من خلال هذه الصلاة، نتقدم نحو الأمام. فهذا العمل هو بحد ذاته تجسيد للإمكانات المتاحة في الإسلام.وشارك في الصلاة قرابة مائة شخص من الرجال والنساء.ونظم هذه الصلاة، عسرة نعماني، وهي كاتبة ومراسلة سابقة لصحيفة الوال ستريت.وقالت نعماني إن القصد من هذه الخطوة لفت الانتباه حول عدم المساواة التي تطال حياة المرأة الروحية، وجوانب أخرى من حياتها بشكل عام.وأضافت نعماني "نحن نطالب بحقوقنا كنساء مسلمات. لن تقبل بعد اليوم الدخول من الأبواب الخلفية أو البقاء في الظل. وسنكون في نهاية المطاف قياديات في العالم الإسلامي. وتظاهر عدد من المعترضين خارج المبنى حيث أقيمت الصلاة، إلا أن الشرطة أبعدتهم ومنعتهم من الدخول. ورفعت الآذان امرأة مسلمة أمريكية من أصول مصرية اسمها سهيلة العطار، ولم تكن مرتدية للحجاب. وقال أحمد ناصف، وهو مسؤول في مجموعة "Muslim Wake up "، إن المقصود من الصلاة هو إعطاء فرصة العبادة الروحية على قدم المساواة بين الرجال والنساء.أضاف "ليس الهدف أن نقول لباقي المسلمين كيف يقيمون صلاتهم، إلا أننا نحتاج لأن نكون منفتحين نحو الأفكار الجديدة."وفي رد فعل على إمامة المرأة، كتب شيخ الأزهر في صحيفة الأهرام المصرية إن الإسلام يبيح للمرأة أن تؤم نساء أخريات في الصلاة، وليس جمعا من المصلين من ضمنه رجال.وأضاف "لا يصح أن يرى الرجال جسد المرأة أمامهم، رغم أنهم يرونها في حياتهم اليومية، يجب ألا يكون ذلك في أثناء العبادة، حيث الأساس هو التواضع والتعبد."

حسنا...لننقل تعليقنا على هذا الموضوع.

أولا :

1- ما قاله شيخ الازهر هو الرأى السائد فى الفقه السنى.وبدلا من أن نرد عليه هو فقط سنرد أيضا على أئمته المقدسين الذين ينقل عنهم.
الامام مالك اقدم من دون فى الفقه والحديث لم يتعرض للموضوع اصلا فى كتابه "الموطأ. الامام الشافعى فى كتابه "الأم" هو أول من أصدر فتواه فى الموضوع .
عن صلاة الجمعة قال": ولا تجمع امرأة بنساء لأن الجمعة امامة جماعة كاملة، وليست المرأة ممن لها أن تكون امام جماعة كاملة." "الأم 1- 171 " أى لا تصح لأمرأة أن تقيم صلاة جمعة حتى لو كانت للنساء فقط لأنه ليست للمرأة ان تكون اماما لأى جماعة.
الشافعى لم يستدل بآية ولا حتى حديث من الأحاديث الكاذبة التى ملأ بها كتابه ، واكتفى باستدلال عقلى هو أنه لا يجوز للمرأة أن تكون أماما لجماعة كاملة. وهى عبارة ركيكة تحمل وجهة نظر ذكورية متحيزة، والرد عليه سهل من القرآن والتاريخ . القرآن الكريم ذكر أن امرأة كانت ملكة لسبأ، كانت تملك قومها وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، واعترف لها الملأ من اتباعها قائلين : " نحن أولو قوة وأولى بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين".النمل 23-33"
نحن هنا امام امرأة تقود جماعة وقد ذكرها القرآن معترفا بكونها ملكة لقومها وأشار الى حنكتها بينما تكرر القصص القرآنى فى ذكر مستبد آخر ، لكنه من الذكور وصل به استبداده الى ادعاء الالوهية ومطاردة اثنين من انبياء الله تعالى وقومهما المضطهدين ، فاستحق اللعنة والغرق وصار مثلا لكل مستبد يهلك نفسه وشعبه ودولته. أنه فرعون الذى لا يتعظ بسيرته المستبدون من حكامنا العرب الذين لم يصل واحد منهم الى حكمة المستبدة العربية الحسناء بلقيس فى العصور القديمة مما يؤكد انهم تأخروا بنا للوراء عشرين قرنا من الزمان.
جدير بالذكر ان شيخ الأزهر أفتى بأن المرأة من حقها ان تترشح لرئاسة الجمهورية وهذا اجتهاد جميل نشكره له ونشجعه عليه، وان كان قد جاء متأخرا بحكم العادة، اذ سبقناه ونشرنا بحثا أثار ضجة فى حينه لأنه يحمل عنوانا جريئا يقول " حق المرأة فى رئاسة الدولة الاسلامية" وبعد اذاعته فى ندوة عالمية فى القاهرة كانت تحت رعاية الدكتورة نوال السعداوى ، وبعد ترجمته الى الانجليزية – نشره مركز القاهرة لحقوق الانسان فى دورية "رواق عربى" سنة 1999 . السؤال هنا : اذا كان للمرأة أن تكون اماما فى الحكم وقيادة المسلمين – برغم أنف الامام الشافعى – ألا يصح لها أن تؤمهم فى الصلاة؟
قد يقول قائل : ان امامة السياسة غير امامة الصلاة . وأقول انه فى التراث السنى لا فارق بين الاثنين فالخليفة الحاكم هو الأمام أيضا فى الصلاة. بل انها مهمته الأولى ، ومنها يكتسب لقب الامام فى كتب الفقه بالذات حيث يطلق لقب للامام على الحاكم السياسى .

2- نرجع الى الشافعى فى الرد عليه بالقرآن لنقول ان الله تعالى ضرب مثلا أعلى لكل المؤمنين – رجالا ونساء – فى كل عصر بامرأتين هما امرأة فرعون والسيدة مريم عليهما السلام .كما ضرب أسوأ مثل للبشرية – أيضا – بامراتين هما زوجة نوح وزوجة لوط عليهما السلام. أى ان المراة هى مثل أعلى فى

الخير والشر بغض النظر عن زوجها. كان الزوج مستبدا احمق – مثل فرعون – بينما كانت زوجته اماما للمؤمنين . كان الزوج نبيا عظيما وكانت زوجته على النقيض خائنة له. القرآن ذكر هذين المثلين ليدل على استقلالية المرأة بذاتها واستحقاقها أن تكون قدوة فى الخيرأو فى الشر. والامامة هى أن يكون الامام قدوة للمأموم فى الصلاة. .

ولماذا نذهب بعيدا، ألم تقم السيدة عائشة – حسب المعروف فى الروايات التاريخية – بقيادة جيش كامل تحارب به الامام الشرعى للمسلمين؟ بغض النظر عن تقييم موقفها فان من احتج عليها لم يقل ان امامة المرأة ممنوعة ولكن قالوا فقط ان الواجب على نساء النبى هو لزوم البيت وعدم الخروج منه باعتبار ذلك حكما خاصا بهن فقط حيث قال تعالى لهن " وقرن فى بيوتكن . "الأحزاب 33"

3- نعود للشافعى وهو يصدرأحكامه التشريعية على امامة المرأة فى صلاة الجماعة العادية ، يقول:" ولا يجوز أن تكون أمرأة امام رجل فى صلاة بحال أبدا " ويرى انه يجوز لها أن تؤم النساء فقط ، وانه من صلى وراءها من الرجال والصبيان لا تصح صلاته. واستدل بقوله تعالى "الرجال قوامون على النساء " وان النساء ممنوعات من أن يكن أولياء (كناب الأم للشافعى "1"– 145" ط. الشعب . القاهرة)

الشافعى هنا يخلط الأوراق . فلا قوامة للرجل على زوجته اذا اشترطت الزوجة ذلك فى عقد الزواج . وهى عموما مشروطة فى القرآن بالانفاق عليها من الزوج ، والقوامة لا تعنى التسلط الزوجى وانا الرعاية والمسئولية بالانفاق عليها ، وهى شأن مختص بعلاقتهما الزوجية لا شأن له بالصلاة التى هى علاقة بالله تعالى ، والامام فى الصلاة يجب أن يكون الأفضل فى قراءة القرآن والأكثر أقامة للصلاة والأكثر التزاما بالخلق القويم – اى شروط موضوعية فى امامة المصلين وليست شروطا نوعية جنسية . وعلى أى حال ماذا يكون الحكم اذا كان الزوج من نفس نوعية فرعون موسى وكانت زوجته من نوعية امرأة فرعون واراد الزوج أن يصلى هل يؤم زوجته وهو لايجيد سوى العصيان ؟

أما قول الشافعى بحرمان المرأة من الولاية فقد سبق الرد عليه قرآنيا وتاريخيا.

الا ان المضحك فيما يقوله الشافعى فى نفس الصفحة وهو يشرع امامة المرأة للنساء فقط " تؤم المرأة النساء فى "الصلاة" المكتوبة وغيرها, وآمرها ان تقوم فى وسط الصف . وان كان معها نساء كثيرات أمرت ان يقوم الصف الثانى خلف صفها، وكذلك الصفوف . وتصفهن صفوف الرجال اذا كثرن". هنا تشريع جديد يأمر به الشافعى النساء كما لو كان الاها مع الله تعالى . واضح اذن انه شرع الشافعى وليس شرع الله تعالى لأن الذى يأمر وينهى ويبتدع ويخترع فى الدين هو الشافعى وهواه الشخصى .

4- المضحك اكثر ان الفقهاء الآخرين من اتباع الشافعى ومن اتباع المذاهب السنية الأخرى ساروا على نفس طريق الشافعى يصدرون الأوامر التشريعية التى تعبر عن أهوائهم وغرائزهم ويجعلونها شرع الله تعالى!!

تعالوا بنا الى السفر الضخم :"الفقه على المذاهب الأربعة " 1-409 ، 384-385 "ط. القاهرة 1970.) وقد جمع فيه الشيخ الجزيرى الراجح فقط من اقوال فقهاء المذاهب الأربعة فى عصور الآزدهار الفكرى متجاهلا

التخلف الفقهى فى العصر العثمانى والذى لا يزال يتم تدريسه فى الأزهر, وفيه من بذىء القول وانحطاط الفكر ما يخجل منه سيدهم ابليس نفسه!!

عن حضور المرأة لصلاة الجمعة يلخص الكتاب آراء المذاهب . ونحن ننقلها عنه ونعلق عليها :(الحنفية قالوا ان الأفضل للمرأة أن تصلى فى بيتها الظهر بدل الجمعة لأن الجمعة لم تشرع فى حقها). أقول هذا خطا لأن الأمر بصلاة الجمعة جاء عاما للجميع من ذكر وانثى شان كل العبادات .

وقال المالكية (اذا كانت المرأة عجوزا لم يعد فيها للرجال مطمع يجوز لها حضور صلاة الجمعة. اما اذا كانت عجوزا لا يزال فيها مطمع للرجال فيكون مكروها لها حضور صلاة الجمعة. ويحرم عليها حضور صلاة الجمعة اذا كانت شابة وخيف من حضورها افتتان الرجال بها فى طريقها أو فى المسجد.) ونقول ما هو معيارافتتان الرجال بالمرأة العجوز أو بالشابة؟ ما هو مقياس مطامع الرجال فى هذه أو تلك ؟ هل نقيم للنساء مسابقات جمال ليحكم الرجال على من فيها مطمع ومن زالت عنها المطامع الجنسية وعليها أن تقدم استقالتها من عالم الأنوثة والآشتهاء الجنسى ؟ وما شأن ذلك كله بعبادة الصلاة وهى المفروض ان تسمو بالناس وتجعلهم يفكرون فيما يسمو عن الغرائز ؟

قال الحنابلة (يباح حضورها صلاة الجمعة بشرط ان تكون غير حسناء. أما اذا كانت حسناء فانه يكره لها الحضور) المشكلة ان كل انثى ترى فى نفسها انها حسناء, وأن كل أنثى لا تخلو من حسن. وان أذواق الرجال فى جمال النساء يختلف من رجل لآخر. فأين المعيار وكيف نطبقه، وهل نعلق على كل مسجد اسماء الحسناوات الممنوعات من الدخول وبجانبه اعلان آخر يرحب بالقبيحات المؤمنات ؟ وهل اذا أرادت حسناء ان يزداد ايمانها بحضور صلاة الجمعة فنقول لها : عيب ياحلوة روحى الديسكو أحسن حتى لا تغرى جموع الأبرار فى المسجد ؟؟!!

جاء الشافعية بتفصيلات " مفيدة" ، قالوا (انه مكروه حضورها ان كانت مشتهاة – أى يشتهيها الرجال – حتى لو كانت فى ثياب رثة. اما اذا لم تكن مشتهاة ولكن تزينت وتطيبت وتعطرت فيكون مكروها أيضا حضورها صلاة الجمعة. وفى كل الآحوال يشترط الشافعية لحضور المرأة صلاة الجمعة شرطين: اذن ولى الأمر ، وألا يخشى من ذهابها افتتان أحد بها. والا يحرم عليها الذهاب الى صلاة الجمعة). المستفاد من كلام الشافعية انه لا يجوز للمرأة القبيحة أو العجوزالتى لا يشتهيها الرجال ان تذهب للمسجد الا وهى فى حالة يرثى لها – آخر بهدلة – ثم لا يكفى هذا بل لابد أيضا أن تاخذ تعهدا مسبقا على الرجال الأبرار فى المسجد ألا يفتتن بها أحد اذا جاءت , ثم تستجدى ولى أمرها لكى يسمح لها بالذهاب للمسجد لصلاة الجمعة. لا يهم أن يكون اصغر سنا منها أو أن يكون ابنا لها، المهم أن يكون ذكرا يستطيع أن يقهرها بالفقه وبالمجتمع الذكورى المتخلف معه.

الواضح ان اولئك الفقهاء مهووسون بالمراة جنسيا لا يرون فيها الا عورة يجب اخفاؤها بين ملابسهم الداخلية حتى لا يراها غريب. وفى مرحلة الدراسة فى الثانوى الأزهرى كان الفقه المقرر علينا بالغ الشناعة والقذارة حتى كان يجرح خيالاتى وانا فى مرحلة المراهقة ، وقد سميته من وقتها "فقه النصف الأسفل" محتجا عليهم ان يختزلوا المرأة فى مفهوم العورة لا ينظر اليها الا من خلال الهوس الجنسى .

5- من الطريف ان هذا الفقه الذكورى كان انعكاسا للعصر العباسى فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، حيث نشأ وضع اجتماعى غريب للمرأة وقتها. كانت تجارة الاماء - الجوارى - قد وصلت ذروتها ووصلت الاماء الى كل بيت من الطبقة العليا ومعظم الطبقة الوسطى . ولم تكن الجارية مجرد امرأة حسناء بل كانت امرأة مثقفة ، اذ كان يتم اختطافها من موطنها وتتقلب بين أيدى العصابات وباعة الرقيق وهى جارية" غفل" - بضم الغين والفاء - الى ان ينتهى بها المطاف الى تاجر الرقيق المحترف فى بغداد او غيرها من العواصم فيقوم بتعليمها اللغة العربية والقرآن والأحاديث والتاريخ والنوادر والأخبار والشعر والأدب والغناء والعزف وسرعة البديهة والظرف والاتيكيت, ويقوم على تعليم الجوارى مشاهير المتخصصين, ومن ثم يرتفع ثمنها أضعافا، ويمكن بيعها الى دار الخلافة وبيوت الوزراء والأكابر. فى نفس الوقت كان من المباح اجتماعيا فى بيع الجارية كشف جسدها وكان الفقهاء يجيزون للمشترى ان يقلب فى جسدها شأن كل من يشترى سلعة.
وكان معروفا عرض الجوارى للبيع عاريات الصدور والنهود فى السواق وعلنا لكل من يريد الشراء. وبعد شرائها كان صاحبها اما أن يستبقيها لمتعته الشخصية جسديا وليأنس بها ثقافيا واما أن يستثمر مواهبها فى الحانات او يعيد بيعها اذا جار عليه الزمن. امتلأت بيوت الخلافة العباسية بالجوارى وكان كل الخلفاء العباسيين من اولاد الجوارى عد اثنين فقط هما السفاح والأمين . وفى العصر العباسى - خصوصا العصر الثانى - كان معروفا تسلط الجوارى على تسيير امور الخلافة , وقد كتبت سلسلة مقالات بحثية تحت عنوان" نساء بين سطور التاريخ " أفصل فيها وأفسر التاريخ العباسى من خلال سيطرة الجوارى على الخليفة. منذ الخليفة السفاح وسيطرة زوجته عليه الى الخليفة الرشيد وسيطرة أمه الخيزران الى قبيحة التى سيطرت على زوجها المتوكل وابنها المعتز الى شغب التى حكمت الخلافة العباسية اكثر من عشرين عاما فى عهد ولدها المقتدر العباسى وهى التى عينت صديقة لها قاضيا للقضاة.
هذا التغلغل من الجوارى فى المجتمع العباسى بنفوذهن وثقافتهن وتأثيرهن على الرجال من العشاق والابناء أقام حركة نهضة نسوية فى العراق العباسى لم تظهر واضحة بين عناوين التاريخ العباسى الذى اقتصر التأريخ فيه على الرجال من الفقهاء والمؤرخين الناقمين على المرأة ، فظلت تلك الحركة النسوية مجهولة فى الحوليات التاريخية ومذكورة بعض الشىء فى كتب الأدب والشعر مع انه نشأ عنها مطالبة المرأة بوظيفة الكتابة والحجابة والخطابة كالرجل تماما. قال شاعر عباسى يتندر على ذلك:
ماللنساء والكتابة والحجابة والخطابة   هذا لنا ولهن علينا أن يبتن على جنابة
فى مقابل الجوارى السافرات النشطات كانت الحرائر داخل البيوت والنقاب يعانين العزلة والاهمال والحبس والعنوسة أو تعدد الزوجات وهضم الحقوق. فى هذا العصرلم يستطع الفقهاء الاحتجاج على نفوذ الجوارى المتحكمات فى الخلافة العباسية والوزراء. لم يجدوا الا الفتاوى الحانقة يكتبونها لتعبر عن احباطهم ونقمتهم. هذه هى الأرضية التاريخية للفقه السنى الذكورى فى عصره الذهبى, وليس الاسلام مسئولا عنها بالطبع.
ثانيا:
فىايجاز شديد نقول:ـــ

1-: فى الاسلام هناك تعامل بالمساواة بين الرجل والمرأة فى الواجبات والثواب والعقاب ، قد يأتى ذلك بصورة عامة تخاطب الرجل والمرأة معا تحت مصطلح "أيها الناس" " يابنى آدم " " يأيها الذين آمنوا " " النفس"" الزوج" الخ.." يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ...""البقرة 183" " يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع . الجمعة 9 " وقد يأتى بصورة تفصيلية كالذكر والأنثى "ومن يعمل من الصالحات من ذكر أوانثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون فتيلا. ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن "النساء 124 –125"

وفى مجتمع المدينة حيث الحرية المطلقة فى الفكر والعقيدة والسياسة، اتيح للمرأة ان تدعو الى ما تؤمن به ان خيرا وان شرا ، وبينما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان المنافقون فى المدينة يفعلون العكس يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويرفضون إعطاء الصدقة، ويعلنون موقفهم هذا فى جو من الحرية لا نتخيل حدوثه الآن، والقرآن يسجل ذلك ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ (التوبة 67) وكان المؤمنون فى المقابل كما وصفهم رب العزة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ﴾ (التوبة 71). اذن نحن أمام مجتمع حى متفاعل ، كل طائفة تعبر عن رأيها بصراحة. ولا يمكن فى وجود هذا التفاعل أن نتخيل امرأة منقبة او منسية مهملة بين حيطان بيتها. فالمؤمنة هنا تخرج من بيتها تأمر المؤمنين والمؤمنات بالمعروف وتنهاهم عن المنكرعلى قدم المساواة مع الداعية المؤمن الذى يفعل نفس الشئ. وهم كانوا يفعلون ذلك ليس على شاشات التليفزيون وانما بالخطاب التفاعلى المباشرحيث تقف المرأة خطيبا تأمر المستمعين وكذلك يفعل الرجل.وساحة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تشمل الشارع والمسجد والسوق والبيوت وكل ما ينبض بحياة البشر. مصطلح "المعروف" فى تشريع القرآن هو المتعارف عليه على انه قيمة اخلاقية عليا من العدل والحق والسلم والتسامح والصبر والاحسان. وعكسه المنكر وهو الظلم والأعتداء وسوء الخلق والرذائل. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى تشريع الاسلام ليس حكرا على طائفة تحترف هذا العمل وتتخذه وسيلة للاستطالة على الناس حيث يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وحيث يقولون ما لا يفعلون ، وانما هو واجب دينى عام على كل انسان وهو مجرد النصح والتحذير دون تدخل فى الحياة الشخصية طالما لم يقع الجانى فى الاعتداء على الآخرين ويستحق العقاب .

2–المرأة لها المشاركة السياسية والاجتماعية فى كل شىء كالرجل تماما دون تقييد بالنوع أو الجنس فى العبادات أو المعاملات. القرآن الكريم ذكر الأعذار المبيحة لعدم التكليف ببعض الواجبات والمهام ، ليس منها على الاطلاق الانوثة – وهذا عكس الفقه السنى الذى يشترط الذكورة فى أشياء كثيرة. على سبيل المثال الضعاف والمرضى والفقراء من الرجال والنساء لهم العذر فى التخلف عن الجهاد والهجرة ويضاف لهم الاعمى والاعرج " التوبة 91 " النساء 98 " النور 61 الفتح 17 " هذا يشمل الرجل والمرأة معا. والعادة ان المباح لا يذكره القرآن وانما يذكر فقط الاستثناء وهما الواجب المفروض والممنوع المحرم. ولم يأت فى

القرآن تحريم لامامة النساء اذن فهى مباحة. ويؤكد اباحتها ان التشريع الأسلامى لا يفرق فى العبادات بين الرجل والمرأة . وحين نقول التشريع الاسلامى نقصد القرآن فقط . أما ما يقوله أفضل الفقهاء – وقد رأيناه – فليس تشريعا اسلاميا بل هى اجتهادات بشرية ناقشناها وقضينا وقتا ممتعا فى التندر عليها.

3–الصلاة والحج والصيام والزكاة والحج هى ملة ابراهيم المتوارثة والتى كان – ولا يزال – يؤكدها اخلاص الدين لله تعالى وحده دون شريك. وكان المسلمون فى مكة مأمورين باقامة الصلاة – أى الصلاة المعروفة المألوفة لديهم . واقامة الصلاة ليس فقط بتأديتها ولكن بالحفاظ عليها بمراعاة التقوى والاستقامة الخلقية وذلك يستلزم التوعية. والتوعية تأتى بالنصح أو بالتعبير القرآنى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تنفيذا لسورة العصر التى تلخص المجتمع المسلم الحى المتفاعل كله بالخير.هذا التفاعل هو الذى يجعل للصلاة والعبادات وظيفة اجتماعية اخلاقية. بحيث تتحول الى سلوكيات أو عمل صالح نافع للناس. وهذا هو المعنى القرآنى لاقامة الصلاة أو المحافظة على الصلاة. وكان من وظيفة خاتم النبيين هى تخليص ملة ابراهيم مما الحقته بها قريش من عبادة الأوثان ومن تضييع الصلاة أى عدم اقامتها والمحافظة عليها.(" مريم 54 –59 – المؤمنون 1 –2– 9– المعارج 22– 34 ") وارجع الى القرآن فى سوره المكية واقرا كيف تعدد الأمر باقامة الصلاة وايتاء الزكاة لهم فى مكة. وكان الخطاب عاما للذكر والأنثى دون تفضيل لذكر على انثى الا بما يتطلب الكفاءة مثل امامة الصلاة. وكل ما توارثناه فى الصلاةصحيح وهو السنة العملية طالما لم يخالف آية فى القرآن. فالمذموم من المتوارث هو فقط ما يخالف القرآن. وما حكم به الفقهاء من بطلان امامة المرأة للرجل هو مما يخالف القرآن ولذا فلا نأخذ به.

<u>ثالثا</u>

<u>ان الفقه السنى اجمالا يخالف التشريع الاسلامى فى أساسياته وقواعده ومقاصده ومصطلحاته وتفصيلاته وليس فقط فى هذه الجزئية.</u>

<u>ونعطى اشارات سريعة سبق ذكرها فى مقالات سابقة</u>

1 –تدور التشريعات فى القرآن الكريم حول ثلاث درجات : الفرض المكتوب او الاوامر ، ثم النواهى أو المحرمات ، ثم ما بينهما وهو المباح ، ومنهج القرآن فى التشريعات فى هذه الدرجات ان يحدد الفروض والمحرمات ثم يترك المباح مفتوحا ، واذا كان هناك تشريع سابق يحرم شيئا وجاء القرآن بتحليله مجددا يأتى ذلك فى القرآن فى سياق الحلال الجديد كقوله تعالى (احل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم : البقرة 187) . وجاء الفقة السنى بتأويل وتعديل للمدار التشريعى ، اذ اضاف اليه درجتين فى التشريع انتزعهما من المباح الحلال هما المكروه والمندوب او المسنون . فالمكروه هومباح ينبغى تركه أو درجة اقل من الحرام, والمندوب او المسنون هو مباح ينبغى فعله وان لم يكن واجبا لأنه اقل من الفرض الواجب .

2 – وترتب على هذا التأويل والتعديل للمدار التشريعى الاسلامى القرآنى نتيجتان

* الاولى:–

اضافة مصطلحات جديدة تخالف القرآن وهى المكروه والمندوب ، وعلى سبيل المثال فإن المكروه فى مصطلحات القرآن ليس مباحا اقل درجة من الحرام كما يقولون بل هو اشد انواع الحرام تجريما قال تعالى (وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان : الحجرات 7) وبعد ان جاء تحريم السرقة والقتل والكفر وسائر الكبائر فى سورة الاسراء قال تعالى عنها (كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها : الاسراء 38)

* الثانية :-

هى التضييق من دائرة الحلال المباح وتحويل المباح الحلال الى مكروه لا ينبغى العمل به ، وهذا يعنى التدخل فى تشريع الله تعالى من حيث الدرجة ومن حيث التفصيلات.

التأويل فى قواعد التشريع الجامعة المانعة والمؤكدة :

1 – هناك قواعد تشريعية جامعه مانعه ، اى تجمع المحرمات داخل سور محدد وتمنع اخراج احد منه او اضافة احد اليه ، مثل المحرمات فى الزواج ، وقد ذكرها القرآن بالتفصيل ثم بعدها قال (واحل لكم ما وراء ذالكم ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين : النساء 24) اى فالنساء داخل ذلك السور الجامع المانع كلهن محرمات ، والنساء خارج هذا السور الجامع المانع كلهن حلال للزواج ، وجاء التأويل السنى ليخرق هذا السور بأن اضاف اليه بالقياس قاعدتين فقهيتين جعلهما احاديث منسوبة للنبى وهى (يحرم من الرضاع ما يحرم بالنسب) ، (لا تنكح المرأة على عمتها او خالتها) ، وعلى ذلك فإذا اراد رجل ان يتزوج خالته من الرضاعة فإن ذلك حلال فى تشريع القرآن الكريم وحرام فى تشريع أهل السنة ، ونفس الحال اذا اراد ان يتزوج على امرأته عمتها او خالتها يقول تعالى ذلك حلال ويقول الفقهاء من اهل السنة ذلك حرام .

وهناك مثال اخر هو المحرمات فى الطعام التى تكررت كثيرا فى القرآن الكريم " البقرة 173" ، " المائدة 3" ، " الانعام 145" ، " النمل 115" وهى الميتة والدم ولحم الخنزير وما يقدم للأوثان . وبرغم تحذير القرآن الكريم من اضافة اى محرمات جديدة للطعام (المائدة 87، يونس 59:60 ، النحل 116: 117، التحريم 1) الا ان اهل السنة اضافوا تحريم الكثير من الحلال ، وتمتلىء بذلك كتب الفقة .

2 – وهناك قواعد تشريعية قرآنية مؤكدة باسلوب القصر والحصر مثل قوله تعالى (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق (الاسراء 33، الانعام 151) (والذين لا يدعون مع الله الها اخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق الفرقان 68) اى فلا يجوز القتل فى الاسلام الا بالتشريع القرآنى الحق وهو طبقا للنصوص القرآنية يأتى فى صورة القصاص ، سواء كان ذلك فى الجرائم (البقرة 178) او فى الحروب (البقرة 194) وجاء الفكر السنى فألغى هذه القاعدة التشريعية المحكمة الملزمة فأضاف قتل المرتد والزنديق وتارك الصلاة ورجم الزانى ، ثم توسع فى القتل ليجعل من حق الامام ان يقتل ثلث الرعية فى سبيل اصلاح الثلثين ..!!

3 – وهناك قواعد تشريعية قرآنية جاء تأكيدها فى القرآن الكريم بكل اساليب التأكيد مثل الامر بالوصية للوارث وغير الوارث فى قوله تعالى (كتب عليكم اذا حضر احدكم الموت ان ترك خيرا الوصية للوالدين

والاقربين بالمعروف حقا على المتقين : البقرة 180) فالتأكيد فى الوصية جاء بصيغ مختلفة شديدة الدلالة مثل "كتب عليكم " ، " إن ترك خيرا " ، " بالمعروف" ، " حقا "،" على المتقين" ، ثم جاءت الايات بعد ذلك تضع قواعد الوصية. وفى سورة النساء نزل الامر بالوصية ليطبق قبل توقيع الميراث (من بعد وصية يوصى بها او دين : النساء 11، 12) ومع ان الوالدين لهما حق فى الميراث وحق ايضا فى الوصية ، ومع ان قواعدالميراث والوصية هى حدود الله التى يحرم التعدى عليها (النساء 13:14) الا ان الفقة السنى الغى الوصية للوارث طبقا لقاعدة فقهية جعلها حديثا نبويا يقول (لا وصية لوارث) وافتروا أن هذه الكذبة المخالفة للقرآن قد " نسخت الآيات المخالفة لها..

ان تشريع الوصية والحث عليها جاء تحقيقا للعدالة الاسلامية. فأنصبة الميراث محددة بالنصف والربع والسدس والثلث والثمن ولا يجوز تعديلها. وتطبيقها وحدها قد يحمل ظلما بين الورثة. قد يكون فيهم من يستحق الزيادة فى حصته لظروف خاصة به تستوجب ذلك، هنا تأتى الوصية لتعالج الأمر تحت عين المجتمع ورقابته ووفقا لمسئولية المتوفى أمام الله تعالى فى توزيع الوصية حسبما جاء فى آيات الوصية ، بالوصية مثلا يمكن لك أن تعطى ابنتك نصيبا مساويا لابنك طالما كانت تستحق ويطمئن ضميرك والمجتمع لذلك.

4- وترتب على هذا التأويل السنى لتشريعات القرآن الكريم المحكمة والملزمة نتيجتان متلازمتان :-

* الاولى :-

اضافة معانى مخالفة لمصطلحات القرآن الكريم فالنسخ فى القرآن الكريم وفى اللغة العربية يعنى الاثبات والكتابة والتدوين ، ولكنهم جعلوا النسخ عندهم يعنى الحذف والالغاء والتبديل .

*الثانية :-

جعلوا فتاويهم الفقهية واحاديثهم المنسوبة زورا الى النبى تلغى قواعد القرآن الكريم التشريعية وتبطلها ، وبالتالى جعلوها فوق القرآن الكريم الذى هو كلام رب العالمين.

<u>اهمال قواعد التشريع ومقاصده العظمى:</u>

عموما فالاحكام في التشريعات القرآنية هي اوامر تدور في اطار قواعد تشريعية ،وهذه القواعد التشريعية لها مقاصد او اهداف ،او غايات عامة .

يبدأ التشريع القرآنى بالأوامر مقترنة بقواعدها ، وقد تأتى المقاصد فى خلال الآية نفسها أو فى خلال السياق أو تأتى منفصلة. ولسنا فى مجال التفصيل لذلك حتى لايفلت منا موضوع التأويل. ولكن اعطاء امثلة يعين على الفهم:-

نبدأ بمقاصد التشريع القرآنى وهى نوعان : النوع الأول ويتمثل فى مصطلح التقوى أى خشية الله تعالى أو بتعبيرنا المعاصر الضمير الحى الذى لا يكتفى بالتأنيب على الخطأ والعزم على عدم العودة اليه ، ولكن قبل

ذلك يمنع الانسان من الوقوع فى الخطأ " الأعراف 201 " آل عمران 133-136 ". والتقوى تجمع فى ثناياها الايمان الصحيح بالله تعالى واليوم الآخر مع المداومة على عمل الصالحات أى العبادات والمعاملات.ولذلك لا يدخل الجنة الا المتقون. فالايمان وحده لايكفى ، والعمل الصالح وحده لايكفى. هذه هى التقوى كقيمة عليا فى الاسلام ومنهجه الخلقى والعقيدى والتشريعى .

فى المجال التشريعى تأتى التقوى فى سياق التشريعات نفسها وتاتى أحيانا منفصلة عنها باعتبارها قيما عليا فى حد ذاتها، فالأمر بالتقوى تكرر للنبى نفسه والمؤمنين وكان أحيانا يأتى فى مطلع السور"النساء ـ الأحزاب ـ الحج ". وتأتىالتقوى فى سياق التشريع لتؤكد على ضرورة ربط التطبيق البشرى للتشريع الالهى باحياء الضمير والسمو بالنفس وتزكيتها وحسن العلاقة المباشرة بيى الانسان وربه الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، واذا كان يعلم ان الله تعالى يراه فلا بد له من أن يخشى الله تعالى ويسعى فى مرضاته جل وعلا. حتى لو كان بمأمن من السلطة البشرية والمراقبة البوليسية. من أجل هذا الدور السامى للتقوى فى التشريع القرآنى تجد الأمر بالتقوى يرصع آيات التشريع فيها جميعا. ونعطى مثالا واحدا: يقول تعالى فى تشريع الطلاق مؤكدا على حفظ حقوق المرأة" واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فامسكوهن بمعروف أوسرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا. ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ، ولا تتخذوا آيات الله هزوا، واذكروا نعمة الله عليكم وما انزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم "البقرة 231 " . الآية هنا انقست الى قسمين : الأول فى الأمر التشريعى وهو تخيير الزوج ـ الذى طلق زوجته وبلغت العدة وهى فى بيته ـ بين أن يحتفظ بالزوجة ويمسكها بشرط معاملتها بالمعروف ، وبين أن يتحول الطلاق ـ وهو فى التشريع القرآنى مجرد مهلة للمراجعة وليس انفصالا نهائيا ـ الى انفصال نهائى بأن يطلق سراحها ولكن أيضا بالمعروف ودون اضرار. وحتى لا يضمر الزوج ان يعيدها الى عصمته بقصد اذلالها يحذر التشريع القرآنى من ذلك ويجعله اعتداءا. وبعد مجيء التشريع بالأمر والنهى جاء القسم الثانى من الآية بالمقصد التشريعى مباشرة يشمل الانذار والوعظ والتحذير والتنبيه ومراعاة التقوى. نلمح هنا بسرعة الى التناقض بين تشريع الطلاق فى القرآن وتشريعه فى الفقه السنى ، وقد كتبنا فى ذلك من قبل. ونلمح أيضا الى أن فحوى الآية السابقة قد جاء مفصلا أيضا فى افتتاحية سورة الطلاق حفظا لحقوق المرأة ولكن التأويل السلفى أضاع تشريع القرآن وحقوق المرأة وحقوق الانسان.

وبعد التقوى المقصد التشريع الأعظم تأتى المقاصد التشريعية الأخرى من حفظ تماسك الأسرة ورعايتها، والتخفيف ورفع الحرج والتسهيل ، والعفة الجنسية.

كل تشريعات الأسرة فى القرآن تهدف الى حفظها وتماسكها كمقصد اسمى لتلك التشريعات ، ولكم العادة السيئة للفقه السلفى أن يركز على الأوامر ويترك القواعد والمقاصد. ففى موضوع الأسرة مثلا تأتى القاعدة التشريعية تؤكد على " وعاشروهن بالمعروف ، فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا."" النساء 19" وتحت هذه القاعدة ياتى التعامل مع الزوجة التى تريد النشوز أى هدم بيتها مع تمتعها بكل

الحقوق وقيام الزوج بالقوامة عليها ــ ومصطلح القوامة فى القرآن يعنى الرعاية والحفظ وتحمل مسئولية الزوجة والقيام بمتطلباتها بالمعروف ــ هنا يكون من وسائل حفظ البيت والأسرة تأديب الزوجة الناشز بالوعظ ثم بالهجر ثم بالضرب. وياتى التحذير من اساءة التطبيق فى هذا التشريع بظلم الزوجة المطيعة " النساء 34"

وأيضا لسنا فى مجال التفصيل هنا وهو يحتاج الى بحث مستقل متكامل، ولكن حتى لا يفلت منا موضوع التأويل نقرر أن الفقه السلفى قد تجاهل القاعدة والمقصد التشريعى فى هذا الخصوص وركز فقط على "ضرب الزوجة".

فى موضوع العفة والاحصان الخلقى جاءت "الأوامر " التشريعية بغض النظر المحرم للرجال والنساء معا وعدم الأقتراب من مقدمات الزنا والحشمة فى زى النساء " النور 30 -31 الاسراء 32". ركز الفقه السلفى على هذه الأوامر الى درجة التطرف فتحول الخمار الذى يغطى الصدر دون الوجه والشعر الى نقاب يعبىء المراة ويعلبها فى غلاف اسود كئيب ، وهو مزايدة محرمة على حق الله تعالى فى التشريع، وتضييع لشهادة المرأة ودورها فى المجتمع المسلم وتحريم لكشف وجهها وهو حلال فى الاسلام، وأيضا ليس هذا مجاله ولكن نؤكد هنا ان هذا التطرف بفرض النقاب أضاع المقصد الأسمى من أوامر العفة والاحصان. فالمعروف أن النقاب من اهم عوامل انتشار الانحلال الخلقى حيث تتخفى فيه المرأة وتفعل ما تشاء دون أن يتعرف عليها احد. واسألوا أهل الفكر السلفى ان كنتم لا تعلمون. والمقصد التشريعى بالتيسير ورفع الحرج اضاعه الفقه السلفى الحنبلى بتشدده وتزمته .

حتى العبادات : هى مجرد أوامرواجب علينا اداءها لبلوغ الهدف الأسمى وهو التقوى" البقرة - 183 -196 -197 ــ 21"أو هى مجرد وسائل للتقوى نستطيع بها الابتعاد عن الفحشاء والمنكر" العنكبوت 45" وهذا هو المعنى الحقيقى لاقامة الصلاة وايتاء الزكاة أى التزكى والسمو الخلقى بالتقوى. كل ذلك أضاعه التأويل السلفى حين جعل الصلاة والزكاة والحج أهدافا بذاتها، فاذا أديت الصلاة فلا عليك ان عصيت وستقوم صلاتك بمسح ذنوبك " ودى نقرة ودى نقرة " كما يقول المثل الشعبى المصرى، واذا تبرعت لبناء مسجد ولو كمفحص قطاة تمتعت بقصر فى الجنة. واذا أديت الحج رجعت منه عاريا.. آسف ... رجعت منع كيوم ولدتك الست ماما يابابا..وأكثر من ذلك ستدخل الجنة ــ غصب عنك ــ لأنك من امة محمد مهما فعلت. يكفيك أن تقول الشهادتين ثم تعيث فى الأرض فسادا. المهم أن التأويل السلفى حول العبادات الى تدين سطحى وحول الأخلاق الى مستنقع من النفاق والكذب والتدجيل. ونحن مشهورون بين الأمم بكل ما يشين بسبب ذلك .

أما علاقتنا بالآخرين فقد حولها الفقه السلفى من السلام الى العنف والارهاب والعدوان لنه ركز على الأمر وأهمل القاعدة والمقصد التشريعى.

فالامر بالقتال "قاتلوا " "جاهدوا " "انفروا "له قاعدة تشريعية وهوان يكون للدفاع عن النفس ورد الاعتداء بمثله او بتعبير القرآن (في سبيل الله)،ثم يكون الهدف النهائي للقتال هو تقرير الحرية الدينية ومنع الاضطهاد في الدين ،كي يختار كل انسان ما يشاء من عقيدة وهو يعيش في سلام وامان حتي يكون مسئولاعن اختياره الحر يوم القيامة بدون اكراه فى الدين حتى لا تكون لأى بشر حجة امام الله تعالى يوم الدين.

ونعطى امثلة سريعة:-

يقول تعالي (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين :البقرة 195) فالامر هنا (قاتلوا)والقاعدة التشريعية هي (في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين)وتتكرر القاعدة التشريعية في قوله تعالي (فمن اعتدي عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم :البقرة 194)اما المقصد او الغاية التشريعية فهي في قوله تعالي (وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين لله :البقرة 193)أي ان منع الفتنة هي الهدف الاساسي من التشريع بالقتال . والفتنة في المصطلح القرآني هي الاكراه في الدين أوالاضطهاد في الدين ،وهذا ماكان يفعله المشركون في مكة ضد المسلمين يقول تعالي (والفتنة اكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتي يردوكم عن دينكم ان استطاعوا :البقرة 217).

وبتقرير الحرية الدينية ومنع الفتنة او الاضطهاد الديني يكون الدين كله لله تعالي يحكم فيه وحده يوم القيامة دون ان يغتصب احدهم سلطة الله في محاكم التفتيش واضطهاد المخالفين في الرأي، وذلك معني قوله تعالي (وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله : الانفال 39).

الذى حدث ان فقهاء السنة ركزوا فقط على الأمر بالجهاد والقتال" قاتلوا" واهملوا القاعدة التشريعية للقتال او المسوغ الوحيد لاباحته وهو ان يكون القتال دفاعيا فقط . وترتب على هذا أن أصبح القتال ليس فى سبيل الله تعالى لاقرار الحرية الدينية ومنع الاكراه فى الدين ، وليس لمجرد الدفاع الشرعى عن النفس ، بل أصبح لتشريع العدوان على الغير وجعله ليس فقط مباحا بل واجبا شرعيا باعتباره جهادا اسلاميا.

ومن الانصاف للفقهاء السلفيين ان نذكر بقية الصورة : لقد عاشوا فى العصورالوسطى التى كانت تتفاخر بالأحتلال والهجوم على الغير وتلك ملامح العصور الوسطى والعالم الى عهد قريب، ولم يكن العرب فى جاهليتهم بمعزل عن هذه الثقافة بل كانت لهم غاراتهم التى لاتنقطع وحيث كان تشريع السلب والنهب والبغى هو التدين الثابت. ولأن الاسلام فى معناه السلمى وقيمه العليا تأبى ذلك فانه كان منتظرا أن يكون جملة اعتراضية فى تلك العصور وكان لا بد أن يعود العرب الى ما ألفوه ولكن مع تغيير هائل وشائن ، هو استخدام اسم الاسلام ذاته فى الاعتداء على الغير الذى لم يعتد عليهم. وهذا ما فعلته قريش بعد موت النبى محمد فى اعتداءاتها التى حملت تعبير الفتوحات الاسلامية زورا وبهتانا. ثم قام المؤرخون بتسجيل سيرة النبى بعد موته بقرون – وبأثر رجعى – ووضعوا فيها كل ملامح عصرهم من قتال هجومى واغتيال سياسى وارهابى وانحراف خلقى. ثم قامت الأحاديث بنسبة تللك الصورة عبر الاسناد المزيف للنبى ثم جعلوه دينا

سموه السنة وزعموا انها جاءت وحيا من الله تعالى. واصبح على الفقهاءــ وهم انفسهم فى الأغلب علماء حديث أيضا ــ ان ينشئوا تشريعا جديدا يخالف القرآن ويتصالح مع ثوابت العصر ، فقاموا بهذه المهمة ليس تحت لافتة التأويل وانما تحت مسميات ومصطلحات أخرى منها " الفقه" و"النسخ" و"السنة" الخ.

<u>ولأن هذا ينافى التقوى وهى لب الاسلام والمقصد الأعظم لتشريعاته فانه جرى أيضا اهمال الاشارة الى التقوى او الخشية من الله تعالى .</u>

وقد أشرنا الى ارتباط التشريعات القرآنية الدائم بالتقوى حيث يكون المسلم رقيبا على نفسه قبل أن يكون المجتمع او السلطة أو الضبطية القضائية رقيبا عليه. ومع هذا الاقتران بين التشريعات القرآنية والتقوى الاسلامية الا اننا لا نجد اشارة لها فى الفقه السلفى فى عصر الازدهار الفكرى، لا فى فقه العبادات أو المعاملات. وبحذف هذا الجانب الباطنى – او الروحى بالتعبير السائد – ركز الفقه السلفى فى ازدهاره الفكرى على التدين السطحى المظهرى وتجميع كل تفصيلاته الممكنة والمتصورة وفق المنهج الصورى السريانى فى الاستقصاء للحكم الفقهى. ثم انحدر الفقه السلفى فى عصوره المتأخرة والمتخلفة الىالدخول على التصورات السخيفة المستحيلة الحدوث والتى امتلأت بها كتب الفقه فى العصر العثمانى: مثل " ما حكم من حمل على ظهره قربة فساء ، هل ينقض وضوؤه أم لا؟... من جاع فى الصحراء ولم يجد الا جسد نبى من الأنبياء ، هل يجوز له الأكل منه؟ ...ماحكم من زنى بأمه فى نهار رمضان فى جوف الكعبة ؟ وماذا عليه من الأثم ؟؟ ....وما حكم من كان لقضيبه فرعان وزنى بامراة فى قبلها ودبرها فهل يقع عليه حد واحد أم حدان؟؟

كل ذلك لا زلت اتذكره من الفقه التراثى الذى كان مقررا علينا فى الأزهر الشرف جدا جدا وكان يخدش حياءنا حينئذ، ثم ظل مقررا على الجيل الذى اتى بعدنا بعد توسع الأزهرفى كل القرى المصرية دون اصلاح لمناهجه وفكره. ودخل فى الأزهر افواج من المراهقين فى تعليمه الآعدادى منهن فتيات قاصرات فى براءة الطفولة وحياء العذارى ونقاء الفطرة كان عليهن دراسة هذا الفقه القذر المتخلف, ولم يتم حذف سطوره الا بعد مقالات لى كوفئت عليها بالتكفير فى اوائل التسعينيات. ونمسك القلم عن المزيد حتى لا نخرج عن موضوعنا.

من هو الآخر فى الاسلام؟

السائد فى الفقه التراثى ولدى المتطرفين تقسيم العالم الى معسكرين متصارعين : معسكر الايمان والسلام والاسلام، وهو دار الاسلام، وخصمه وهو الغرب ؛ معسكر الكفر ويسمونه دار الحرب. وفى هذا التقسيم يوضع غير المسلمين من الأقليات الدينية موضع الشبهة والاضطهاد، وينظر اليهم باعتبارهم خونة ينتمون للعدو الخارجى فى معسكر الاعداء أو (دار الحرب)

للانصاف فان ذلك التقسيم لم يكن قاصرا على العرب والمسلمين وحدهم بل كان ثقافة العصور الوسطى فى أوروبا وبلاد المسلمين، وقامت تلك الثقافة على تدين مبنى على التعصب الدينى المذهبى فى الداخل والحروب الدينية مع المعسكر الآخر فى الخارج. ويدفع الثمن الأقليات الدينية فى المعسكرين هنا وهناك، كما يدفعها الطرف المهزوم، ولا ننسى المذابح التى أقامها الأسبان للعرب المسلمين بعد سقوط غرناطة؛ آخر معقل للمسلمين فى شبه جزيرة ايبريا، فاذا كان المسلمون يعاملون الطرف المسيحى المنهزم على أنه الأقل شأنا وعليه دفع الجزية، فان الأسبان قاموا باستئصال المسلمين واليهود تماما، وأفرغوا البلاد منهم . الواقع انه كلما تحمس أحدهم لدينه وفق هذه الثقافة العصر أوسطية ازداد كراهية للآخر ورغبة فى استئصاله. وكان الأسبان هم الأكثر تعصبا و الأكثر قربا للعرب والمسلمين.

الأساس العقيدى لهذا التصنيف هو تقسيم المسلمين الى " أمة محمد " وتقسيم المسيحيين الى "أمة المسيح ". المسيحيون يعتقدون ان المسيح عليه السلام هو المخلّص، ومعظمهم يؤلهه، وفى غمار الحروب الصليبية والاكتشافات الجغرافية والابادة الجماعية للسكان الأصليين كان الأسبان يرتكبون تلك الفظائع باسم المسيح، وعموما تم الاستعمار فى العصر الحديث لمعظم العالم الاسلامى وبقية العالم تحت سفن تحمل الصليب، وتتغنى بالمسيحية. هذا بينما المسيحية فى اخلاقياتهت تقوم على الحب والتسامح. والتسامح المسيحى المقترن بالصبر والتضحية نراه تاريخا ناصعا فى حياة أجدادنا المصريين الأقباط. وفى هذا تختلف المسيحية المصرية عن المسيحية الغربية الأوربية، وخصوصا الأسبانية.

معظم المسلمين فى تدينهم الواقعى يؤلهون محمدا، يعتقدون بحياته الأزلية فى قبره، ويحجون اليه، ويصلون له " السنن" ويعتقدون أنه سيشفع فيهم ويدخلهم الجنة، ومع أن شهادة الاسلام واحدة، هى " لا اله الا الله "، يقول تعالى لخاتم النبيين محمد (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) محمد 19)، الا أن المسلمين جعلوا شهادة الاسلام الواحدة شهادتين،لا تتم الأولى بدون الثانية، فيقولون ايضا " ومحمد رسول الله "، وبذلك يعصون الله تعالى الذى أمرهم أربع مرات فى القرآن الكريم بألا يفرقوا بين الرسل، والمفهوم انك حين تشهد أنه لا اله الا الله فقد آمنت بكل الرسالات السماوية التى نزلت لتؤكد هذه الحقيقة :أنه لا اله الا الله، وتكون قد آمنت بكل رسل الله تعالى وأنبيائه بدون تفريق بين أحد منهم لأن كل واحد منهم جاهد وناضل وأوذى فى سبيل هذه الحقيقة . بل ان الله تعالى أمر خاتم النبيين أن يعلن أنه ليس بدعا من الرسل وليس مميزا عن أحد منهم، بل لا

يعلم الغيب الذى كان يعلم بعضه بعض الرسل السابقين وانه مجرد متبع للوحى ومجرد نذير مبين(الأحقاف 9)، ولكن المسلمين يرفعونه الى مستوى الله تعالى، ففى المساجد تجد اسمه مساويا ومناظرا لاسم الله تعالى، وفى الأذان تجد الشهادة له وحده بالنبوة والصلاة عليه وحده، واذا قلت النبى فليس فى الذاكرة والقلب غير(محمد)وحده، واذا قلت الرسول فهو وحده الرسول مع تجاهل تام لبقية الانبياء والرسل، اللهم الا فى معرض تفضيل محمد عليهم فهو " سيد المرسلين " أى الاههم، وهو"أشرف المرسلين"، وهو "خير ولد آدم ولا فخر"، وقد تم تفضيله "على الأنبياء بسبع"، وان الله تعالى قد خلقه من نوره جل وعلا، وأنه أول خلق الله، وانه مخلوق قبل آدم، وكان "نبيا وآدم بين الماء والطين"، أو و" آدم لا ماء ولا طين " كما تقول الأحاديث و الأساطير الصوفية فيما يسمى بالحقيقة المحمدية . و فى الصلاة يقولون التحيات تعظيما لمحمد، ويجعلون هذه التحيات مكان التشهد المذكور فى قوله تعالى " شهد الله أنه لا اله الا هو، والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط، لا اله الا هو العزيز الحكيم " آل عمران 18)
النهاية أنهم يعتقدون أنهم " أمة محمد " ويعتبرون أنفسهم الأفضل حظا بهذا قائلين " يا بختنا بالنبى ".
كل ذلك التفضيل لمحمد على من سبقه من الأنبياء والمرسلين مخالف للاسلام وللعقيدة التى ناضل محمد طيلة حياته من أجلها . كل هذا التأليه لمحمد وتمييزه عمن سبقه من الأنبياء والمرسلين انما هو خيانة لدعوة محمد ودينه، وعصيان للاسلام العظيم الذى لا مجال فيه لتقديس بشر أو حجر.
ولكن هذا التقديس لمحمد هو الأساس لجعل المسلمين أمة مختلفة عن الباقين ومتفوقة عليهم، بل وهى الاساس فى تقسيم العالم الى معسكرين، احدهما معسكر محمد ــ معسكر الايمان ــ والآخر معسكر الكفر والعصيان، أو دار الحرب.
ولكن هل مصطلح " أمة محمد " ينطبق مع القرآن الكريم ؟
بالطبع هو ينطبق مع الأحاديث التى افتراها المسلمون، خصوصا أحاديث الشفاعة، وفى بعضها يزعمون أن النبى محمدا ينادى ربه يوم القيامة قائلا (أمتى أمتى) فيرد عليه رب العزة قائلا (بنفس النغمة والوزن) : (رحمتى رحمتى)، وبالطبع يتحيز رب العزة ــ بزعمهم ــ الى أمة محمد وفق هذا الافتراء المناقض للاسلام.
مصطلح " أمة محمد " يناقض الاسلام ويجعله دينا لبعض الناس أو لمعسكر ضد معسكر آخرن كما يناقض (لااله الا الله) حين يجعل محمدا الاها مع الله . ويناقض القرآن الكريم الذى تحدث عن الأنبياء السابقين أكثر مما تحدث عن محمد، بل وامره باتباع هدى السابقين من الأنبياء، بل جعله تابعا لملة ابراهيم عليه السلام، وأكّد ان تشريعاته فى العبادة من صلاة وصيام وصدقة وحج انما هى امتداد لملة ابراهيم، وقد جاء محمد رسولا لاصلاح التحريف الذى لحق بهذه الملة. والتفصيلات فى كتابنا القادم (الصلاة فى القرآن الكريم).
مصطلح " أمة " يأتى فى القرآن الكريم بمعانى شتى كلها تدل على مجموعة أشياء، فقد يدل مصطلح أمة على مجموعة سنوات (هود 8 يوسف 45) أو مجموعة خصال حميدة (النحل 120) أو مجموعة من العادات والتقاليد والثوابت الشركية (الزخرف 22، 23) أو مجموعة من البشر فى زمان محدد ومكان محدد (البقرة 128، 134)ولا محل لتفصيل ذلك كله الآن . ولكن ما يخص المعنى المراد هنا فان القرآن الكريم استعمل كلمة أمة لتدل على دعوة كل الأنبياء فى كل عصر، يقول تعالى مخبرا عن وحيه لكل الأنبياء فى كل

زمان (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ . فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) المؤمنون 52 ــ) اذن كل الأنبياء أمة واحدة لهم رب واحد يجب أن نتقيه وحده . هذا هو ما يجب أن يكون، ولكن الذى يحدث هو تدخل السياسة والصراع على حطام الدنيا فيتفرق الأتباع الى أحزاب وملل ونحل وطوائف. وهذا هو مجمل التاريخ الدينى بعد كل نبى قبل محمد وبعده. ويقول تعالى (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ . وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ) الأنبياء : 92ــ) هذه الآيات جاءت فى سورة الأنبياء بعد ان قصّ الله تعالى قصص الكثيرين منهم ثم قال معقبا ان أولئك الأنبياء أمة واحدة لهم رب واحد يجب عبادته وحده، ولكن الذى حدث هو الشقاق، ومرجع الحكم على هذا الشقاق والاختلاف العقيدى هو يوم القيامة عندما يرجع الجميع الى الله تعالى. أن الدين الحقيقى لكل الأنبياء هو الاسلام ــ بمعنى السلام فى التعامل مع البشر والانقياد والطاعة لله تعالى وتأليهه وحده، وكل نبى أرسله الله تعالى بلسان قومه (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ) ابراهيم 4)، اى ان كل نبى كان يعبر عن الاسلام بلغة قومه .وكل نبى كان يؤكد انه لا اله الا الله (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) الأنبياء 25) واذن فأمة الاسلام. ليس الا مجموعة من المبادىء والمثل العليا تتركز فى التقوى فى العقيدة بالتمسك بلا اله الا الله والتقوى فى السلوك بالتزام العمل الصالح واجتناب الشرور والآثام والظلم والبغى والمعاصى، وهذه المبادىء تبدأ بنوح وتنتهى بمحمد عليهما وعلى جميع الأنبياء السلام،.

يعزز ذلك ان مصطلح أمة جاء بمعنى مجموعة من الأخلاق الحميدة تركزت فى أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام، الذى مدحه رب العزة بما لم يمدح به نبيا من الأنبياء،وضمن سياق مدحه قال عنه رب العزة (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) النحل 120) أى كان أمة من الأخلاق الحميدة السامية. وابراهيم عليه السلام من أعلام الأنبياء فى الاسلام (اقرأ الآيات من 127 الى 137 من سورة البقرة). وعليه فان ابراهيم ــ وما يتمسك به من قيم وسلوكيات وعقيدة دينية حنيفية مخلصة لله تعالى ــ يقع فى واسطة العقد فى أمة الاسلام التى تعنى نفس القيم والسلوكيات التى تمسك بها كل الأنبياء عليهم جميعا السلام .

وفى المقابل فان ثوابت الشرك وتقديس الأسلاف وما وجدنا عليه آباءنا " وما أجمعت عليه الأمة " يعتبر فى مصطلح القرآن (أمة). فالأمة هنا هى مجموعة من التقاليد المتوارثة التى يدافع عنها المترفون المتحكمون فى المجتمع مع أعوانهم من رجال الدين والمثقفين المستفيدين من بقاء الحال الظالم على ما هو عليه. اقرأ فى ذلك قوله تعالى يؤكد حقيقة اجتماعية انسانية : (بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) الزخرف 22 ــ)

اذن " أمة الاسلام " هى قيم الاسلام فى العقيدة والسلوك. وهى قيم مطروحة أمام البشر جميعا للتمسك بها مهما اختلفت الزمان والمكان واللغة والثقافة والعنصر والسلالة والذكورة والأنوثة والوضع الاجتماعى والاقتصادى. باختصار: هى قيم عالمية انسانية انزلها الله تعالى لكل البشر فى كل الرسالات السماوية، وقالها كل الأنبياء، وتمناها كل المصلحين الحقيقيين، ويتبعها كل الأبرار من البشر فى كل زمان ومكان، مع وجود

الأغلبية التى تختلف و تتنازع فى الدين وتجعله شيعا وأحزابا. وحتى لا ينسى الناس الأصل القديم لتلك القيم السامية فقد نزلت الرسالة الالهية الخاتمة توضح الحقائق لكل البشر.

فالله تعالى يخاطب بهذه القيم كل البشر. فالحديث فى القرآن لا يتوجه للعرب او لقريش او للعصر الذى عاش فيه خاتم الأنبياء، ولكنه حديث يتوجه للناس قائلا (يأ أيها الناس) (يا بنى آدم) وحتى حين يتحدث الى طائفة أو مجموعة فانه يخلصها من محلية الزمان والمكان ليصبح الخطاب عاما لكل من يتصف بهذه الصفة فى كل زمان ومكان فيقول مثلا (يا أيها الذين) كذا ..وهذا منطقى فى دين الله تعالى، فالله تعالى هو رب الجميع، وهو خالق الجميع، واليه وحده المرجع يوم القيامة حيث سيحاسب الجميع، وسيبدا الحساب بحساب الرسل جميعا وهم حملة "أمة الاسلام ": أو القيم العظمى للاسلام (يَوْمَ يَجْمَعُ اللّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ) المائدة 109) (وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاء وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ) الزمر 69).

لذلك منذ البداية يقول تعالى للبشر جميعا (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات 13) أى انه خلقهم جميعا من أب واحد وأم واحدة، أى هم أخوة ينتمون لنفس الأب والأم، وقد جعلهم أجناسا مختلفة وشعوبا مختلفة لا ليتنازعوا ويتقاتلوا ولكن ليتعارفوا، والتعارف لا يكون الا بالعلاقات السلمية والتلاقى الحضارى وقبول الآخر والاستفادة من تجربته الانسانية وتراثه الحضارى، والانفتاح على ثقافته والتسامح فى الاختلاف معه ايمانا بأن التنوع مطلوب لازدهار الحضارة العالمية الانسانية، اما من ناحية التدين فان أكرم الناس عند الله تعالى هو الأكثر تقوى، وليس الاكثر ثروة او جاها او ذكاءا أو علما او حسبا ونسبا اوجمالا أو صحة او شبابا. وهذه التقوى سيكون مرجع الحكم عليها لله تعالى وحده يوم القيامة، ومن يزعم تزكية نفسه الآن فقد عصى الله تعالى الذى قال (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) النجم 32)

يبقى سؤال : اذن ليس فى الاسلام مقولة المعسكرين السلفية التى يرفعها المتطرفون ودعاتهم الآن، فماذا عن الآخر فى الاسلام فى ضوء ما ذكره القرآن الكريم عن الكفار والمشركين وقتالهم والجهاد ضدهم ؟

الآخر فى الاسلام هو كل معتد ظالم ، و كل ارهابى يقتل الأبرياء والمسالمين .

هنا نؤكد ما سبق قوله من أن معنى الاسلام فى السلوك هو السلام فى الأرض وهو فى العقيدة الاستسلام والانقياد لله تعالى وحده. المسلم فى العقيدة هو من يسلم لله تعالى وجهه وقلبه وجوارحه، وذلك هو معنى الاسلام العقيدى القلبى الذى يرجع الحكم فيه لله تعالى وحده يوم القيامة، و ليس لمخلوق أن يحكم فيه والا كان مدعيا للالوهية متقمصا لدور الله تعالى رب العزة ومالك يوم الدين.المسلم فى السلوك هو كل انسان مسالم لا يعتدى على أحد ولا يسفك دماء الناس ظلما وعدوانا. وهذا هو المجال الذى نستطيع أن نحكم عليه، فكل انسان مسالم مأمون الجانب هو مسلم بغض النظر عن عقيدته واتجاهه ومذهبه وفكره ودينه الرسمى.

الشرك والكفر بمعنى واحد فى مصطلحات القرآن، وهما معا لهما معنيان حسب العقيدة والسلوك ن وكلا المعنيين يناقضان معنى الاسلام فى العقيدة والسلوك. الكفر ــ أو الشرك ــ فى العقيدة يعنى اتخاذ آلهة أو أولياء مع الله . والتدين العملى للبشر ــ خصوصا المسلمين ــ ممتلىء بتقديس البشر والحجر، مع اعلانهم أنه

لا اله الا الله. ولكن بغض النظر فان كل فريق يعتقد أنه على الحق ويتهم الآخرين بأنهم على الباطل. لذا فمرجع الحكم بين الناس فيما هم فيه مختلفون انما يكون لله تعالى يوم القيامة، فهو جل وعلا القاضى الأعظم، وقد اختلف الناس فى ذاته وصفاته ونسبوا له كذا وكذا، لذا فهو الذى سيحكم فى هذا الأمر، وليس لأحد أن يتدخل فى هذا الدور الالهى المؤجل الى يوم الدين الا فى معرض النصح والارشاد والعظة طلبا للهداية.
الشرك ــ والكفر ــ بمعناه السلوكى هو الاعتداء والظلم والبغى والطغيان والاجرام، وهذه كلها مفردات الشرك والكفروالمشركين والكافرين فى القرآن الكريم . هذا الشرك السلوكى نستطيع أن نحكم عليه بسهوله طبقا للأعمال الاجرامية التى يقوم بها المجرم . نحن هنا لا نحكم على قلبه أو على ما يدعيه من عقائد، وانما نحكم على أفعاله الاجرامية، على سفكه للدماء وانتهاكه للحرمات، وافساده فى الأرض، نحكم على سرقته ونهبه وهتكه للأعراض،وتعذيبه للابرياء. ودائما ما يكون الأبرياء ضحايا لهذا الكافر المشرك بالسلوك .

مشكلتنا أننا نحكم بالعكس تماما. من ينطق بشهادة الاسلام نجعله مسلما مهما ارتكب من جرائم . وقد يكون هناك زعماء مصلحون مسالمون يعملون الصالحات النافعات ينتمون للمسيحيين أو الاسرائيليين أو البوذيين أو العلمانيين، اولئك هم مسلمون حسب معنى الاسلام السلوكى الذى يعنى السلم، ولكننا نعتبرهم مشركين كافرين ونحكم على عقائدهم متناسين أن الأولى ان نصلح عقائدنا نحن وهى مليئة بتقديس الأضرحة والأئمة بأكثر مما يفعله غير المسلمين.طبقا للسلوك وحده فكل دعاة السلام فى الأمم المتحدة وخارجها هم أعظم المسلمين وان لم ينطقوا بشهادة الاسلام . غاندى ومارتن لوثر كنج و مانديلا وكل دعاة حقوق الانسان من الغربيين هم المسلمون الحقيقيون فى مجال السلوك. طبقا للسلوك وحده فان مجرمى الحرب هم أشد الناس كفرا وظلما وعدوانا، ليسوا فقط هتلر وموسولينى و ستالين بل يضاف اليهم صدام حسين وابن لادن والظواهرى وبقية سفاكى الدماء الذين حولوا العراق الى سلخانة . والقائمة طويلة ولا داعى لذكر أسماء أخرى فبعضها لا يزال يتمتع بالتقديس والتحميد مع أنه بغى على الآخرين واحتل أراضيهم وأذل شعوبهم، لمجرد أنهم مسالمون لا يقوون على الدفاع عن أنفسهم .
ليس فى الاسلام تقسيم العالم الى معسكرين، وليس من الاسلام الاعتداء على الآخرين واحتلال أراضيهم مثلما فعلت قريش فى دولة الخلفاء الراشدين ودول الخلفاء غير الراشدين . قريش كانت المقصودة بوصف الكفر والشرك حين نزل القرآن، فقد مارست الكفر والشرك العقيدى بعبادة الأولياء والأوثان على أنها تقربهم الى الله تعالى زلفا. ومارست قريش الكفر السلوكى والشرك السلوكى بمعنى الاعتداء واضطهاد المسلمين المستضعفين واكراههم فى الدين مما اضطرهم الى الهجرة الى الحبشة مرتين، ثم هاجروا أخيرا الى المدينة. قريش لم تتركهم فى حالهم فتابعتهم بالغزو والقتل والقتال فى وقت صبر المسلمون كعادتهم لأنهم كانوا ممنوعين من رد العدوان. ثم جاءهم الاذن بالقتال فتغير الموقف تدريجيا الى أن صار لصالح المسلمين حربيا ودينيا، وأصبحت قريش منعزلة فى وقت انتشر فيه الاسلام وأدركت فيه جماهيرالعرب سخافة عبادة الأوثان والقبور، رأت قريش فى النهاية أن مصلحتها تحتم عليها الدخول فى الاسلام فدخلت فيه متأخرا بعد تاريخ طويل من عداء الاسلام. أسلمت قريش قبيل موت النبى، وبعد موته استعادت سيطرتها على دولة النبى بعد موت النبى،

منتهزة فرصة حرب الردة، فحوّلت الانتصارعلى المرتدين الى استمرار فى الغزو فاعتدوا على الروم ومستعمراتهم فى الشام، وقضوا على الدولة الفارسية، وبدأ ما يعرف بالفتوحات الاسلامية التى تناقض الاسلام، والتى بسببها اقتتل الصحابة، ونتج عن الخلاف السياسى اختلاف فى التدين، وانقسام المسلمين الى أحزاب كل حزب بما لديهم فرحون، ونسوا تحذير رب العزة من الانقسام الدينى وكونه دليلا على الوقوع فى الشرك العقيدى والشرك السلوكى أيضا (وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ) (الأنعام 153، 159) (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) الروم 31 ــ 32)

لتبرير الاعتداء ولتسويغه باسم الاسلام افتروا حديثا نسبوه للنبى محمد يقول (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ..) وجعلوا هذا الاعتداء على الغير جهادا . وباعتداء المسلمين على دولة الروم بدأت الحرب بين الامبراطوريتين، ولكل منهما دين مختلف فى الظاهر، وان كان نفس التدين فى الواقع ؛ التدين القائم على التسلط والظلم والاعتداء والاكراه فى الدين واستخدام الدين فى ظلم الناس ونشر الفساد فى الأرض. كان هذا هو منطق التدين فى العصور الوسطى، وبه تم سفك دماء الملايين من الفريقين، وكل منهم يحسب أنه يحسن صنعا، وكل منهم يتهم المعسكر الآخر بالكفر ويرى نفسه محتكرا للحق.

ثم صحت أوربا وتخلصت من سيطرة الكنيسة والكهنوت والاكليروس، وبدأت طريق الاصلاح العلمانى العقلى والاكتشاف العلمى . ثم حاولت مصر أن تنهج نفس الطريق مع باية القرن التاسع عشر، وحققت خطوات لولا أن عادت خرافات وأساطير وتشريعات العصور الوسطى تحملها الوهابية التى تمثل أردأ فكر أنتجه المسلمون فى القرون الوسطى. وبفضل البترول تم نشر هذا الفكر السلفى المناقض للاسلام تحت اسم الاسلام فى أكبر خديعة تعرض لها المسلمون طوال تاريخهم. وفى اطار هذه الخديعة الكبرى جرى استدعاء كل مظاهر التعصب الدينى واستئصال المخالف فى المذهب وفى الدين وفقا لحد الردة او الجهاد ضد دار الحرب أى الغرب.

هذا هو الأساس التاريخى لأكذوبة دار الاسلام ودار الحرب.

فقه الشرعية السياسية فى لمحة تاريخية

مقدمة:

1 ــ دائما نحتاج الى تحديد المصطلحات ونحتاج أيضا الى فهم مناهج التفكير ومناهج البحث. لم يعد هذا ترفا فكريا بل أصبح ضرورة للاصلاح الفكرى والدينى والسياسى؛ هذا الاصلاح يجب أن يبدأ بالنخبة ثم يسرى الى المثقفين والمتعلمين ثم الأغلبية الصامتة الحائرة. هى بالفعل ضرورة لأن حالة السيولة التى اختلط فيها الحابل بالنابل فى الحياة العربية جعل العقل العربى فى فوضى تماثل فوضى المرور فى ميدان العتبة بالقاهرة.

وبغض النظر عن رد الفعل الحاد لكتاباتى فاننى متفائل بالخطوة الأولى التى تحققت وهى أننى الان استطيع أن أنشر "كل " ما أقول بعد ربع قرن من المصادرة والمطاردة كنت فيها أكتب بنصف قلم متحسبا لارهاب واستدعاء الأخوة الأفاضل ضباط مباحث أمن الدولة فى القاهرة. وبهذه المناسبة أقدم خالص امتناني للمواقع التي تنشر مقالاتي، في الوقت الذي لا تستطيع فيه أي مطبوعة عربية في الإعلام العربي نشر أي مقال لي. كنت أجهز لسلسلة مقالات عن فقه المصطلحات ومناهج البحث، ناويا البدء بها بعد إتمام عدة مقالات عن الإخوان فإذا بالقراء يجرونني إلى قضية الصراع العربي الاسرائيلى التي كنت أتحاشاها مؤقتا مكتفيا بالكتابة في مجال الإسلام وتراث المسلمين. إلا انه وكالعادة فان قضية المصطلحات ومناهج البحث هي أساس عدم الفهم بيننا حتى في المجالات السياسية.

2 ــ عندما قلت في مقال سابق: "دولة إسرائيل الآن حقيقة قانونية وشرعية تعترف بها معظم دول العالم ومنها اكبر دولة عربية والسلطة الفلسطينية ذاتها.." انهال الاحتجاج من هنا وهناك ومبعثه لدى المخلصين من الناقدين هو اختلاف مفهوم الشرعية الأخلاقية عن الشرعية السياسية مما أستوجب كتابة هذا المقال.

أمثلة واقعية للشرعية السياسية:

ونعطى بعض أمثلة تقرب مفهوم الشرعية السياسية

1ــ المعارضون لشرعية إسرائيل السياسية يمكنهم أن يتظاهروا أمام السفارة الإسرائيلية في إحدى دول العالم المحترمة المحايدة في الصراع العربي الاسرائيلى مثل سويسرا و دول اسكندنافيا، وليحاولوا إزعاج العاملين بالسفارة الإسرائيلية باحتجاجاتهم وشعاراتهم. هل ستستطيع هتافاتهم هز شعرة من قفا السفارة الإسرائيلية؟ ثم لو تطور الهتاف إلى انتفاضة حجارة تلقى الطوب على السفارة الإسرائيلية، هل سيسكت البوليس التابع لهذه الدولة المحترمة على انتهاك "حرمة " السفارة الإسرائيلية أم سيتدخل بهراواته المحترمة لتنهال على أرداف السادة المحترمين لأنهم يعتدون على سفارة دولة شرعية ووظيفة البوليس المحترم في تلك الدولة المحترمة أن يدافع عن الشرعية الإسرائيلية طبقا للقانون الدولي المحترم يا.. محترم؟.

الشرعية الإسرائيلية تتجلى في اعتراف الدول ــ ومنها مصر ــ والأمم المتحدة بدولة إسرائيل. والاعتراف يعنى ضمن ما يعنى تبادل السفارات وحماية الرعايا والسفارات، هذه هي مستلزمات الشرعية السياسية وفقا للقانون الدولي.هذا واقع لا يجدي في تغييره مجرد الرفض أو مشاعر الكراهية أو صرخات الاحتجاج أو حتى كل المبررات الأخلاقية.

2 ــ العادة أنه عندما يحدث انقلاب في دولة ما فان المجتمع الدولي لا يقيم لهذا الانقلاب محاكمة أخلاقية أو يطلب منه كشف الحالة الجنائية أو يسائله عن العدالة التي سيحققها أو المبادىء التي ينوى تحقيقها. كل المطلوب من النظام الجديد إصدار بيان من بضعة أسطر ليطمئن العالم على حياة الأجانب المقيمين فيه وعلى التمسك بالمعاهدات الدولية والإقليمية التي عقدت من قبل. ويتم الاعتراف الدولي بمجرد أن يوطد الانقلاب سلطاته ويمسك بزمام الأمور ويصبح بالأمر الواقع هو النظام المسيطر والقائم بالحكم في هذا البلد. أي أن الشرعية السياسية هي الاعتراف بالأمر الواقع بغض النظر عن مبادىء الحق والعدل.

بهذه الشرعية السياسية اعترف العالم بإسرائيل وبكل النظم العربية بعد الاستقلال. هو اعتراف مبنى على أمر واقع قائم لا بد من التعامل معه سياسيا بغض النظر عن القيم الأخلاقية.

<u>بين الحق والاستحقاق</u>

1ــ في فهم الشرعية السياسية لا بد من التوقف مع مصطلحين: <u>الحق والاستحقاق</u>.

<u>الحق</u> في مفهوم القرآن واللغة العربية يعنى شيئين: <u>الحق بمعنى العدل</u>، كأن يقال: فلان له حق في هذه الأرض، أو <u>الحق بمعنى الصدق</u> كأن تقول: شهد فلان بالحق، أو عنده حق فيما يقول.

<u>الحق</u> أيضا نوعان: <u>حق مطلق</u> جاء في الكتب السماوية وهو يعنى الصدق والعدل معا، ويستوجب الإيمان من أصحاب تلك الكتب. <u>وحق نسبي</u> هو مدى فهم البشر لنصوص الكتب السماوية والاستشهاد بها وتطبيقها. في مجال الحق النسبي يختلف البشر تبعا للهوى ودرجة الفهم. هذا الفهم النسبي لتلك الحقائق المطلقة قد يكون أحيانا أساسا لإقامة واقع سيأسى كما حدث في إقامة إسرائيل.

<u>الاستحقاق</u> هو التطبيق لتلك النصوص أو لغيرها من مزاعم أو مطالب وخلقها أمرا واقعا. يبدأ الأمر <u>بفكرة</u> مستقاة من نصوص مقدسة أو <u>فكرة</u> تعبر عن غرض ما أو حجة ما أو تعبر عن مجموعة أو أمة، المهم أن تكون <u>الفكرة</u> جذابة وقوية التأثير بحيث تدفع الأفراد والجماهير لاعتناقها والتضحية في سبيلها. بعد الفكرة والدعوة إليها ونشر الاعتقاد فيها يمكن حشد كل الطاقات لتطبيقها واقعا حيا على الأرض. هذا <u>التطبيق</u> يحقق الشرعية السياسية بغض النظر عن قيمة العدل أو الحق أو الخير.

هذا التأطير المجرد يحتاج أمثلة للتوضيح نأخذه من التاريخ القريب لإقامة إسرائيل.

2ــ العهد بإقامة دولة لبنى إسرائيل جاء في العهد القديم في سفر التكوين للنبي إبراهيم ثم ابنه إسحاق ثم ابنه يعقوب المسمى إسرائيل.نقرأ فيه الآتي:

(في ذلكَ اليومِ قطَعَ الرّبُّ معَ أبرامَ عَهدًا قالَ: «لِنَسلِكَ أهَبُ هذهِ الأرضَ، مِنْ نهرِ مِصْرَ إلى النَّهرِ الكبيرِ، نهرِ الفُراتِ،) تكوين إصحاح 15: 18

(وأُعطيكَ أَنتَ ونسلَكَ مِنْ بَعدِكَ أرضَ غُربَتِكَ، كُلَ أرضِ كنعانَ، مُلْكًا مؤبَّدًا وأكونُ لهُم إلهًا». تكوين إصحاح 17: 8

(فتراءى لَه الرّبُّ وقالَ: «لا تَنْزِلْ إلى مِصْرَ، بلِ اَسكُنْ في الأرضِ التي أدُلُّكَ علَيها. تغَرَّبْ بهذهِ الأرضِ وأنا أكونُ معَكَ وأُبارِكُكَ، فأُعطيَ لكَ ولِنسلِكَ جميعَ هذهِ البِلادِ، وأفي باليمينِ التي حلَفتُها لإبراهيمَ أبيكَ،) تكوين إصحاح 26:2 ــ 3

(وكانَ اللهُ واقفًا عَلى السُّلَّمِ يقولُ: «أنا الرّبُّ إلهُ إبراهيمَ أبيكَ وإلهُ إسحَقَ! الأرضُ التي أنتَ نائمٌ علَيها أهبُها لكَ ولِنسلِكَ.) تكوين إصحاح 28:13

(وتراءَى اللهُ لِيعقوبَ أَيضًا حينَ جاءَ مِنْ سَهلِ أرامَ وبارَكَهُ وقالَ لَه: «إسمُكَ يعقوبُ. لا يُدعَى اَسمُكَ بَعدَ الآنَ يعقوبَ، بل إسرائيلَ». فسمَّاهُ إسرائيلَ. وقالَ لَه اللهُ: «أنا اللهُ القديرُ. اَنْمُ واَكْثُرْ. أُمَّةٌ ومجموعةُ أُمَمٍ تكونُ مِنكَ، وملوكٌ مِنْ صُلْبِكَ يَخرُجونَ، والأرضُ التي وهَبْتُها لإبراهيمَ وإسحَقَ أهبُها لكَ ولِنَسلِكَ مِنْ بَعدِكَ». تكوين 35: 9ــ 13

هذه النصوص التوراتية فى العهد القديم يؤمن بها ــ كحقائق مطلقة ــ كل من يؤمن بالعهدين القديم والجديد ولا يتصور الشك فيها. لكنهم عند الاستشهاد والتطبيق يختلفون. الصهاينة وبعض الطوائف المسيحية تؤمن بتطبيق هذه النصوص باقامة دولةاسرائيل على أرض فلسطين. بعض الطوائف الاسرائيلية ذاتها ترفض الصهيونية. قامت الصهيونية بتحويل فهمها للنصوص السابقة الى عمل سياسى يهدف الى تحويل الفهم البشرى للنصوص الدينية الى واقع عملى فعلى هو دولة اسرائيل. هذا ما فعلته الحركة الصهيونية منذ مؤتمر بال الى اقامة دولة اسرائيل سنة 1948.

3 ــ من يقرأ الجهد الصهيونى فى اقامة اسرائيل يرى ان الحركة الصهيونية حرصت على التحرك فى اتجاهين: <u>الأول</u> هو بناء كيان قانونى محلى واقليمى ودولى لكل حركة تخطوها، <u>الثانى</u> التحرك على الأرض الفلسطينية بشراء الأرض سلما أو الاستيلاء عليها حربا، مع التحرك السياسى المحلى والاقليمى والدولىلتغييره لقبول الوضع الجديد، والرضى بالمتاح مؤقتا والبناء عليه وتطويره للانطلاق الى ما بعده. هذا فى الوقت الذى تاه فيه العرب بين الحق والاستحقاق، وبين الشعار والعجز عن تنفيذه، وبين رفض المتاح وتضييعه ثم البكاء عليه بعد فوات الأوان. المشكلة انهم لا يزالون فى نفس النفق يعمهون.

<u>المستفاد هنا</u> أن الاستحقاق يستلزم قوة بكل ما تعنيه القوة من عناصر نفسية وسياسية وحربية. قوة تعتمد على تخطيط يزن المناخ ويتحرك فيه على أساس تغييره وتطويعه لاقامة واقع جديد على الأرض. هذا الواقع الجديد القوى يستلزم الاعتراف به طبقا للشرعية السياسية.

الجديد فى الحركة الصهيونية انها حرصت على وجود غطاء قانونى عصرى. لقد فهمت العصر ومتغيراته وما يعنيه وجود منظمات دولية تعبر عن ارادة المجتمع الدولى، كما فهمت صراع القوى الكبرى واستثمرته لصالحها فبادرت أمريكا والاتحاد السوفيتىبالاعتراف بالدولة الاسرائيلية. وفى الوقت الذى استفادت فيه اسرائيل من الاستقطاب والصراع بين السوفييت والغرب لصالحها مع احتفاظها بقرارها السيادى فان العرب

انقسموا بين المعسكرين، وكل فريق كان تابعا للسوفيت أو الغرب على حساب المصلحة الوطنية والقضية الفلسطينية.

المستفاد هنا فى الجانب العربى أنه بغض النظر عن الخلاف الفكرى فى فهم " الحق " ومن هو صاحب الحق فى اقامة دولة على التراب الفلسطينى فان العرب فشلوا فى تحقيق "الاستحقاق" أى فرض حقائق على الأرض بالقوة ترغم الآخرين على الاعتراف بها طبقا للشرعية السياسية.

أنواع الاستحقاق وتاريخه

1 ــ بدأ الاستحقاق ــ بمعنى استعمال القوة فى فرض واقع سياسى ــ مع بداية تاريخ البشر غير المكتوب. بدأ باقتتال مجموعات من البشر فى الصحارى ووديان الأنهار، لم تكن هناك ايدلوجيات خادعة انما مجرد الهدف الأصلى الذى لا يزال سائدا حتى الآن، وهو الاستيلاء على عناصر الثروة. الثروة لا تزال هى الفكرة الأساسية للعمل السياسى حتى الآن مهما علا صوت المبادىء والشعارات الأخلاقية والدينية والوطنية والقومية. نعود للعصر السحيق حيث كان القادة زعماء عصابات، لم يلبث الصراع أن أفرز الأقوى بينهم فأصبح ملكا، ثم صار بامكانه توريث السلطة لابنه. وبذلك أضيفت فكرة تالية فى الاستحقاق، وهو توارث استحقاق القوة فى ذرية الملك طالما رضى الناس. بمرور الزمن يضعف الورثة ويطمح قائد للسلطة، هنا تضاف فكرة ثالثة للاستحقاق هى تغيير الحكم بالانقلاب أو الثورة واحلال حكم جديد محله، وهى فكرة تناقض فكرة التوارث. هذا يحدث بتأكيد "فكرة الرفض" لهذا الاستحقاق القائم وتشريع الثورة عليه، فاذا وجدت تجاوبا ممن يملك القوة حدث صراع بين نوعى الاستحقاق ــ القديم والناشىء ــ فاذا تغلب الناشىء تكررت المسيرة بقيام ملك جديد و أسرة حاكمة جديدة، الى أن يأتى " متغلب " جديد.

2 ــ بمرور الزمن تحولت بعض المدن الى دول بل امبراطوريات من مدن اليونان الى روما وقرطاجنة، وقبلهم طيبة فى مصروبابل فى العراق. أدى هذا الى تأصيل الشعور بالوطنية والقومية، فما لبثت الوطنية والقومية أن أصبحتا من "الأفكار" الأساسية المضافة فى الاستحقاق يمكن بهما انشاء دولة أو توطيدها وتوسعها أو الثورة على حكمها او أى حكم أجنبى.

3ــ ثم مالبث أن أدخلوا الدين عنصرا فى الصراع بما يحمله من حق تختلف وجهات النظر البشرية فى فهمه وتطبيقه. بدأ مبكرا استخدام الدين فى السياسة أو جعل الدين عنصرا من عناصر الاستحقاق عن طريق تغيير حقائق الدين القائمة على العدل والخيروالحق لتقيم ملكا للقائمين على الدعوة الدينية السياسية.

الاسلام يحرم ويجرم الاعتداء على الغير ويحصر القتال فى الدفاع فقط، ويجعل الظلم من أشد المحرمات، وبنفس المقياس يجعل القسط أساس الرسالات السماوية. الأمويون الذين قادوا قريشا فى حرب النبى محمد وصحبه الأوائل ما لبثوا أن دخلوا فى الاسلام قبيل وفاة النبى محمد، وبعد موته استعادوا نفوذهم وسيطروا على الدولة المسلمة بعد وفاة النبى، بعد نحو عام من وفاة النبى الذى أرسله الله تعالى " رحمة للعالمين " بدأ أتباعه المسلمون يعتدون على من لم يعتد عليهم، ثم يكونون امبراطورية امتدت من أواسط آسيا شرقا الى جنوب فرنسا غربا. فى هذا العمل السياسى الحربى الذى غيّر خريطة العالم وتاريخه تمت كل عناصر

الاستحقاق ممثلة فى فكرة تم حشد كل القوى خلفها فأقامت بالاستحقاق امبراطورية قادرة منيعة حصلت على الشرعية السياسية. الا ان هذا الاستحقاق بشرعيته السياسية تم بمعزل عن الحق القرآنى المطلق الميسر للذكر، بل كان التناقض واضحا بين تشريعات قرآنية شديدة الوضوح تنهى عن الاعتداء وبين استحقاق سياسى حربى أقام امبراطورية على أساس القوة دون حق أو عدل. بعد اقامة الامبراطورية واقعا حيا تم اختراع تأصيل فقهى لها بأحاديث مثل :" أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله وان محمدا رسول الله" وغيرها، ثم تم تجاهل القرآن وتغيير تشريعاته ــ بدعاوى التأويل والنسخ والتفسير والأحاديث والسنة والتشيع والتصوف..ــ لايجاد مسوغ خلقى مزيف حتى تتسق تلك الشرعية السياسية الظالمة مع الاسلام والقرآن.

المستفاد أن القوة هنا أخذت بيدها الاستحقاق حتى لو كان الحق الذى يقوله الاسلام مناقضا لما تفعله.وهكذا تم تحت اسم الاسلام ارتكاب جرائم منهى عنها مثل البغى والظلم من احتلال البلاد والقتل والسبى والنهب والاسترقاق.

واصبحت سنة متبعة فى تاريخ المسلمين أن تظهر فكرة دينية سنية أو شيعية أو خارجية ــ نسبة للخوارج ــ لتؤسس لاستحقاق سياسى يتم به اقامة شرعية سياسية. الدولة العباسية بدأت بدعوة للرضى من آل محمد، وتم تجميع الالاف تحت قيادة "أبو مسلم الخراسانى" فقضى على الدولة الأموية. واباد العباسيون معظم أفراد البيت الأموى ففر واحد منهم الى شمال أفريقيا ثم الى الاندلس فاستخدم فكرة "استرجاع الشرعية الأموية " وبذلك استحق عبدالرحمن الداخل " صقر قريش" اقامة الدولة الأموية فى الأندلس. أبو عبيد الله المهدى لبث سنوات طوالا يدعو للتشيع فى شمال أفريقيا فأقام الدولة الفاطمية التى انتقلت الى مصر وحكمت الشام وهددت الدولة العباسية. فكرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر استغلها الحنابلة فى تأسيس نفوذ سياسى لهم فى الشارع العباسى فى العصر العباسى الثانى فأرهبوا خصومهم فى الفقه والفكر، وتطور الأمر فى العصر المملوكى فى مدرسة ابن تيمية الى استحقاق كاد أن ينشىء دولة، وقبله فى حركة الفقيه ابن تومرت ودولته فى شمال أفريقيا. وفى العصر الحديث ظهرت الوهابية ترفع شعار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتم التحالف بين الفقيه ابن عبدالوهاب والأمير أبن سعود فى الدرعية عام 1854 وبأ انشاء الدولة السعودية الأولى، وبعد سقوطها عام 1818 أعيد انشاؤها ثم سقطت فى نفس القرن، ثم اعاد عبد العزيز بن عبد الرحمن انشاء الدولة السعودية الثالثة الراهنة على نفس الأساس. وعلى نفس النسق تقوم الحركات المتطرفة المعاصرة، علنية كانت كالاخوان المسلمين ام سرية. الخلاف الآن بين الدولة السعودية الوهابية ومعارضيها الوهابيين المتطرفين يكمن فى مصدرية السلطة، أو فكرة الاستحقاق، هل هو حق عبد العزيز منشىء الدولة فى استعادة ملك آبائه (كما تقول الأسرة السعودية) أم هو الدعوة الوهابية (كما يقول أعيان اللجنة الشرعية، وهى أول تنظيم معارض أسسته المعارضة السعودية فى المملكة بعد حرب الخليج الثانية الثانية ثم هرب الى لندن مع المسعرى والفقيه).

4 ــ كلها مجرد شعارات، كانت كذلك فى العصور الوسطى ولا تزال حتى عصرنا ــ مجرد مبررات للوصول للتمتع بالثروة والسلطة. ففقهاء السنة كانوا أكثر صراحة حين وضعوا مصطلح "المتغلب" على السلطة وحكم بناء الكنائس فى البلاد التى تم فتحها "عنوة"، وهذا فى حد ذاته دليل على تجاهل العدل،اذ لا عدل فى

التغلب على الآخرين وحكمهم والتحكم فيهم ومنعهم من بناء دور عبادتهم. هذا يعبر عن الاستحقاق الذى صنعته القوة والتغلب العسكرى ولا علاقة له بالعدل والاحسان والحق.

5 ــ الا أننا قد تربينا على ثقافة الكيل بمكيالين. ما قام به العرب من غزوات وفتوحات نعتبره جهادا نفتخر به،مع أنه يناقض عدل الاسلام وشريعة القرآن. نفخر بفتح العرب معظم العالم المعروف فى العصور الوسطى،نباهى باحتلالهم البلاد واستعبادهم الشعوب من أصحاب البلاد المفتوحة وقد كانوا يعتبرونهم موالى من الدرجة الثالثة ويفرضون عليهم الجزية حتى لو أسلموا، و ينتهكون حرمات النساء بالسبى والاسترقاق ظلما وبغيا. فاذا قام آخرون بفعل نفس الشىء أو أقل منه استنكرناه وشجبناه. مع أنه فى مقياس العدل الاسلامى فان ما اقترفه العرب المسلمون بعد وفاة النبى محمد عليه السلام مباشرة هو أكثر ظلما وجرما مما فعله الروم والفرس وانجلترة وفرنسا وهم الذين لم يعش بينهم خاتم النبيين ولم ينزل فيهم خاتم الكتب السماوية.

6 ــ رسالة عيسى عليه السلام لم تنج من الاستغلال السياسى مع قيامها على قاعدة" دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر". الدولة الرومانية بعد اعتناقها المسيحية استخدمتها فى تدعيم سلطانها، وأرست بذلك أرضية راسخة للدولة الرومانية المقدسة، ذلك الكائن الهلامى فى أوربا العصر الوسيط الذى كرس تحالف الكهنوت مع السلطة السياسية، وأصبح للبابوية سلطة زمنية فاسدة مما أسفر عن حركة الاصلاح وقيام البروتستانتية.
الصراع العربى المسلم مع الغرب أكد الاستغلال السياسى للدين، والاستعمار الغربى بدأ بالكشوف الجغرافية التى تحمل راية المسيحية وتزعم أن هدفها هو نشر المسيحية.

7 ــ فى العصر الحديث تمت تنحية الذريعة الدينية نوعا ما فى القرن الماضى وتم سياسيا تشريع الاستعمار فى الوطن العربى تحت ذريعة جديدة اسمها الانتداب. حركات التحرير والتوحيد رفعت رايات الوطنية والقومية فى أوربا ــ فى ايطاليا : ماتزينى ــ غاريبالدى ــ فيكتور عمانويل، او فى ألمانيا : بروسيا وبسمارك. لاقامة الاتحاد السوفيتى رفعوا شعار العدل وانصاف البروليتاريا، كما أن التخلص من الاستعمار الأوربى فى الوطن العربى رفع شعار الاستقلال والتحرر من السيطرة الأجنبية.
وفى كل الأحوال قامت دول وسقطت دول، وقامت امبراطوريات وانهارت أخرى، وقامت وسقطت عروش، وفى الأغلب ظل الظلم بل ازداد لأن الاستحقاق هو لغة القوة لا العدل، بالقوة يكتسب الاستحقاق والشرعية السياسية وليس الشرعية الأخلاقية.أما شعارات العدل فهى فقط للاستهلاك المحلى والضحك على الذقون.

هل يمكن ان تلتقى الشرعية السياسية مع الشرعية الأخلاقية؟

1 ــ فى نهاية الدولة الأموية بلغ الظلم مداه، وكان الهاشميون من أبرز ضحاياه. كان منهم طالب علم يسمى عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس. استضاف عبد الله هذا رفيقا له فى طلب العلم اسمه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقى. لم يكن فى بيت عبد الله الهاشمى طعام يليق بالضيف فاستلقى ثم قرأ الآيةالكريمة :" عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون." فى وقتها كان المثقفون يعيشون فى حلم ظهور المهدى المنتظر الذى سيدمر الظلم الأموى ويقيم العدل طبقا لدعوة سرية

نشرت دعاية مركزة عن المهدى المنتظر وأحاديث نبوية كثيرة تتبىء بقرب ظهوره. الذى لم يعرفه الطالب الضيف عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقى أن صديقه الهاشمى المنشغل بطلب العلم هو فى الحقيقة من القادة السريين لتلك الحركة السرية. بعدها بسنوات نجحت الحركة السرية فى تدمير الدولة الأموية وهلل لها المثقفون الحالمون بالعدل، ثم كانت حسرتهم كبرى اذ تحول الحلم الى كابوس مع تولى أول خليفة عباسى تلقب بالسفاح بسبب ابادته للأموين وكل من ثار عليه. وفوجىء عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقى أن رفيقه القديم عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس هو الخليفة العباسى الثانى الذى وطد ــ بالحديد والنار ــ الدولة العباسية، والذى سمى ابنه المهدى ليحقق نبوءة المهدى المنتظر. انه أبو جعفر المنصور، الذى قتل مئات الألوف فى سبيل توطيد الدولة الجديدة. زاره صديقه القديم ابن أنعم الأفريقى، قال له الخليفة:" انك كنت تفد لبنى أمية فكيف رأيت سلطانى من سلطانهم؟ فقال : يا أمير المؤمنين والله ما رأيت من سلطانهم من الجور والظلم الا رأيته فى سلطانك " وذكّره بالأمنيات القديمة فى الاصلاح وتحقيق العدل والآية الكريمة التى استشهد بها عندما أضافه وهو فقير ثم قال للخليفة: " فقد والله أهلك الله عدوك واستخلفك فى الأرض فانظر ماذا تعمل " فقال له الخليفة : " يا عبد الرحمن انا لا نجد الأعوان" فقال له الفقيه : " يا أمير المؤمنين، السلطان سوق نافق، لو نفق عليك الصالحون لجلبوا اليك" يعنى لو كنت صالحا لجمعت حولك الصالحين لأن السلطان الفاسد لا يجمع حوله الا من كان فاسدا مثله. هذه القصة ذكرها ابن الجوزى فى تاريخه " المنتظم ج 7 ص 339.

خيبة أمل المثقفين الحالمين فى الخلافة العباسية أنتج حركة البكائين فى صدر العصر العباسى، كانت حركة عجيبة لطائفة أصيبت بوسواس قهرى جعلها تتدين بالبكاء المستمر وتجعل له طقوسا ومراسم وآداب وتقاليد. تعرضت لهذه الطائفة فى مقال بحثى فى التسعينيات نشرته جريدة العالم اليوم ومجلة سطور.

2 ــ العادة السيئة أن يرفع الثوار شعارات لخداع المثقفين والعوام، حتى اذا وصلوا للحكم سكنوا فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم، وتشبهوا بالظالمين السابقين، وربما فاقوهم فى الجور. حدث نفس الشىء فى الدولةالفاطمية الشيعية والثورات والانقلابات الشيوعية والثورةالمصرية 1952، وسيظل الأمر يتكرر طالما ظل الوعى فى أجازة، وطالما ظلت الأغلبية صامتة وغائبة وظلت الثقافة السمعية غالبة تسرع لتصديق الدجالين.

3 ــ ويظل السؤال مطروحا: هل يمكن أن يقام نظام حكم عادل يجمع بين الاستحقاق (بمعنى القوة وفرض الأمر الواقع أو الشرعية السياسية) وبين الحق والعدل (بمعنى الشرعية الخلقية)؟

انهما دائما يجتمعان فى خيالات الحالمين بالجمهورية الفاضلة واليوتوبيا الخيالية من افلاطون الى توماس مور الى الفيلسوف المصرى الدكتور محمد كامل حسين. فى عصرنا الحالى تحقق هذا تقريبا فى جمهوريات فاضلة جمعت بين أكبر قدر من الحرية مع أكبر قسط من القسط والعدل، ترى هذا فى دول اسكندنافيا وسويسرا، والى حد ما فى كندا ودول أوربا الغربيةوأمريكا.

اكثر من ذلك، مسموح لنا أن نحلم بامكانية حدوثه فى مصر.

دعنا نتخيل ــ مجرد تخيل برىء قابل للتحقيق اذا تحقق الوعى وخلصت النوايا ــ ان المصريين قاموا بمظاهرات سلمية مستمرة لعدة أيام فقط مرتبطة باضراب وعصيان مدنى، وتحملوا هراوات ورصاصات وقنابل البوليس المصرى الشهم، واستعدوا لتقديم بضع مئات من القتلى. فى اليوم الأول سيسقط عشرات، تأتى المظاهرة فى اليوم الثانى تحمل جثث الشهداء تؤنب القتلة السفاحين وتلتزم بالتظاهر السلمى المتحضر، وينهال الرصاص ويسقط بضع عشرات آخرين فيؤتى بهم فى مظاهرات وجنازات حافلة فى اليوم الثالث فى استعداد لتقديم المزيد من الشهداء. أشك ان البوليس المصرى مهما بلغت وحشيته سيطلق النار فى اليوم الثالث.
سينسحب، وستتحرك شهامة الجيش ليتحرك ويحفظ الأمن، وسيفر الأخ الفاضل حسنى مبارك وأسرته الطاهرة الى أقرب بنك فى العالم الخارجى ليطمئن على تحويشة العمرتاركا خلفه أعمدة عهده كل منهم يطلب النجاة، وسيقوم القضاة وكبار المثقفين تحت حماية الجيش بملء الفراغ السياسى بتكوين حكومة مؤقتة ترسى اصلاحا تشريعيا ودستوريا تقام على اساسه دولة ديمقراطية يتحقق فيها الفصل الحاسم بين السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية، وتقيم حقوق المواطنة وحقوق الانسان وحرية الفكر والمعتقد مع تأكيد العدل الاجتماعى. انها بضعة أيام من المظاهرات والتضحيات ويزول الكابوس. ليس هذا مستحيلا على شعب له ميراث المصريين فى تحمل الأذى.
هذا الخيال المسموح به حدث فى رومانيا، وجاء رئيس أديب حالم قام بتحويا الحلم الى حقيقة بدلا من أن يتحول الى كابوس كما حدث فى العصر العباسى أو العصر الماركسى..
ليس صعبا ان يتحقق هذا فى الحاضر لأن العصر اليوم هو عصر الحرية وحقوق الانسان، وليس صعبا أن يتحقق هذا الآن لأنه فى عصور الظلام قامت دولة النبى محمد عليه السلام وفق تشريعات القرآن فحققت الشرعية السياسية والشرعية الأخلاقية معا. ولا يزال القرآن بيننا، فاذا قراناه بمصطلحاته قراءة علمية موضوعية بعيدا عن التراث العباسى ومصطلحاته وجدنا فيه أسس الدولة الديمقراطية التى تجمع بين العدل والحرية، وبين الشرعية السياسية والشرعية الأخلاقية.
التفصيلات فى المقال القادم.

بين الشرعية الالهية والشرعية السياسية

فى هذا المقال نكمل موضوع الشرعية السياسية التى تحقق بالقوة فكرة معينة وتجعلها بالاستحقاق واقعا بغض النظر عن "الحق " أى العدل والقسط .

العدل هو جوهر الاسلام وكل الرسالات السماوية. وفى هذا المقال نضع للحق الالهى أو العدل الالهى أو الشرعية الأخلاقية مصطلح " الشرعية الالهية " مقابل " الشرعية البشرية السياسية ".

يؤكد رب العزة علي ان الهدف من ارسال الرسالات السماوية وانزال الكتب السماوية هو اقامة القسط أو العدل يقول الله تعالي (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط :الحديد 25) هذه الآية هى الفيصل فى موضوعنا، ونبدأ بالقسم الأول منها وهو عن الشرعية الالهية ؛وهو أن الهدف من ارسال الرسل بالكتب السماوية هو أن يقوم الناس معا بتحقيق العدل. أى أن تحقيق العدل هو الهدف الأعظم لكل الرسالات السماوية ، وهذا ما ينبغي ان يكون .

ثلاث درجات للعدل فى الشرعية الالهية:

وهناك ثلاث درجات للعدل حسب التعامل مع الله تعالى ومع الناس ومع البيئة .

1 ــ العدل مع الله (في العقيدة وفي العبادة)بأن يكون الإيمان والتقديس لله تعالى خالصا لا اله الا هو لا شريك له ،وما عداه من مخلوقات لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا ولا تستحق التقديس والعبادة، وانه ليس لله تعالي ولد ولا والد ولا زوجة. واذا لم يتحقق العدل في التعامل مع الله اصبح ظلما لله تعالى، ومن هنا يوصف الاشراك بالله بأنه ظلم عظيم (لقمان 13) والبشر يختلفون فيي هذه القضية ،ومرجع الحكم فيها لله تعالى وحده يوم القيامة .

2 ــ اما العدل مع البشر فيكون بالتعامل العادل مع الناس جميعا ،سواء كانوا من الاقارب والاحباب أم من الخصوم والاعداء (النساء 135،المائدة 8) بل يأتي التركيز علي مراعاة العدل مع الخصوم في العقيدة أي من نعتبرهم كفارا مشركين ، فطالما لم يعتدوا علينا فلابد من مراعاة العدل والبر معهم (الممتحنة 8) ثم هناك العدل في التعامل التجاري (البقرة 282،الأنعام 152)والعدل في التقاضي والحكم بين الناس (النساء 58 ، الشورى 15)والعدل في الشهادة (الطلاق 2) والعدل في الاحتكام الدولي (الحجرات 9،الممتحنة 8) والعدل في داخل الأسرة وفي التعامل مع اليتيم (النساء 127،3)بل العدل في الخصم الذي يعتدي علي دولة المسلمين (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم : البقرة 194).

3 ــ اما العدل مع البيئة فهو باب جديد عرفته البشرية فى عصرنا الراهن ولكن أشار اليه القرآن الكريم من قبل . والمصطلح القرآني يعبر عنه (بالميزان) التي تعني بثقافتنا المعاصرة (التوازن الطبيعي في الكون والبيئة).

(الميزان) هو اساس خلق الكون وهو اساس الرسالات السماوية، وهو ايضا اساس الحساب يوم القيامة .والله تعالي يربط بين خلق السماوات والارض وفق توازن دقيق (الميزان) وبين وجوب ان يعيش البشر مع

بعضهم بميزان دقيق عادل يقول الله تعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان ،الا تطغوا في الميزان ،واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان :الرحمن 7:9)وتدبر هذه الآيات يحتاج مجلدات من بحوث العلماء المتخصصين .

ان الميزان الالهي تجده في خلق المادة في اوزان العناصر والذرات والمعادلات الكيميائية ،بنفس ما تجده في حسابات الفلك وحركات الكواكب والنجوم ،وعن طريق الحسابات الرياضية توصل اينشتين الي نظرية النسبية قبل ان تتحقق علميا بالتفجير ،وعن طريق الحسابات يتوصل علماء الفلك الى اكتشاف بعض الكواكب ،والله تعالى يشير الي منازل القمر وصلة ذلك بالحساب الفلكي (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب :يونس 25)ويقول عن التقويم القمري والتقويم الشمسي (وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا :الانعام 96)ويقول عن الميزان المحسوب في المواد (وانبتنا فيها من كل شئ موزون)(وان من شئ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم :الحجر 19،21).

وهذا الميزان الدقيق في الكائنات الحية وغير الحية يستلزم عدم المساس به حتى لا يفسد النظام داخل الذرة والعناصر والخلايا والغلاف الجوي .ومن اجل ذلك فان الله تعالى خالق هذا الكون المتوازن ينزل ايضا كتابا سماويا يكون المرجع او الميزان الذي يهتدي به البشر في تعاملهم مع بعض حتى لا يتحول الظلم الى فساد وتخريب للبيئة (راجع ما يحدث في الحروب والجرائم من تخريب)يقول تعالى عن ارسال الرسل (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط :الحديد 25)وهي نفس الاية التي سبق ان استشهدنا بها وفيها وصف الكتاب السماوى الذى جاء به كل رسول ونبى بأنه "الميزان". فهداية البشر تتحقق باحتكامهم الى ذلك الميزان المكتوب " أى الكتاب السماوى"الذى هو ميزان العدل في التعامل مع الله تعالي والبيئة و البشر. والقرآن الكريم هو خاتم الكتب السماوية وهو المحفوظ الى قيام الساعة، ونزوله فى آخر الزمان البشرى دليل على قرب قيام الساعة ووصول البشرية تمام حضارتها. لذا فان القرآن هو الميزان الخاتم للبشرية فى تطورها الأخير قبل نهاية العالم . نفهم هذا من قوله تعالى لخاتم النبيين عليهم جميعا السلام: (الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب : الشورى 17)

فالقرآن آخر كتاب سماوى نزل ميزانا للعدل بين الناس ،ولأنه آخر كتاب سماوي فإنه يعد دليلا علي قرب قيام الساعة ،وفيها يتم حساب البشر بنفس الحساب الدقيق ،بالعدل المطلق طبقا للكتاب السماوي في كفة ولكتاب اعمال البشر الفردي والجماعي في الكفة الاخرى (الانبياء 47،الاعراف 9)..هذا في الاخرة .

أما في الدنيا فان البشر ايضا يلقون جزاء اعمالهم ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا، اذ لابد للظالم في الدنيا من عذاب دنيوي قبل الاخرة (آل عمران 56 ،السجدة 21،التوبة 85،55)وفي المقابل فان الصالحين لهم جزاء دنيوي قبل الآخرة .(النحل 30،41 ،الزمر 10).

الا ان الفساد والظلم فىتعامل البشر يؤدي الي الفساد في البيئة اوما نعرفه الآن بالتلوث، فواضح ارتباط الفساد الخلقى والسياسى بانتشار التلوث . جرائم السرقة والحروب والاستغلال السىء للموارد والتلاعب بها ــ كلها تؤثر فى المناخ وتزيده تلوثا. ثقب الأوزون هو احدث صرخة احتجاج من الطبيعة جعلت البشرية تتسارع الى عقد قمة الأرض لعلاج هذه الأم الرءوم مما فعله به أبناؤها فى البر والبحر والفضاء. ومن عجب

ان يشير القرآن منذ الف واربعمائة عام الى مسئولية الفساد البشرى ــ أو الظلم البشرى ــ عن افساد البيئة وتلوثها ،يقول تعالى (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون:الروم 41). أى أن انتهاك الميزان الالهى فى العقيدة والأخلاق ــ وهى الشريعة الالهية الأخلاقية ــ أنتج خرقا فى الميزان الطبيعى وأحدث تلوثا وفسادا للمناخ والبر والبحر والجو والمادة الحية والمادة الجامدة. وقد تنبه حكماء العالم اليوم الي ان حماية الارض من التلوث يستلزم اقامة العدل علي المستوي العالمي والمستوى الاقليمي والمستوى المحلي داخل كل بلد، وهذا ما تمخض عنه تفكير البشر الراقي مؤخرا من أن سلامة الأرض والبيئة مرتبط بتحقيق العدل بين الناس منعا للحروب والقلاقل والثورات والجهل والجرائم، وهو محاولة للوصول الي ما ينبغي ان يكون ،والذي اشارت اليه الاية الكريمة والتي تجعل تحقيق العدل هو الهدف الاساسي من ارسال الكتب السماوية وارسال الرسل والانبياء (ليقوم الناس بالقسط) أي ليتعاونوا فيما بينهم في تحقيق العدل .

الانسان وحده فى هذه الأرض هو الذى حمل أمانة التكليف والمسئولية (الأحزاب 72). التكليف يعنى انزال الكتب السماوية بالأوامر والنواهى للرقى بالانسان ، وحرية الانسان فى الطاعة أو المعصية ، فى الايمان أو الكفر ، فى تقديس كلام الله تعالى أو فى الكذب على الله تعالى وتزييف شرعه والاغتراء على رسله وكتبه. والميزان الالهى كما عرفنا نوعان : ميزان مكتوب ،هو فى الكتب السماوية ــ وخاتمها هوالقرآن الكريم ــ وميزان منشور وهو فى الكون المحيط بنا وفى داخلنا، يبدأ بالذرة والخلية الحية ولا ينتهى بالمجرات وما وراءها من مادة وطاقة. هذا الكون الهائل لا عقل له ، قد خلقه الله تعالى على أساس الطاعة فقط ، فلا يستطيع الاليكترون أو القمر أو الشمس أو أى كوكب أونجم أن يخرج عن المدار المحدد له سلفا. كل ما فى الكون قد سخره الله تعالى للانسان ،(الجاثية 13) للانسان مطلق الحرية فيما يفعل بنفسه أو بغيره ، كما أن له مطلق الحرية فى طاعة ربه جل وعلا أو عصيانه. وفى مقابل هذه الحرية سيتعرض للحساب بعد أن يدمر الله تعالى هذا الكون ويأتى اليوم الآخر الذى " يفرض " الله تعالى الحساب على البشر فيما قدموه لأنفسهم فى اختبار الحياة الدنيا، وهل حافظوا على الميزان أم طغوا فيه .

الكون بكل ما فيه من طاقة ومادة وابداع لا يتمتع بالتكليف والحرية والمسئولية، ولكن الانسان ــ ذلك المخلوق الضئيل ــ يتمتع بالتكليف والحرية والمسئولية. ومن أسف فانه يستخدم حريته للاضرار بنفسه وبالبيئة التى تضمه ، وقبل هذا وذاك فى ظلم الخالق جل وعلا حين يتخذ آلهة معبودة من احجارالبيئة المسخرة له ، او من عناصر الطبيعة المخلوقة لأجله. هنا يتعاظم التناقض بين الشرعية الالهية وميزانها الحساس وبين الشرعية السياسية التى يقيم بها الانسان واقعا سياسيا على الأرض.

استحالة التطبيق الكامل للشرعية الالهية

الشرعية الدينية الالهية هى اقامة العدل البشري بنفس الميزان الدقيق الذي نراه في التوازن القائم في الكون الذى لا يملك القدرة على العصيان.ومن الطبيعي ان تحقيق هذه الدرجة من العدل مستحيل على البشر،لأننا بذلك نتحول الي ملائكة لا نخطئ ،ونتناسى ان النفس البشرية مخلوق علي اساس الفجور والتقوى فهى تقبل هذا وذاك ثم يأتي اختيار الانسان لأحدهما ،أن يكون فاجرا فيخسر أو ان يكون متقيا فيفلح (الشمس 7،10)و

نتناسي وجود الشيطان ومهمته الاساسية في اغواء البشر بكل وسيلة وتأكيد القرآن علي نجاح الشيطان في اغواء اكثر البشر (الاعراف 16،17 ،الاسراء 62،65)وتأكيد القرآن علي ان اغلبية البشر ضالة مضلة تتبع الهوى (الانعام 116) (وراجع كلمة اكثر في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم)ونتناسى اخيرا ان العدل المطلق وما ينبغي ان يكون ليس له مكان في الدنيا، والا ما كانت هناك الاخرة والحساب والثواب والعقاب . ومن هنا فان امال الفلاسفة في المدينة الفاضلة تظل مجرد آمال واحلام لا يمكن تجسيدها بالكامل علي ارض الواقع ،ويصبح من الاجدى محاولة الاقتراب من تحقيق اكبر قدر متاح من العدل أو من الشرعية الدينية التي نزلت بها الرسالات السماوية .ومحاولة الاقتراب هذه تستلزم وعيا جماهيريا يدفع الناس للتعاون فيما بينهم في اقامة وتأسيس العدل ،وذلك معنى (ليقوم الناس بالقسط) أي ليتعاونوا في اقامة القسط ،وفق وعي مشترك بأهمية العدل للفرد وللجماعة معا . هذا التحقيق البشرى للعدل يستلزم قوة للتحقيق أو الاستحقاق.
هنا ندخل على الشرعية السياسية.

الشرعية السياسية للنضال من اجل العدل :

ومن الغريب ان الاية نفسها تشير الي الشرعية الدينية (ما ينبغي ان يكون وهو اقامة العدل الكامل)وذلك في مقدمتها ، ثم تشير فى بقيتها الي الشرعية السياسية ،أو محاولات البشر للوصول لهذا العدل بالقوة الحديدية ، عبر نضال يقوم علي السلاح أو الحديد ،والحديد ايضا منزل من السماء (وتلك حقيقة علمية)كما نزلت الرسالات السماوية من السماء .

تقول الاية (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط .وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ،وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوي عزيز)أي انه :إذا لم يتحقق العدل وفق الرسالات السماوية وميزانها فالسبيل هو الحديد ذو البأس الشديد . وحين يستخدم الحديد لتحقيق العدل او الوصول الي شرعية سياسية تحاول الاصلاح فأنه يكون نافعا للناس. ولأن الامر يتوقف علي ضمائر الثوار المجاهدين في سبيل العدل فان الله تعالي وحده هو الذي يعلم غيب قلوبهم ،اذا كانوا يريدون فعلا ان ينصروا الله ورسوله في تحقيق العدل بين الناس ام لا .واذا حدث العكس وسكنوا في مساكن الذين ظلموا انفسهم فإن الامر يستلزم ثورة جديدة ،وهكذا يستمر الجدل الانساني بالقلم والسلاح لتحقيق العدل في الشرعية السياسية التي تعبر عن حلم الإنسان المتكرر في تحقيق العدل أو الشرعية الدينية التي تعبر عما ينبغي ان يكون.ومن خضم هذا الصراع المتكرر قد يتسلط الظالم علي ظالم آخرحين لا يستطيع المظلومون الثورة على الظالم المحلى فيأتى ظالم خارجي أو مصلح خارجى يعصف بالظالم المحلى، وقد يثور المظلوم على الظالم اذا ضعف الظالم ووجد المظلوم أملا وعونا فى الثورة عليه ، وبكل هذه الصورتتهاوى باستمرار عروش الظلم حتى لا يتحكم الفساد في الارض الي الابد، وهذا معني قوله تعالي (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض:البقرة 251).

مشيئة الإنسان هي الأصل في الهداية و ارادة التغيير :

وقد قلنا ان العدل درجات، وان الدرجة العليا فيه هي في التعامل مع الله بمعنى الا نظلم الله تعالى في اتخاذ شريك له وهو وحده الخالق المسيطر الذي لا يشرك في حكمه احدا (الكهف 26)وهذا العدل يستلزم هداية الي الحق تقوم علي الفطرة السليمة .

وهذه الهداية تبدأ باختيار الإنسان ،فالانسان يفكر بعقله مهتديا بفطرته السليمة يحاول الوصول الي الحق بموضوعية ،وعلي اساس هذا الاختيار الانساني للهداية يرشده الله تعالي الي الهداية ،أي تأتي مشيئة الله للهداية تالية ومؤكدة لمشيئة الانسان واختياره طريق الهداية ،وفي ذلك يقول الله (تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا هدى :مريم 76)ويقول(والذين اهتدوا زادهم هدي وآتاهم تقواهم :محمد 17)

وفي المقابل فأن الذي يختار الضلال تأتي مشيئة الله تؤكد علي الذي اختاره من ضلال (قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا : مريم 75)(في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا :البقرة 10)

وفي الحالتين فان من يشاء الهداية من البشر يشاء الله هدايتة ،ومن يشاء من الناس الضلالة يشاء الله ضلالته ،يقول الله تعالي (فان الله يضل من يشاء، ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات :فاطر 8)(قل ان الله يضل من يشاء ويهدي اليه من اناب :الرعد 27).

باختصار فان اقامة العدل مع الله تعالى (أي الهداية)يتوقف علي <u>مشيئة الفرد</u> وارادته الحرة ؛هو الذي يقرر ويشاء الهداية وتأتي مشيئة الله لتؤكد علي هذا القرار ، وقد يستلزم هذا الاختيار جهادا ونضالا ،وتكون هداية الله و إرشاده قريبة من هذا الجهاد ،يقول تعالي (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين :العنكبوت 69).

هنا المشيئة الفردية، أى أن كل فرد مسئول عن الهداية مسئولية شخصية ، وليس من مهام المجتمع أو الدولة هداية الفرد أو ادخاله الجنة وانقاذه من النار. الفرد هو المطالب وحده بالصلاة والخشوع فيها ، وهو وحده المطالب باخلاص الدين لله تعالى ، وعلاقته بربه علاقة مباشرة سواء عصى ربه أم أطاع وأناب. هو وحده الذى يملك القرار بأن ينهى نفسه عن الهوى أو أن يعبد هواه (النازعات 37 ــ 41) ، هو وحده الذى يقرر أن يزكى نفسه ويسمو بها أو يهبط بها الى حضيض الرذيلة (الشمس 7 ــ 10). وفى كل الأحوال فليس له الا سعيه ان خيرا وان شرا، ولا تزر وازرة وزر أخرى..

وايضا فان اقامة العدل مع الناس ومع البيئة تستلزم مشيئة الناس وارادتهم، الا أن الارادة هنا ليست مجرد ارادة فردية ولكن لا بد أن تكون <u>ارادة جماعية</u>، وهذا معنى قوله تعالى "<u>ليقوم الناس بالقسط</u> " أى كل الناس فى المجتمع من غنى وفقير وأمير وأجير وذكر وأنثى وكبار وصغار ومن كل الأعراق والملل والنحل والأديان. طبقا لثقافة المواطنة والمساواة والعدل بين كل الأفراد ــ كلهم مطالبون معا باقامة القسط فيما بينهم. هذه هى الارادة الجمعية لكل أفراد المجتمع وليس لفرد واحد.

لا بد للجميع من ارادة موحدة لتحقيق القسط ،وبقدر تكاتف الجماهير خلف الارادة الجماعية لتحقيق العدل يمكن النجاح في تحقيق العدل بأقل قدر ممكن من الخسائر .

ولكن السؤال الهام هنا كيف ينجح الناس علي حمل انفسهم علي المبادرة بالنهوض لتحقيق العدل ضد الظلم السائد ؟كيف يترك الناس القيم الاجتماعية الهابطة مثل الخنوع والسلبية والتواكل ليستبدلوها بقيم سامية هي الايجابية والحرية والشجاعة والحرية والتضحية والفداء وحب الحق والدفاع عن العدل؟

ان الاجابة هنا تكمن في التغيير،تغيير النفسية أو الذهنية ،وهذا التغيير يستلزم مشيئة حازمة قادرة فاعلة ،فان شاء الناس تغيير ما بأنفسهم من خنوع وخمول وتواكل وسلبية وقرنوا المشيئة بالعمل نجحوا ..وهنا تأتي مشيئة الله تالية لمشيئة الناس وهذا معني قوله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم :الرعد 11)أي هي نفس القاعدة ان اقامة العدل مع الله تستلزم اختيار الانسان للهداية ثم تأتي ارادة الله لتؤكد هذا الاختيار الانساني ،واقامة العدل بين الناس ومع البيئة تستلزم تغييرا في الذهنية يقوم علي اختيار انساني حازم ،وتأتي مشيئة الله مؤكدة وتالية لهذا الاختيار البشرى ..

وعليه فأن حركة الانسان نحو تحقيق العدل هي اختيار بشري يؤكده اختيار الله تعالي ومشيئته ...وهذه الحركة تتم في اطار الشرعية السياسية التي قد تهدف أحياناالي الوصول والاقتراب من الشرعية الدينية الالهية التي هي ما ينبغي ان يكون .

<u>شرعية الحاكم أو شرعية الثورة عليه مرتبطة بإرادة الناس:</u>

فماذا اذا اختار الناس السلبية والخنوع والرضى بظلم الحاكم ؟هنا ايضا تكون الشرعية السياسية في ادنى صورها .فطالما ارتضى الناس الخضوع لحاكم ظالم فهذا هو اختيارهم وتأتي مشيئة الله لتؤكد علي هذا الاختيار الذي لا يرضاه الله تعالي .

ان الله تعالي لا يرضي ان يكفر به عباده (ان تكفروا فان الله غني عنكم ولا يرضي لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم :الزمر 7)ولكن يشاء للكافرين ضلالهم طالما ارتضوا لانفسهم الضلال (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء:المدثر 31).

والله تعالي لا يريد الظلم في الارض (وما الله يريد ظلما للعالمين :آل عمران 108)(وما الله يريد ظلما للعباد :غافر 31)ولكن طالما رضي الناس تحمل الظلم واعترفوا بشرعية الظالم ملكا عليهم فان الله تعالي يعترف به حاكما عليهم .

ومن هنا ارسل الله تعالي موسي وهارون رسولين الي فرعون اعتى الظالمين ظلما ،و اوصاهما بأن يقولا له قولا لينا لعله يتذكر او يخشي (طه 44) ووصف الله تعالي بعض الحكام بأنهم ملوك ،ومنهم ذلك الملك الذي ادعي الالوهية ودخل ابراهيم عليه السلام في جدال معه (الم ترالي الذي حاج ابراهيم في ربه أن اتاه الله الملك ،اذ قال ابراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال انا احيي واميت ..)الي ان يقول تعالي عن ذلك الملك (فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين :البقرة 258).

فنحن هنا أمام مدعي للالوهية يصفه الله تعالي بالكفر والظلم .ولكنه يصفه ايضا (انه اتاه الله الملك)وقد اعطاه الله الملك لأن الشعب رضي به واختاره ،فجاءت مشيئة الله تالية لاختيار الناس.

ان هذه الحياة الدنيا قائمة علي اساس الاختيار (حرية الاختيار بين الايمان او الكفر ،بين الرضي بالقهر او الثورة عليه)وتأتي مشيئة الله لتؤكد علي ما يختاره الفرد والناس ،وهنا يكمن الاختبار في ذلك الاختيار .ثم

يأتي يوم الحساب ليلقي كل إنسان نتيجة عمله حسب الشريعة الدينية الالهية ،وحيث يتحقق فعلا ما ينبغي ان يكون .

الفارق بين الشرعية الإلهية الدينية والشرعية السياسية البشرية :

ونخلص من ذلك ان الشرعية الإلهية الدينية الأخلاقية (ما ينبغي ان يكون)أمل عزيز المنال لا يمكن تطبيقه بالكامل او تحقيقه مائة فى المائة في هذه الدنيا ،اما الشرعية السياسية فهي في احسن حالاتها محاولة الوصول الي اقرب تطبيق للشرعية الالهية الدينية ،وهي في اسوأ حالاتها الرضي بالظلم والقهر والتعايش معه وممارسته .

وانه في اطار هذه الشرعية السياسية العملية تأتي مشيئة الله تؤكد ما اختاره الناس ايجابا او سلبا ،في الهداية او في الضلال ، هذا في الحياة الدنيا ،اما في الاخرة فتأتي الشرعية الالهية الدينية لتطبيق يوم الدين أي اليوم الذي يطبق فيه دين الله تعالي بأقصى تمام العدل حيث يقول الله تعالي (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم :غافر 17).

الشرعية السياسية البشرية وانواع التدين البشري:العلمانية والدولة الدينية

قلنا ان الشرعية الدينية الالهية هي الرسالات السماوية التي تهدف للعدل مع الله وبين الناس ومع البيئة وفق ما ينبغي ان يكون .اما ما هو كائن وواقع فعلا فهوالشرعية السياسية البشرية، أو هو التطبيق البشري للعدل في التعامل مع الله ومع الناس ومع البيئة ،سواء كان هذا التطبيق يحاول الوصول الي للعدل ام منافيا له ،أي سواء كان ظلما لله تعالي والعالمين والبيئةأو محاولة للحد من هذا الظلم وتحجيمه .والشرعية البشرية معترف بها كواقع طالما كان يعبر عن رضى الناس ،فىالخنوع للظلم وعدم الثورة عليه، فاذا ثار الناس ونجحت الثورة ونجحت فى ابادة النظان القديم واسست لها واقعا مسيطرا رضى به الناس نالت الشرعية السياسية برضى الناس عنها وتقبلهم لها .

سهولة الفصل بين الشرعية الدينية والشرعية السياسية في الدولة العلمانية:

ويظل الأمر سهلا طالما يمكن الفصل بين الرسالات السماوية (الشرعية الالهية الدينية وما يجب ان يكون) وبين التطبيق البشري سواء كان أو مع ضد الرسالة السماوية كما هو في النظم السياسية العلمانية التي تفصل بين الدين والسياسة .

ففي احسن صور العلمانية يتم تحقيق قدر اكبر من الليبرالية والديمقراطية وحقوق الانسان بعيدا عن الرسالات السماوية واعتمادا علي العقل والوعي البشري ووفقا للمنفعة المشتركة . وفي اسوأ صور العلمانية ايضا وتحت شعارات شتى من الوطنية والقومية والبروليتاريا تسود الديكتاتورية والفساد وتضيع حقوق الانسان ، وتجارب الدول الشيوعية والديكتاتورية العسكرية خير شاهد علي ذلك .

وفي كل الاحوال لا يحتاج الحاكم العسكري او الشيوعي كما لا يحتاج الحاكم المنتخب ديمقراطيا الي تبريرات او تفسيرات دينية .

وفي كل الاحوال فان رضى الشعب او ثورته تتم كلها في اطار شرعية سياسية لا تختفي خلف شعارات دينية تخلط الدين بالسياسة وتتلاعب بهما معا.

صعوبة الفصل بينهما في الدولة الدينية التي تسعى الي تحوير الرسالةالالهيه لتلائم سياستها :

ولكن يصبح الأمر معقدا اذا تمسحت الشرعية السياسية بالدين وحاولت تطويع الرسالة السماوية لتناسب الواقع الاجتماعي والسياسي مع النظام السائد أو ضد النظام السائد .وهذا التطويع يأتي عبر التحريف للرسالة السماوية و اضافة مصادر بشرية ونسبتها الي صحيح الدين، وبذلك يتحول الدين الإلهي في صوره البشرية الي نوعيات مختلفة من التدين ،لكل تدين اسفاره المقدسة وائمته المقدسون، ولكل تدين ظروفه السياسية التي ادت الي نشأته وساهمت في تطوره ...ينطبق هذا علي تاريخ اليهودية والمسيحية وتاريخ أوروبا في العصور الوسطي قبل ان تختار العلمانية .

وينطبق ايضا على تاريخ المسلمين .

باختصار فان علي البشر ان يطوعوا طريقة حياتهم لتتفق مع العدل الذى نصت عليه النصوص السماوية وتعبر عنها بأقصي ما يمكن ..ولكن حين يستخدم الدين في السياسية يحدث العكس ،وهو تطويع الرسالة السماوية لتتفق مع اهواء البشر ، ويتم هذا التطويع عبر الاضافة والحذف من والي الرسالة السماوية ونسبة الكلام البشرى الي الوحي الالهي عبر احاديث نبوية قدسية او تفسيرات وتأويلات مقدسة .

باختصاراكثر لابد ان تخضع الشرعية السياسية الي الشرعية الدينية الالهية ولكن يحدث العكس حين تتمسح الشرعية السياسية في الحكم او الساعية للحكم بالشريعة الالهية الدينية فتخضعها لمتطلباتها . وهذا هو موجز التاريخ الديني للبشر ،أو تاريخ التدين البشري وعلاقته بالرسالات السماوية حتي خاتم الرسالات وخاتم الانبياء محمد عليه وعليهم السلام .

وللحديث بقية بعون الله تعالى .

الاستحقاق السياسى فى تاريخ المسلمين

تاريخ المسلمين بين الشرعية الالهية والشرعية السياسية

1 ـــ بايجاز شديد :العدل هو الشرعية الالهية وما ينبغى أن يكون . العدل هو جوهر الاسلام. تطبيق المسلمين للعدل كأن فى أروع مظاهره وقت نزول القرآن فقد كان الوحى القرآنى يصلح ويقوّم مسيرة النبى والمسلمين. بدأت الفجوة بعد موت النبى محمد فى عصر الخلفاء الراشدين بالفتوحات والفتنة الكبرى ، وتعاظمت بالظلم وقهر الشعوب غير العربية فى الامبراطورية الأموية الفاتحة . ثم تم صبغ هذا الظلم بصبغة دينية مزيفة بالأحاديث والتفاسير والتأويل فى العصر العباسى ، حيث أدت الفجوة بين الاسلام والمسلمين الى انشاء أنواع مختلفة من التدين أهمها السنة والتشيع والتصوف ، كل منها ينتسب للاسلام ويخالفه فى نفس الوقت . هذه الدول الأموية والعباسية والفاطمية والطولونية والاخشيدية والعثمانية .. الخ ..كلها قامت بالقهر والظلم ولكنها بالاستحقاق ومنطق القوة ـــ كانت ولا تزال ـــ شرعية سياسية لا بد أن نعترف بها تاريخيا ، كما اعترف بالتبعية لها ملايين البشر الذين عاشوا فى كنفها.

2 ـــ على المستوى السياسى الواقعى وبعيدا عن العدل والأخلاق وما ينبغى أن يكون وبمقياس القوة وحدها ـــ أى بالشرعية السياسيةأو الاستحقاق ـــ فان الأقوى هو الذى فرض شروطه وأقام واقعا سياسيا . ثم تعدى الأمر الى استئجار فقهاء يقيمون له تبريرا دينيا و أخلاقيا بأحاديث وفتاوى، مالبث ان نشأ عنها نوعيات من التدين والطوائف والفرق الاسلامية.

زاد فى الأمر سوءا أن المستضعفين أيضا دخلوا فى ميدان التدين عن طريق فقهاء ينتمون للعوام أوالدعاة الثائرين والمحتجين على النظم القائمة بالقوة واستحقاق الطاعة بالقهر والعنف. أولئك الفقهاء أيضا كانت لهم آراؤهم التى حملتها أحاديث منسوبة للنبى محمد وفتاوى منسوبة لأصحابه وكبار العلماء من الصحابة والتابعين قبل عصر التدوين. تكون التراث "الاسلامى" من مزيج من كل هؤلاء الفقهاء على اختلافاتهم المذهبية والسياسية

3 ـــ تاريخ المسلمين هو أبرز ملامح العصور الوسطى المشهورة بتعصبها وتزمتها.

لولا الوهابية كان يمكن أن يظل تاريخنا فى العصور الوسطى مجرد تاريخ مضى ندرسه لمجرد العلم وليس التطبيق بأثر رجعى ، وكان يمكن أن يظل تراثنا العباسى والفاطمى مجرد تراث انتهت فترة صلاحيته ولم يعد صالحا للاستهلاك الآدمى فى عصر الحرية والديمقراطية وحقوق المواطنة وحقوق الانسان .

كانت مصر فى مطلع القرن التاسع عشر رائدة التحديث واليقظة ، تتأهب للأخذ عن الغرب واللحاق به فى نهضته ، وكانت اليابان تتبع خطى مصر فى هذا التحول من العصور الوسطى الى العصور الحديثة. ولكن أصيبت مصر والعالم العربى والاسلامى بالوباء الوهابى.

الوهابية هى أشد أنواع ثقافة العصور الوسطى تعصبا وتزمتا وتخلفا . وتتعاظم المصيبة حين نمارس هذه الثقافة فى عصرنا الراهن باسم الاسلام ، وحين نضع أئمتها من الفقهاء القدامى والمحدثين فى موضع التقديس والتأليه، بحيث يصبح نقد أفكارهم خروجا على الاسلام.

هذا ما جنته الدولة السعودية على الاسلام والمسلمين. أرجعت ظلم العصور الوسطى من استبداد وفساد وتخلف وتعصب الى عقلية المسلمين باسم الاسلام وهى تناقض الاسلام على طول الخط ، فاكتوى بها العالم كله ــ ولا يزال.

ولكن الدولة السعودية بمنطق القوة والاستحقاق هى دولة شرعية ، وستظل دولة شرعية طالما كانت الاسرة السعودية تتحكم فى مقاليد الأمور، فاذا قامت ثورة أسقطت الحكم السعودى وتحكمت بالقوة فى مقاليد الدولة الجديدة فلا بد للعالم أن يعترف بها ، فقد استحقت الشرعية السياسية. هذا بغض النظر عما اذا كانت الدولة الجديدة ستطبق العدل أم لا.

ونعطى عرضا سريعا لتاريخ المسلمين بين شرعية العدل الالهى والاستحقاق القائم على القوة، أو الشرعية السياسية.

<u>[1]في عهد النبوة :دور الوحي في توجيه حركة النبي لتطابق حركته البشرية المشروعية الالهية :</u>

نزلت الرسالة السماوية الاخيرة قرآنا محفوظا من التحريف والتغيير في نصه ولفظه ليكون حجة علي البشر حتي قيام الساعة .وفي القرآن جانب هام يعزف المسلمون عن التدبر به لأنه يخالف نوعيات التدين السائدة عندهم ،وهو العتاب واللوم الذي كان يوجهه الله تعالي الي الانبياء خصوصا خاتم النبيين عليهم السلام ،اذ ان نوعيات التدين لدى المسلمين تؤلّه الانبياء فضلا عن غيرهم من الصحابة والائمة والاولياء. والتدبر في هذا الجانب يهز ذلك الاعتقاد عند المسلمين .

ويهمنا ان القرآن يؤكد علي بشرية الأنبياء ،ويؤكد علي ان عصمة النبي محمد تكون بالتوجيه الالهي الذي يتابع النبي بالتصحيح ،وفي ذلك يقول تعالي لخاتم النبيين (قل ان ضللت فانما اضل على نفسي وان اهتديت فبما يوحي الي ربي :سبأ 50)(ما اصابك من حسنة فمن الله وما اصابك من سيئة فمن نفسك ،و ارسلناك للناس رسولا :النساء 79)

وتصرفات النبي محمد منها ما كان مستوجبا للعتاب واللوم ، ومنها ما كان مستوجبا للمدح والإشادة .مدحه الله تعالي ومدح المؤمنين حين بايعوا تحت الشجرة (الفتح 18)حين جاهد وجاهدوا معه بأموالهم و انفسهم (التوبة 88:89:92).

وعاتبه برفق حين سمح للمنافقين بالقعود عن القتال (التوبة 43)وعاتبه بقسوة قائلا (وتخشى الناس والله احق ان تخشاه :الاحزاب 37)في موضوع زواجه من مطلقة زيد بن حارثة الذي كان يتبناه .وفي حركته في الدعوة عاتبه كثيرا بسبب حماسه الزائد الذي كان يقترب من الاكراه في الدين فيقول له ربه(ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعا، افأنت تكره الناس حتي يكونوا مؤمنين :يونس 99)وأكد علي ان يترفق بنفسه فلا يحزن علي عناد قومه (الكهف 6 فاطر 8، هود 12 ، النحل 127،الحجر 97 ،آل عمران 176 ، المائدة 41،الانعام 33).

وفي حركته بالدعوة عاتبه الله حين كان يتقرب من المشركين اصحاب السطوة املا في هدايتهم ،وقد يطرد المؤمنين الفقراء ليستجيب الي هؤلاء الاغنياء (عبس 1-،طه 28-،الانعام 52:54).
وفي كل هذه التصرفات التي استلزمت المدح او العتاب واللوم كان النبي محمد يناضل بجهده البشرى لتغيير الواقع الذى يتحكم فيه ـ بالاستحقاق ـ اصحاب السلطان والهوى والذين لايريدون تغيير المناخ الذي يقوم عليه تراثهم وسلطانهم. وتحول رفض المشركين القرشيين الي اضطهاد للنبى محمد والمؤمنين ثم الي هجرة، ثم الي قيام واقع جديد تمثل في دولة للرسول تخالف المألوف في العالم سياسيا واجتماعيا ودينيا .

ملامح دولة النبي :افضل تطبيق بشري (شرعية سياسية بشريه)للرسالة السماوية (الشرعية الالهية):

هي دولة تقوم علي الديمقراطية المباشرة أو الشورى الاسلامية القرآنية حيث يستمد الحاكم النبي سلطته من الناس ويأمره ربه ان لا يكون فظا غليظ القلب والا انفضوا عنه ،واذا انفضوا عنه فلن تكون له دولة ،لذا امره ان يعفو عنهم وان يستغفر لهم وان يشاورهم في الامر (آل عمران 159)وهي دولة تقوم علي السلام ،والقتال فيها لرد العدوان بمثله دون اعتداء أو استيلاء علي ارض الغير بدون وجه حق (البقرة 190،19 4)والمشركون الخصوم طالما لا يعتدون أو يتحالفوا مع المعتدين فالواجب معاملتهم بالبر والعدل (الممتحنة 9)فاذا اعتدوا وانهزموا وجب علي المعتدي المهزوم دفع غرامة حربية هي الجزية جزاء اعتدائه (التوبة 29)وحرية العقيدة في دولة النبي متاحة بالقول والفعل بدون حد اقصي حيث ان الهداية مسئولية شخصية فمن اهتدي فلنفسه ومن ضل فعليها (الاسراء 15)وحيث يمارس المنافقون حريتهم في القول والفعل أينما شاءوا ، وينزل القرآن يحكم بكفرهم ولكن يأمر النبي والمسلمين بالاعراض عنهم(النساء 60:63)(التوبة 60:68،79:8 4،94:96).
وهي دولة العدل الاجتماعي الذي يقوم علي حقوق اساسية للمحتاجين،وينزل القرآن يلوم الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل (النساء 36:39،محمد 3)و هي دولة ليس فيها حاكم بالمعني المألوف حتي في النظم الديمقراطية النيابية الحديثة لأنها دولة يحكمها أصحابها ،بل ان اولي الامر المشار اليهم في القرآن هم اصحاب الخبرة ، ومصطلح الحكم في القرأن لا يعني الحكم السياسي ، وانما يعني الحكم القضائي بين الناس (واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل : النساء 58)ووظيفة الدولة هي اقامة العدل وتوفير الامن .
ولأنها دولة الديمقراطية المباشرة فان الخطاب فيها يتوجه الي جماعة المسلمين لا الي الحاكم ،فجماعة المسلمين هي التي تقيم الشوري (وأمرهم شوري بينهم:الشوري 38)وهي التي تحكم بالعدل (النساء 58) وهي التي تعد القوة العسكرية لا للاعتداء وانما للردع وحقن الدماء (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم :الانفال 60).
وهي دولة الديمقراطية المباشرة التي لاتعرف الحاكم الفرد او الحاكم الذي يمثل مصالح طبقية أو فئوية ، ولأنها كذلك فان النبي محمد مات دون ان يعهد بالحكم لأحد من بعده ،لأن لدى المسلمين آليات للحكم الديمقراطي المباشر ..هذا بالطبع ان التزموا بسنته الحقيقية وهى الشرع القرآنى فى السياسة والحكم ، المشار اليها فى السطور السابقة.

ولكن ذلك لم يحدث .
ومن هنا بدأت الفجوة بين اكمل شرعية بشرية سياسية ــ تقترب من العدل الأسمى للشرعية الدينية ــ وبين شرعية الخلفاء الراشدين التالية لها.
وكلما مر الزمن ازدادت الفجوة اتساعا .

في عهد الخلفاء الراشدين (11-40هــ (632-661م):

لأن الخلفاء الاربعة كانوا ــ كأشخاص ــ اقل شرا ممن جاء بعدهم من الخلفاء الأمويين والعباسيين فقد اطلق عليهم لقب الخلفاء الراشدين تمييزا لهم عن الخلفاء الاخرين (غير الراشدين)حيث الاستبداد والفساد ،وحين ظهر عمر بن عبد العزيز ظاهرة نادرة في العصر الاموي الحقوه بالراشدين مع مرور حوالي نصف قرن بينه وبينهم .

بداية الفجوة بين تاريخ النبوة وتاريخ المسلمين :

احتوى عصر الخلفاء الراشدين على البذور الجنينية لكل التطور الهائل التي اتسعت به الفجوة بين تاريخ النبوة وتاريخ المسلمين ،ويرجع ذلك الي الاعراب البدو والامويين القرشيين ،وكلا الفريقين دخل الاسلام قبيل وفاة النبي ،ولازالوا بالمسلمين حتي حولوا تاريخهم الي النمط السائدفي العصور الوسطى ، وهي عصور الاحتراف الديني والتعصب الديني والحروب الدينية .
الاعراب الذين احترفوا الاغارة علي القوافل ما لبث ان انضموا الي دولة النبي ،وهددوا القوافل القريشية في رحلتي الشتاء والصيف ،فرأى بنو امية ان مصلحتهم التي كانت تحتم عليهم محاربة المسلمين تستوجب عليهم الآن الدخول في الاسلام ،وهكذا كان فتح مكه سلميا بعد فترة الهدنة .و قبيل موت النبي حكمت قريش نفسها بنفسها وكذلك الاعراب .وكانت الزكاة تؤخذ منهم لتوزع فيهم دون قسر او اكراه .لأن تشريع الزكاة يمنع اخذ الزكاة عنوة ،بل ان الله تعالي منع النبى من اخذ الصدقات من المنافقين لأنهم كانوا يقدمونها عن غير طيب خاطر (التوبة 54)
والتغيرالجديد الذي نعم به الاعراب هو المساواة والعدل بلا تفوق للقرشيين كالذي كان ،وذلك طبقا للقاعدة القرآنية (يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم :الحجرات 13).

حركة الردة :

وبمرض النبي ثم وفاته ارادت قبائل الاعراب ان تؤكد وضعها في مرحلة ما بعد النبي ،ولأنها فهمت النبوة امتيازا قرشيا فقد تحولت معارضتها السياسية الي تدين جديد ،اقترنت فيه حرب الردة السياسية بادعاء النبوة ،كان اخطرها في نجد حين ظهرت حركة مسيلمة الكذاب في وادي حنيفة (مقر الدعوة الوهابية فيمابعد)وحركة طلحة الاسدي من قبائل اسد وطئ .وليس صحيحا ان ابا بكر هو الذي حارب المرتدين بل الصحيح ان المرتدين هم الذين حاربوا ابابكر ،وهاجموا المدينة فاضطر الي حربهم[1] وادت حركة الردة الي تطورات داخلية وعالمية لاحقة داخل المسلمين وخارجهم .

اثر حركة الردة والفتوحات :

فالتهديد الذي واجهه المسلمون في حركة الردة اوقع المسلمين تحت خطر الاستئصال ،وبالتالي كانوا في وضع استثنائي يستوجب احكاما عرفية ،فكان سهلا تعيين قائد حربي ثم بيعته بالقتال مثل ما تم سابقا من مبايعة المسلمين للنبى تحت الشجرة ،وفي هذه الظروف الاستثنائية جرت بيعة السقيفة ،وفيها تكتل القرشيون وتم تهميش الانصار ،وتم نفي زعيمهم سعد بن معاذ وقتله فيما بعد[2] وتم استرضاء الامويين ليوافقوا علي بيعة ابو بكر دون علي وهو الأقرب لديهم ،وذلك بتعيين يزيد بن ابي سفيان قائدا في حروب الردة .

واستطاعت قريش اخماد حركة الردة ،و حتي لا يعود الاعراب الي الردة ثانية وحياتهم تقوم علي السلب والنهب والتقاتل فقد قامت قريش بتصدير شوكة الاعراب الحربية الي خارج الجزيرة العربية في الفتوحات حيث كان القادة من الامويين والقرشين وكان الجند من الاعراب المرتدين سابقا .واستمرت الظروف الاستثنائية الحربية، ومات ابو بكر ،فتم اختيار عمر بنفس ظروف البيعة ،و اثناء استمرار الفتوحات تم اغتيال عمر فتم اختيار عثمان بنفس البيعة .وبذلك عرف المسلمون تطورين خطيرين وهما :

الاول :تعيين حاكم مستمر طيلة العمر تحيط به دائرة مستشارين عرفوا فيما بعد بأهل الحل والعقد .

والثاني تحول الجهاد من القتال الدفاعي وفق مشروعية الاسلام الاصلية الي توسيع حربي في البلاد المجاورة ،وتخييرها –او بالاصح –ارغامها علي قبول واحد من ثلاث :الاسلام أو دفع الجزية أو الحرب .وبالتالي ضاعت القاعدة الاساسية القرآنية (لا اكراه في الدين)(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين :البقرة 256/190) وبعد ان كانت البيعة تعني مبايعة القائد علي القتال دفاعا عن النفس اصبحت تعني المبايعة بالطاعة لحاكم يظل يحكم مستبدا طول العمر .

وهذا التغيير مبعثه كبار قريش واعراب نجد والجزيرة العربية .

وبعد توقف الفتوحات في عهد عثمان بدأت القلاقل بين الاعراب والامويين القرشيين المتحكمين في عثمان وخلافته .واشتعل الخلاف بين الفريقين حول ارض السواد الواقعة علي حدود نجد والعراق حيث اعتاد الاعراب الاغارة علي البلاد الزراعية السوداء علي حافة الصحراء شمال نجد .ولم يكتف نبلاء قريش (من الامويين الذين يتحكمون في الخلافة ويحكمون الشام)بما يحصلون عليه من اموال ونفوذ فطمعوا في ارض السواد الذي يعتبره الاعراب ملكا تقليديا لهم في الجاهلية ثم فتحوه بسيوفهم بعد الاسلام .

تطور النزاع وتدخل فيه عبدالله ابن سبا الذي رفع شعار التشيع لعلي ابن ابي طالب .وكعب الاحبار الذي يوالي عثمان والامويين ،وكلاهما (عبد الله بن سبأ وكعب الاحبار)من يهود اليمن [3] وانتهي بأن حاصر الاعراب عثمان ثم قتلوه وعينوا عليا مكانه .وتطورت الحرب بين علي واصحابه القدامى (الزبير وطلحةبن عبيد الله)في موقعة الجمل ،ثم بين علي وخصومه الامويين في موقعة صفين .وادى التحكيم الي القرآن الي اختلاف بين علي وبعض الإعراب من جنده الذين قتلوا عثمان من قبل ،فخرجوا على علي.

وبهذا تحول الاعراب من مسلمين في عهد النبي الي مرتدين ثم مسلمين للمرة الثانية ،ثم الي فاتحين فى عصر أبى بكر وعمر، ثم الي ثوريين علي عثمان ،ثم الي خارجين علي عليّ بن أبى طالب . كل ذلك التقلب حدث فيما بين موت النبي (11هـ،سنة 632م)الي مقتل علي علي ايديهم (40هـ،661)أي خلال اقل من ثلاثين

عاما .واصطبغت حركتهم بالعنف المرتبط بتفسير ديني ،يسري هذا علي قبولهم المتحمس للاسلام في عهد النبي ،ثم خروجهم عليه في حركة الردة تحت زعامة مدعي النبوة ،ثم انغماسهم في الفتوحات علي انها جهاد يغنمون منه النصر والشهادة والغنائم في الدنيا و الاخرة ،ثم حين ثاروا علي عثمان رفعوا لواء العدل ،وحين رفع الامويين المصاحف علي اسنة الرماح في موقعة صفين خداعا ارغموا عليا علي الموافقة علي التحكيم لكتاب الله ،ثم حين ظهر ان التحكيم خدعة خرجوا علي علي لأنه وافق علي التحكيم واتهموه بالكفر ثم قتلوه . وخلال نفس المدة تقلب الامويون في مواقع شتي حسب مصلحتهم وسعيهم الدائم للاستحقاق أو امتلاك القوة والاحتفاظ بها ،كانوا أعداء للاسلام في مكة، ثم دخلوا فيه فكانوا قادة حربيين بما لهم من مقدرة حربية وتحالفات قديمة منذ رحلتى الشتاء والصيف مع قبائل كلب الى تسيطر على الطرق التجارية للشام ،فقادوا المسلمن في حرب الردة ثم في الفتوحات ،وبعد توطيد الفتوحات اصبحوا امراء البلاد المفتوحة، وحين تولى ابن عمهم عثمان الخلافة سيطروا عليه وانتهى الامر بأن توارثوا الملك في ذريتهم خلال{الدولة الاموية} .

<u>في الدولة الاموية (41–132هـ 661 –750م)و تطاحن الشرعيات السياسية :</u>

أي انه بعد موت النبي (ص) بأقل من ربع قرن دخل المسلمون في نزاع مسلح تطاحنت فيه شرعيات سياسية مختلفة ،كل منها تظن انها علي الحق او تسعي الي احقاق الحق ، وتمخض عن هذا النزاع تحويل الشوري المقيدة في عصر الخلفاء الراشدين الي ملك وراثي استبدادي في الدولة الأموية ،وبالتالي ادي الي تطاحن اكثر حدة بين شرعية السلطة الأموية والشرعيات الثائرة عليها من علويين وشيعة وخوارج وابناء البلاد المفتوحة من الفرس والمصريين الاقباط والبربر ،الي القبائل العربية نفسها التي كانت تؤيد الامويين ثم انقلبت عليهم .مما ادي في النهاية الي سقوط الدولة الاموية في ريعان شبابها (سنة 132هـ،750م).

وقد وصلت الدولة العربية الاسلامية الي اقصي توسع لها في الدولة الاموية ،فيما بين الهند والصين شرقا الي جنوب فرنسا غربا ،ومن اسوار القسطنطينية شمالا الي النوبة والصحراء الافريقية جنوبا ،وفي عهدها اصبح البحر المتوسط بحيرة عربية وكذلك البحر الاحمر .وكانت الدولة الاموية تفتح الدولة المجاورة بيد وتقاتل في الداخل أعداءها باليد الاخرى ،الي ان سقطت بعد ان تكالب عليها اعداؤها الناقمون عليها.

ومن الطبيعي ان الامويين كانوا يعتقدون في شرعيتهم السياسية ،ويعتبرون الثائرين عليهم عصاة ،ولذلك قتلوا بدون رحمة الحسين وآله في كربلاء ودون الحاجة الي فتوى دينيةالا قول بعضهم فيما بعد (ان الحسين قتل بشرع جده)أي انه يستحق القتل لأنه ثار علي دولة شرعية دون ان يكون كفئا للنضال ومستحقا للنجاح .

وكذلك فان الثوار علي الامويين مهما اختلفت مذاهبهم كانوا يعتقدون بشرعية خروجهم علي الدولة ،ولهم عليها اتهامات تستوجب الثورة عليها ،واهم هذه الاتهامات انهم ساروا علي خلاف النبى والخلفاء الراشدين في احتكارهم السلطة والثروة وتوارثهم لها .وقد رد علي هذه الاتهامات عبد الملك بن مروان حين خطب بالمدينة مركز المعارضة سنة 75هـ فقال (اما بعد ..فلست الخليفة المستضعف –يعني عثمان – ولست الخليفة المداهن –يعني معاوية –ولا الخليفة المأفون ـــ يعني يزيد ابن معاوية –الا وان من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الاموال ،الا واني أداوي أدواء هذه الامة بالسيف حتى تستقيم لي

قناتكم .تكلفوننا اعمال المهاجرين ولا تعملون مثل اعمالهم ...والله لا يأمرني احد بتقوى الله الا ضربت عنقه) .[4].

الدولة الاموية وقانون القوة :

والواضح في خطبة عبد الملك انه يحكم بشرعية القوة أو الاستحقاق ويرفض استخدام الوعظ الدينى في نقده ، ويهددالثائرين عليه من مدعى التدين بالسيف. ويري ان خصومه يطالبونه بالسيرعلي عهد النبوة حين كان المهاجرون والانصار يعيشون فى عدل، ولكن هذا العدل قد انتهى عصره بدليل ان اولئك الخصوم لايعملون عمل المهاجرين والانصار ،لأن العصر غير العصر .

والواقع ان الامويين اسرفوا في استعمال القوة الي درجة القسوة دفاعا عن شرعيتهم السياسية واحقيتهم بالحكم كما يتصورون .فلم يتورعوا عن مذابح كربلاء واقتحام المدينة وانتهاك حرمة الكعبة في خلافة يزيد ابن معاوية، كما لم يتورع ولاتهم من التطرف بقتل الابرياء لمجرد الشبهة كما كان يفعل زياد ابن ابيه والحجاج وخالد القسري .

وكانت القبائل العربية في عصر الدولة الاموية قسمين ،قسم ثائر علي الدولة يمثله الخوارج الذين أرهقوا الامويين بثوراتهم ،ومنهم الذين استحلوا دماء كل المسلمين كالمحكّمة الاولى ،الذين كانوا يهجمون علي المدن فيقولون لا حكم الا الله ،ثم يقتلون كل من يقابلهم ،وفي نفس الوقت يراعون العهد مع اهل الكتاب ،أي يقتلون المسلمين بعد اتهامهم بالكفر ثم يحافظون علي حياة اليهود والنصارى.اما القسم الثاني من القبائل فكان يخدم الدولة الاموية يفتح بأسمها الاقطار ،ويقتل في سبيلها المعارضين في الداخل. وما لبث ان ثارت القبائل اليمنية علي الامويين بسبب تعصب بعض الخلفاء للقبائل المضرية العدنانية الشمالية ،وتعاونت تلك القبائل اليمنية مع عدو اكثر شراسة يتقدم ببطء وثبات وفي خفاء ،يدعو للرضى من آل محمد ،وهذا العدو هو الذي اسقط الدولة الاموية واقام بدلا منها الدولة العباسية .

بداية التمسح الاموي بالقضاء والقدر : أي بالشرعية الالهية :

علي ان تلك القسوة المفرطة للامويين اضطرت تحت وطأة الدعاية الدينية المضادة لخصوم الدولة الي التمسح بالارادة الالهية، فزعم الامويون ان افعالهم تجرى بقدر الله ، أي ان الله شاء منذ البداية ان يقتل الحسين وآله في كربلاء ، وما فعلوه هو تنفيذ لمشيئة الله ،وان من اعترض علي ذلك فقد اعترض علي مشيئة الله .

والتمسح بالمشيئة الالهية وتبرير الظلم والشرك بزعم ان الله شاء لهم ان يشركوا ،هذا الزعم قاله الامويون في مكة اثناء اضطهادهم للمسلمين ،وذكر القرآن ذلك ورد عليهم (وقال الذين اشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شئ نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شئ ،كذلك فعل الذين من قبلهم فهل علي الرسل الا البلاغ المبين :النحل 35)أي انها عادة ان يتمسح الظالمون بالمشيئة الالهية فيما يرتكبون من ظلم لله والناس .واخبر القرآن الكريم انه سيأتي فيما بعد من سيقول نفس المقولة (سيقول الذين اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شئ ،كذلك كذب الذين من قبلهم :الانعام 148)وقد لا تنطبق هذه الآية علي

عصر الأمويين اذ لم يكن في عهدهم عبادة لغير الله ، وان كانت الاية تشير الي انها عادة ان يتمسح الظالم بالمشيئة الإلهية ،في الماضي،او في الحاضر ،و في المستقبل .

علي ان بعض المثقفين الاحرار فى العصر الأموى رفضوا الدعوة الاموية وتبريرها الظلم التى تقع فيه بقضاء الله وقدرة وقولهم ان اعمالنا تجري بقدرة الله ولا اعتراض علي مشيئة الله . رفع اولئك المثقفون شعار (لا قدر والأمر انف)أي ليس للقدر دخل بهذا الظلم الاموي ، وانما يسير الظلم الاموي بالقوة رغم انوفنا ، وسمي اصحاب هذا المبدأ بالقدرية ،أي اصحاب مذهب الارادة الحرة ومسئولية الانسان عن عمله دون التمسح بالارادة الالهية . وقد نشط زعماء هذا المذهب الي الثورة علي الامويين ،وتعرض زعماؤهم الي تعذيب الامويين وقتلهم، ومنهم معبد الجهني الذي قتله الحجاج وغيلان الدمشقي الذي قتله الخليفة هشام بن عبد الملك [5].

<u>بداية تحول الشرعية السياسة للتدين أو استخدام السياسة للدين في العصر الاموي :</u>

وشهد العصر الاموي بداية تحول الخلاف السياسي المسلح الي نوعيات من التدين ،او تحول التنافس بين الشرعيات السياسية الي اختلاف في التدين بين جماعات المسلمين .

وبدأ ذلك برعاية القطبين اليهوديين اللذين أسلما وغررا بالمسلمين .هما رفيقان من اليمن قاد كل منهما معسكرا من المسلمين يواجه به المعسكر الآخر. انهما كعب الاحبار المنحاز للامويين ورفيقه عبد الله بن سبأ الذي بدأ التشيع المعادى للأمويين، وكلاهما وضع تأويلات دينية للمعسكر الذي ينتمي اليه ،وقد زعم كعب الاحبار علم الغيب وبأنه يقرأ الموجود بالتوراة التي لا يعرفها سواه ،وكان يحظى بالتصديق، واستغل علاقته بالصحابي ابي هريرة الذي كان يوالي الامويين ،وعن طريقهما نشطت الدعاية للامويين ،ووضعت احاديث في فضل معاوية وآله ،واستخدم الأمويون وظيفة القصص او من يقوم بالوعظ بعد الصلاة ويستخدم وعظه فى الدعاية للامويين ،وكان ابو هريرة الصحابى يروى عن كعب ــ الذى لم ير النبى اذ أسلم فى عهد عمر ، وكان كعب وأبوهريرة معا من اهم مصادر هذا الوعظ، ثم كان الاوزاعي في نهاية الدولة الاموية من اهم اعلام الدعاية الاموية فى جانبى القصص وتأليف الأحاديث النبوية[6].

وفي جانب المعارضة بدأت السبئية ــ اتباع عبد الله بن سبأ ــ بتأليه عليّ بن أبى طالب وزعم انه لم يقتل وانه سيرجع يوم القيامة ليملأ الارض عدلا ،ثم ظهرت الكيسانية تقول بأمامة محمد بن علي ابن ابي طالب (ابن الحنفية)وتؤله الائمة وتعمل علي طاعتهم ،والكيسانية هم الذين انشأوا الدولة العباسية فيما بعد .واسفرت دعاوي الشيعة في العصر الاموي عن شيوع فكرة المهدي المنتظر، وبداية تأسيس المذهب الشيعي الذي اكتملت ملامحه في العصر العباسي .

والخوارج او البدو الثوريون المتدينون هم اول من بدأ بمزج الدين بالثورة ،الا انهم بمجيء العصر العباسي كانوا قد استهلكتهم الثورات المتكررة علي الامويين وخلافاتهم المتكررة الداخلية . ولكن بقيت آراؤهم الدينية ، وأغلبها فى تكفير علي بن أبى طالب وتكفير المخالفين لهم في الرأي واستحلال اموالهم واولادهم ونسائهم وتكفير مرتكب الكبيرة .وبانتهاء العصر الاموي انتهي الخوارج عسكريا ،ولكن بقيت اراؤهم ونوعية التدين

في العصر العباسي ، وهو عصر تحول الشرعيات السياسية المختلفة للمسلمين الي نوعيات مختلفة من التدين .

تحول الشرعيات السياسية البشرية المتصارعة الي انواع مختلفة من التدين :

لماذا لم يكتمل التدين في العصر الاموي ؟

في دولة قامت علي اسس دينية لابد ان يتحول الخلاف السياسي فيها الي خلاف في التدين ،والتدين هو الرؤية البشرية للدين و تطبيقه ،بغض النظر عن مدى صحة هذه الرؤية واقترابها او اختلافها مع صحيح الدين وحقائقه .

وشهد العصر الاموي تطرفا في الاراء الدينية الي درجة ان الشيعة السبئية بادرت بتقديس علي في حياة عليبن أبى طالب مما اضطره لأحراقهم ،كما ان الخوارج في تطرفهم في تكفير كل المسلمين المخالفين قرنوا القول بالعمل فكانوا يستحلون دماء مخالفيهم حتى من المسالمين الذين لا شأن لهم بالحرب أو السياسة .كما ان الامويين بدورهم اسرفوا في القتل بمجرد الشبهة مثلما كان يفعل الحجاج وغيره .

ومع وجود هذا التطرف بالرأي والسلوك لدى اصحاب الشرعيات السياسية الا ان ذلك التطرف لم تتح له الفرصة الكافية لكي يتحول الي تدين مكتمل الملامح ،نظرا للانهماك السياسي في الحروب والمعارك المتبادلة بين الدولة ومعارضيها، والشقاق الذي كان يصل لدرجة الحرب الداخلية في داخل اجنحة الدولة الاموية ،وفي داخل الاحزاب المعارضة،علاوة علي قصر عمر الدولة الاموية الملئ بالاحداث الداخلية والخارجية ،وعدم اكتمال الحركة العلمية الفكرية في العصر الاموي .ولذلك لم يكن هناك وقت للتأصيل الفكري أو الديني واقتصر التدين علي تغليف السلوكيات القائمة فعلا برأي ديني ،فالقتل تحول الي تكفير فاستحلال ،أي كان التدين في بساطته يعتبر وسيلة لتبرير الشرعية السياسية مثلاولم يكن الدين هدفا قائما في حد ذاته ،كما في العصر العباسي حين اكتملت طقوس التشيع و مراسيمة الدينية ، واصبح السعي السياسي لأقامة دولة شيعية نابعا من ذلك التدين الشيعي المكتمل بعقائده وجدلياته واركانه ورسومه وطوائفه .

اسباب اكتمال التحول الي انواع مختلفة للتدين في العصر العباسي :

العصر العباسي هو الذي اتاح للشرعيات السياسية ان تتحول الي انواع تدين مكتملة ،لأسباب شتى ،منها طول العصر الذي استمر خمسة قرون (749-1258م)في مقابل تسعين عاما فقط للدولة الاموية ، ومنها اختلاف طبيعة الدولتين ،فالدولة الاموية دولة عسكرية تؤمن بقانون القوة ،أما الدولة العباسية فهي دولة دينية تقوم علي قوة القانون الشرعي الذي يستخرجه لها فقهاؤها ،وتبدأ باستصدار الفتوى المناسبة ثم تطبقها في مصلحتها السياسية .

وملامح الدولة الدينية اكتملت في الدولة العباسية فقد بدأت بدعوة دينية شيعية كيسانية لأمام مهدي مستتر تحت ستار الدعوة للرضى من آل محمد ،وعززت هذه الدعوة العلنية احاديث منسوبة للنبي تبشر بالدولة القادمة وتمهد لها ،وقد عقد السيوطي في(تاريخ الخلفاء)فصلا عن الاحاديث المبشرة بخلافة بني العباس ،بعضها

يتحدث عن اسماء الخلفاء العباسيين [7]ومعلوم ان النبي عليه السلام لا يعرف الغيب وممنوع ان يتكلم فيه وفقا لما اكده القرآن الكريم (الانعام 50 ،الاعراف 188،الاحقاف 9).

ومع ان ابن عباس جد الخلفاء العباسيين لم يبلغ ما سمعه من الرسول عشرين حديثا كما يقول ابن القيم الجوزية [8]الا أن الدولة العباسية الدينية زورت آلاف الأحاديث ونسبتها الي ابن عباس لترفع من شأنه ومن شأنها ،ومن هنا كان الخلفاء العباسيون يتسمون بأسماء دينية وخصوصا في العصر العباسي الثاني (راجع المعتصم بالله ،الواثق بالله ، المتوكل علي الله ،المنتصر بالله ،المستعين بالله ،المعتز بالله ، المهتدي بالله ، المعتمد على الله ،المعتضد بالله ..الخ).ويلاحظ ان ملامح التدين للدولة العباسية كانت تزداد وتترسخ كلما تقدم بها العمر وازداد ضعفها وانحلال خلفائها ،والدليل علي ذلك الاعتقاد بأن الدولة العباسية ستستمر الي قيام الساعة ،كما قالت الاحاديث الموضوعة في التبشير بالدولة ،حتى ان هولاكو تأثر بهذه الاساطير وهو علي اهبة تدمير بغداد و قتل الخليفة المستعصم ،فعقد مجلسا حربيا لبحث هذا الامر ومدى خطورته المحتملة عليه اذا دمر الخلافة والدولة العباسية ،واخيرا تشجع هولاكو بنبوءة نصير الدين الطوسي الفلكي وهجم علي بغداد حسبا يذكر الهمداني في تاريخ المغول [9].

وأبو جعفر المنصور هو المؤسس الحقيقي للدولة العباسية ،وهو القائل في خطبته (ايها الناس انما انا سلطان الله في ارضه اسوسكم بتوفيقه ورشده وخازنه علي فيئه (ماله) اقسمه بارادته واعطيه بأذنه .)[10]. أى أنه الذى أعلن مذهب الحاكمية ، أو الخليفة الذى يحكم باسم الله تعالى ويستمد سلطته من الله وليس من الناس ، ويكون مسئولا ليس أمام الناس ولكن أمام الله تعالى فقط يوم القيامة. وهو أيضا الذى قام بتطبيق " الحاكمية " فتحولت الدولة العباسية الى دولة كهنوتية سنية ، أعطت مبررا للدولة الفاطمية أن تزيد عليها فيما بعد فى الكهنوت وتأليه الخليفة الفاطمى وتقديسه على نحو ما حدث فى مصر الفاطمية.

نعود للدولة العباسية ، وقد اصطنع ابو جعفر المنصور مجموعة من الفقهاء تفتي له بما يريد ،منهم ابن ابي ليلة وابن شبرمة وابن ابي هند ،وابو حنيفة .الا ان ابا حنيفة لم يساير الخليفة في هواه ،فكان مصيره التعذيب والقتل بالسم ،ويذكر ان اهل الموصل كانوا قد ثاروا علي المنصور ثم اخمد ثورتهم ،واشترط عليهم ان ثاروا ثانية فان دماءهم حلال ،وثار اهل الموصل سنة 148هـ فاستشار ابو جعفر الفقهاء بشأنهم فقالوا :ان عفوت فانت اهل العفو وان عاقبت فبما يستحقون .ولكن ابوحنيفة قال (انهم اباحوا لك ما لا يملكون ، ولقد اشترطت عليهم ما ليس لك حين وافقوا انهم اذا ثاروا عليك فدماؤهم حلال لأنهم لا يملكون دماءهم ، وليس لك ان تشترط عليهم سفك دمائهم ،ارأيت ان اباحت امرأة جسدها الذي لا تملكه بغير عقد نكاح فهل يجوز ذلك ؟) [11].!!

وفي عصر هذه الدولة الدينية اكتملت الحركة العلمية وعرفت التدوين والاتساع والتخصص .وتم نقل معارف الثقافة الشرقية والغربية وترجمتها الي اللغة العربية ،وانعكس ذلك علي التدين ،فلم تتحول الحركات السياسية (المشروعيات السياسية)فقط الي طوائف دينية ومجموعات مختلفة من التدين ،بل ان بعض الحركات الفكرية التي انتجها العصر العباسي ما لبثت ان تدخلت في السياسة واصبح لها طوائف ،مثل المعتزلة وبعض الفرق الفلسفية والكلامية .وبعض الشرعيات السياسية مثل الخوارج استهلكت قوتها العسكرية في الدولة

العباسية،ولكن بقيت مبادؤها البسيطة حتي العصر العباسي فنشأت حولها فرق وتنوعت آراؤها وتعقدت ،وما لبث ان اصبح لها تدين خاص ،مثل الاباضية في الجزيرة العربية وشمال افريقيا .

اكتمال انواع التدين الاساسية للمسلمين سنة ،شيعة وتصوف :

وبغض النظر عن انواع التدين السابقة فان العصر العباسي اكتملت فيه ثلاثة انواع من التدين لاتزال سائدة حتي الان ،وهي التدين السني والتدين الشيعي والتدين الصوفي .

ومصطلح السنة يأتي في القرآن بمعي المنهاج أو الشرع ،وبمعني الشرع يأتي منسوبا لله تعالي (ما كان علي النبي من حرج فيما فرض الله له، سنة الله في الذين خلوا من قبل ،وكان امر الله قدرا مقدورا :الاحزاب 38) فهنا " سنة الله " هى " شرع الله " هى " أمر الله ". وفي العصر الاموى استعمل مصطلح السّنة في معرض الاعتراض علي السياسة الاموية واهمية ان ترجع الي ما كانت عليه سنة النبي ،أي شرعيته العادلة فى الحكم .وبها بدأ الاستعمال السياسي لكلمة السنة في خضم الصراع بين الشرعيات السياسية .

وحين نجح الشيعة الكيسانية في الدعوة للرضى من آل محمد ــ الامام المختفى غير المعلوم ــ وكان مفترضا أنه من ذرية علىّ بن أبى طالب،وكان من ادبياتهم نفس الاستعمال السياسي لمصطلح السنة .وحين ظهر ان الخليفة الموعود ليس من ذرية علي وانما من ذرية ابن عباس حدث الشقاق بين انصار العباسيين القائمين مع الخليفة العباسي و انصار المطالبين بأحقية ذرية علي بالخلافة دون العباسيين .وظلت كلمة شيعةاوالصحابه تطلق علي انصار العباسيين حتي تولي ابو جعفر المنصور الخلافة وتقاتل مع العلويين فىالحجاز والعراق فى ثورتمحمدالنفس الزكيةواخيه ابراهيم . عندها استبقي الخلفاء العباسيون لأنفسهم مصطلح السنة ،وأهملوا لقب الشيعة، فاصبح خاصا بخصوم الدولة والخارجين عليها ،و اضيفت للشيعة اوصاف اخري سياسية وعقيدية اهمها الرافضة .

اذن تقلب مفهوم السنة من الشرع كما جاء في القرآن الكريم الي معني سياسي منسوب للنبي في اطار الخطاب السياسي المعارض للأمويين ،ثم احتكرته الخلافة العباسية ليدل علي مدلولها السياسي في مقابل خصومها الشيعية ، ثم تحول مصطلح السنة في العصر العباسي ليدل علي التدين ،بعد تحول الشرعية السياسيه الي التمسح بالدين ، فأصبحت السنة تعني من ناحية العقائد والفلسفات[المذهب الذي يمثله ألا شعري بعد ان ترك المعتزله].وأصبحت السنة من ناحية الفقه والفروع المذاهب الاربعة المنسوبة للائمة ابي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل ،هذا في عصر الاجتهاد الفقهي ،ثم في عصر الجمود اصبح مصطلح السنة في كتب الفقة يشيرالي درجة اقل من درجات الواجب ،فيقال هذا فرض واجب ،وهذا سنة .اويقال "يسن"بمعني يستحسن فعل ذلك ..وفي علم الحديث اكتملت للحديث السني مصادره وشيوخه ،وبدأ مختلطا بالفقه ثم انفصل عنه ..

و اكتملت للتشيع طوائفه واسفاره المقدسة و احاديثه المقدسه وعباداته وائمته ،واتيح له اكثر من هذا ان يقيم دولا ثابتة راسخة ابرزها الدولة الفاطمية التي استمرت اكثر من قرنين من الزمان وتوسعت مابين شمال أفريقيا الي مصر والشام وحدود العراق ،وكادت تقضي علي الدولة العباسية ،واستمرت فيما بين (909–

1712)واقامت القاهرة والازهر ،ولازالت آثارها العمرانية باقية حتي الان . كما اتيح للتشيع ان يقيم دولا متحركة مثل حركة الزنج في جنوب العراق وحركة القرامطة التي توسعت في العراق و الشام واعمدتها من الاعراب .

وعلي هامش الصراع بين السنة والتشيع ظهر التصوف ابنا شرعيا للتشيع [12]يعمل من اجله سياسيا ، مما اوقع بروّاد التصوف الاوائل في اضطهاد الدولة العباسية السنية،الا ن التصوف ما لبث ان انفصل وتخفف من السياسة وتملق الحكام في العصر العباسي الثاني ،فتخلص التصوف تدريجيا من الاضطهاد ،ثم تسيد وسيطر ، وبعد ان كان الحنابله –المتشددون السنيون –يضطهدون الصوفية فى العصر العباسى الثانى ،اصبح الصوفية بعد انتهاء العصر العباسي ومجئ العصر المملوكي هم الذين يضطهدون الحنابلة ،كما حدث في تاريخ ابن تيمية .

وبذلك ندخل علي الشرعيات السياسية وصراع التدين الصوفي والتدين الحنبلي فيما بين العصرين العباسي والمملوكي .

<u>الشرعيات السياسية والصراع بين التدين الحنبلي السني والتدين الصوفي :من ابن حنبل الي ابن تيمية صراع المحافظين والمستغربين: المعتزلة والحنابلة في العصر العباسي ومحنة ابن حنبل :</u>

الدولة العباسية كدولة دينية ذات تدين خاص اعتمدت علي فقهائها ورواة الحديث التابعين لها في تعزيز سياستها ضد الشرعيات السياسية المناوئة لها ، واذا قصّر احد الفقهاء في خدمة الدولة كان يتعرض للاضطهاد على قدر التقصير، وهذا ما حدث مع مالك وابى حنيفة والشافعى ، ثم ابن حنبل فيما بعد.

الا ان الدولة العباسية فتحت ابواب الترجمة عن اليونانية والسيريانية والهندية وواكب ذلك عودة الحياة الي المدارس الفلسفية اليونانية القديمة ،واصبح التزندق الفلسفي موضة لا غبار عليها طالما لا يعار ض سياسة الدولة ، وقد اشتهر من العاملين في اجهزة الدولة العباسية الكثير من الزنادقة ،واشتهر شعرهم وادبهم بينما طاردت الدولة خصومها السياسيين بحد الردة وتهمة الزندقة [13].

ومن الطبيعي ان ينفر الفقهاء المحافظون من هذا التيار الجديد المتأثر بالثقافة اليونانية الغربية وما يتمخض عنه من تكرار مقالات الفلسفة والدهريين ،خصوصا مع ظهور المعتزلة الذين يقرأون الفلسفة ويقرأون التدين السائد قراءة عقلية ، وبصورة تخالف القراءة المحافظة التقليدية .

وقد وقع الخليفة المأمون (813–833)في هوى ذلك التيار المعتزلىالجديد ، اذ كان شغوفا بمجالس العلم، واقتنع بمقولة المعتزلة ان القرآن مخلوق، واستعظم ان يعارضهم الفقهاء المحافظون ،وكان يتزعمهم في عهده احمد بن حنبل فصمم علي فرض رأيه علي الدولة ،وبدأت بذلك محنة ابن حنبل لإجباره علي القول بأن القرآن مخلوق .وتحت الضغط والتهديد تراجع الفقهاء عدا ابن حنبل ومحمد بن نوح فوضعا في السجن تحت العذاب ومات المأمون وقد اوصى ولي عهده المعتصم بالله بالاستمرار بالقضية ، فأمر المعتصم بتعذيب ابن حنبل سنة 218،وظل ابن حنبل بالسجن الي ان افرج عنه في رمضان سنة 220هــ،واستمر اثر الضرب في جسده يتوجع منه الي ان مات سنة 241 هــ[14].

محنة ابن نصر الخزاعي :

وادى ما حدث لابن حبل الي قطيعة بين الفقهاء المحافظين والعباسيين ،واستغل الفقهاءمكانتهم في الشارع ، واقد اصبح لقبهم الحنابلة ،وبدءوا في اثارة القلاقل ضد الدولة بحجة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،مما دعاالخليفة الواثق الي القبض علي زعيم الفقهاء الحنابلة ،وهو احمد بن نصر الخزاعي بحجة انه ينكر خلق القرآن ،وحقق الخليفة معه ثم قتله بيده ،وامر بصلب رأسه في موضع وصلب جسده في موضع آخر وكان ذلك سنة 231[15].وفي غضون هذ الأحداث وضع الحنابلة حديث (من رأي منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وهذا اضعف الايمان)ليعطوا لانفسهم سلطة الحركة فى الشارع.

علو شأن الحنابلة في العصر العباسي منذ عهد المتوكل واضطهاد الصوفية :

في هذه الفترة كان نفوذ المعتزلة سائدا في الدولة العباسية حيث كان الوزير المعتزلي محمد ابن عبد الملك بن الزيات يسيطر علي الامور ،ويستهين بولي العهد وهو أخ الخليفة الواثق الذي تولي الخلافة فيما بعد تحت اسم الخليفة المتوكل .

وعندما تولي المتوكل سنة 232/847م بادر بقتل ابن الزيات وتحسين علاقته بالفقهاء الحنابلة ،فاستقبل ابن حنبل وكرمه وارسل الفقهاء الحنابلة للتبشير بالسنة في الولايات ،واصبح الحنابلة متحكمين في الدولة وفي الشارع علي السواء ،وتأثر بهذا عصر المتوكل فشهد تعصبا ضد أهل الكتاب وإلزاما لهم بارتداء زي معين للتحقير ،واضطهادا للشيعة والصوفية الاوائل [16].

وكان التصوف وقتها يخطو خطواته الاولي ،ولكن لاحقت الدولة العباسية اربابه بالمحاكمات ،واشهرها محاكمة سمنون الذي اعتقل فيها كل ارباب التصوف فأظهروا التقية ،الا ان الدولة العباسية قتلت الحلاج سنة 309 بسبب صراحته في اعلان عقيدته والشكوك السياسية التي احاطت به ،حيث اتهم بالتشيع والعمل مع القرامطة .وكان ذلك في خلافة المقتدر العباسي (295-320)(908 - 932)[17].

وسيطر الحنابلة علي الشارع لدرجة انهم حين اختلفوا مع الطبري امام المؤرخين والمفسرين حاصروه في داره الي ان مات ،ودفن في داره ،ولم تستطع الدولة العباسية حمايته منهم ،ومن يراجع تاريخ المنتظم لابن الجوزي يجد نفوذ الحنابلة نافذا علي المستويين الرسمي والشعبي في العصر العباسي الثاني من عهد المتوكل الي القرن السادس الهجري [18]حيث عاش ابن الجوزى نفسه ليشهد تغير الاحوال واشتداد عود التصوف في مواجهة الحنابلة ،وبعد ان كان الحنابلة يضطهدون التصوف نرى ابن الجوزي يكتب (تلبيس ابليس) يهاجم الصوفية في اكثر ابوابه ويتحسر كيف اصبح فقهاء الحنابلة يدخلون مؤسسات التصوف وكيف اصطلح الذئب الحنبلي علي الغنم الصوفي [19].

انتشار التصوف منذ القرن السادس الهجري وتفريغ التدين السني من محتواه .

ويعتبر ظهور الشيخ ابو حامد الغزالي (ت 505هـ) نقطة تحول اساسية في تاريخ التصوف اذ كان زعيم الفقه والصوفية معا، وقد تزعم الفقهاء في نقد الفلسفة كما استخدم زعامته للفقهاء واسلوبه الفقهي الجديد في كتابه الشهير (الاحياء)في مزج التصوف بالفقه وتضييق الانكار علي التصوف ليصبح الانكار محصورا علي اشخاص الصوفية المعاصرين مع الاحترام للتصوف ذاته .

ومع ان الغزالي واجه الاستنكار في حياته وسجل هذا في كتابه (اشكالات الاحياء)الا ان المجرى التاريخي العام كان يسير لصالح التصوف فاصبح متسيدا لتاريخ المسلمين وعقائدهم وعقولهم منذ العصر المملوكي في منتصف القرن السابع الهجري ومنتصف القرن الثالث عشر الميلادي (648هـ–1250)واخذ نفوذه يتعاظم بمرور الايام والاعوام حتي خنق الحياة العقلية بخرافاته. واستطاع التصوف بهذا النفوذ اجهاض حركة ابن تيمية الحنبلية في القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادي .

ومن العوامل التي ساعدت علي انتشار التصوف وتسيده ضعف الحكام وظلمهم وشقاقهم فيما بينهم من سلاجقة وايوبيين الي ان ورثهم المماليك الذين تفوقوا علي الجميع في الظلم والقسوة . وهذا الصنف من الحكام لا يستريح الي فقيه حنبلي يقول له افعل أو لا تفعل لأنه لا يعرف سوي العنف والسيف ويريد رجل دين ينافقه ويوافقه ،ومن هنا وجد الحكام الظالمون ضالتهم في الصوفية الذين يجيدون فن الدعاء للحاكم وتقعيد اسلوب النفاق له .

وتقرب الصوفية للعوام بكل الطرق فلم يعد التبحر في العلم طريقا للولاية و انما مجرد الادعاء بالعلم اللدني و الكرامات يفتح الابواب لكل طموح من العوام ليكون شيخا صوفيا طالما وجد من يصدقه من المريدين والاتباع ، والعوام يجدون لدي التصوف كل ما يريدون اذاصاروا للشيوخ الصوفية اتباعا ، فاصحاب الهوى في الانحلال الطبيعي والشاذ يجدون مسوغا دينيا لدي الصوفية يحل لهم ما يشاءون، وهواة الغناء والرقص يجدون مجالا لهم في الحفلات الصوفية[20] وهواة المآدب والطعام والرحلات يجدون ما يريدون خلال الموالد والنذور والسياحة الصوفية، ثم في النهاية يجد العوام طريقا بسيطا للتدين خلال ما تعوده اسلافهم وهو تجسيد الاله في قبر مقدس (ضريح)وفي شيخ مقدس حي او ميت ،ويعتقد انه يدخل الجنة من خلال علاقته المادية المباشرة بذلك الاله المادي الذي يراه ويلمسه .

اما المثقفون من الفقهاء فقد ضعف مستواهم العلمي بقدر ما زاد خضوعهم للسلطة القائمة ورأوا مصلحتهم في مسايرة الوقت .وانهمك الثوريون منهم في الانكار علي متطرفي الصوفية اصحاب الشطحات او اساءة القول المفرطة في حق الله تعالي وفي حق رسوله، كما ان التصوف اتاح للمثقفين اصحاب الاهتمام بالفلسفة لكي يقرأوا اذا شاءوا في الغاز التصوف وفلسفته الوجدانية الاشراقيه

تحول التصوف النظرى الفلسفى الي طرق صوفية شعبية تعتمد علي سلاسل من العهد عبر الشيوخ،يزعمون انها انتقلت الي الشيخ الحالي من السابقين عبر الزمن الي ان تصل الي (علي)ابن ابي طالب ثم الي النبي ثم الي جبريل ثم الي الله تعالي ، وهو نفس النسق الذي اعتمده التدين السني في توثيق الاحاديث عبر سلاسل الرواة من شيخ معاصر الي النبي او الي الله تعالي في الحديث القدسي .

وادت كثرة الطرق الصوفية وتشعبها وسهولة تكوينها الي ان انتظم في سلك التصوف الجميع بالاعتقاد او بالاسترزاق من العوام والفلاحين الي الفقهاء والامراء والسلاطين، واصبح التصوف هو التدين الواقعي المتسلط في بلاد المسلمين وحل محل التدين السني والشيعي، اذ كان هناك تصوف شيعي وتصوف سني .

وإذا كان التصوف في حقيقته ابنا للتشيع متفقا معه في الأساسيات وبعض الشكليات وتقديس الأئمة من آل البيت فانه لم يضف جديدا للتدين الشيعي، ولكنه حين ساد في عالم التدين السني فانه في الحقيقة سلب التدين

السني ابرز خصائصه، واصبح مصطلح السنة مجرد شعار سياسي تتمسك به الدولة المملوكية التي تأخذ شرعيتها السياسية من وجود خليفة عباسي ضمن حاشية السلطان بعد تدمير الدولة العباسية علي يد المغول. ومن هنا يكون مصطلح السنة مجرد واجهة تواجه بها الدولة المملوكية اعداءها الشيعة ، بالاضافة الى انهم جعلوا السنة خاصة بالعبادات أو" الشريعة " مقابل " الحقيقة " أى العقائد الصوفية من الحلول والاتحاد ووحدة الوجود . هذه الحقيقة الصوفية أو العقائد الصوفية تناقض عقيدة الاسلام اذ تجعل الكون بأسره جزءا من الله تعالى أو هو عين الله تعالى،أو لا وجود لله تعالى خارج هذا العالم المادى ، أو أن الفارق بين الله تعالى وبين العالم المادىـــ من بشر وحجر ومادة وطاقة ـــ كالفارق بين البحر وأمواجه .وبالطبع فان عقائد السنة التي فهمها ائمة الفقه السني من مالك وابي حنيفة تخالف عقائد التصوف ، بل ان ائمة الفقه السني الذين شهدوا بدايات التصوف انكروا عليه مثل الشافعي وابن حنبل ، واكثر من هذا حارب الحنابلة اللاحقون التصوف في ما بين القرن الثالث الي الخامس من الهجرة .

ظهور مصطلح التصوف السني ومعناه :

اذا فمع التناقض بين التدين السنى والصوفي الا ان تسيد التصوف حول مصطلح السنة الي مجرد شعار سياسي كما كان في العصر الاموي،والى شعار فقهى (الشريعة) وتحت شعار السّنة مارس العصر المملوكي تدينا صوفيا مخالفا للتدين السني ،وظلت الامور تسري علي هذا المنوال دون احساس بالتناقض حتي ظهر ابن تيمية واكتشف الفجوة بين التدين السني واحوال الصوفية في عصره وقرن الدعوة بالعمل فاضطهده عصره .

اضطهاد ابن تيمية في العصر المملوكي :

وبدأت محاكمة ابن تيمية حين احتج علي كتاب الفصوص لابن عربي الذي يصرح بعقيدة الصوفية في وحدة الوجود أو انه لا فارق بين الله والكون ،وكان ذلك في شهر رجب 705هـــ في الشام ، وكان الشام تابعا للسلطنة المملوكية ،وكان السلطان الفعلي وقتها بيبرس الجاشنكير الذي اغتصب الحكم من السلطان الشرعي محمد بن قلاوون ،وكان ابن تيمية باعتباره اكبر فقهاء عصره يؤيد حق الملك الشرعي ومن هنا كان الجاشنكير غاضبا عليه فأيد الصوفية في اضطهاده .

ثم عقدت لأبن تيمية محاكمة اخرى في مصر حيث اعتقلوه في جب القلعة وارادوا الحكم بقتله ،وانصبت محاكمته حول امور فقهية لأن خصومه منعوه من مناقشة عقائد ابن عربي خوف الفضيحة، ومع ذلك ارادوا الحكم بقتل ابن تيمية في تلك الخلافات الفقهية اليسيرة . واثناء اعتقاله في السجن حاولوا الحصول علي اعترافه بعقائدهم ويعرضون عليه الصلح والافراج ولكنه رفض ، وفي النهاية افرجوا عنه ونفوه الي الاسكندرية علي امل ان يقتله اعداؤه فيها ، الا انه صار له اتباع في الاسكندرية ، ثم اطلق بيبرس الجاشنكير سراحه . واستمرت المناوشات بينه وبين الصوفية حتي انهم عادوا لمحاكمته وسلطوا عليه سفهاءهم فضربوه والحوا علي السلطان في سجنه فسجنه.

واسقطت ثورة شعبية مصرية السلطان الجاشنكير و قد تخلى الصوفية والجند عن الجاشنكير فهرب وجئ بالسلطان الشرعي محمد بن قلاوون صديق ابن تيمية، وكان وقتها ابن تيمية معتقلا . وأعدالصوفية العدة لإستقبال السلطان الناصر محمد الذي سبق وان تخلوا عنه من قبل ليستعيدوا مكانتهم عنده وليكفروا عن تخليهم عنه من قبل.

وصحيح ان السلطان الناصر محمد بن قلاوون افرج عن ابن تيمية واتباعه واكرمه وجعل ابن تيمية مستشارا له ، الا ان السلطان الجديد استجاب لدسائس شيوخ الصوفية ، وكانت لديه هواجسه من شخصية ابن تيمية وكثرة اتباعه وشدته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،فصدق الاشاعات الصوفية عن الطموح السياسى لابن تيمية. وكان الناصر محمد بن قلاوون قد تعلم الكثير من عزله مرتين من السلطة ، ويريد الاحتفاظ بسلطنته الثالثة مستبدا بدون أى نقد لذا انحاز الي الصوفية مضحيا بصديقه القديم ابن تيمية ، فاقام للصوفية اكبر خانقاه وهي خانقاه سرياقوس وافتتحها في حفل جامع سنة 725هـ ، وفي السنة التالية امر باعتقال صديقه القديم ابن تيمية بسبب فتوي سابقة له عن تحريم زيارة القبور.

وحمل الاعتقال الاخير لابن تيمية كل الحقد الصوفي عليه ،اذ كان يفرح بالسجن حيث يتفرغ للعبادة والتأليف ، الا ان خصومة الصوفية في سجنه الاخير منعوه من الكتابة، مما اثر تأثيرا سيئا علي نفسيته فمات بعد عامين من السجن سنة 728هـ 1327م .[21]

<u>اثر الاضطهاد في حدة ابن تيمية في الافتاء بالقتل والتكفير :</u>

وانعكس هذا الاضطهاد علي فكر ابن تيمية فكان اكثر حدة في التكفير لخصومه واكثر جرأة في الافتاء بقتلهم . و بنظرة سريعة الي فتاوى ابن تيميه نراه يوزع القتل علي كل من يخالفه في الرأي حتي خارج الصوفية ، فصاحب البدعة يقتل ، وما اسهل ان ترمي كل فرقة الاخرى بأنها صاحبة بدعة ،واذا عرفنا تنوع التدين لدي المسلمين ادركنا ان هذه الفتوى اذا ما تم تطبيقها لكانت قتلا للجميع بنفس الاتهام ،ويفتي ابن تيمية ايضا بقتل المسلم الذي يجهر بالنية في الصلاة حتي لو كان يعتقد ان جهره بالنية يأمره به الله تعالي ،ويفتي بقتل المسلم الذي لا يلتزم بأداء الصلاة في وقتها او يؤخر صلاة الفجر الي بعد طلوع الشمس او يؤخر صلاة الظهر والعصر الي بعد غروب الشمس ، ويفتي بقتل المسلم الذي يحضر المسجد ولا يشارك في صلاة الجماعة ، وفي كل ذلك يشترط ابن تيمية استتابة المتهم فان تاب والا قتل. الاخطر من ذلك كله انه يفتي بقتل أي مسلم بدعوى انه منافق يبطن الكفر ويظهر الاسلام ،أى يعطى الحجة لأي فرد لكي يقتل من يشاء من المسلمين بتهمة انه منافق ودون استتابة ،يقول ابن تيمية (اما قتل من اظهر الاسلام وابطل الكفر فهو المنافق الذي يسميه الفقهاء بالزنديق فأكثر الفقهاء علي انه يقتل وان تاب)[22].

الوهابية بين الشرعية السياسية والشرعية الدينية:

<u>الشرعيات السياسية وصراع التدين الصوفي والتدين الحنبلي من ابن تيميه لابن عبد الوهاب:</u>

الفقيه البقاعي بين ابن تيمية وابن عبد الوهاب :

اجهض الصوفية حركة الفقيه البقاعي سنة 875هـ في سلطنة قايتباي المملوكي أي بعد موت ابن تيمية بنحو قرن ونصف القرن،و قد ترسم البقاعي طريق ابن تيمية في الانكار علي المتطرفين الصرحاء من شيوخ التصوف ، فقد هاجم ابن عربي وابن الفارض وله في ذلك كتابان (تنبيه الغبي الي تكفير ابن عربي)(تحذير العباد من اهل العناد القائلين بالاتحاد)وقد اذاع انتقاده وتكفيره للشيخين المقدسين ابن عربي وابن الفارض اللذين ماتا قبل البقاعي بنحو قرنين ونصف القرن .فاضطهد الصوفية الشيخ البقاعي الي ان جعلوه يغادر مصر الي سورية. ولحقت كراهيتهم بمؤلفاته وتاريخه (تاريخ البقاعي)فلا تزال في معظمها اسيرة النسيان المتعمد والسرقة والتحريف مع انه سبق عصره في اجتهاد مبتكر في علم التفسير [23].

التصوف في العصر العثماني:

-
واضحي المسلمون في العصر العثماني اكثر تخلفا ،يجتهد ارباب التصوف مثل الشيخ عبد الوهاب الشعراني في نشر الخرافة واكاذيب الكرامات في جرأة يسمح بها عصره ،ويكتب في ذلك مؤلفات ضخمة مثل(لطائف المنن الكبري) وهو مجلد ضخم ملئ بالحديث عن مناقبه وكراماته وخرافاته .. وفي مؤلفاته الكثيرة يضع قواعد النفاق للحاكم والتسليم للشيوخ ، وقد ادرك الشعراني العصر المملوكي وفتح العثمانيين لمصر .. وظل نفوذه الفكري سائدا حتي الي عهد قريب بين الصوفية واتباعهم ،الا ان نفوذه الادبي اصيب في مقتل بظهور الدعوة الوهابية التي جددت فكر ابن تيمية واعادت الصراع الصوفى الحنبلي بعد طول انتظار.
في عصر ابن تيمية كان صراع الشرعيات السياسية البشرية قد اكتمل تحوله الي انواع متصارعة بين التدين وشارك ابن تيمية نفسه في قتال الشيعة والتتار للمسلمين ،وهذا التدين المختلف كرّس الاكراه في الدين والتكفير واستحلال قتل الاخر المسالم لمجرد ان تدينه مخالف للتدين السائد، وكان ابن تيمية نفسه ضحية لهذا المناخ بل انه عكس هذ المناخ في فتاويه الدموية .
ثم اصبح التصوف بعد ابن تيمية اكثر سيطرة واكثر رهبة للمنكرين عليه.
وهذا يغري بلمحة مقارنة بين ابن تيمية وابن عبد الوهاب تلميذه المتأخر الذى ظهر بعده بأربعة قرون .

مقارنة بين الشيخين ابن تيمية وابن عبد الوهاب :في التسليم بالتصوف واستحلال قتل الصوفية:
نلاحظ ان كليهما مع ثورته الحادة علي صوفية عصره الا انه يسلم لأولياء التصوف ويعتقد في ولايتهم وكراماتهم وشفاعاتهم ، يقول ابن تيمية (ان الصوفية مجتهدون في طاعة الله) ويقول عن الجنيد احد ائمة التصوف السابقين (فإن الجنيد قدس الله روحه كان من ائمة الهدى ..)غاية ما هناك ان ابن تيمية يري ان طوائف من اهل البدع قد انتسبوا للتصوف وليسوا منهم كالحلاج ويعتقد ابن تيمية في كرامات الاولياء حتي فيمن يعتبرهم من أولياء الشيطان .

وابن عبد الوهاب يري ان قوله تعالي(الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)ينطبق علي الاولياء الصوفية المقدسين في عصره ويري ان الواجب حبهم واتباعهم والاقرار بكراماتهم (ولا يجحد كرامات الاولياء الا اهل البدع والضلال) الا انه يستنكر عبادتهم والاشراك بهم ،ويري ان الاولياء يشفعون يوم القيامة ، الا انه يمنع طلب الشفاعة من الاولياء مباشرة لأن ذلك شرك ولكن نطلب من الله سبحانه وتعالي لكى يأذن للأولياء بالشفاعة[24]. أى يجعل الله تعالى واسطة بين الناس والأولياء اذ يرى ابن عبد الوهاب انه يجب أن ندعو الله تعالى لكى يجعل الأولياء يتشفعون بنا، أى يكون الله تعالى وسيلتنا لشفاعة الأولياء، وفى هذا تفضيل للأولياء الصوفية على الله تعالى لم يقله الجاهليون الذين كانوا يعبدون الأولياء لتقربهم الى الله زلفى ، فجاء ابن عبد الوهاب يعكس الوضع .ومن الحمق ما قتل.!!

وكابن تيميه الذي افتي بقتل معارضيه علي أي خلاف فقهي واحيانا بدون استتابة ،وحتي لو تاب نري ابن عبد الوهاب يري قتال المشركين أي الصوفية وعوام الناس المعتقدين فيهم حتي ولو كانوا مسالمين لا يعتدون علي احد ، المهم انهم طالما اشركوا بالله بعبادة الاضرحة فهم كفار مستحقون للقتل، وهناك عبارة تتكرر في مؤلفات ابن عبد الوهاب تؤكد دائما علي(ان المشركين الذين قاتلهم رسول الله ..)وقد اجتهد في ايراد الادلة علي ان مشركي عصره اكثر كفرا من مشركي عصر النبوة ويؤكد ان النبي قاتل أولئك المشركين لمجرد انهم مشركون فاستحقوا القتل.

ومع ان منهج ابن عبد الوهاب الفكري يقوم علي قاعدة اكد عليها وهي (ان كلام الله لا يتناقض ،وكلام النبي –ص–لا يخالف كلام الله عز وجل) الا ان التراث الفكري الذي وصل اليه (عبر صراع الشرعيات السياسية وتحولها الي انواع متصارعة من التدين)كان هو الذي يحتل بؤرة، تفكيره خصوصا وانه كان يستشهد بأقوال الأئمة وعمل الصحابة [25].أي يستشهد بالشرعيات السياسية والتدين السني ووجهات نظره ، وقد وصل ذلك الي عقل ابن عبد الوهاب عبر تراكم استمر قرونا فاعتبره دينا حقيقيا.

<u>تأثر ابن عبد الوهاب بالتراكم الفكري الذي تحول الي تدين :</u>

خرج ابن تيمية علي مألوف عصره ،وكما قال عنه خصمه بن الزملكاني ان ابن تيمية (اجتمعت فيه شروط الاجتهاد علي وجهها)وقال عنه ابن الوردي (أعان أعداءه علي نفسه بدخوله في مسائل كبار لا يحتملها عقول ابناء زماننا ولا علومهم)[26].

ومع ذلك فان ابن تيمية قاسي ما قاسي لانه اعترض ليس علي التصوف واوليائه الكبار ولا علي كراماته ولكنه أعترض علي بعض المشهورين بالتطرف في الكفر بين الصوفية ،فلم يغفر له عصره ذلك مع انه اكبر واشهر فقيه في وقته .

كل ما هنالك ان ابن تيمية اعاد تقديم التطرف الحنبلي في التكفير واستحلال دماء الخصم في فتاويه ليرد بالتدين الحنبلي علي التصوف أي انه واجه التراكم الصوفي باسترجاع التراكم الفقهي الحنبلي .وظل رد الفعل هذا لابن تيمية مجرد سطور من الفتاوي داخل كتبه لا تجد من ينفذها او يدعو اليها ،الي ان جاء ابن عبد الوهاب بعده بأربعة قرون.

وفي عصر ابن عبد الوهاب كان التصوف قد خنق الحركة العلمية والعقلية ،وكان التراكم الصوفى وتاثيره اضعاف ما كان عليه في عصر ابن تيمية ،وليس هناك مجال للمقارنة بين ابن تيمية ومدرسته الفكرية وبين الرسائل القليلة والصغيرة لتلميذه المتأخر ابن عبد الوهاب الذى كان يعيش فى نجد أكثر المناطق تخلفا وتوحشا . ومن هنا ردد ابن عبد الوهاب نفس كلام ابن تيمية دون تجديد ؛ سواء في التسليم للتصوف وكراماته وشفاعاته واوليائه الكبار ،وفي نفس الوقت فى تكفير الخصوم واستحلال دمائهم وتكفير الصوفية المعاصرين لهما .

الا ان ميزة ابن عبد الوهاب اتاحت له المزيد من الحركة بالتحالف مع أمير طموح هو ابن سعود فى الدرعية ، فتحولت آراء ابن تيمية وابن عبد الوهاب الي واقع سياسي ،أو شرعية سياسية. كانت هذه الآراء مجرد سطور فى كتب ابن تيمية ومن سبقه من فقهاء (التدين الحنبلي) فأحياها التحالف بين الشيخ ابن عبد الوهاب والأمير ابن سعود، وتم تطبيقها بقولهما : الدم الدم .. الهدم الهدم . وبالدم والهدم أدخلت الدولة السعودية الوهابية فى شرعية سياسية أحيت أشد تراث العصور الوسطى تزمتا وتعصبا ودموية.،ودخل المسلمون بهذا التراث للعصر الحديث والعصر الراهن .

ان كلا من الشيخين ابن تيمية وابن عبد الوهاب نتاج طبيعي لعصره ،وقد ورث عصرهما انواعا من التدين كانت لها شرعية بشرية تقوم على الاستحقاق القائم على القوة ،وبموجبها يستحل الخصم قتل الخصم متهما اياه بالكفر .والقوي منهما هو الذي يفرض شروطه ،واستطاع الصوفية ان يفرضوا شروطهم علي ابن تيمية وهو استاذ عصره فانزوي في السجن يكتب فتاوية الملتهبة .بينما استطاع ابن عبد الوهاب بقوة ابن سعود أن يفرض شروطه علي خصومه لأنه عقد تحالفا مع قوة عسكرية طموحة اقتنعت بآرائه وعزمت علي ان تفتح بها بلاد المشركين أي خصومهم المسلمين .

<u>المصادر والمراجع :</u>

1-تاريخ ابن كثير ط.بيروت 6/311:312 نقلا عن كتاب حد الردة د.احمد صبحي منصور صـــ 59 ط.القاهرة 1993.

2-ابن سعد ت (222)هـــ الطبقات الكبري .القاهرة 3/145.(دارالتحرير 1968)0

3-تاريخ الطبري :ط4.ابو جعفر محمد بن جرير(224-310هـــ)تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم القاهرة 4/317-،330-،340،326،283-493،349-،500-191-،284،255،202.

4-تاريخ الخلفاء . السيوطي(جلال الدين السيوطى) ط القاهرة 347:348تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم

5-عبد الجبار المعتزلي :طبقات المعتزلة 333،330،334 نقلا عن :حرية الرأي بين الاسلام والمسلمين :د.احمد صبحي منصور :بحث في نشرات المنظمة المصرية لحقوق الانسان :حرية الرأي والعقيدة :79:80.

6-حرية الرأي –المرجع السابق 81:83.

7-تاريخ الخلفاء للسيوطي 30:37 .

8- الوابل الصيب من الكلم الطيب 77القاهرة 1952ابن القيم الجوزيه ت 751هـــ .
9-الهمداني :جوامع التاريخ جـــ 280:278ترجمة صادق نشات واخرون القاهرة 1960
10-تاريخ الخلفاء للسيوطي 420:421.
11-ابن البرازى :مناقب ابن الحنفية 2/17،تاريخ الكامل لابن الاثير 5/217.نقلا عن حد الردة 71:72.
12- هناك بحث رائع للدكتور مصطفي كامل الشيبي ،بعنوان (الصلة بين التصوف والتشيع .كان رسالته في الدكتوراه وقد اوفي الموضوع حقه ،وهو منشور ،دار المعارف، القاهرة .
13-د.احمد صبحي منصور :الحسبة بين القرآن والتراث :القاهرة :دار المحروسة :صـــ 13.
14-ابن الجوزي عبدالرحمن بن على :مناقب ابن حنبل 339،346بيروت ط 1،تحقيق محمد ومصطفى عبدالقادرعطا
المنتظم 11/43 ،تاريخ الطبري 8/631:645.
15-ابن الجوزي : المنتظم 11\163:165،تاريخ الطبري 9/135:140.
16-تاريخ الطبري 9/161،ابن الجوزي: المنتظم 11/206،283،222،238،265،270.
17-المنتظم 13/201.
18/المنتظم 14_46،،91،82،85،37،32،15/14،363،356،155،150،140،126،109،118،109،84،75 222،219،213،204،197،167،97،128،125،120،-مجرد امثلة وعن موقفهم من الطبري
:الوافي بالوفيات 2/284.صلاح الدين بن خليل بن ايبك الصفدى:طـــ 2تحقيق س 0ديدرنغ 1981طـــ 0المانيا
19-تلبيس ابليس :167،166،164.القاهرة 0بدون تاريخ
20-المرجع السابق :352،338،268،256،253،215،169،164،156،155.
21- ابن ايبك الداودار:سيرة الملك الناصر 150:151،146،154،143،133:138القاهرة 1960.
،المقريزي احمد بن على،السلوك تحقيق د مصطفى الزيات دارالكتب المصرية 2/1/185،215،
تاريخ ابن كثير 14/46:50،53:60،،123:124،ابن حجراحمد بن على :الدرر الكامنة 1/166،
القاهرة 1966تحقيق محمد جادالحق ،ابو المحاسن جمال الدين ت 874:النجوم الزاهرة 9/83تحقيق فهيم شلتوت القاهرة (1938_1972) ،تكسير الاحجار .
مخطوط بدار الكتب 404مجاميع تيمورية .
22-ابن تيمية مجموعة فتاوي بن تيمية جـــ 1،359،366،جـــ 2\52،50 طـــ السعودية 28\35،555\110
ورسالة الحسبة :53،50،48،10،7،طـــ 0القاهرة
23-تاريخ البقاعي :مخطوط بدار الكتب مجلد رقم 5631تاريخ ورقات رقم 135،134،56،54،9،8،تاريخ ابن الصيرفي على بن داود :ت 900هـــ:انباء الهصر تحقيق حسن حبشى 508:509،256:257،190،186،
القاهرة 1970 تاريخ ابن اياس :بدائع الذهور 2/119،120،121.ط 01311هـــالقاهرة
24-ابن عبد الوهاب كشف الشبهات 8،،38،10.ابن تيمية :رسالة الصوفيه والفقراء 16،الفرقان بين اولياءالرحمن واولياء الشيطان

141،100،99ط 0صبيح القاهرة الرحمن واولياءالشيطان
25–كشف الشبهات 15،14،12،11،10،6،4،3،6.
26–تاريخ ابن الوردي : زين الدين عمر 2/288:289.ط مكة 1930

التسامح الاسلامى بين مصر وامريكا

الأخ جون هنرى وونتن رأت عيناه النور وليدا فى 27 مارس سنة 1950 فى ولاية نيوجيرسى الأمريكية لأسرة أمريكية سكسونية ثرية، وبعد حصولة على أرفع الدرجات العلمية عمل فى السلك الدبلوماسى الأمريكى حيث حل به المطاف فى السفارة الأمريكية بالقاهرة فى أوائل الثمانينيات الماضية. اعتاد وقتها تناول وجبة سريعة فى كافتيريا أقرب فندق للسفارة ليس لأنها الأقرب لمكان عمله ولكن لأنه أصبح أسيرا لعينى "سهام" وهى حسناء مصرية حاصلة على باكلوريوس سياحة وفنادق وتعمل فى تلك الكافتيريا.
أعتاد مارتن أن يذهب للكافتيريا حتى لولم يكن جائعا، واعتاد أن يترك بقشيشا ضخما باسعار ذلك الوقت "عشرون دولارا" لكى يجذب انتباة المصرية السمراء الحسناء. وفعلا جذب اليه اهتمامها وقلبها أيضا. ومن اجل أن يظفر بالزواج من المحبوبة قرر جون هنرى وونتن أن يعلن اسلامه وأن يتسمى باسم "شريف" . وتم الزواج الشرعى الاسلامى والأمريكى الرسمى فى عام 1984. كان زواجا سعيدا مباركا بكل المقاييس نعم فيه شريف أو جون هنرى وونتن بتفانى زوجته واخلاصها، ورزقهما الله تعالى بفتاتين جميلتين ، وبفضل خصال الزوجة الحميدة ونقائها وعفتها دخل الزوج الأمريكى فعلا فى الاسلام عن حب واقتناع محافظا على أفضل العلاقات مع والديه واخوته وسائر اسرته ، وهم جميعا قد باركوا هذا الزواج محترمين حرية ابنهم فى اختيار دينه وعقيدته وزوجته.
كان كل ما ينقص الزوجة سهام بعد استقرارهم فى أمريكا أن تتوثق صلة زوجها باحدى المراكز الاسلامية لتشعر بأن لها أهلا تتباهى بهم وهى وسط عائلة زوجها الكبيرة ، وكان الزوج فى نفس حرص زوجته على أن يكون لهم أصدقاء من المسلمين ، ولكن فشلت مساعيهم برغم اللحية التى تزين وجه شريف أو جون سابقا .
ثم أصيب الزوج بالسرطان وقضى خمس سنوات تقريبا يقاومه بكل ما استطاع من اصرار وبما يمكن أن يقدمه العلم فى هذا المضمار، ولكن كالعادة انتصر المرض اللعين وتمكن من جسده والزمه البقاء فى السرير طيلة العام الأخير من حياته. كان ينتقل من سرير المستشفى الى سرير البيت ، ومع ذلك كان يجد وقتا بين آلامه وأحزانه ليستمتع بالنظر الى ابنتيه الجميلتين ووجه زوجته المخلصة التى تفانت فى خدمته فى محنته سعيدة بكل كلمات الامتنان التى يقولها عنها امام الأهل والأصدقاء. بكل وفاء الزوجة المصرية ــ بكل وفاء ايزيس الفرعونية ــ قدمت سهام كل ما تستطيع لاسعاد زوجها . كان يسعدها ان يبتسم لها وللآخرين اذا سألوه عن حالة وآلامه قائلا باللغة العربية "الحمد لله".
الشىء الوحيد الذى طلبه زوجها الحبيب منها ولم تستطع تلبيته برغم كل ما بذلت من جهد هو أنه كان يريد منها أن تحضر له شيخا مسلما عربيا يقرأ على مسامعه القرآن الكريم باللغة العربية حيث يكون للقرآن سحر يعرفه ويتمنى أن يصحبه هذا السحر فى آلامه ورحلته الآخيرة قبل أن يلقى الله تعالى. كان الى جانبهم أكبر مسجد يعج بعشرات المحتالين والأفاقين أصحاب اللحى المهابة . لم يجد أحدهم وقتا لتلبية رجاء تلك السيدة

وزوجها . رجعت مكسورة ومعها أشرطة للقرآن الكريم تستغنى بها عن خدمات اولئك المحترفين . كان الزوج يريد صديقا مسلما عارفا بالقرآن الكريم يشرح له المعنى القرآنى بالانجليزية ولكن مات دون أن يتيسر له ذلك .

بل مات دون أن يعرف ما هو أفظع عن "إخوته فى الاسلام".

مات جون هنرى ووتن الشهير بـــ "شريف" يوم 8 يناير 2005. وتم دفنه اليوم الخميس 13 يناير ، قبل ساعات من البدء فى كتابة هذا المقال. وفيما بين وفاته الى ساعة دفنه رأت السيدة سهام صفحة أخرى من نذالة اولئك الشيوخ المحترفين.

أصرت على أن تخرج جنازته من المسجد لتقيم صلاة الجنازة عليه بين اخوانه المسلمين فلم تجد فى المسجد من يسمع لها . كان من الطبيعى أن يرفض الشيوخ مجىء اهله المسيحيين ونساءهم "الكاسيات العاريات" الى المسجد لحضور جنازته فيه. أكثر من ذلك لم تجد شيخا يقيم عليه صلاة الجنازة فى المستشفى أو البيت.

احتارت ماذا تفعل وجاءها الفرج سريعا من أقرب كنيسة لذلك المسجد. عرضت عليها الكنيسة أن تستضيف جثمان الزوج وأن تقيم له جنازة اسلامية وعزاءا اسلاميا بكل التفصيلات.

كان هذا حلا مؤقتا الا ان الزوجة المسلمة بقيت فى قلبها غصة لن تتخلص منها الا بالعثور على شيخ مسلم يحضر الجنازة ويصلى عليه وفق ما يطمئن له قلبها. وهكذا عن طريق احدى الصديقات سمعت زوجتى بالموضوع وعرضت علي أن أقوم بالواجب الذى تقاعس عنه الشيوخ المحترفون الأنذال. ورحبت. وفى الصباح الباكر كنت ـــ ومعى زوجتى ـــ فى الكنيسة انتظر وصول المسئول الأول فيها والذى سيتولى ترتيبات الجنازة والعزاء فى الكنيسة وفى الدفن. وفوجئت بأن المسئول سيدة فاضلة ، اذ ان الكنيسة المذكورة تتبع المذهب البروتستانتى الذى منح المرأة الحق فى تولى المناصب الكهنوتية. جاءت الينا ورحبت بنا بكل حرارة ومودة على اننا من المسلمين معارف الزوجة ، فلما قدمت نفسى لها على اننى الشيخ الذى جاء للصلاة على الفقيد كان ترحيبها طاغيا جعل الدموع تغطى وجهها مما أشعرنى بالخجل من نبلها وتسامحها مع وجود اولئك الشيوخ الأنذال فى مسجدهم على مقربة منها.

بكل التفاني الأمريكي فى العمل أخذت السيدة الفاضلة تشرح لى كيف أعدت برنامج الجنازة والعزاء. كان البرنامج من صورتين: احداهما على فرض عدم وجودى وحينئذ ستقوم هى بكل المطلوب. وقد أعدت خطابا دينيا بالانجليزية تضمن الآيات القرآنية المناسبة لهذا المقام، وأعدت ترجمة رائعة للدعاء للمتوفى وللصلاة عليه. وكانت متأهبة لعمل ذلك بنفسها ان لم أحضر. وفى حالة حضورى فالصورة الأخرى من البرنامج هى نفسها الصورة ألأولى ما عدا وضع اسمى وحريتى المطلقة فى التعديل. وفى كل الأحوال فقد جهزت السيدة الفاضلة الكنيسة بأشرطة صوتية عربية من القرآن المرتل ، بالاضافة الى أدعية مسجلة باللغة العربية. وبعد الشرح المفصل قالت لي: اذا كان منظر الصليب فى القاعة يؤلمك فمن الممكن حالا أن نغطيه حتى لا يجرح مشاعرك!! .رفضت ولم استطع كتمان الدموع فى عينى.. ألى هذا الحد يوجد النبل والتسامح. قالت زوجتى أنها المرة الأولى التى ترى فيها دموعى. قلت : انه دين التسامح الاسلامى الذى أومن به ولم أره بين

المسلمين وأجده هنا فى هذه الكنيسة الأمريكية، هذا بينما المسجد القريب منها بشيوخه الأنذال يلعن الأمريكيين فى كل صلاة وهو على أرضهم وفي حمايتهم ويتلقى صدقاتهم.
كانت السيدة مصممة على أن أصعد معها على المنصة نقدم معا كلمات العزاء والعظات، وكان هذا النبل فوق ما تتحمله أعصابى وأنا أتذكر قصة اضطهادى المؤلمة فى مصرأنا ومعي القرآنيين المسلمين وأقارنها بما أراه هنا. اكتفيت بالصعود للمنصة فقط عندما كان يأتى دورى فى القاء الخطبة باللغتين العربية والآنجليزية. بدأت هى بالحديث عن قصة حياة المتوفى وتاريخه وكيف التقى بحبيبته سهام وكيف اسلم من اجلها لكى يتزوجها، وكيف وجد فى الاسلام ما كان يريد من صفاء روحى، وكيف عاشا زوجين سعيدين معا وكيف اعطت سهام مثلا اعلى للزوجة المسلمة وكيف كان الراحل ابا مثاليا وزوجا مخلصا وابنا بارا بوالديه، وكيف كان ايمانه عظيما بالله. كانت تنطق اسم الله باللغة العربية حرصا على اعطاء الجو الاسلامى فى جنازة "شريف" المسلم.
هذا التسامح الأمريكى كان شديد الوطأة على مشاعرى الى درجة أخافتنى من ألا استطيع التماسك حين أصعد للمنصة، خصوصا واننىسأحدثهم بلغة هى غير لغتى . لأخرج من انفعالى بما أرى اغرقت نفسى فى تساؤلات ساخرة: هل أنا الآن فى كنيسة أمريكية أم فى مسجد؟ وهل قام الأخ عمرو بن العاص ــاو حتى الأخ عمرو بن خالدــ بفتح امريكا وتحويل كنائسها الى مساجد؟

صليت عليه صلاة الجنازة وخلفي زوجتى وسهام وبعض صديقاتها المسلمات، وحضر أخ هندى مسلم شارك فى الصلاة. القيت موعظتين فى الكنيسة وموعظة أخرى على قبره عند الدفن. في الكلمة الاولى اعتذرت نيابة عن من تخلف عن الحضور، وأنا أقصد الشيوخ الأنذال فى المسجد القريب، وقرأت عليهم بالعربية الآية 13 من سورة الحجرات "يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا. ان أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبي" ثم شرحت معناها بلانجليزية. حيث يقرر رب العزة جل وعلا اننا جميعا اخوة متساوون ننتمى لأب واحد وأم واحدة برغم الاختلافات بيننا، وان الله تعالى جعلنا مختلفين فى اللون واللغة لنتعارف لا لكى نتقاتل ، فالتعارف السلمى بين الشعوب والثقافات هو الذى يوسع مدارك البشرية ويؤكد التراحم بين ابنائها, وقلت بعضنا يفضل نفسه باللون او الثروة او بالقوة والجاه , ولكن التفضيل الحقيقى عند الله تعالى مقياسه التقوى فقط . فأكرم البشر عند الله تعالى هم أكثرهم تقوى . والتقوى تعنى الأيمان الحق بالخالق جل وعلا وحده الاها لاشريك له، والمثابرة على العمل الصالح النافع للمجتمع والناس. وحتى لا يزعم بعض الناس انه تقى ويتاجر على الناس بهذا الادعاء فان الله تعالى يؤكد فى هذه الآية على أنه وحده الذى سيحدد من هم المتقون طبقا لأعمالهم وايمانهم ، وسيحدث ذلك يوم القيامة فقط . والى أن يأتى هذا اليوم دعونا نعش فى تسامح ومحبة نطبق هذا الدرس الذى تعلمناه من هذه الكنيسة التى استضافت جنازة مسلم نبيل وأكرمت أهله وزوجته.
فى الكلمة الثانية قلت لهم : هناك الاسلام المنسى المحفوظ فى هذا القرآن والذى يمكن أن تتعرف عليه اذا قرأت القرآن ــ وليس ترجمته ــ اى باللغة العربية وفهمته وفقا لمصطلحاته ومفاهيمه. وتدليلا على ما قلت

قرأت لهم الآيات من 10 الى 13 من نفس سورة الحجرات والتى تحث على مكارم الآخلاق. وفى كلمتى الأخيرة عند الدفن ذكرت لهم بعض حقائق الموت المذكورة فى القرآن وكيف سيقابلها كل منا حتما حين الاحتضار.

أدهشنى حسن استماعهم وتقبلهم ما أقول لهم عن دينى ومجيء معظمهم الى شاكرا ممتنا سعيدا بما عرفه منى عن الاسلام مشيدا به معترفا بفضلى على قبولى المجيء للكنيسة. وكان فى مقدمتهم اهل المتوفى ، وقد بكت والدته كثيرا أمامى تشكو فقد ابنها هذا وآخر من قبله ثم زوجها وتطلب الدعاء لهم !! وبعد مراسم الدفن كان هناك حفل عزاء أقامته الكنيسة فى داخلها وقامت بتكليف مطعم مصرى باعداد الطعام على الطريقة الاسلامية، وكان المدعوون هم صديقات سهام وزملائها فى العمل ومن يشاء الحضور من المسلمين .

اعتذرت عن عدم الحضور لانشغالى وعدت لبيتى أكتب هذا المقال .

أقول: حقيقة ما أعظم هذا الشعب الأمريكى الطيب المتسامح ..

وتتابعت الصور فى خيالى تقارن وتطرح اسئلة مؤلمة:

1- تخيل أن مصريا نصرانيا أسلم فى مصر هل سيظل يتمتع بمودة أهله طيلة حياته؟ هل اذا مات مسلما وتبرأ منه الطغيان السلفى الوهابى ورفض المشاركة فى الصلاة عليه ودفنه، هل يمكن لكنيسة مصرية أن تقيم له فى داخلها جنازة اسلامية وعزاءا اسلاميا؟؟

فى الاجابة على هذا السؤال بالذات أتذكر صديقى القس ابراهيم عبد السيد أكبر مصلح كنسي فى تاريخ الكنيسة القبطية فى العصر الحديث والذى عاش مغضوبا عليه من البابا شنودة، وحين مات رفض البابا شنودة إقامة جنازة مسيحية له فى أى كنيسة قبطية. ولم يقف الى جانبه فى جنازته الا مركز ابن خلدون ورواق ابن خلدون إذ كان من رواده وأعمدته.

لسنا فى معرض المناقشة للتعصب المسيحى فى مصر وهو بلا شك موجود فى المجتمع القبطى فى مصر والمهجر، الا انه فى النهاية رد فعل لاضطهاد سلفى وهابى سمم العلاقة داخل النسيج المصرى الواحد حين وصل بالاضطهاد الى درجة استحلال الدماء والاموال. والاستحلال احدى الموبقات الكبرى للتشريع السلفى والتاريخ النجدى وليس المصرى، ولكن ارساه الفكر الوهابى فى مصر المشهورة بتسامحها بفضل النفوذ السعودىوريالات النفط . وسيأتى الحديث عن ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى.

2-تخيل مسلما مصريا تنصّر؟ هل كان سيعيش مكرما فى بلده الى أن يموت وسط اهله محاطا برعايتهم؟ أم أن حد الردة المزعوم سيطارده وينغص عليه حياته ان نجا منه؟ أو على الأقل سيتعرض للاتهام المأثور "ازدراء الدين" ومقصود به تحديدا وتطبيقا المذهب الوهابى المتخلف والذى يناقض الاسلام فى حقائقه وعقيدته وتشريعه؟؟ وفى كل ألأحوال سينزل ضيفا على أمن الدولة يتمتع من حسن الضيافة ما ينسيه اسمه ولقبه بحيث لا يتذكر الا جدول الضرب ومواعيده وطقوسه؟؟ على أية حال أتذكر هنا أنه حين القبض علينا واعتقالنا بالتهمة الكوميدية "انكار السنة" سنة 1987 وأثناء جولات التحقيق معنا بمعرفة نيابة أمن الدولة العليا التقينا بمتهم آخر يتم التحقيق معه بتهمة التنصر، وتتهمك المنظمات العالمية فى الدفاع عنه بينما لا نجد من

يواسينا فى مصابنا نحن القرآنيين داخل السجن وخارجه حيث تنهش الصحافة الرسمية والحزبية أعراضنا وتفترى الأكاذيب علينا وتنقل فتاوى الشيوخ الأنذال بتكفيرنا واستباحة دمائنا. حين التقينا صدفة بذلك المسلم الذى تنصر ونحن جميعا فى عربات الأمن المركزى مقيدى الأيدى بالأصفاد ــ ايدينا نحن التى لم تسرق ولم تقتل ولم تمتد بالأذى لأحد، وليست أيدى الطغاة والناهبين لثروة الشعب والغاصبين لحقوقه وكرامته ــ قال ذلك الأخ المتنصر لنا: ان حالكم اسوأ من حالى ووضعكم أخطر من وضعى. وفعلا تم الافراج عنه سريعا وظللنا بعده فى الأصفاد حوالي ستة اسابيع.

3- لذا أقول : تخيل مسلما ينتمى الى مذهب آخر غير الوهابية ويعيش تحت سيطرتها بسبب حظه الأسود التعس هل يستطيع أن يقيم شعائره المذهبية وفقا لما يعتقد انه الاسلام الصحيح لديه ؟ الجواب تجده مسطرابآلام الشيعة الذين يضطهدهم الوهابيون ليس فقط فى داخل الدولة السعودية بل أيضا داخل السيادة المصرية وفوق التراب المصرى بسبب النفوذ السعودى فيها .هذا النفوذ السعودى برياالاته اللعينه هو المسئول ليس فقط عن اضطهاد الاقباط المصريين داخل بلادهم بل ايضا الشيعة المصريون داخل بلادهم ، ثم القرآنيون المصريون ايضا داخل بلادهم . وهنا تأتى محنة القرآنيين المصريين التى لايذكرها أحد بسبب التعتيم الاعلامى حولها فى الداخل والخارج .

لسنا هنا فى مقام التفصيل ولكن لاعطاء فكرة سريعة للمقارنة:

فى أوائل الثمانينيات كنت الخطيب الأول لجماعة دعوة الحق الآسلامية وهى جمعية سنية معتدلة يتزعمها منشئها صديقى وقتها الدكتور سيد رزق الطويل الاستاذ بكلية الدراسات الاسلامية بالأزهر والذى كتب مقدمة أول كتاب لى "السيد البدوى بين الحقيقة والخرافة" سنة 1982 مشيدا بى وبصبرى على اضطهاد الصوفية فى داخل وخارج الأزهر فى ذلك الحين . كانت السعودية تنفق على تلك الجمعية وقد أقامت لها مسجدا فخما فى حى الدقى الراقى بالقاهرة، وكانت الجمعية تصدر مجلة شهرية هى الهدى النبوى. واثناء اعارة الدكتور الطويل الى السعودية اسند الرئاسة لأخيه ليحتفظ بالجماعة فى يده حين غيابه، الا أن ادارة الدعوة والمجلة كانت معى ويشاركنى فيها أخى الآصغر وهو الآن استاذ بجامعة القاهرة والاستاذ د. عبد القادر سيد أحمد الذى كان عميدا لكلية الصيدلة فى جامعة القاهرة أيضا، وكنا نعمل بدون أجر. وقتها كنت أراجع الفكر السنى وأعرضه على القرآن الكريم ولأجل هذا رفضت الآعارة للسعودية مع حرصهم على اعارتى بسبب شهرة كتابى "السيدالبدوى" وهجومى اللاذع للصوفية من داخل تراثهم.

وصل بحثى سنة 1985 الى انكار شفاعة النبى محمد والنهى عن تفضيله على الأنبياء، وخلود المسلم العاصى فى النار ــ العاصى اىالذىيظل عاصيا ويموت عاصيا دون توبة. واعلنت ذلك فى كتبى التى قررتها على الطلبة فى جامعة الأزهر، وفى خطبى فى مساجد جماعة دعوة الحق المنتشرة من القاهرة الى الجيزة وطنطا ودمياط . وثارت مناقشات اسفرت عن اقتناع اعضاء الجمعية ومجلس ادارتها وجمهور المصلين المواظبين على الصلاة فى تلك المساجد. وعلى عجل عاد الدكتور سيد الطويل ومعه منحة نفطية لكل الدعاة تصل الى 700 جنيه مصرى للخطيب العادى، وبسرعة أيضا تم عقد اجتماع عاجل لكل أعضاء الجمعية ومجلسها العام وأعضاء الفروع والأقاليم وحضرت أيضا لأفاجأ بهجوم شديد على اتجاهى الجديد تزعمه بعض اولئك الذين

كانوا الأكثر حماسة فى تأييد ما أقول . وفهمت الموقف على حقيقته لأنه فى ذلك التوقيت بالضبط كان قرار الجامعة الأزهرية قد صدر بوقفى عن العمل ووقف كل مستحقاتى المالية ومنعى من الترقية ومن السفرومصادرة كتبى واحالتى للتحقيق. قدمت استقالتى غير آسف من تلك الجمعية التى يباع فيها الدعاة الأفاضل بسبعمائة جنيه فقط !! وهكذا اخرجونى من مساجدهم وجمعيتهم التى ترفع شعار الدعوة للحق. قلت فى نفسى : لا بأس هى دعوتهم وتلك مساجدهم ..

ثم قام صهرى الحاج محمد الباز يرحمه الله تعالى ببناء مسجد فى مدينة الابراهيمية فى محافظة الشرقية حتى أقوم بالخطابة فيه ، وتم افتتاحه فى حفل ضخم. واعتدت السفر اسبوعيا من القاهرة الى هناك لخطبة الجمعة والصلاة . وكان أهلى الذين يعيشون فى قرية "أبوحريز" يحضرون الصلاة معى بسبب قرب المسافة. ولكن أمن الدولة فى محافظة الشرقية ومعهم الأزهر والنفوذ السلفى كانوا لنا بالمرصاد يخلقون المشاكل، وبعد موت صهرى يرحمه الله تعالى قاموا ومعهم المتطرفون بالأستيلاء على المسجد وضمه سريعا للاوقاف لاخراجى منه. وهكذا أخرجونى وأهلى من مسجد نحن الذين بنيناه لنصلى فيه لوجه الله تعالى .
اعتدنا أن نصلى الجمعة فى بيوتنا او فى مكاتبنا كيفما اتفق الى أن جاءتنا فرصة لنصلى الجمعة ببعض العاملين فى برج ضخم فى شارع احمد عرابى بالدقى، وحمدنا الله تعالى أن وجدنا مكانا نصلى فيه الجمعة بهدوء بعيدا عن المشاكل ، الا أن ذلك لم يدم طويلا فسرعان ما أتت التحذيرات منا ، وحرصا على عدم الاحراج تركنا المكان شاكرين للموظفين الطيبين حسن استضافتهم لنا.

ثم عثر صديق لنا على مسجد تحت الانشاء يقوم على بنائه شخص بمفرده هو الذى يجمع التبرعات وهو الذى يقوم بالبناء وهو الذى يؤم الناس للصلاة ، والمسجد يقع فى أرقى حى فى مصر . يقع على نيل الزمالك فى ابو الفدا. ورواد المسجد من علية القوم والسفراء والأثرياء والسعوديين وغيرهم ، والتبرعات للمسجد على قدم وساق كى يكون المسجد ردا عمليا على الكازينوهات القريبة منه. الا أن رواد المسجد كانوا يتضررون من الآخ فوزى الذى لا يفقه شيئا فى الدين ومع ذلك فهو الذى يؤم الناس ويخطب الجمعة . وهكذا كان الحل المناسب للجميع أن اتبرع بخطبة الجمعة بدلا من الأخ فوزى. كانت فرصة هائلة لنا عزمنا على استغلالها بحكمة حتى لا تضيع . لذلك كانت خطبى وفق منهج متدرج مدروس تسير بالمستمعين رويدا تدعوهم الى تعقل القرآن والاحتكام اليه فى كل قضية وعلى اساس حرية المستمع فى القبول والرفض. وحين بدأت فى طرح القضاياالشائكة على استحياء وقف احد كبار رجال الحى ثائرا معترضا فاختلى به الأخ فوزى " صاحب المسجد " واعطاه بعض كتبى التى صادرها الأزهر وقال له : اقرأها أولا ثم قل رأيك " . فى الأسبوع التالى كان المهندس محمد محمد خير الخطيب ــ يرحمه الله تعالي ــ وهو من كبار المثقفين ورجالات الصناعة الهندسية فى مصر يقف فى المسجد بعد صلاة الجمعة يعلن اعتذاره ويثنى على كتبى التى قرأها . ومن وقتها أصبح نصيرا لنا الى وفاته .

كنت اصلى معهم الجمعة ثم أعود الى شقتى فى أحد الأحياء الشعبية فى القاهرة لا أدرى عما يحدث فى المسجد ولا شأن لى بذلك حيث يتحكم الأخ فوزى فى كل شىء. الا ان وجودى فى المسجد جعله أكثر شهرة خصوصا وقد كان بعض رواده من الصحفيين وقد كنت قد بدأت فى التوغل فى القضايا الخلافية الملتهبة اطرح فيها الرأى القرآنى وينعكس رد الفعل فى بعض صحف القاهرة، مما زاد فى الرواد وازداد بالتالى ما يحصل عليه الاخ فوزى من التبرعات ومعظمها من الأثرياء العرب الذين يحلو لهم استئجار الشقق فى تلك المنطقة الثرية. والأخ فوزى يرفض باصرار أن يحول المسجد الى جمعية طبقا لما يمليه القانون ، بل يرفض اكمال البناء فى المسجد ، بل رفض امامى عرضا بأن يتخلى عن عملية البناء وسيقوم بعض الاثرياء باستكماله على نفقته دون أن يكلف فوزى شيئا. كان الواضح ان السيد فوزى يريد ان يظل المسجد مجرد حيطان فى هذا المكان الفخم ليكون سبوبة وبقرة حلوب تدر علية الالاف . حاول اهل الحى معى أن أتدخل حيث أن معظم التبرعات الجديدة والهائلة تأتى على أساس اننى القائم على المسجد وليس فوزى الذى يحرص يوم الجمعة على التوارى ومراقبة المتبرعين وصناديق التبرع . رفضت التدخل مؤكدا ان مهمتى لا تتعدى الخطبة و صلاة الجمعة .

باصرارى على عدم التدخل كشفوا لى المستور مما يستحيل معه أن استمر فى الذهاب الى ذلك المسجد الا اذا وقفت معهم فى اصلاحه وتطهيره من الأخ فوزى . أحضروا لى صحيفته الجنائية وسوابقه الاجرامية, قالو انه يستخدم حيطان المسجد ليلا فى أغراض منافية للاداب, وانه يستجلب العاهرات للسعوديين ومنهم رواد للمسجد ، ياخذ منهم تبرعات للمسجد يكفرون بها عن خطاياهم ، كما ياخذ منهم أيضا اتعابه على خدماتة الليلية الأخرى ، وانه يملك اراضى زراعية هائلة فى صحراء الاسماعيلية بما يجمعه من تبرعات. هالنى ما سمعت وقررت قطع صلتى بمسجد فوزى وبالزمالك كلها.

بعدها عثر أصدقاؤنا على قطعة ارض خلاء صغيرة فى منطقة الصحفيين بالدقى. وسرعان ما افترشوها واستدعونى للصلاة فيها ، ومن تبرعاتنا القليلة بدأنا تسويرها وأعددنا طلبا للشئون الاجتماعية لاشهار جمعية رسمية تتولى رعاية المسجد وفقا للقانون . وأقمنا فيه صلاة الجمعة وحرصا منا على الاستقلال قررنا أن يقام المسجد بجهودنا نحن فقط وبمواردنا القليلة. منا من تبرع بالمال ومنا من تبرع بالعمل فى البناء أو فى شراء مواد البناء، وتحول السور الى حيطان وابواب وشبابيك وارتفعت لافتة المسجد تحمل اسمه " مسجد الفرقان " وتسامع به القرآنيون فاتواليه من القاهرة والاقاليم . وكان أهل الحى معنا وليسوا ضدناالى أن تدخل الشيطان السلفى باعوانه. فوجئنا بجماعات التطرف تقتحم علينا المسجد تهتف ضدنا وتصرخ فى وجوهنا ، فى نفس الوقت الذى اعترض أمن الدولة على التصريح لنا باشهار جمعيتنا واحتفظ بقائمة الاعضاء لحين القبض علينا، وأحسست بالخطر تتجمع نذره فتركت الخطبة فى المسجد ليستولى عليه السلفيون ويخرجوننا من آخر مسجد بنيناه بأيدينا.

كان اعتكافى فى بيتى وانقطاعى عن المسجد ضربة لمخططاتهم حيث كانوا يريدون حضورى ليفتعلوا معركة بين المتطرفين المهاجمين والقرأنيين أصحاب المكان تكون مبررا وقتيا لاغتيالى أو للقبض علينا . فلما تركنا لهم المسجد عمدوا الى حيلة أخرى استخدموا فيها بعض ابناء الحى الذين كانوا يظهرون لنا المودة ،

جاءوا الى منزلى يرجوننى أن أحضر مناظرة فى المسجد ويتعهدون بسلامتى ، وحضرت الندوة وحضرها رجال من القرآنيين للدفاع عنى . وبدأت المناظرة بشيخ من الآزهر وقف يقول الكلام المعهود الممل وجاء دورى فرددت عليه وافحمته بالقرآن وعلوم الحديث ايضا ، فانسحب مكسورا حسيرا وعندها فوجئنا بهجوم الشباب المتطرف علينا باسلحته . كان المسجد ممتلئا بمواد البناء التى اشتريناها وكدسناها ثم تركناها ولكن يعرف مكانها اصحابى, وهكذا عندما بدأ أعتداء المتطرفين هب فريق من القرآنيين لحمايتى وحملونى الى الطريق بسرعة واركبونى تاكسيا , ورجعوا ليجدوا اخوانهم قد جمعو أعمدة الحديد المسلح والخشب والدبش . وراى المتطرفون انفسهم فى مواجهة من لا يخاف الموت ففروا. والطريف ان جريدة اخبار اليوم فى تعليقها على القبض علينا والذى تم بعدها بقليل ذكرت معركة المسجد بالتفصيل ولكن افترت ان القرآنيين هم الذين فروا , وليس المتطرفين الارهابيين . على أية حال لم تغير هذه المعركة شيئا , كانت مقدمة مفتعلة للقبض علينا. واخراجنا من المسجد الذى بنيناه ، وهو لا يزال قائما حتى الآن ، كل ما هناك انهم غيرو ا اسمه من مسجد الفرقان الى مسجد الفرقان والسنة .

فى التسعينيات وحتى الآن هجرت كل المساجد مكتفيا بالصلاة فى بيتى ومعى أهلى وأصدقائى. لكن ذلك لم يعجبهم أيضا . جهزت الطابق العلوى فى بيتى فى القرية ليصلح للصلاة. وكانت العادة أن يحتفى بى أهلى عندما اسافر البلدة. جعلت سفرىالشهري للبلدة فى يوم جمعة لنصلى معا ــ كل افراد العائلة والأهل ذكورا واناثا . وبعضهم من ذرية جدى المباشر الذى تزوج اربعة من النساء وانجب 16 ولدا وبنتا انجبوا اكثر من مائة شخص له بيته وابناؤه. فى نفس الوقت كان بعض القرآنيين يأتى ليصلى معى الجمعة فى بيتى بالقاهرة فى الأسابيع الأخرى .

لم تكن مشكلة امام الشيطان السلفى ان يخرجنا من بيوتنا التى نصلى فيها طالما وجد اتباعا له فى أمن الدولة المفروض عليهم أن يقوموا بحماية أهلى المسالمين الذين لا شأن لهم حتى بحقوقهم السياسية ايثارا منهم للسلم والبعد عن المشاكل. بدلا من ذلك كان من موظفى أمن الدولة من تبيح لهم ضمائرهم وفروسيتهم وشهامتهم أن يعتقلوا ويعذبوا مسلمين مسالمين يصلون لربهم فى بيوتهم ابتعادا عن المشاكل والاضطهاد والملاحقة. فاذا بالملاحقة البطولية تقتحم عليهم بيوتهم وتنكر عليهم صلاتهم بتهمة خطيرة ، كانوا يعذبون من أجلها من اعتقلوه من اهلى : لماذا لا تقرأون التحيات فى الصلاة ؟ لماذا تقرأون بدلا منها آية الكرسى ؟ مع بعض اسئلة اخرى مثل : ماذا يقول لكم أحمد صبحى وماذا تقولون له ؟!!

تخيلوامإذا يمكن أن أقول لأهلى من الرجال والنساء والآطفال كلما أزورهم ؟ واذا كنت خطيرا الى هذا الحد فلماذا يعتقلوننى أنا دونهم ؟ كان الهدف الواضح هو منعى من الذهاب الى قريتى ومنعى من دخول بيتى هناك، ومنعى من لقاء اهلى وأحبتى وذوى رحمى . لهذا كان حرصهم على الافراج عن بعض المعتقلين من الاسرة ليدخلوا البلدة فى وضح النهار ووجوههم منتفخة من الضرب للتشهير والاذلال والتخويف والارهاب وليكون معروفا اننى السبب فيما يحل بهم من بلاء.

كان من الطبيعى أن انقطع عن زيارة اهلى حرصا عليهم وحبا فيهم وأملا فى رفع العذاب عنهم . ولم يرتفع بسهولة برغم الشكاوى التى قدمتها لوزير الداخلية وكبار المسئولين لديه، وبرغم توسط بعض ذوى الصلات

والنفوذ . ما ت عمى وماتت عمتى ومات بعض الأحبة من أقرب الأقارب ولم استطع حضور الجنازة وفق العادة المتبعة. ثم جاء القبض على الدكتور سعد الدين ابراهيم فتوقعت القبض على فى أى وقت . وبادرت بالتنبيه على أصدقائى واخوتى وأقاربى فى القاهرة ألا يزوروني وألا يصلوا الجمعة معى حرصا عليهم وعلى أولادهم. أغلقت على بابى وانتظرت المستقبل المجهول ، وجاء سريعا نبأ القبض على أخوة قرأنيين من الصحبة القديمة تلاها القبض على آخرين منهم فى نفس الحى الذى اعيش فيه، ونشرت الآهرام ذلك بدءا من اكتوبر 2001 ، وتلا ذلك استدعاءات تمهيدية لى لأمن الدولة ، فقررت الهجرة ، ووفقنى الله تعالى الى المجىء الى أمريكا أنعم بالصلاة فى بيتى دون خوف أو قلق.
بارك الله تعالى أمريكا !!

إنني القرآنى الوحيد الذى هاجر الى أمريكا مستمتعا بتسامحها ، بينما لا يزال اهلى وأقاربى واخوتى فى الدين تحت الحصار السلفى. عندما اتيت الى امريكا توجهت الى أقرب مسجد فوجدته سلفيا متطرفا ، وعرفت بعدها كيف يسيطر السلفيون على معظم المساجد الاسلامية والجالية الاسلامية. وكما اختطفوا اسم الاسلام وهم أعدى اعدائه اختطفوا أيضا التسامح الامريكى فى حرية العقيدة وحرية التعبير واستخدموا هذه الحرية فى حرب امريكا نفسها فى المساجد ومدارسهم– المسماة بالاسلامية ـــ مستغلين اسم الاسلام العظيم وقانون الحريات المدنية الامريكية.
هل تتخيل نذالة اكثر من هذا؟ تفتح لهم أمريكا أبوابها وتعطيهم من الحرية ما لا يجدون فى بلادهم ، وينعمون بخيرها ورخائها وازدهارها العلمى ثم يلعنونها ليل نهار. واذا قبض على أحدهم متلبسا بجريمة وجد نظام العدل الامريكى يقف الى جانبه بكل قوة ، ووجد الصحافة تتابع الموضوع بكل حياد وموضوعية، ووجد جماعات حقوق الانسان والحريات المدنية بالمرصاد لما يحدث من انتهاكات بكل الاخلاص الامريكى المعروف فى العمل ، تنشر تقاريرها على الملأ تفضح ما تراه من انتهاكات حسب الثقافة الامريكية والمقياس الامريكى الرائع فى حقوق الانسان وحفظ كرامته ، ونحن لم نعرف هذا المقياس بعد ولم نصل اليه طيلة تاريخنا العربى . تنشر الصحف تلك التقارير عما تحسبه انتهاكات ـــ وهو فى مستوى تعامل السلطات العربية معنا يعتبر مداعبة و"هزار " ـــ ولكن تتلقفها صحفنا القميئة وتتناولها بالمبالغة والتهويل وتتخذ منها مادة للطعن فى أمريكا كلها متناسين ابعاد الصورة الامريكية كلها ، وأهم من ذلك كله يتناسون الذل والظلم والطغيان والفساد والتخلف والتعصب والتطرف الذى يعيشون تحت نيره ، وغالبا ما يدافعون عنه أويتجاهلون وجوده.
اسمع هنا فى أمريكا الكثير مما يشين المساجد واصحابها المنتفعين بها مما يستحق مقالة مستقلة ولكن أشير على عجل الى الهبات التى تصل اليهم من الامريكان غير المسلمين ومن الكنائس ومنها صناديق الملابس والتى يقوم الشيوخ الانذال بتجميعا فى بالات يتم كبسها فى مخازن هائلة تسير فيها سيارات النقل محملة بصناديق الهبات والهدايا . وفى مخازن اولئك الأنذال يتم فرز المحتويات وتصنيفها واعادة تعبئتها وكبس الملابس ثم تصديرها الى الموانى العربية ـــ الاسكندرية خصوصا ـــ حيث يتسلمها اعوان اولئك الشيوخ الانذال لتباع لحسابهم.

وبالتالى من حقهم علينا أن نعذرهم ففى حمأة هذا الانشغال بالمعاش لا يجدون وقتا للصلاة على الاخ جون هنرى ووتن ولايجدون وقتا لرعاية المنكوبين المسلمين العرب من رواد مساجدهم ومنهم صديقى الأردنى الذى قبض عليه بسبب مخالفة قوانين الاقامة مع تهم أخرى تتصل ببيانات خاطئة فى جواز سفره ، وكان عليه أن يدفع كفالة تفوق طاقته ليخرج من السجن على ذمة القضية , ومع انه من رواد المسجد المعروفين الا ان الانذال من شيوخ المسجد رفضوا الوقوف الى جانبه فى محنته برغم كثرة من توسطوا لديهم فى أمره فظل فى السجن الى أن تبرع له صاحب العمل المسيحى الامريكى بدفع الكفالة..وأمجاد ياعرب أمجاد ..وصديق آخر عانى من اصابة زوجته بالسرطان ولم يجد من رفاقه فى المسجد معينا ، وحين ماتت زوجته ذهب للمسجد اياه ليشترى مدفنا لها حيث يتاجر الشيوخ الانذال فى بيع المدافن للمسلمين من قطعة ارض منحتهم اياها الكنيسة فى المدفن العمومى للمنطقة. كتب الزوج المصاب لهم شيكا بثمن المدفن الا انهم رفضوا أن يأخذوا منه الشيك اذ كانوا يريدون المبلغ عدا ونقدا. لم يكن معه "كاش" وكان يوم اجازة فى البنوك ، ولم يشفع له ذلك لديهم ولم يحصل على المدفن الا بعد ان استلف من بعض اصدقائه المبلغ نقدا.
اعود الى البداية، وقصة الاخ الراحل جون هنرى ووتن لتقرير هذه الحقائق القرآنية بايجاز:-

1-الاسلام في معناه القلبي الاعتقادي هو التسليم والانقياد لله تعالي وحده . والاسلام بهذ المعني نزل في كل الرسالات السماوية علي جميع الانبياء وبكل اللغات القديمة ،الي ان نزل اخيرا باللغة العربية ،وصار ينطق بكلمة "الاسلام"التي تعني الاعتقاد والتسليم والانقياد والطاعة المطلقة لله تعالى وحده فيما يخص التعامل مع الله تعالى (الانعام 161:163) وهذا هو معني الاسلام في الاعتقاد ،والذي سيحكم الله تعالي عليه وحده يوم القيامة ،لأن الله تعالي لن يقبل يوم القيامة دينا آخر غير الخضوع أو الاستسلام له وحده ،وذلك معني قوله تعالي (ان الدين عند الله الاسلام). (ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الاخرة من الخاسرين :آل عمران 19،54)فالاسلام هو الخضوع لله تعالي بكل اللغات وفي كل زمان ومكان وفي كل الرسالات السماوية، الا انه عندنا وللاسف قد تحول الى وصف باللغة العربية لقوم معينين في عصور معينة.
والله تعالي لا يهتم بما يطلقه البشر علي انفسهم من القاب وتقسيمات مثل (الذين آمنوا) والذين هادوا (اليهود) والنصاري والصابئين (أي الخارجين علي دين اقوامهم)لذلك فان القرآن يؤكد في آيتين ان الذين يؤمنون ايمانا باطنيا وظاهريا (بالامن والامان مع البشر وبالاعتقاد في الله وحده)ويعملون الصالحات فى التعامل مع الناس ويؤمنون باليوم الاخر ويعملون له فهم من اولياء الله تعالي سواء كانوا من اتباع القرآن ،أو من الذين هادوا ،أو من النصاري او من الصابئين (البقرة 62 المائدة 69)أي ان من يؤمن بالله واليوم الاخر ويعمل صالحا فهو عند الله قد ارتضي الاسلام أو الانقياد لله عز وجل، سواء كان من المسلمين او اليهود او النصارى او الصابئين في كل زمان او مكان او بكل لسان وذلك ما سنعرفه يوم القيامة.
ليس لأحد من البشر فى هذه الدنيا ان يحكم علي انسان بشأن عقيدته، والا كان مدعيا للالوهية، هذا هو معني الاسلام الباطني القلبي الاعتقادي ، هو فى التعامل مع اللة تعالي استسلام وخضوع له بلغة القلوب ،وهي لغة عالمية يتفق فيها البشر جميعا، وعلي اساسها سيكون حسابهم جميعا امام الله تعالي يوم القيامة. وكل انسان له

حريته المطلقة فى التمسك بهذا الاسلام العقيدى او الخروج عليه ، وكل انسان مسئول عن اختياره امام الله تعالى وحده يوم القيامة.

اما الاسلام في التعامل الظاهري فهو السلم والسلام بين البشر مهما اختلفت عقائدهم يقول تعالي (يا ايها الذين أمنوا ادخلوا في السلم كافة)البقرة 208 .أي يأمرهم الله تعالي بايثار السلم . ونتذكر هنا تحية الاسلام الا وهي السلام وان السلام من اسماء الله تعالي، كل ذلك مما يعبر عن تأكيد الاسلام علي وجهه السلمى ، فالانسان الذي يحقق الاسلام السلوكى في تعامله مع الناس فيكون مسالما لا يعتدي علي احد هو مسلم بغض النظر عن عقيدته ، فذلك هو معيار المسلم فى القرآن ، وكونه مسلما نتعرف عليه بحسب سلوكه السلمى ونتعامل معه كمسلم سواء كان فى عقيدته وعبادته مسيحيا يذهب للكنيسة، أو كان يهوديا يؤم الالكنيس اليهودى أو كان بوذيا او حتى ملحدا. المهم أن يكون مسالما ليكون اخا لنا فى الاسلام بمعناه السلوكى الظاهرى وهو السلام. أما عقيدته وعقائدنا فمرجعها لله تعالى وحده يوم القيامة ليحكم علينا جميعا بعدله وعلمه جل وعلا. وحتى يأتى يوم القيامة علينا أن نعيش فى هذه الدنيا فى سلام وفق معنى الاسلام بمعناه السلمى الظاهرى.

وعلى العكس فان الشرك والكفر هما معا ــ طبقا لمصطلحات القرآن الكريم ــ يعنيان الظلم و الاعتداء العقيدى والسلوكى.

الظلم لله تعالى فى التعامل معه جل وعلا أو فى العقيدة بمعنى اتخاذ اولياء وآلهة مع الله تعالى بتقديس البشر من الانبياء والأئمة والقديسين والأحبار والرهبان والشيوخ . وهذه عادة سيئة يقع فيها أغلب البشر وفى مقدمتهم المسلمون من سنة وشيعة وصوفية. وهذا ظلم عظيم لله تعالى القائل " ان الشرك لظلم عظيم ""لقمان 13 ". والله تعالى شاء أن يكون البشر أحرارا فى الايمان وفى الكفر لذا كان الحساب على العقائد مؤجلا الى يوم القيامة ، وكان التأكيد القرآنى على الحرية الانسانية المطلقة فى الايمان او الشرك والكفر مرتبطا بمسئولية البشر الكبرى على هذا الاختيار وما يترتب عليه من خلود فى العذاب او خلود فى النعيم. ولكن الى أن يأتى يوم الحساب فليس لأحد أن يحاسب أحدا على معتقده ودينه حيث أن ذلك هو حق الله وحده ، ولابد من ترك الدين خالصا له وحده جل وعلا فى تقرير حرية البشر فيه فى الدنيا وفى حسابهم امام خالقهم فى الدين يوم الدين. ليس فى الاسلام كهنوت أو واسطة بين الناس ورب الناس ولا يجوزفى تشريع الاسلام الاكراه فى العقائد ومن يفعل ذلك فقد اغتصب حق الله تعالى وادعى الالوهية دون أن يدرى أو وهو يدرى. واذا كان الشرك والكفر اعتداءا على حق الله تعالى فان الشرك والكفر يعنيان معا وفق مصطلحات القرآن الكريم الآعتداء على حقوق البشر أيضا ، تلك الحقوق التى نزلت تشريعات الرحمن فى تأكيدها وتوجب على البشر حفظها فى هذه الدنيا ليستقيم العدل والأمن والسلام فى الأرض وفى هذا العالم، وفى مقدمتها حق الانسان فى الحياة وفى حريته فى اختيار عقيدته وسائر حقوقه السياسية والاجتماعية. المعتدى على هذه الحقوق البشرية مستحق للوصف بالكفروالشرك طالما ظل قائما بهذا الاعتداء مصرا عليه ولا بد من مواجهته وردعه ليكف عن اجرامه. واذا اقترن هذا الاعتداء على حقوق الناس بتبرير دينى يفترى على الله تعالى كذبا فهنا اقتران بالاعتداء على الله ودينه وهو الفساد فى الأرض الذى يجب الجهاد الاسلامى ضده بالقلم والسلاح

اذا أمكن. وهذا بالضبط ما يجب على المؤ منين فعله فى مواجهة الطاغوت السلفى الوهابى الذى يظلم الله تعالى قبل أن يظلم البشر ويسفك الدماء ويستحل الحرمات بتزييف الاسلام وفقا لتلك الاحاديث السامة المسماة بالسنة النبوية . والرسول سيبرأ منهم يوم القيامة كما نبأ الله تعالى عما سيقوله الرسول يوم القيامة عن اعدائه الذين هجروا القرآن تمسكا بتلك الأكاذيب المفتراة" وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ". الفرقان 30,31".

2- طبقا للقرآن الكريم فانه يجوز للمسلمة أن تتزوج مسيحيا أو يهوديا أوبوذيا..الخ طالما كان مسالما. المحرم هو الزواج من المشرك الكافر او المشركة الكافرة بمعنى الإجرام والتعدى على المسالمين بالحرب. وسيأتى تفصيل ذلك فيما بعد ان شاء الله تعالى ،كما أن بيوت العبادة لكل المؤمنين من المسلمين وأهل الكتاب يجب احترامها وحمايتها وحصانتها من كل اعتداء ، وهذا من مقاصد الجهاد فى الاسلام طبقا للقرآن الكريم."الحج 40"

3- فى ملتى واعتقادى أن افعال اسامة بن لادن ومن هم على دينه ومذهبه هى نفس صفات الشرك بمعنى الاعتداء العقيدى والسلوكى. هنا اتحدث عن افعال منشورة واحتكم الى القرآن العظيم فيها .لست اتحدث عن أشخاص وانما عن أفعال وعن صفات . الاشخاص الاحياء لا يزال لديهم المجال مفتوحا للتوبة . اما افعال الخير أو الشر وصفات الكفر والشرك والايمان والاسلام فهى مستمرة باستمرار الحياة ويمكن الحكم عليها اسلاميا بالمعنى البحثى وليس بالمفهوم الكهنوتى. المفهوم الكهنوتى لدى الوهابية ــ مثلاــ يحكم بالتكفير على كل شخص لا ينتمى اليهم ويستحل دمه ويحكم بخلوده فى النارمتدخلا بذلك فى سلطة الله تعالى ومناقضا لشرعه. اما المفهوم البحثى الاسلامى فهو يبحث فى توصيف افعال البشر طبقا لأحكام الحق القرآنى ، هل هذه الافعال عبادة أم طاعة، هل هى اعتداء وظلم أم احسان وبر. والهدف من ذلك ليس التكفير وانما التنبيه والوعظ والتحذيرحتى يعرف الغافل ان ما يحسبه اسلاما هو نقيض للاسلام. المشكلة فى الوهابيين انهم يحسبون سفكهم لدماء المسالمين جهادا اسلاميا وينسبون اكراه الآخرين فى الدين الى دين الاسلام وهذا يوجب على باحث اسلامى مثلى أن أدافع عن دينى وأبرىء الاسلام من بهتانهم وافتراءاتهم واجرامهم. ليس من حقى أن اتدخل فى اختيارهم العقيدى حتى وان تدخلوا فى عقيدتى بالاكراه والاضطهاد . ولكن من واجبى ان أدفع عن دينى ــ الاسلام العظيم ــ افتراءهم واجرامهم طالما ينسبون انفسهم للاسلام . أعدهم بألا أتعرض لهم مطلقا أذا نسبوا جهادهم وعقيدتهم وسلوكياتهم الى الوهابية الحنبلية فقط دون الزج باسم الاسلام العظيم فى مستنقع فجورهم وغيهم واجرامهم.

4- أن ما تفعله الوهابية المعاصرة الآن يفوق ما اعتادته قريش فى جاهليتها فى بغيها وعدوانها وتلاعبها بملة ابراهيم وطاغوتها الدينى والسياسى.

قريش كانت تعبد الأولياء وتقدس الأنصاب وتؤله البشر بزعم انه تقربهم الى الله زلفى"الزمر 3" والوهابية تقدس النبى محمدا والأئمة والصحابة والسلف، ومقياس التأليه هو اعتبارهم فوق مستوى النقد والنقاش وتكفير من يعاملهم كبشر يخطئون ويكذبون. هل يستطيع وهابى أن يقول ان ابن عبد الوهاب كذب فى كذا او اخطأ فى كذا ؟ هل يستطيع نقد ابن تيمية او ابن حنبل أو عبد العزيز آل سعود ؟

كانت قريش تسيطر على مكة والحرم وتصد عن سبيل الله من آمن وتصد عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، وتبيح الحج الى غيرالحرم . وكذلك تفعل الوهابية السعودية حين تشجع الحج الى وثن تنسبه للنبى محمدا على انه قبر له مسايرة لابتداع فى مناسك الحج لم يعرفه النبى ولم يعرفه المسلمون بعده لمدة قرون ـــ اعنى بذلك الحج الى مايسمى بقبر النبى ضمن مراسم الحج الى البيت الحرام. فى نفس الوقت تتحكم فى الحج حسب سياستها وعلاقاتها، فتمنع وتبيح ، وتحول فريضة الحج الى تجارة هائلة تستنزف فيها الحجيج المسلمين ومعظمهم فقراء.

كانت قريش تضطهد المسلمين الأوائل وتعذبهم وتمنعهم من دخول المساجد فقال فيهم رب العزة " ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها، أولئك ما كان لهم أن يدخلوها الا خائفين ." البقرة 114" كانت قريش تذكر اسماء آلهتها وأئمتها المقدسين وانصابهم فى مساجدها وكادت تفتك بالنبى محمد عليه السلام حين اعترض على ذكر اسماء معظمة الى جانب اسم الله تعالى فى مساجده " اقرأالآيات 18 الى 23 من سورة الجن".واسفر احتكارها للمساجد واضطهادها المسلمين الى هجرتهم مرتين للحبشة ثم المرة الأخيرة الى المدينة.

السعودية الوهابية تضطهد ايضا خصومها فى المذهب والدين ، تمنع الشيعة من ارتياد مساجدهم وتلزمهم بالصلاة فى مساجد الوهابية حيث يسمعون الذم فى عقائدهم وتكفيرهم . ثم تطارد السعودية الوهابية الشيعة الآخرين فى مصر تنفذ نفس الاضطهاد وتبذل فى سبيله المال لفساد الذمم والضمائر. ثم ينضم القرآنيون الى قائمة الضحايا فألاقى انا وأخوتى فى الدين الهجوم علينا فى المساجد الوهابية فاذا اعتزلنا تعقبونا بالملاحقة الأمنية يخرجوننا من مساجد بنيناها لنعبد فيها الله وحده دون تقديس لبشر أو حجر معترفين بحق كل انسان فى أن يعبد الله كيفما يشاء ، أو حتى اذا لم يعبده اذا شاء وكل منا مسئول عن اختياره . واذا كانت قريش تتعامى عن المسلمين الأوائل وهم يجتمعون سرا للصلاة فى دار الأرقم بن الأرقم لتعطى درجة من التسامح السلبى فان الطاغوت السلفى الوهابى الذى تسلط علينا فى بلدنا مصر استخدم ماكينة التعذيب لمنع افراد العائلة الواحدة من الصلاة فى بيوتهم. ولم يسكت الا بعد اخراجنا من بيوتنا. أبعد هذا كفر وطغيان وطاغوت ؟ ما شأنكم بنا اذا كنا نصلى الجمعة او الظهر ، أو اذا كنا نقرا التحيات أو نقرا بدلا منها التشهد المذكور فى الآية 18 من سورة آل عمران ؟ ما شانكم بصلاتنا لربنا جل وعلاوهو الذى سيحاسبنا وسيحاسبكم يوم القيامة؟ ما شأنكم بنا اذا لم نكن نصلى من الأساس مثل ما يفعل ملايين المسلمين المصريين وغيرهم؟

يطول المقال اذا تعرضنا لكل ملامح التشابه والتطابق بين السلفية والجاهلية القرشية وسيأتى ان شاء الله تعالى التفصيل فيما بعد للعظة والتحذير وليس للسب والتكفير. ولكن أختم المقال بالسبب الذى حعل دموعى تنهمرفى جنازة الأخ جون هنرى ووتن التى أكدت لى ما ألمسه دائما منذ جئت هاربا بدينى ـــ ليس الى الحبشة ولكن لأمريكا ـــ أن التسامح الاسلامى والتعامل الاسلامى الراقى والقيم الاسلامية العليا انما توجد فى الشعب الأمريكى النبيل، بينما تاهت معالمها فى مصر التى كانت مشهورة بتسامحها قبل أن يحتلها الوباء السلفى السعودى النجدى . لذلك ابكى على مصر .. وعلى الاسلام الذى أضحى غريبا مضطهدا مطاردا. ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !!

أكذوبة عذاب القبر وأكاذيب شيوخ الثعبان الأقرع

مقدمة

في 1994 صدر كتابي "عذاب القبر والثعبان الأقرع" أنفى فيه عن الإسلام هذه الأكذوبة وأوضح جذورها الفرعونية والتراثية. وأحدث الكتاب صدمة هائلة كما هو المعتاد في كل كتاباتي التي تقض مضاجع شيوخ الثعبان الأقرع الذين يرهبون الناس بعذاب القبر ليفرضوا لأنفسهم جاها ما أنزل الله به من سلطان. إنهم الذين يتعيشون من استمرار الجهل واستقراره متمتعا بالخرافات التراثية التي اكتسبت قداسة زائفة لمجرد أن أحدا من قبل لم يغامر بمناقشتها في ضوء القرآن والمنهج العقلي الاسلامى. ردود الأفعال على ذلك الكتاب وصلت إلى حد استنطاق كل أنواع الشيوخ للرد على كتابي وشتمي, بدءا من شيوخ الأزهر إلى شيوخ الترب والمقابر والأضرحة. وإذا كنت لم استفد كثيرا من ردود الأزهريين لأنني احفظها جيدا من كثرة تكرارها وسذاجتها وضحالتها وبؤسها فانه ــ والحق يقالــ قد استمتعت كثيرا بأقاويل شيوخ الترب والأضرحة الذين فاتهم أن ينسبوا افتراءاتهم عن نعيم القبر وعذابه إلى النبي كما كان أسلافهم من أئمة الفقه وعلم الكلام وشيوخ القصص أو القصاصون أو الحكاؤون ــ يفعلون في العصور الوسطى. استمتعت بأكاذيب شيوخ الترب والأضرحة لأنها أضافت جديدا لم أكن أعرفه عن الخرافات المعاصرة والتي نالها بعض التجديد في عصر الصحوة السلفية المباركة.

من سياق الحملة الصحفية ضدي وقتها وردودي عليها ومن مقتطفات من كتابي سالف الذكر أعددت هذا المقال لأن الثعبان الأقرع لا يزال يعيش في أذهان أولئك المساكين ويخسرون به الدين والدنيا: ــ

هؤلاء الأبرار ــ بالياء وليس بالشين أو الغين ــ و عقائدهم المضحكة:

أولا: لماذا يطلقون على ذلك الثعبان الخرافي وحده وصف الثعبان الأقرع ؟ ولماذا يختص ذلك الثعبان وحده بالقراع ؟.. هل هناك ثعبان أقرع وثعبان أصلع وآخر أجلح ورابع بشعر كثيف..؟

إن كل الثعابين لا توجد شعرة واحدة على رؤوسها.. لكن لم يفكر أحد منهم في هذه المسألة، لأن العادة أن الخرافات حين تستحكم في العقول تعطيها إجازة مفتوحة " وبدون مرتب".

ثانيا: أنهم يقولون إن عذاب القبر والثعبان الأقرع من المعلوم من الدين بالضرورة ــ وبعضهم ينطقها خطأ فيقول " من المعلوم من الدين بالضرورة" ــ وهذا خطا لا نقره أبدا.أبدا.

ونقول: إن تعبير المعلوم من الدين بالضرورة مصطلح أنتجته عصور التقليد والتخلف العلمي منذ منتصف العصر المملوكي خلال القرن الثامن الهجري. وقبل ذلك كان الإجتهاد يصل إلى الاختلاف في كل شيء بين الفرق والمذاهب الفكرية والفلسفية والعقيدية والفقهية.. ثم أغلقوا باب الإجتهاد، وتحول الأئمة المجتهدون والمختلفون في كل شيء إلى أئمة مقدسيالضرورة،اء عصور التخلف منذ منتصف العصر المملوكي وطيلة العصر العثماني، حيث لا يجوز الاعتراض علي الأئمة الأوائل أو مناقشتهم أو نقدهم، وبرزت شائعات علمية كاذبة تبرر هذا الإفك وتشرعه وتحميه مثل " المعلوم من الدين بالضرورة " وأجمعت على ذلك الأمة." والواقع أنه لا يوجد إجماع ولا توجد قائمة محددة متفق عليها بذلك المعلوم من الدين الضرورة ، حيث اختلف الشيعة والسنة والصوفية والفرق الإسلامية والكلامية في كل شيء منذ أن ابتعدوا عن القرآن.. ومن ضمن العقائد المختلف عليها عذاب القبر ونعيمه والعصمة والشفاعة.. وأنصح بقراءة كتاب " مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين " للإمام آبي الحسن الأشعري إمام أهل السنة في علم الكلام للتأكد من اختلاف أئمة المسلمين في عصر الاجتهاد حتى في داخل المذهب الواحد في كل شيء وحول كل شيء.

ومن هذه القضايا الخلافية وقتها عذاب القبر ونعيمه، و هي في الأصل عقيدة فرعونية عاشت آلاف السنين قبل الإسلام ثم ما لبثت أن رجعت إلى أفئدة المسلمين متخفية في أحاديث نبوية وتفسيرات مختلة للقرآن الكريم جاء بها التيار السني الفقهي والكلامي ــ نسبة إلى علم الكلام ــ شأن كل ما جاءوا به مما يخالف الدين الحنيف.وقد رد عليها المخالفون لها بأدلة عقلية وبقلية. حدث ذلك كله في عصر الاجتهاد العلمي والصراع الفكري بين المعتزلة ــ دعاة التجديد العقلي ــ وأهل السنة الذين يسترون عورة تخلفهم العقلي وعجزهم العلمي بالتمسح بالنبي محمد ونسبة أقوالهم له ولأصحابه حتى تتحصن آراؤهم من النقد. بيد أن المعتزلة لم يعترفوا بذلك الإسناد الكاذب النبي, وبعضهم استخدم نفس الأسلوب في الرد على أهل السنة والكيد لهم ــ كما كان يفعل الشيعةــ حين صنعوا أحاديث"نبوية" ترد على أهل السنة بنفس أسلوبهم. وأنتج هذا الصراع الخائب العاجز الكثير من الأحاديث المتناقضة والتي عكف عليها بعض اللاحقين يحاولون ــ دون جدوى ــ التوفيق بينها.

ثُم جاء عصر التقليد ثم الجمود ثم التخلف حيث انقرض المعتزلة وانقرض معهم الاجتهاد العقلي لتسود الخرافات السنية ــ ومنها الثعبان الأقرع ــ متحصنة بالأحاديث الكاذبة والشائعات السامة من نوعية " المعلوم من الدين بالضرورة ــ وليس الضروطة ــ و أسطورة الإجماع، وكل منهما يحتاج وقفة قادمة إن شاء الله تعالى.

إن مناهج الأزهر التي درسناها أشارت لذلك الخلاف بين الأئمة المجتهدين في قضايا العصمة والشفاعة وعذاب القبر وغيرها ولكن مع التأكيد على نصرة المذهب السني ورؤيته المتخلفة في تلك القضايا.

ومنهجي الفكري والاجتهاد في تلك القضايا الخلافية: أولا: تدبر القرآن الكريم برؤية قرآنية محضة تعتمد على فهم القرآن بالقرآن وتحديد مفاهيم القرآن بالقرآن، وتجميع كل آيات القرآن في الموضوع المبحوث

واستطلاع مضمونها بتجرد كامل منزه عن الهوى والأفكار المسبقة بهدف الوصول للحق والاهتداء به ابتغاء مرضاة الله تعالى, مع عدم الاهتمام مطلقا بما يعتقده الناس أو ردود أفعالهم الغاضبة، لأن حق الله تعالى هو الأولى بالنصرة والأتباع. ثُم بعدها البحث التاريخي والتراثي في جذور الموضوع وتجلياته وأبعاده المعاصرة واللاحقة.

وقد تأكد لي بعد مشوار شاق وطويل من التفرغ للبحث الجاد والمحايد إن كل الاعتقادات المخالفة للقرآن في عذاب القبر ونعيمه وفى تأليه البشر والأنبياء وعصمتهم وشفاعتهم كانت موجودة قبل الإسلام، وقد أشار القرآن إليها ورد عليها، ثم ما لبثت أن عادت تلك العقائد إلى عقول المسلمين عبر تلك الأحاديث الكاذبة المخالفة للقرآن العظيم.

وفى معرض الرد على كتابي و تسفيه أدلته القرآنية والتراثية تحدث بعض شيوخ الترب والمقابر في بعض الصحف عما يعملونه في دفن الميت ولحده.. وذكروا الأسرار الإلهية أو بعضها عما شاهدوه من عذاب القبر والثعبان الأقرع، والميت الذي يتحول إلى جحش، وما شاهدوه من نعيم القبر وما فيه من أنوار وعطور وذكروا أنهم رأوا حساب الملكيين للميت، كما أكدوا أنه يمكن تخفيف العذاب على الميت في قبره بذبح خروف أو عجل كبركة على روح الميت.وجيء لي بهذه الاكتشافات المحلية الثمينة التي نفاخر بها الأمم في عصر ثورة المعلومات والاتصالات. وتعين على مثلي أن يرد على شيوخ الترب والمقابر في هذا العصر البائس. وكان لابد أن أرد..

قلت: الواقع أن العقائد الفرعونية هي الأساس الحقيقي في تدين المصريين حتى الآن من أقباط ومسلمين وهذا ما أثبته في كتابي " شخصية مصر بعد الفتح الإسلامي " الصادر عام 1984 والذي يؤكد على أن الفتح الإسلامي لم يضف شيئاً إلى المضمون الحقيقي لعقائد المصريين وطقوسهم الدينية، مثلما لم تضف المسيحية شيئا لعقائد الأقباط. إذ أن الثوابت الدينية الراسخة في عقائد المصرين منذ العصر الفرعوني تقوم دائماً بتمصير كل الثقافات الوافدة والعقائد الداخلة لمصر، وقد تتسامح في نطقها باللغة الوافدة سواء كانت يونانية أو عربية وتحت أسماء جديدة ولكن بنفس المضامين والأسس الفرعونية القديمة.. وينطبق هذا أكثر على العادات الدينية المرتبطة بالموت ومنها الإعتقاد في عذاب القبر ونعيمه، والذي هو ترديد واضح لما ساد في مصر الفرعونية وانتشر فيها للرافدين خصوصاً الشام، وحين جاء الإسلام ودخل فيه أبناء الأمم التي فتحت منذ القرن الثالث الهجري فإنهم دخلوا في الإسلام بنفس معتقداتهم الثابتة ولكن باللغة العربية، وعززوا هذه العقائد الثابتة في قلوبهم بما تعودوه في عادات الدفن وطقوس التدين، ثم قام الفقهاء السنيون بتأكيد تلك العقائد عبر تأليف الأحاديث ونسبتها زوراً للنبي (ص).

" ويقول الدكتور صبحي للذين هاجموه": أنكم إذا رجعتم إلى مصادر العصر المملوكي وخصوصا كتب " التصوف " للشعراني وكتب " المناقب الصوفية " التي تتحدث عن زيارة القبور المقدسة مثل كتاب ابن الزيات " الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة " وكتاب السخاوى الصوفي " تحفة الأحباب " وجدتموها تردد نفس

العقائد الفرعونية بعد ألوف السنين، ثم اكتشفها علم المصريات بعد قرون حين فكت رموز اللغة الهيروغليفية، وهذا ما ناقشته في كتاب لي لم ينشر بعد عن الصلة بين التصوف المملوكي والديانة الفرعونية. وفى تلك المصادر الصوفية المملوكية كان المؤلفون ينقلون عن" مشايخ الزيارة " الذين كانوا يعملون كمرشدي السياحة في عصرنا، ولكن لسياحة من نوع مختلف. حيث يشرحون لزوار المقابر المتبركين بها معالم القرافة وكرامات أوليائها الموتى و يسترزقون من خدمة الترب المقدسة ونشر الشائعات حولها ومنها الأقاصيص عن عذاب القبر ونعيمه، وكرامات الأولياء الصوفية داخل قبورهم، ولا يختلف ذلك عما قاله أجدادنا المصريون في العصر الفرعوني والعصر القبطي وقبل العصر المملوكي.

ومنذ العصر الأموي استحدث بنو أمية وظيفة الراوي في المسجد أو من كان يسمى بالقصاص ــ بتشديد الصاد ــ، وكان يجلس في المسجد بعد الصلاة للدفاع عن السلطة الأموية وتبرير فظائعها ولكن بصورة غير مباشرة وتحت ستار الوعظ. لذا كان منهج صاحب القصص أن يجذب إليه عقول السامعين بالأساطير والحكايات، وكلما توغل في الكذب ازدادت جماهيريته وازداد تأثيره..ولقد كان العصر الأموي عصر الروايات الشفهية التي تم تدوينها فيما بعد في العصر العباسي منسوبة للنبي بعد إن دخل فيها الكثير من التحريف والتخريف. دونها كثيرون أبرزهم "ابن برزويه " صاحب الانتماء المزدكى والأصل المجوسي، وهو المشهور بيننا بلقب البخاري المتوفى سنة 256.

كانت خرافات الترهيب وعذاب القبر المادة المفضلة للقصاص في العصر الأموي، ثم جاء الفقيه " الأوزاعي " الذي عاصر الخلافتين الأموية والعبّاسية وخدمهما معاً، وكان من أشهر القصاص في الدولتين، وهو الذي اخترع حد الردة وهو أيضاً المصدر الأساسي لخرافات عذاب القبر، وتحولت معظم أقاصيصه إلى مرويات وأحاديث يعززها بأن لها جذوراً فرعونية في عقول الناس من آلاف السنين.

إن بعض أنواع الماعز تعتقد أن الشيطان قد قدم استقالته بعد ظهور الإسلام وبعد موت خاتم الأنبياء وأن أهل البلاد المفتوحة قد دخلوا في الإسلام أفواجا دفعة واحدة وبإيمان عميق لا مجال للشك فيه، وأنه حتى الآن فإيمان أحفادهم المسلمين اليوم هو التطبيق الحرفي المخلص للإسلام الذي كان عليه خاتم النبيين عليهم جميعا السلام. ولذلك تستهجن تلك الماعز أي دعوة لإصلاح المسلمين وتهاجم كل من حاول الإصلاح لأن الذي يجب إصلاحهم ودعوتهم للهداية هم الذين لم تبلغهم الدعوة في مجاهل أفريقيا وأحراش الغابات الاستوائية والصحارى القطبية. وأنواع أخرى من الذئاب ترى أن الهدف الأسمى هو أن يخضع المسلمون لحكمهم طوعا أو كرها لإقامة دولة الخلافة التي تعيد مجد السلف وتواصل الجهاد ضد دار الحرب الصليبية إلى قيام الساعة.

هذه الماعز وتلك الذئاب تحتاج إلى تغييب عقول الناس كي تسرق منهم الوعي والعقل، وبعدها يصبح سهلا امتطاء الضحايا ــ أو المطايا لا فارق هنالك ــ. ولكي تسرق منهم الوعي والعقل ترهبهم باحاديث عذاب القبر وينسبون كل خرافاته للنبي حتى يقطعوا الطريق مقدما على كل من يفكر في النقاش، اذ يكون التحذير جاهزا أنه" لا اجتهاد مع وجود النص" فإذا أصر جاء الإرهاب الفكري يتهم المسكين بأنه ينكر السنة. بذلك

الإرهاب المسبق تخضع الجباه لشيوخ الثعبان الأقرع وهم يروعون الناس ويرهبونهم بتلك الخرافات المفزعة. والمحصلة النهائية لتلك الحملات الإرهابية الفكرية أن السامعين الذين استمعوا إليها وآمنوا بها يشعرون شعورا خاصا نحو ذلك الذي أدخل تلك المعتقدات في قلوبهم، يشعرون نحوه بالرهبة والاحترام الزائد فإذا خاض بهم في موضوع ديني آخر ـــ مثل تغيير المنكر بالقوة ـــ أطاعوه، ثم إذا انتقل بهم بعدها إلى أن الدولة القائمة هي منكر يجب إزالته كان حتما طاعته و إلا فالثعبان الأقرع ينتظر في القبر فاغرا فاه.

من هنا نفهم لماذا التركيز في كتابات السلفيين في التسعينيات على عذاب القبر دون التركيز على النصف الآخر من الأكذوبة وهو " نعيم القبر" لأن الهدف هو الإرهاب الفكري المعنوي والذي يتفوق في خطورته على الإرهاب المادي الدموي. فالمعنوي يقتل العقل والكرامة الإنسانية واحترام الإنسان لذاته وهو الذي جعله الله تعالى خليفة في الأرض وسخر له ما في الكون. وبهذا الإرهاب الفكري اغتالوا جيلا من المساكين أضاعوا عليهم الدنيا والآخرة معا. وسعد بهم الشيطان الذي أوهمهم انه استقال وترك لهم البلاد والعباد باحثا عن عقد عمل مع ثعبان أقرع آخر في المريخ..

من هنا أيضا نفهم ثورة الماعز والذئاب على شخصي الضعيف حين فندت أكذوبة عذاب القبر. وأتذكر صديقا لي علمانيا قرأ كتابي واقتنع به وصارحني إن عذاب القبر كان دائما يخيفه ويؤرق مضجعه وكان سلاحا مؤثرا في أيدي السلفيين, فإذا كان هذا حاله فكيف بالبسطاء من الناس ؟ وكيف بالشباب المتلهف للجديد و التجديد فإذا بهم قد أعدوا له ثعبانهم الأقرع يقف على أعتاب مستقبلهم الواعد ويحوله إلى ماضي غامض.

ونعود إلى بعض أسئلة الصحف وقتها.

لكن هناك أحاديث للرسول (ص) في عذاب القبر ونعيمه فماذا عنها ؟

– الدكتور صبحي: من يؤمن بهذه الأحاديث فإنه يكفر بالقرآن.. لأنه يستحيل أن تؤمن بالقرآن وتؤمن أيضاً بما يخالفه.

ما أدلتك على أن هذه الأحاديث تناقض القرآن ؟

– الدكتور صبحي: لأن القرآن يؤكد في أكثر من عشرين آية قرآنية أن النبي (ص) لا يعلم الغيب وليس له أن يتحدث فيه، ولا يدرى ما سيحدث في المستقبل في الدنيا أو عند الموت أو بعده أو في الآخرة، ويكفى في ذلك الآية التاسعة من سورة الأحقاف " قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم " وكذلك الآية 50 من سورة الأنعام " قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب " والآية 188 من سورة الأعراف " ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء " وطالما يؤكد القرآن الكريم أن النبي (ص) لا يعلم الغيب فان المؤمن بدين بالإسلام إذا جاءه حديث كاذب ينسب للنبي الكلام في الغيبيات فان

واجبه يحتم عليه تبرئة النبي (ص) منه.. وأحاديث عذاب القبر والشفاعة وأحوال الآخرة كلها ضمن تلك الخرافات المخالفة للقرآن والتي يجب أن نبرئ منها الرسول (ص).

لكن هناك آيات يستشهد بها بالقرآن عن عذاب فرعون " النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب "

– الدكتور صبحي: لا شأن للآية الكريمة بعذاب القبر، فالقرآن هنا يتحدث عن البرزخ وليس عن القبر، والآية القرآنية تشير إلى عذاب فرعون في البرزخ إلى قيام الساعة, ولنا أن نتخيله في البرزخ وهو يعانى فيه العذاب بينما يرى ما انعم الله تعالى به على المستضعفين من بنى إسرائيل، وهكذا معنى قوله تعالى في قصة موسى وفرعون " إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم.. " إلى أن يقول الله تعالى عن بنى إسرائيل " ونمكن لهم في الأرض، ونرى فرعون وهامان وجنودها منهم ما كانوا يحذرون " القصص 4: 6.

فقد كان فرعون في طغيانه يضطهد بنى إسرائيل خشية منهم، وحدث ما كان يحذر منه وتم تمكين الله تعالى لبنى إسرائيل بعد غرق فرعون مصداقاً لقوله تعالى " فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم " إلى أن يقول تعالى عن بنى إسرائيل " وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون " الأعراف 136: 137 إذن فالتدمير لما كان يصنع فرعون والتمكين لبنى إسرائيل حدث بعد غرق فرعون.. إذن فكيف يرى فرعون ذلك بعد غرقه..؟ لأن فرعون وآله كانوا ولا يزالون في البرزخ يعيشون في عذاب إلى أن تقوم الساعة. ثم سيأتي أشد العذاب يوم القيامة بعد سوء العذاب في البرزخ، مصداقاً لقوله تعالى عنهم " النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب " غافر 46.

ماذا تقول عن حساب الملكيين.. هل ستنفيهما أيضاً ؟

إذا لم يكن هناك عذاب أو نعيم في القبر فلماذا يكون في الأصل حساب أو استجواب في القبر؟ وإذا كان الحساب سيأتي يوم القيامة أمام الله تعالى يوم الحساب حيث البعث والحشر والعرض واللقاء والميزان فان هول ذلك اليوم وتفصيلاته التي تكررت في القرآن الكريم يجعل من العبث التفكير في حساب سابق له.. فكيف إذا كان ذلك الحساب المزعوم في القبر أسطورة فرعونية في الأصل ترددت في كتاب الموتى واحتفلت بها دراسات علم المصريات التي تختص في بحث تاريخ مصر القديمة ومن يرد المزيد فليقرأ كتاب " أرمان " عن ديانة مصر القديمة.. فسيرى إننا نكرر ما قاله الأجداد وننسبه للنبي العظيم افتراء وكذباً.

ولكن القرآن ذكر أيضا نعيم الشهداء بعد الموت.

هنا أدعو الشيوخ إلى قراءة ما ذكرته في كتابي. بإيجاز أقول:

ــ عند الموت والاحتضار تبشر الملائكة الفائز، بينما يصرخ الخاسرــ بعد أن يرى الملائكة تبشره بالنارــ يطلب فرصة أخرى ليرجع للدنيا ليعمل صالحا، ويأتيه الرد بالنفي حيث ينتظره البرزخ الذي جئنا منه إلى هذه الدنيا، ثم بعد الموت سنعود إليه ونظل فيه إلى قيام الساعة." حتى إذا جاء أحدهم الموت قال ربى أرجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت. كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ". المؤمنون 99ــ 100.

ــ البرزخ منطقة انعدام للزمن، ندخل فيه مؤقتا عند النوم والغيبوبة القصيرة أو الطويلة أثناء هذه الحياة، وحين نرجع منه نقول انه يوم أو بعض يوم. حتى لو كان النائمون هم أهل الكهف "الكهف 19" أو ذلك الذي أماته الله تعالى مائة عام ثم بعثه "البقرة 259". ثم ندخل البرزخ بعد الموت لنبقى فيه بلا إحساس بالزمن إلى أن تقوم الساعة. عندها سيقول المجرمون مندهشين إنهم لبثوا فقط يوما أو بعض يوم: " ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون، وقال الذين أوتوا العلم والإيمان: لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون. الروم 55 ــ 56".لو كان هناك عذاب في القبر لأولئك المجرمين لأحسوا بالزمن ثقيلا وبطيئا بما يعادل ملايين السنين. لكن البرزخ مر عليهم وعلى غيرهم مثل نوم أحدنا في هذه الدنيا. هذه هي القاعدة ولكن لها في القرآن الكريم استثناءات محددة ، هي تعذيب فرعون وآله في البرزخ ، وتعذيب كفرة قوم نوح ، ونعيم أولئك الذين قتلوا في سبيل الله تعالى.

التفاصيل كاملة فى كتابى سالف الذكر عن تلك الاستثناءات ، ولكن المهم أن ذلك لا علاقة له أبدا بعذاب القبر أو بنعيمه لأنه يحدث فى البرزخ وليس فى القبر، بل ان فرعون مات غريقا بلا قبر وذكر الله تعالى كيف نجاه ببدنه ليكون لمن خلفه آية. "يونس 92". اذن فالتعذيب الذى يلقاه الآن متعلق بنفسه وليس جسده. ولا تقل "روحه" لأن الروح فى لغة القرآن ومصطلحاته هو جبريل ، وتلك قصة أخرى. ونفس الحال مع الذين قتلوا فى سبيل الله تعالى ــ اللهم اجعلنى منهم ــ حيث ذكر الله تعالى نعيمهم عند ربهم يرزقون، وليس في القبور. وأيضا لا تقل هنا الشهداء ولكن قل " الذين قتلوا فى سبيل الله" لأن مصطلح الشهداء فى لغة القرآن هو عن الدعاة للحق المناضلين فى سبيله والذين سيأتون يوم القيامة ليشهدوا شهادة خصومة على أقوامهم ــ اللهم اجعلنى منهم ــ ولتراجع القرآن لتتأكد من هذا.

لم يجد شيوخ الأزهر وقتها ما يردون به على كتابى فاضطرتهم الحاجة الغلابة الى اللجوء الى تقرير منحط وضعته اللجنة المكلفة بتبريرعزلى من الجامعة الأزهرية سنة 1987.ونشروا فقرات من هذا التقرير فى منتصف التسعينيات، تتهمنى ــ اثما وعدوانا وبهتانا ــ بأننى أنكر أن يكون محمد خاتم النبيين. ونسوا أن مثلى لا يخشى أحدا من الناس ولا يتردد فى اعلان ما يؤمن به، وتاريخى معهم خير شاهد على ذلك حيث لم أخش تحطيم كل أصنامهم الفكرية وابقارهم المقدسة وتابوهاتهم المحرمة. بل كنت أتحداهم فأقرره على الطلبة فى الجامعة، ويعلم الله ــ وكفى به عليما ــ أنه لو شككت لحظة فى كون محمد عليه السلام خاتم النبيين

لأعلنت ذلك دون أدنى تردد. ولكن كيف يقول ذلك من وهب حياته دفاعا عن كتاب الله تعالى وتبرئة لخاتم النبيين مما افتراه عليه اعداؤه من أحاديث كاذبة بعد موته بقرون.

سؤال أخير لماذا فصلت من الأزهر ؟ هل لإنكارك السنة ؟ وما قولك في الإتهامات التي وجهها إليك تقرير اللجنة الثلاثية سنة 1987من أنك تدافع عن مسيلمة الكذاب، وقولك " انتهى الوحي نزولاً ثم مات الرسول الخاتم ونحن لا نعرف إلى أي حد طبق الرسول الخاتم أوامر ربه ولا نعرف إلى أي حد تحددت درجته بين الأنبياء," وقولك :" أما آن لنا أن ندع عبارات تعارفنا عليها ما انزل الله بها من سلطان مثل قولنا عن رسولنا : أشرف المرسلين ، سيد المرسلين..؟

– يقول الدكتور صبحى : هذه مجموعة أسئلة وليست سؤالاً واحداً لكن سأجيب عليها بالوثائق وباختصار.. أولاً الاجتهاد الذي قمت به أثناء عملي في جامعة الأزهر مدرساً مساعداً1977ــ 1980 لا يختلف عن الآراء السابقة في هذا التحقيق ، وهذا الاجتهاد جاء تطبيقاً لقانون الأزهر نفسه الذي يوجب على عضو هيئة التدريس الاجتهاد في حقائق الإسلام ، وهذا الاجتهاد في تجلية حقائق الإسلام يعنى الإتيان بالجديد معززاً بالدليل ومخالفاً للمألوف وما وجدنا عليه آباءنا ، ولكن كوفئت على هذا الاجتهاد غير المسبوق بالتعطيل في مناقشة رسالة الدكتوارة لمدة ثلاث سنوات إلى أن قمت بحذف ثلثى الرسالة, وحصلت على الدكتوراة سنة 1980 بعد أن أكدت تناقض التصوف مع دين الاسلام. وبعدها كان لزاما على أن أبحث التراث السنى الذى كنت أنتمى اليه وقتها محاولا اصلاحه من داخله، وفى سنة 1985 أصدرت خمسة كتب دفعة واحدة قررتها على طلابى فى جامعة الأزهر, وكنت اعدها أيضا للحصول على الترقية لدرجة أستاذ مساعد ، وكانت العادة أن كتابا واحدا يكفى للترقية التى كان موعدها عام 1985. وكانت المكافأة الكبرى هى وقفي عن العمل وإحالتي للتحقيق ومنعي من الترقية والسفر ، وبعد التحقيق جاءت التوصية بإحالتي لمجلس التأديب متهماًــ ليس بإنكار السنة ــ ولكن بإنكار الشفاعة العظمى والعصمة المطلقة للنبي وإنكار تفضيله على الأنبياء السابقين ، وكان واضحاً أنهم الخصوم والقضاة في نفس الوقت ، يملكون الجاه ولا يملكون الحجة والبرهان ، ومن هنا استخدموا كل ما يستطيعون للضغط على لأتراجع عن آرائي بالتهديد والوعيد.. ورفضت وجبنوا عن إصدار قرار بالإدانة واختاروا أسلوباً أشد مكراً ، فالقانون يقول (المحال إلى التأديب إذا مر عليه عام بدون إدانة فان الاتهام يسقط) ولذلك فانهم قبل أن ينتهي العام أعادوا نفس الاتهام لكي أظل محروماً من العمل ومن مستحقاتى المالية ومن الترقية ومن السفر إلى أن استجيب وأوافقهم.. وكان من الممكن أن أوافقهم خصوصاً وهم يملكون المنح والمنع وأنا لا أملك شيئاً من حطام الدنيا ،ولكن قدمت استقالتي المسببة فرفضوا قبولها وفزعوا منها ، فرفعت ضدهم دعوى في مجلس الدولة لإلزامهم بقبول الاستقالة واعتبرت نفسي مستقيلاً من هذه الجامعة. وجاءهم الإنذار من مجلس الدولة فاضطروا لإرسال خطاب لي يفيد بأن الإستقالة التي قدمتها سيناقشها مجلس الجامعة ، وحين أوشك مجلس الدولة على إصدار حكم في قضيتي بادروا هم بإصدار قرار بالعزل لمن قدم استقالة من قبل ترفعا بنفسه وعلمه من ان يكون فى موضع يتحكم فيه أعداؤه الذين هم أقل منه علما وخلقا.

إن قرارهم المزعوم بالعزل جاء ــ وقتها ــ مدعماً بذلك التقرير الذى ينضح حقداً على باحث شاب يحترم نفسه ودينه وعقله ، لذلك تناثرت في هذا التقرير إتهامات أخرى لم تأت أصلاً في قرار الإتهام ، وحفل ذلك التقرير باصطياد أخطاء مفتعلة الهدف منها التكفير ، ومنها على سبيل المثال إنني في كتابي " العالم الإسلامي بين عصر الخلفاء الراشدين وعصر الخلفاء العباسيين " كتبت أرصد الفجوة بين عقائد المسلمين في عصر قوة الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين وبين عقائد المسلمين في العصر المملوكى حين سيطر عليها التصوف ، فعرضت مقارنة بين مسيلمة الكذاب الذي جعلوه كاذباً لمجرد إدعائه النبوة مع إيمانه بخاتم النبيين وبين الشيخ إبراهيم الدسوقى في العصر المملوكى الذي ادعى الألوهية في كتابة المشهور (الجوهرة) وهو كتاب منشور ومطبوع ويباع على أسوار الأزهر ، وقارنت ساخراً بين{ الشيخ مسيلمة الكذاب} و{الشيخ إبراهيم الدسوقى} الذي ادعى الألوهية وحظي بالتقديس ولا يزال مقدساً لدى الأزهريين حتى اليوم مع ادعائه الألوهية. هذا ما فعلته في رصد الفجوة التاريخية في ذلك الكتاب بين تدين المسلمين في عصر الخلفاء الراشدين وتدينهم في عصور التصوف والخرافة, معززا بالأدلة. فماذا فعلت اللجنة الموقرة التى كانت الخصم والحكم.؟ استخلصوا مما كتبته إنني أدافع عن مسيلمة الكذاب وألمحوا إلى إنني أسانده في ادعائه للنبوة لأني أقول عليه الشيخ مسيلمة ،وأسسوا على ذلك اتهاما آخر بأننى أنكر أن يكون محمد خاتم الأنبياء ، وتناسوا تماماً قصة إبراهيم الدسوقى والهدف منها.. ثم ناقضوا أنفسهم في نفس التقرير حين استشهدوا بنص أصف فيه النبى (ص) بأنه " الرسول الخاتم " أي خاتم الأنبياء المرسلين وهذا هو الوصف الذي التزمت به في كتاب " الأنبياء في القرآن " ومع ذلك يجرأون على اتهامي بإنكار أن يكون محمد عليه السلام خاتم النبيين.

وبنفس الطريقة اقتطعوا من السياق عبارة لى تقول: " ثم انتهى الوحي نزولاً ، ثم مات النبي الرسول الخاتم ونحن لا نعرف إلى أي حد طبق الرسول الخاتم أوامر ربه ولا نعرف إلى أي حد تحددت درجته بين الأنبياء".. وبعدها عبارة أغفلوها تتحدث عن النبي الخاتم{ قد يكون قد سبقه فى الفضل آخرون من الأنبياء وقد يكون قد تفوق على آخرين من الأنبياء السابقين. علم ذلك عند الله تعالى وحده، وليس لنا أن نحكم فيه فنحن أقل شأنا من الأنبياء المكرمين ولا يجوز لنا أن نحكم ــ غيبا ــ عن الأفضل من بينهم، فذلك لله تعالى وحده, وعلينا أن نؤمن بهم جميعا دون أن نفرق بين أحد منهم كما تكررت لنا الأوامر مرتين فىسور البقرة ومرة فىسورتى آل عمران والنساء.} أغفلوا ذلك كله ثم بعدها جاءوا بعبارة {" أما آن لنا أن ندع عبارات تعارفنا عليها ما انزل الله بها من سلطان مثل قولنا عن رسولنا : أشرف المرسلين ، سيد المرسلين }" وأغفلوا العبارة التي بعدها التي تؤكد أن كل الأنبياء أشرف البشر وأنهم جميعاً عباد الله المصطفون ولا سيد لهم إلا الله تعالى.

تركوا ذلك كله واتهموني بإنكار أفضلية النبي مع إنني توقفت في الحكم فيها ، ولم أقل بها ولم أدع إليها ولم أنكرها وإنما قلت أن الذي يفاضل بين الأنبياء إنما يجعل نفسه حكماً عليهم ويضع نفسه فوقهم جميعاً وتلك منزلة المولى سبحانه وتعالى وحده. وكل ما استفادوه من تلك العبارة هى إتهامهم لي بأنني أشكك في تبليغ النبي للرسالة مع أن العبارة تقول " ثم انتهى الوحي نزولاً ثم مات النبي الرسول الخاتم " وكتاب الأنبياء لا يخلو سطر فيه من آية قرآنية أو تعليق عليها ، وتمسكى بالقرآن والأحتجاج به أكبر دليل على ايمانى بأن خاتم

النبيين قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ولكن يكفى اننى كنت أقول " قال الله تعالى " وهم يردون على ب : قال " النووي " وقال فلان.. وفى النهاية أقول لهم ودائماً " اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون."

<u>,لكن بماذا تفسر كل هذا الهجوم عليك بالذات من الشيوخ مع أن أدلتك من القرآن ودفاعك عن الاسلام ، و هناك آخرون من العلمانيين يهاجمونك أيضا قائلين أنك من نفس فصيلة الشيوخ. أن الفريقين قد اتفقا على شيء وحيد هو الهجوم عليك. ماذا تفسر هذا الموقف الغريب ؟</u>

أولا: انا أعتز بصداقتى لأخوانى المثقفين العلمانيين ، واحترم حق الجميع فى حرية الفكر والاعتقاد لأن حرية الفكر والعقيدة فى الاسلام بلا حدود ولا قيود وكل انسان مسئول عن اختياره الدينى والعقيدى امام الله تعالى فقط يوم القيامة.

ثانيا: اشهد بأن حقائق الاسلام ــ المنسية والمغيبة عمدا والتى أجاهد فى سبيل اظهارها ــ هى نفسها القيم الانسانية العليا من الحرية والعدل والتسامح والسلام والرحمة وحقوق الانسان ، وهى أيضا نفس القيم العليا للعلمانية الشريفة. هما معا ــ الاسلام الحق والعلمانية الفاضلة ــ ضد الكهنوت الدينى والسياسى و الطغيان والظلم والاستبداد والاضطهاد الدينى والعنصرى والاستعلاء والاستغلال. لذلك فنحن فى نفس المعسكر نواجه نفس العدو فى حرب سلمية فكرية عقلية. قد تختلف أنواع الذخيرة ،فذخيرتى أو أدلتى من القرآن والتراث وهم لهم أدلتهم الأخرى ، وهذا وارد بل مطلوب. ولكن بعض العلمانيين المتطرفين لا يرى ذلك كرها فى الاسلام ذاته. وهذا اختياره ونحن نحترم حق الجميع فيما يختارونه لنفسهم ومستقبلهم يوم القيامة ، يسرى ذلك على كل انسان طالما لم يرغم الآخرين فى الدين والفكر والمعتقد.

ثالثا " اننى افخر بصداقتى لرواد العلمانية المناضلين فى سبيل الحرية وحقوق الانسان ، وأعتبر عملى معهم جهادا فى سبيل الله تعالى ، انه الفريضة الغائبة حقا ، ذلك الجهاد السلمى الذى ينشد الاصلاح على طريق الانبياء والمرسلين وضد الحكام الطغاة و سفاكى الدماء البريئة ومحترفى التجارة بالدين والدجالين من شيوخ الثعبان الاقرع.

رابعا " خصومتى مع شيوخ الثعبان الأقرع ليست خصومة شخصية وانما هو الصراع بين تيارين مختلفين فى الدين والفكر. الاختلاف الفكرى بيننا هو استمرار للصراع بين المجددين والمقلدين ، وهو صراع ممتد فى تاريخ الحركة الفكرية للمسلمين ، بدأ فى مطلعها بين مدرسة الرأى التى أسسها أبو حنيفة ومدرسة الحديث التى أسسها مالك ولم تنته بالصراع حول تحديث الآزهر الذى قاده محمد عبده ووقف ضده الشيخ عليش وامثاله فى أوائل القرن الماضى.

اذن الصراع الفكرى موجود بل ومطلوب. بيد ان المشكلة أن هذا الصراع يثمروينتج ايجابيا حين يكون المناخ صحيا والمستوى الفكرى مزدهرا كما كان الحال عليه فى عصر الازدهار الفكرى للعصر العباسى الأول.

عندها ينحصر الخلاف فى الرأى فقط دون المساس بالاشخاص المختلفين ، أى بدون تكفير أو تحقير أو تخوين. عندها تتردد عبارات ذهبية من نوعية " كلامنا صواب يحتمل الخطأ وكلام غيرنا خطأ يحتمل الصواب". و" من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر " " كل بنى آدم خطاءون ، وخير الخطائين التوابون" " كل منا يؤخذ منه ويرد عليه ".

ويسوء الخلاف الفكرى ويتحول الى تكفير وتخوين وتجريح للمخالف فى الرأى واضطهاد له ودعوة الى قتله وملاحقته حين يتسيد الحركة الفكرية والدينية الشيوخ الراقصون فى مواكب السلطان الخادمون للأمراء والحكام المتلاعبون بعقول العوام ، او باختصار " شيوخ الثعبان الأقرع ". ليس لديهم العلم ولا الخلق ولا الحجة ولا البرهان. وحتى لو أرادوا فليس لديهم الوقت اذ وهبوا وقتهم للنفاق والمواكب واكل أموال الناس بالباطل والضحك على الذقون. وحتى اذا تفرغ أحدهم للبحث فليس لديه موهبة البحث وملكة الابداع التى تولد منذ الصغر وتدفع صاحبها من بداية حياته للتفرغ والاستغراق فى مجال بحثه ينام به ويصحو عليه ، ويعطيه التفرغ للبحث والدرس والقراءة والتفكر اعتدادا بالنفس لا يمكن معه أن يحنى رأسه لحاكم نصاب أو قصاب. ولأن شيوخ الثعبان الأقرع ليس من مناقبهم المباركة الاجتهاد فى أمور التدين بما ينفع الناس فالحل المتاح لديهم هو الأخذ عن فتاوى السابقين وفرضها على عصرنا. واذا كان مستحيلا بعث الائمة الموتى من القبورليعيشوا عصرنا فانه ليس صعبا ان يرجعوا بنا وبعصرنا ــ عصر التقدم العلمى المذهل ــ الى عصور القرون الوسطى المظلم منها أوالمضىء حسب التساهيل.

فماذا اذا رفض الناس العودة للماضى وتمسكوا بحقهم فى أن يعيشوا عصرهم بفكر اسلامى جديد قائلين ان الاسلام صالح لكل زمان ومكان ؟ الجواب : نقدم لهم الماضى فى صورة وردية فقط ومحصنة باحاديث نبوية من انكرها او ناقشها كان كافرا.

فماذا اذا أصر بعض الناس على النقاش واكثروا من السؤال واقلقوا منا راحة البال ؟ الجواب : نسلط عليهم عذاب القبر ونطلق عليهم الثعبان الأقرع.

فماذا اذا خرج علينا ذلك الأزهرى المتمرد وكشف لعبة الثعبان الأقرع ؟ الجواب..

الجواب : اذا أردت الجواب فاقرأ هذا الموضوع من أوله ..

الرجم في الأحاديث ــ (الحلقة الأولى)

جاء في موطأ مالك رواية محمد بن الحسن الشيباني بتعليق وتحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف تحت عنوان باب الرجم ورقم 693 الحديث التالي: (اخبرنا مالك، حدثنا يحيى بن سعيد انه سمع سعيد بن المسيب يقول: لما صدر عمر بن الخطاب من منى أناخ بالابطح، ثم كوم كومة من بطحاء، ثم طرح عليها ثوبه، ثم استلقى ومد يده إلى السماء، فقال: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط، ثم قدم المدينة، فخطب الناس، فقال: يا أيها الناس: قد سننت لكم السنن وفرضت لكم الفرائض وتركتم على الواضحة، وصفق بإحدى يديه على الأخرى، ألا أن لا تضلوا بالناس يمينا وشمالا، ثم إياكم أن تهلكوا عن آية الرجم، أن يقول قائل: لا نجد حدين في كتاب الله، فقد رجم الرسول (ص) ورجمنا، وإني والذي نفسي بيده: لولا أن يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله لكتبتها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، فانا قد قرأناها، قال سعيد: فما انسلخ ذو الحجة حتى قتل عمر.!!) انتهى (ص 241 من موطأ مالك. ط 2. المكتبة العلمية).

لنناقش هذا الحديث في روايته وسنده.. وفي نصه ومتنه ومحتواه..

من حيث الرواة:
مالك بن أنس لم يكتب هذا الحديث، لأن مالكاً لم يكتب "الموطّأ"، ولكن مالكاً كان يروي الأحاديث ويسمعها منه تلاميذه، ثم يكتبونها. ولذا تعددت روايات "الموطّأ" حتى بلغت نحو عشرين نسخة مختلفة، ومنها نسخة أو رواية محمد بن الحسن الشيباني القاضي العباسي المتوفي سنة 189. أي بعد مالك بعشر سنين. ومنهج محمد بن الحسن الشيباني في كتابه "الموطّأ" أن يقول (أخبَرَنا مالك) ثم يذكر الرواة نقلا عن مالك، كما جاء في حديث الرجم (حدثنا مالك، حدثنا يحيى بن سعيد، انه سمع سعيد بن المسيب يقول..)

بمعني اخر فان محمد بن الحسن الشيباني يزعم أو يدعي أن مالك اخبره شفهيا بهذا الحديث بسنده ورواته، وأيضاً بنصه ولفظه.. ثم بعدها قام بتسجيل هذه الرواية الشفهية كتابةً، والله تعالى هو وحده الأعلم إذا كان مالك قد حدثه فعلا بذلك أم لا..

وبالتالي لابد أن يكون محمد بن حسن الشيباني صادقا وثقة حتي نصدقه في أن مالك قال تلك الأحاديث فعلا، ومنها حديث الرجم. فهل كان الشيباني يتمتع بالثقة والتصديق من علماء عصره؟ إن محقق كتاب "الموطّأ" برواية محمد بن الحسن الشيباني يدافع عن الشيباني، وهذا منتظر منه بالطبع. يقول (وكل ما وُجّه من الطعون في محمد بن الحسن (الشيباني) مردود. وقد طعن إبن معين والعجلي في الشافعي: بأنه ليس ثقة، وابن عدي في أبي حنيفة، وأبو زرعة في البخاري: لقوله بخلق القرآن. ويحي بن سعيد في إبراهيم بن سعد، والنسائي

في احمد بن صالح، واحمد بن صالح في حرملة، ومالك في بن إسحاق.. وما من عالم من العلماء إلا وقيل فيه شيء من ذلك.) (مقدمة "الموطّأ" ص 24).

ونكتفي بهذا الاعتراف في اتهام أئمة الحديث والفقه لبعضهم البعض، مما ينفي عنهم العصمة والتقديس التي أضافها عليهم المتأخرون في عصور التخلف. ويبقي علينا أن نناقش موضوعيا حديث الرجم في "الموطّأ" بعد أن عرفنا أن مالك لم يكتبه، وإنما رواه عنه الشيباني المتهم في صدقه، والذي يحتاج للدفاع عنه بحجة أن غيره من كبار الأئمة كانوا أيضا متهمين، مع أن الخطأ لا يبرر الخطأ..

نتابع *الإسناد* الذي يكتبه الشيباني يقول (أخبرنا مالك، حدثنا يحيى بن سعيد انه سمع سعيد بن المسيب يقول: لما صدر عمر بن الخطاب من منى.. الخ..). إذن، مالك اخبر الشيباني شفهيا بأنه سمع يحيى بن سعيد الذي توفّي بعد ذلك يقول أن سعيد بن المسيب، الذي توفي بعد مولد مالك بسنة واحدة، يقول كذا وكذا عن عمر بن الخطاب في خلافته أي قبيل وفاة عمر بعام. ولكن ليس صحيحا أن يروي سعيد بن المسيب حديثا عن عمر بن الخطاب، لأن سعيد بن المسيب كان عمره عامين حين قتل عمر بن الخطاب. فكيف روى طفل صغير حديثاً عن عمر؟ وهذا ما أشار إليه المؤرخ ابن سعد في "الطبقات الكبرى"، وهي اكبر و أقدم مصدر تاريخي لدينا. يقول ابن سعد في ترجمته الطويلة لسعيد بن المسيب (رُوُيَ انه سمع من عمر، ولم أرَ أهل العلم يصححون ذلك). ولذلك فان ابن سعد تجاهل حديث الرجم في ترجمته لسعيد بن المسيب ورواياته الفقهية، وقد بلغت نحو عشرين صفحة من القطع الكبير(الطبقات الكبرى 5/ 88: 106).

ثم أن سعيد بن المسيب بسبب اضطهاده من خلفاء عصره قد اشتهر بالاعتزال والابتعاد عن المشاكل. وقد رفض عقوبة السكران، إذ سئل عن السكران: هل يذهبون به الي السلطان – فقال: إن استطعت أن تستره بثوبك فافعل. ثم ما لبث أن جعلوا (حدّاً) للسكران ونسبوه إلى عمر بن الخطاب، بمثل ما فعلوا حدا للرجم ونسبوه أيضا الي عمر.. إذن، يستحيل ان يكون سعيد بن المسيب راوياً لهذا الحديث عن عمر..
بل أيضا يستحيل أن يقول عمر هذا الحديث، وهنا ندخل في مناقشة متن الحديث..

من حيث المتن:
1- يلفت النظر ان "الموطّأ" في رواية محمد بن الحسن الشيباني يحتوى على أحاديث مختلفة، منها المنسوب للنبي عليه السلام، ومنها المنسوب للصحابة (مثل حديث الرجم المنسوب لعمر) ومنها ما يسنده الشيباني إلى مالك، ومنها ما ينسبه الشيباني إلى غير مالك، ولذلك قالوا أن الشيباني سمع "الموطّأ" من مالك في ثلاث سنين، اكثر من سبعمائة حديث، هذا مع ان مجموع احاديث "الموطّأ" كلها (100) في رواية الشيباني. ومن الطبيعي ان تتناقض الاحاديث في المتن خلال الموضوع الواحد، ونكتفي هنا بمثال محدد وشديد الايحاء: تحت عنوان (باب الوضوء من مس الذكر) أي عورة الرجل. اتي الشيباني بـــ 18 حديثا.. بدأ بحديثين يؤكدان على ان مس الذكر ينقض الوضوء، ثم 16 حديثا بعدها تؤكد كلها ان مس الذكر لا ينقض الوضوء..!!

2- ومن ناحية احاديث الرجم بالذات نجد فيها نوعا من التناقض.. ففي الحديث الخاص بموضوعنا المروي عن عمر ينسبون فيه آية للرجم تقول (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة). ومعلوم ان مصطلح الشيخ والشيخة لا يفيد الإحصان او المحصن والمحصنة، فقد يصل الانسان إلى مرحلة الشيخوخة دون زواج او إحصان. وقد احس محمد بن الحسن الشيباني بهذا القصور في المعنى فاستدرك يقول، تعليقا على حديث آخر في رجم الزناة من اليهود (الحديث رقم 694)، (قال محمد: بهذا كله نأخذ، إيما رجل مسلم زنى بامرأة وقد تزوج قبل ذلك بامرأة حرة مسلمة وجامعها فعليه الرجم، وهذا هو المحصن، فان كان لم يجامعها ولم يدخل بها او كانت تحته أمة (جارية) او يهودية او نصرانية لم يكن بها محصنا ولم يُرجَم، وضُرِبَ مائة، وهذا كله قول ابي حنيفة والعامة من الفقهاء).

إن الشيباني (وهو تلميذ لأبي حنيفة واحد الشيخين في المذهب الحنفي) يضح تحديدا فقهيا وتصحيحا لحديث الرجم المروي عن عمر والذي يتضمن عبارة (الشيخ والشيخة اذا زنيا .. الخ). وبهذا التحديد والتصحيح يكون المحصن الزاني المستحق للرجم ليس هو مجرد الشيخ والشيخة ولكنه الذي تزوج بامرأة مسلمة حرة، فاذا تزوج بجارية او يهودية او نصرانية فليس متزوجا فقهيا كاملا او ليس محصنا، وبذلك ينجو من الرجم، وعليه فأنهم يعتبرون الزواج من الروسيات او الاوربيات (زواج نص ونص..!!) والمهم انها وجهات نظر لبعض الفقهاء وليست تشريعا إلهياً، بل تتناقض مع التشريع الالهي كما سنوضح فيما بعد..

3- وهناك ما هو اخطر في هذا الحديث: انه يتهم عمر بالترويج للاحاديث، ويتهم النبي عليه السلام بأنه ترك اية قرآنية لم يكتبها، ويزعم ان عمر هو الذي يسن السنن ويفرض الفرائض ويترك الناس على السنة الواضحة، وانه مثل النبي يخطب الناس حجة الوداع قبل موته ويوصيهم ولكن بحديث الرجم. ويقول ذلك في صورة دفاعية مسبقة تنبئ عن وجود جدل حول موضوع الرجم. لذلك جعلوا عمر في هذه الرواية يتصدي لمنكري حديث الرجم حتى لا يقول قائل لا نجد حدّين في كتاب الله... ثم يذكر العبارة الركيكة (الشيخ والشيخة اذا زنيا..) ويجعلها آيه قرآنية، كما لو ان الله تعالى لم يذكر في كتابه الكريم قبيل وفاة النبي واكتمال القرآن بآياته وسوره: (اليوم اكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا: المائدة 3). ثم لا تخلو الرواية من التناقض في قوله (لولا ان يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله لكتبتها). فكيف يعتبرها آية ثم يعتدها زيادة في كتاب الله يمتنع عن اضافتها إلى القرآن؟

4- ونحن نرد على هذا الحديث وغيره بما جاء في كتب التراث نفسها..
روي احمد ومسلم والدارمي والترمذي و النسائي عن ابي سعيد الخدري قول الرسول (لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، فمن كتب عني غير القرآن فليمحه). واخرج الدارمي –وهو شيخ البخاري- عن ابي سعيد الخدري انهم (استأذنوا النبي في ان يكتبوا عنه شيئا فلم يأذن لهم). والرواية عن ابي سعيد الخدري تقول: استأذنا النبي (ص) في الكتابة فلم يأذن لنا.

وروى مسلم واحمد ان زيد بن ثابت –احد مشاهير كتاب الوحي– دخل على معاوية فسأله عن حديث وأمر إنساناً ان يكتبه، فقال له زيد: (ان رسول الله امرنا الا نكتب شيئا من حديثه) ، فمحاه معاوية.

وقد وردت احاديث تفيد الإذن بالكتابة، مثل (اكتبوا لأبي شاه). وما ورد ان لابن عمرو بعض كتابات وادعية في الحديث. ولكن المحققين من علماء الحديث رجحوا الاحاديث التي نهت عن كتابة الحديث خصوصا وانه لا يعقل ان ينهي النبي عن شيء ثم يأمر بما يناقضه. ثم، وهذا هو الأهم، فأن النبي عندما مات لم يكن مع الصحابة من كتاب مدوّن غير القرآن الكريم مما يدل على طاعة الصحابة للنبي في عدم تدوين شيء غير القرآن.

وبعضهم حاول التوفيق والمواءمة بين الأحاديث التي تنهي عن كتابة غير القرآن وبين الاحاديث التي تفيد كتابة بعضهم بقوله بأن المراد حتى لا تلتبس الاحاديث بالقرآن. وهذه حجة لا تستقيم مع إعجاز القرآن الذي يعلو علي كلام البشر والذي تحدّى به الله تعالى العرب فعجزوا عن الاتيان بسورة من مثله. وذلك القرآن المعجز للعرب كيف يخشي احد عليه من ان يختلط به شئ اخر؟ ذلك القرآن المحدد بالسور والآيات المرقمة كيف يمكن ان يختلط به غيره وقد ضمن الله تعالي حفظه الي قيام الساعة ؟

ان الثابت ان الرسول لم يترك بعده سوى القرآن.
والبخاري يعترف بأن النبي ما ترك غير القرآن كتابا مدونا. يروي ابن رفيع: دخلت انا وشداد بن معقل علي ابن عباس، فقال له شداد بن معقل: أتَرَكَ النبي من شيء؟ قال ما ترك إلا ما بين الدفتين. أي القرآن في المصحف. قال (ودخلنا علي محمد بن الحنفية فسألناه، فقال (ما ترك الا ما بين الدفتين) [البخاري 6 / 234 . ط. دار الشعب].

ومما يؤكد ان النبي نهى عن كتابة غير القرآن ان الخلفاء الراشدين بعده ساروا على طريقه فنهوا عن كتابة الاحاديث وعن رواياتها..

فأبو بكر الصديق جمع الناس بعد وفاة النبي وقال: انكم تحدثون عن رسول الله احاديث تختلفون فيها والناس بعدكم اشد اختلافا، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئا، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه). وهذا ما يرويه الذهبي في "تذكرة الحفاظ". ويروي ابن عبد البر والبيهقي ان عمر الفاروق قال (اني كنت اريد ان اكتب السنن واني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبّوا عليها وتركوا كتاب الله. واني والله لا اشوب كتاب الله بشيء ابدا). وروايات البيهقي (لا ألبّس كتاب الله بشيء ابدا). وروى ابن عساكر (ما مات عمر بن الخطاب حتي بعث الي اصحاب رسول الله فجمعهم من الافاق.. فقال: ما هذه الاحاديث التي افشيتم عن رسول الله في الافاق؟ .. اقيموا عندي لا والله لا تفارقوني ما عشت.. فما فارقوه حتي مات). وروى الذهبي في تذكرة الحفاظ ان عمر بن الخطاب حبس ابا مسعود وابا الدرداء وابا مسعود الأنصاري، فقال: (اكثرتم الحديث عن رسول الله). وكان قد حبسهم في المدينة ثم اطلقهم عثمان .

وروى ابن عساكر ان عمر قال لابي هريرة: (لتتركن الحديث عن رسول الله او لألحقنك بأرض دوس- ارض بلاده- وقال لكعب الأحبار: لتتركن الحديث عن الاول – أي ابي هريرة – أو لالحقنك بأرض القردة) أي ارض اجداده من اليهود.

واكثر ابو هريرة من الحديث بعد وفاة عمر، اذ اصبح لا يخشى أحداً بعد موت عمر. وكان ابو هريرة يقول (اني احدثكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر لضربني بالدرة- وفي رواية لشج رأسي. ويروى الزهري ان ابا هريرة كان يقول: (ما كنا نستطيع ان نقول قال رسول الله حتي قبض عمر، ثم يقول ابو هريرة: فكنت محدثكم هذه الاحاديث وعمر حي؟ اما والله اذن لايقنت ان المخفقة – العصا – ستباشر ظهري، فإن عمر كان يقول (اشتغلوا بالقرآن ، فأن القرآن كلام الله). .
وقال رشيد رضا في المنار يعلق على ذلك (لو طال عُمرُ (عُمَر) حتي مات ابو هريرة لما وصلت الينا تلك الاحاديث الكثيرة). هذا هو موقف عمر من رواية الاحاديث في حياته، ثم نسبوا اليه بعد موته ذلك الحديث الذي يخالف شرع الله تعالى.

وعموما نكتفي بهذا الاثبات في ان النبي اتانا بالقرآن ونهانا عن غيره، وان كبار الصحابة ساروا على نهجه في التمسك بالقرآن وحده. حتي ان تدوين تلك الاحاديث المنسوبة للنبي لم يبدأ الا في القرن الثالث، بعد وفاة النبي بقرنين من الزمان. وكان "الموطّأ" اول تدوين منطم للاحاديث.

وهنا نتساءل: اذا كانت تلك الاحاديث جزءا من الاسلام كما يدعون، وقد نهي النبي عن كتابتها، اليس ذلك اتهاما للنبي عليه السلام بالتقصير في تبليغ رسالته ؟ وهل يعقل ان تكون الرسالة الاسلامية ناقصة وتظل هكذا الي ان يأتي الناس في عصر الفتن والاستبداد ليكملوا النقص المزعوم؟

إن الذي نعتقده ان النبي عليه السلام قد بلّغ الرسالة باكملها وهي القرآن ونهي عن كتابة غيره. اما تلك الاحاديث فهي تمثل واقع المسلمين وعقائدهم وثقافتهم وتمثل في النهاية الفجوة بين الاسلام وبين المسلمين، وحدّ الرجم احد معالم تلك الفجوة. وبدأ الموطأ تلك الاحاديث ، ثم بعد ذلك راجت احاديث أخرى للرجم في العراق والشام وغيرهما في القرن الثالث الهجري دونّها علماء الحديث مثل البخاري ومسلم، والتوقف معها بالنقد والتحليل لا يتسع له المجال .. ولكن كل تلك الاحاديث الخاصة بالرجم تتناقض مع تشريعات الاسلام في القرآن ..

ذلك ان النبي عليه السلام لم يعرف اسطورة رجم الزاني..

قراءة في احاديث الرجم

قبل الدخول في التفاصيل نضع ملاحظات سريعة:

ليس في القرآن من عقوبة للزنا غير الجلد، وليس في القرآن رجم الزاني، مع ان مصطلح الرجم ومشتقاته جاءت في القرآن في معرض تهديد المشركين للانبياء والمؤمنين (هود 91، مريم 46، الدخان 20، يس 18، الكهف 20، الشعراء 116).

مع اختراع عقوبة رجم الزاني في العصر العباسي الا انها لم تكن محل اتفاق. ويعترف فقهاء السنّة المعاصرون برفض المعتزلة والخوارج لعقوبة الرجم (سيد سابق: فقه السنة 2/ 347، موسوعة الفقه على المذاهب الاربعة 5/ 69 تأليف عبد الرحمن الجزيري).

لذلك كانت بعض روايات اهل الحديث والفقهاء عن الرجم موجهة لخصومهم في الفكر. وابلغ مثل على ذلك تلك الرواية في "الموطّأ"، والتي جعل فيها عمر بن الخطاب يخطب غاضبا يحذر من انكار حد الرجم. ومن الرواية قوله فيها (ثم اياكم ان تهلكوا عن آية الرجم، ان يقول قائل لا نجد حَدّين في كتاب الله، فقد رجم رسول الله (ص) ورجمنا). ومن سياق الرواية نعرف ان هناك من انكر عقوبة رجم الزاني اكتفاء بعقوبة الجلد المذكورة في الكتاب الحكيم.

ولم تنجح احاديث الموطأ بعد موت مالك سنة 197 هـ في اقناع المنكرين لحد الرجم مما حمل البخاري المتوفي سنة 256 هـ على ان يأتي برواية أخرى تقول ان احدهم سأل عبد الله بن ابي اوفي وهو من الصحابة المتأخرين (هل رجم رسول الله؟ قال: نعم، قلت: قبل سورة النور ام بعد؟ قال: لا ادري). وجاء مسلم بنفس الرواية في اسنادين مختلفين، والمستفاد من الرواية ان اصرار منكري الرجم على الاكتفاء بعقوبة الجلد للزاني المحصّن وغير المحصّن حملت رواة الحديث على صناعة تلك الرواية لتمنع التعارض بين عقوبتي الرجم والجلد .

ولأن عقوبة الرجم عقوبة وضعية او تشريع بشري لم يرد في القرآن وليس له اصل في الاسلام ولم يعرفه عصر النبوة ، فإن الظروف الاجتماعية والسياسية هي المسئولة عن ولادة هذا الحد ونشأته ولصقه بالاسلام عبر مرويات واقاصيص وحكايات لا تصمد للمنهج العلمي او النقد الموضوعي.

ونبدأ باعطاء لمحة سريعة عن الظروف الاجتماعية والسياسية التي نشأ وترعرع فيها حد الرجم.

<u>مدرستان متعارضتان : (اهل الفقه والحديث، واهل العقل)</u>

عرف المسلمون منذ القرن الثاني الهجري الخلاف بين المحافظين المتشددين والعقليين المتفتحين.. وتنامى هذا الخلاف من القرن الثالث الي ان انتهى بانتصار المحافظين في القرن الخامس الهجري ليدخل المسلمون مرحلة التقليد والجمود الي ان استيقظوا على مدافع نابليون حين كان شيوخ الازهر يستعينون على الفرنسيس بقراءة البخاري.

في البداية كانت مدرسة "المدينة" تمثل المحافظة والتقليد، وتعيش في استرجاع امجاد عصر النبوة والخلافة الرشيدة حين كانت "المدينة" العاصمة الاولي للمسلمين قبل ان تنتقل عنها الاضواء للشام والعراق. ودارت الحركة العلمية في المدينة حول سيرة النبي ومغازيه وتخصصت في الاحاديث دون الرأي، واعتمدت على اهل المدينة مصدرا من مصادر التشريع. ولأن الحياة الصحراوية تسير على وتيرة واحدة، فان التقليد يفرض نفسه. ولكن اضيف عامل سياسي هو رغبة الامويين ثم العباسيين الاوائل في شغل ابناء واحفاد المهاجرين والانصار عن السياسة حتي لا تعود ثورات الحسين وعبد الله بن الزبير ومحمد النفس الزكية واخيه ابراهيم. ولذلك تم اغراق المدينة بالجواري وشغل شبابها بالمتع الحسية. وما يرويه الاصفهاني في كتابه الاغاني دليل على حياة "المدينة" في القرن الثاني للهجرة. وفي مقابل المجون انشغل آخرون من الفقهاء بالتطرف في الانكار على الماجنين. وكان الطريق الامثل لذلك هو اختراع احاديث الرجم للزاني المحصن التي بدأ بها "الموطّأ" اقدم مصدر فقهي في تاريخ المسلمين.

وفي مقابل المدرسة المحافظة المتزمتة في المدينة اقام ابو حنيفة (ت 150 هــ) مدرسة الرأي في العراق، حيث جمع ابو حنيفة بين الفقه والفلسفة وعلم الكلام، وحيث رفض الاسانيد التي يخترعها اقرانه من فقهاء الحديث والتقليد. وبعد مقتل ابي حنيفة بالسم انقسمت مدرسته الي (1) (محافظين) كان منهم محمد الشيباني راوي الموطأ وابو يوسف، وكلاهما خدم قاضيا للدولة العباسية، وإلى (2) (متطرفين في استعمال الرأي الفقهي) الي درجة اختراع فقه الحيل، او التحايل علي الاحكام الشرعية بالآراء العقلية. ولكن بدخول الثقافات الاجنبية المترجمة الي العصر العباسي تأسست مدرسة جديدة للتجديد العقلي حاولت التوفيق بين الفلسفات اللاتينية ومدارسها في انطاكية والرها وجندياسبور والثقافة الاسلامية. واثمر هذا التلقيح عن بروز مدرسة المعتزلة او كما يسمون انفسهم اهل العدل والتوحيد. وأدّى ظهور هذه المدرسة العقلية الي توحيد الفقهاء جميعا في اتجاه واحد ضد هذه المدرسة العقلية الفكرية. ولذلك انتقل الاتجاه المحافظ الي المذهب الحنفي، وظهر الشافعي يمزج مدرستي الرأي والحديث معاً لصالح التقليد ومدرسة الحديث. وبتوالي القرون، صار التجديد الفقهي داخل المذهب الحنفي يجري في اطار تقعيد الثوابت الفقهية التي ارساها مالك من قبل، وهو زعيم المدرسة المحافظة. وابرز ما يعبر عن ذلك هو الفقيه الحنفي علاء الدين الكاساني ت 587 هــ، في كتابه الفقهي الضخم ("بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع")..

وبموت الشافعي سنة 204 كانت الفجوة قد اتسعت وتحكمت بين المدرسة العقلية التي اطلق عليها خصومها الفقهاء اسم (المعتزلة) وبين مدرسة الفقهاء والحديث التي اطلق عليها العقليون (الحشوية) أي الذين يحشون عقولهم بالنصوص دون تعقل او فهم. واغرم الخليفة المأمون بالمدرسة العقلية وناصرها في قضية خلق القرآن واضطهد من أجلها المدرسة الفقهية الحديثة المحافظة، وكان زعيمها في ذلك الوقت احمد بن حنبل والمؤرخ محمد بن سعد (ت 222 هــ) واستمر اضطهادهم طيلة عهد المعتصم ثم الواثق. ثم مات الخليفة الواثق فجأة سنة 232، اثر وصفة طبية خاطئة في علاج الضعف الجنسي. وكان الذي يسيطر على خلافته هو زعيم المعتزلة ابن الزيات الذي كان يضطهد ولي العهد الذي اصبح خليفته بسرعة تحت اسم المتوكل.

فانتقم من ابن الزيات وقتله بعد قصه هائلة من التعذيب، وتحالف المتوكل مع اهل الفقه والحديث الذين أصبحوا اصحاب السلطة في دولته، وبعد ان كان لقبهم "الحشويّة" اصبح لقبهم اهل السنة. وبتأثير نفوذهم اضطهد المتوكل المعتزلة والشيعة واهل الكتاب والصوفية (أي كل الطوائف الاخري) وتنوع الاضطهاد ليشمل القتل ومحاكمات التفتيش وهدم ضريح الحسين في كربلاء، والزام اهل الكتاب بلباس معين للتحقير. وصارت تلك السياسة سنة متبعة فيما بعد. اذ استمر نفوذ اهل السنة. وقد تأكد التقليد بظهور الامام الغزالي (ت 505) الذي وحّد بين الصوفية والفقهاء في مواجهة الفلاسفة والمدرسة العقلية.

وأدّى هذا الانتصار للمدرسة الفقهية المحافظة الي تقديس الائمة من هذه المدرسة واعتبار احاديثهم ورواياتهم جزءا من الدين لا يستطيع احد مناقشتها مهما كان فيها من تناقض مع القرآن او مع العقل او مع بعضها.
والدليل هو ما يحسه القارئ لما نكتبه في نقد مؤلفات تلك المدرسة المحافظة وتراثها الذي لا يزال مقدسا حتي الآن في القرن الحادي والعشرين الميلادي. ويكفينا اننا نجد عُسراً في اقناع القارئ بأكذوبة أحاديث الرجم مع وضوح تناقضها مع القرآن الكريم.

<u>منهجان مختلفان للمدرستين:</u>
لم تعوّل المدرسة العقلية المعتزلية كثيرا على روايات الاحاديث كما لم تركز علي الفقه، واخذت اساسيات التشريع من القرآن. لذلك كان رفضها لحد الرجم الذي لا يوجد في القرن الكريم. وكانت للمعتزلة معاركهم الفكرية الكبري مع المدرسة المحافظة في القضايا العقيدية الخاصة بالله تعالى والقضاء والقدر والسمعيات والميتافيزيقيات. ونكتفي بدليل على منهج هذه المدرسة بما ذكره الجاحظ، المتوفّي سنة 255 هـ؟، في "رسالة القيان" وهو يتحدث عن عدم تحريم النظر الي النساء يقول (وكل شيء لم يوجد محرما في كتاب الله تعالى وسُنّة رسوله () فمباح مطلق، وليس علىاستقباح الناس واستحسانهم قياس..). ثم استدل بأخبار الصحابة والخلفاء دون ان يذكر اسنادا. ولا ينسى اثناء حديثه ان يتندر بأصحاب الحديث او كما يسميهم الحشوية فيقول (وهذا الحديث وما قبله يبطلان ما روت الحشوية من ان النظر الاول حلال والثاني حرام).
وقد عاش البخاري في عصر الجاحظ. اذ توفي البخاري سنة 256 هـ. ومنهج البخاري –ومدرسة الفقه والحديث– هو في صناعة رواية واسنادها الي النبي الذي مات قبلهم بقرنين من الزمان، ويتم ذلك الاسناد عبر رواة ماتوا ايضا من قبل دون ان يعرفوا شيئا عما اسند اليهم البخاري من احاديثه ورواياته. و نعطي لذلك مثلا من احاديث الرجم، وهو احدي الاحاديث المختلفة عن رجم من اسموه بماعز. يقول البخاري (حدثني عبد الله بن محمد الجعفي، حدثنا وهيب بن جرير، حدثنا ابي قال: سمعت يعلي بن حكيم عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما اتي ماعز بن مالك النبي (ص) قال له: لعلك قبلت او غمزت او نظرت. قال: لا يا رسول الله. قال: إنكتها ؟ لا يكني، قال فعند ذلك امر برجمه). ونحن نعتذر اذ نضطر لذكر حديث البخاري بلفظه الذي يخدش الحياء، ونعتقد ان النبي عليه السلام لا يمكن ان يقول هذا القول الفاحش لأنه عليه السلام ما كان سبّاباً ولا فحاشا. ولكن ناخذ من الحديث دليلا على منهجية الاسناد لدي تلك المدرسة التقليدية. فالبخاري يكتب انه سمع شفهيا ذلك الحديث من عبد الله بن محمد الجعفي الذي كان يعيش في عصر البخاري.. وان ذلك

الجعفي كان قد سمع ذلك الحديث من وهيب بن جرير وهو من الجيل السابق علي جيل البخاري، ثم ان وهيب بن جرير قد سمع ذلك الحديث شفهيا من ابيه جرير الذي عاش في اواخر العصر الاموي مثلا، وابوه جرير يزعمون انه سمع ذلك الحديث شفهيا من عكرمة مولي ابن عباس، ويزعمون ان عكرمة سمعه من سيده ابن عباس، وابن عباس بزعمهم في هذه الرواية يقول انه شاهد وسمع هذه الواقعة وهو بجانب النبي عليه السلام. والمعلوم ان ابن عباس لم يرَ النبي ولم يسلم الا بعد فتح مكة، وبعدها رجع مع ابيه الي مكة ورجع النبي الي المدينة حيث توفّي. ولذلك يقول ابن القيّم الجوزية في كتابه "الوابل الصيب"، ص 77 (وهذا عبد الله بن عباس مقدار ما سمع من النبي لم يبلغ العشرين حديثا). وبغض النظر عن آلاف الروايات المنسوبة لابن عباس في كتب الحديث، فأن الاسناد الشفهي عبر رواة مختلفين في الزمان والمكان والظروف لا يستقيم مع المنهج العلمي. اذ كيف نصدق رواية واحدة تنتقل بدون تحريف او نسيان عبر عشرات السنين، وعبر عدة اجيال كل منهم يلقيها للاخر شفويا؟ ثم كيف نصدق عشرات ومئات الألوف من الروايات المتضاربة والمتناقضة والمنسوبة الي النبي بعد موته بقرون، وعبر اشخاص موتى لم يعلموا بما اسنده اليهم اللاحقون من روايات؟ ولكن المهم ان هذا الاسناد للنبي هو الجدار الذي احتمي به علماء الفقه والحديث ، والذي جعل لارائهم حصانة من النقد ، وهو الذي اضفي علي ارائهم قدسية ، وفي النهاية هو الذي جعلهم ينتصرون علي اصحاب المنهج العقلي الذين كانوا يسندون اراءهم الي انفسهم ولا يتمسحون بالنبي عليه السلام ولا يكذبون عنه.. ومن افظع الكذب على النبي عليه السلام ان تنسب اليه تشريعات تخالف القرآن الكريم. وفي نفس الوقت ينسبون اليه الفاحش من القول. مثل هذا الحديث السالف.

<u>التشكيك في القرآن:</u>

وبين سطور احاديث الرجم نلمح تشكيكات في القرآن عبر ما نسبوه لعمر (إيّاكم ان تهلكوا عن آية الرجم.. والذي نفسي بيده لولا ان يقول الناس زاد عمر بن الخطاب في كتاب الله لكتبتها: الشيخ والشيخة اذا زنيا الخ). ومعنى هذا ان في الكتاب آيات لم يكتبها ولم يبلغها النبي عليه السلام، وترك هذا لعمر؟!!!

ويأتي البخاري برواية اخري طويلة يتحدث فيها عن حد الرجم، وبين السطور ينسبون لعمر قوله (ثم إنّا كنا نقرأ من كتاب الله أن لا ترغبوا عن آبائكم فانه كفر بكم ان ترغبوا عن آبائكم.. الخ). ومعنى ذلك ان هناك آيات من القرآن لم تتم كتابتها واعلن عمر عنها فيما بعد..

<u>التناقض في الروايات:</u>

والتناقض سمة اساسية من سمات الاحاديث. ويظهر التناقض في احاديث الرجم على نوعين: تناقض جزئي في التفصيلات الخاصة بالرواية الواحدة، وتناقض اساسي بين الروايات المختلفة. ومن هذا النوع الاخير حديث جاء به البخاري عن احدهم اعترف للنبي بالزنا فاعرض عنه النبي الي ان حضر الصلاة فصلّى مع النبي، ثم قام للنبي ثانيا يعترف له ويطلب اقامة الحد عليه، فقال له النبي: اليس صليت معنا؟ قال نعم، قال :

فان الله غفر لك ذنبك..). أي ان الصلاة تغفر الذنب و تمحو عقوبة الرجم. وهذا ما يتناقض مع الاحاديث الاخري التي تنضح بدماء الضحايا من المرجومين حسب زعمهم.

وبينما تؤكد احاديث البخاري والشافعي ومالك علي ان المحصن عقوبته الرجم فقط، نجد مسلم يروي احاديث مكررة يؤكد فيها ان النبي قال (البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة، والثيب بالثيب جلد مائة، ثم والرجم ..) وعبارة (البكر بالبكر والثيب بالثيب) غير مفهومة. وقد تمت صياغتها على مثال تشريع القصاص (كتب عليكم القصاص في القتلى: الحر بالحر والعبد بالعبد والانثي بالانثي: البقرة 178) ولكن الخطورة في ذلك الحديث انه يجعل عقوبة الزاني المحصن مائة جلدة قبل ان يقتل رجما، وهذا ما يتناقض مع الاحاديث الأخرى.

تأثر اللاحقين بموطأ مالك في احاديث الرجم:

نقل الشافعي روايات مالك، واضاف رواية اخري ليست مذكورة في رواية الشيباني تفيد بأن عمر رجم في خلافته زوجة اعترفت بالزنا. وانتهى الشافعي الي ثبوت الرجم بالكتاب والسنة وفعل عمر، مع انه لم يذكر آية قرآنية ، وتحاشى ذكر الجملة المضحكة التي تقول (الشيخ والشيخة ، اذا زنيا فارجموها..)(الأم للشافعي 6 / 142 : 143). وجاء البخاري ايضا برواية تقول ان علي بن ابي طالب في خلافته رجم امرأة يوم الجمعة على ان ذلك سنة النبي. والواقع ان البخاري ومسلم اعتمدا اساسا "الموطأ" وقاما بالبناء عليه وتصحيح رواياته وزيادتها ..

لقد قام البخاري ومسلم بنقل بعض روايات "الموطأ" حرفيا مع اختلاف جزئي في الاسناد احيانا، مثل حديث ان رجلين اختصما الي النبي حيث زنى ابن احدهما بزوجة الآخر حين كان يعمل اجيرا لديه. وتقول الرواية ان النبي حكم بجلد الابن مائة جلدة وتغريبه عاما، وبرجم الزوجة بعد اعترافها. وهناك رواية اخري نقلها البخاري ومسلم عن "الموطأ". وهي مجئ اليهود للنبي ليحكم بينهم في رجل وامرأة زنيا وانهم اخفوا عن النبي حد الرجم الموجود في التوراة واحكامها. وقد كشف لعبتهم عبد الله بن سلام، وحكم النبي برجم الرجل والمرأة.. وهذه الرواية تتناقض مع القرآن، لأن الرجم ليس من تشريعات التوراة الحقيقية، حيث يقول تعالى عن التوراة واحكامها (وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس.. المائدة 45). أي لا يجوز قتل النفس الا قصاصا فقط، وعليه فلا يجوز قتل النفس بغير النفس.

وقام البخاري ومسلم بنقل بعض روايات الموطأ بعد تحسينها وتلخيصها او الزيادة عليها..
فالمعروف ان المؤرخ محمد بن سعد اعلن في كتابه (الطبقات الكبري) في ترجمة سعيد بن المسيب ان ابن المسيب لم يلقَ عمر بن الخطاب، حيث مات عمر وابن المسيب كان طفلا في الثانية من عمره. لذلك قام البخاري و مسلم بتلافي هذا الخطأ، اذ اسندا الرواية نفسها وروايات اخري اكثر تفصيلا ليس الي سعيد بن المسيب ولكن الي عبد الله بن عباس. و لكن لم يكن في ذلك تجديد او ابتكار. لأن مالك ذكر في بداية حديثه

عن الرجم اول رواية وهي الحديث رقم 692، واسندها الي ابن شهاب الي عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس وذكر قول عمر (الرجم في كتاب الله عز وجل، حق على من زني اذا احصن من الرجال والنساء، اذا قامت عليه البينة او كان الحمل او الاعتراف). ثم جاء مالك بعدها بحديث رقم 693 وهو الذي يحوي خطبة عمر المزعومة والتي يذكر فيها الجملة القائلة (الشيخ والشيخة اذا زنيا ..).

وجاء البخاري فاستعمل نفس الرواة والاسناد في الحديث رقم 692 للموطأ وذكر صيغته، ثم اضاف حديثا اخر مطولا فيه خطبة طويلة لعمر، بينما قام مسلم بتلخيص الحديثين (692، 693) من الموطأ في حديث واحد. وبنفس الاسناد لابن عباس.

وهناك رواية اخري في الرجم في "الموطأ" تحت رقم 692، وهي رواية ساقطة بكل المقاييس لأن مالك يرويها عن ابن شهاب (الزهري) الذي يروي الحديث بنفسه، مع ان ابن شهاب الزهري كان من التابعين ولم يرَ النبي عليه السلام ولم يدرك عصره. ومع ذلك نقرأ في "الموطأ" الآتي (اخبرنا مالك ، اخبرنا ابن شهاب ان رجلا اعترف على نفسه بالزنا علي عهد رسول الله (ص) وشهد على نفسه اربع شهادات، فأمر به فَحُدّ. قال ابن شهاب: فمن اجل ذلك يؤخذ المرء باعترافه على نفسه).

وجاء البخاري بعد مالك بنصف قرن فتلافى الخطأ وأصلح الاسناد. فقال: حدثني الليث حدثني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب عن ابن المسيب وابي سلمة ان أبا هريرة قال: اتي رسول الله (ص) رجل من الناس في المسجد فناداه يا رسول الله اني زنيت، يريد نفسه، فأعرض عنه النبي.. الخ إلى ان يقول (فلما شهد على نفسه اربع شهادات دعاه النبي وقال:أبك جنون؟ قال لا.. الي ان ينتهي الحديث برجم الرجل المجهول.. ثم تتوالى روايات اخري في نفس الموضوع بتفصيلات نعرف ان الرجل المجهول اسمه ماعز، وانه فر من الرجم ولكنهم طاردوه حتى قتلوه..

ثم يأتي مسلم بعد البخاري فيضيف تفصيلات اخري نعرف منها انه اسمه ماعز بن مالك من قبيلة اسلم وانه كان يتخلف عن الغزو ليزني مما جعل النبي يخطب غاضبا قائلا: فما بال اقوام اذا غزونا يتخلف احدهم عنا له نبيب كنبيب التيس، علي ان لا اوتي برجل فعل ذلك الا نكلت به) ويقول مسلم انه ما استغفر له. ثم تأتي رواية اخري تجعل النبي يستغفر لماعز وانه قال ان توبة ماعز تكفي أمة بأكملها– وهنا تناقض جزئي بين روايات مختلفة في موضوع محدد.

ونفس الحال مع حديث المرأة التي اعترفت بالزنا ورجموها بزعمهم ..

نجد البداية بسيطة في الحديث رقم 696 في موطأ مالك يرويه مالك عن يعقوب بن يزيد عن ابيه عن عبد الله بن ابي مليكة، ان امرأة اتت الي النبي فأخبرته انها زنت وهي حامل، فقال لها اذهبي حتي تضعي فلما

وضعت اتته فقال لها: اذهبي حتي ترضعيه، فلما ارضعته اتته فقال لها: "اذهبي ختي تستودعيه فاستودعته، ثم جاءته فأمر بها فأقيم عليها الحد.

هذه القصة الدرامية المحزنة أهملها البخاري، واحتفل بها مسلم فألحق قصتها بقصة ماعز في رواية طويلة مؤثرة ، ثم افرد لها رواية اخري، وأعطى مسلم تلك المرأة إسماً هو الغامدية، وفي رواية اخري قال انها من جهينة.

والقصة كفيلة بتشويه الاسلام وسيرة النبي عليه السلام ، فالقصة تقول ان المرأة جاءت للنبي تعترف بالزنا وتطلب منه ان يطهرها بالرجم، وتعبير التطهير بالموت مصطلح مسيحي ليس له اصل في الاسلام، واعترفت بأنها حبلي، فأمهلها النبي – فيما يزعمون – الي ان تلد، فلما ولدت جاءت بالصبي في اللفائف، فقال لها اذهبي فأرضعيه حتي يفطم ويأكل الطعام، ثم جاءت له بعد فطام الطفل، فأمر بالطفل فكفله رجل من المسلمين، ثم امر بحفر حفرة لها الي صدرها، وامر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى به رأسها فتطايرت دماؤها علي وجه خالد فشتمها خالد، فقال النبي "انها تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له".

هذه القصة المؤلمة حيكت خصيصا للاجابة علي سؤال فقهي هو اذا كان حد الزنا هو الرجم، أي الموت، وليس الجلد كما في القرآن، فكيف اذا كانت الزانية المحصنة حاملا من هذا الزنا او من قبله؟ وهل يحكم عليها وعلى مولودها بالموت؟ لذلك جاءت الفتوي في هذا الحديث بإمهال المرأة الي ان تضع وليدها وتفطمه، وكأنهم بذلك قد اراحوا ضمائرهم حين يكفل الطفل آخرون بعد اعدام امه في تشريع ليس له اصل في القرآن او في الاسلام، ولم يعرفه الرسول عليه السلام.

وفي تفصيلات قصة الغامدية التي هشم خالد بن الوليد رأسها بحجر ثم شتمها، يروي صانع القصة ان النبي قال لخالد وهو يعاتبه –فيما يزعمون– " لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ". وصاحب المكس هو من يجمع الضرائب عند المنافذ التجارية. أو بتعبير عصرنا هو رجل الجمارك. وقد ورد هذا المصطلح في الانجيل مقترنا بالظلم "المكاسون" او "العشارون". وهو مصطلح ساد في الشام قبل الاسلام وبعد الفتوحات الاسلامية، حيث اقتضت الظروف السياسية و الاقتصادية وجود موظفي الجمارك. وهو ما لم تعرفه الجزيرة العربية مطلقا قبل الاسلام او في عهد النبي عليه السلام، ولم تعرفه اللغة العربية حينئذ، وليس من مصطلحات القرآن، مع احتواء القرآن علي الفاظ غير عربية، أي ان هذا الحديث قد تم اختراعه في عصر الخلفاء غير الراشدين، حيث عم الظلم واصبح صاحب المكس ممثلا لظلم الدولة. ويستحق ان يتطهر بالقتل، مثل بطلة " فيلم " " الغامدية"...!!!؟؟

الرجم في الأحاديث ــ (الحلقة الثانية)

التطبيق التاريخي لحد الرجم:

ولكن ظلت هذه الروايات مجرد اقاصيص مؤلمة، اذ لم نجد في روايات التاريخ العباسي الموثقة ما يؤكد تطبيقها.. ولنأخذ علي ذلك مثلا بتاريخ المنتظم للمؤرخ الحنبلي الفقيه المحدث ابن الجوزي..هذا وقد راجعنا أجزاءه كلها (18 جزءا) فلم نجد فيه حادثة واحدة تفيد تطبيق حد الرجم.. مع عنايته الفائقة بالتفصيلات الفقهية التاريخية واحتفاله باخبار الفقهاء والمحدثين والوقائع الشرعية، اللهم الا حادثة يتيمة تعتبر دليلا لنا. وهي ان يهوديا زني بمسلمة مفهوم انها مُحصّنة، وكان اليهودي يعمل كاتبا لاحد اصحاب النفوذ واسمه ابن خلف. فقام صاحب الشرطة بضرب اليهودي عقابا له. فغضب ابن خلف وضرب صاحب الشرطة بحضور اليهود في يوم جمعة، فاشتدت ثورة الناس على ما حدث. وكان ذلك في بغداد سنة 336 ("المنتظم" 13 / 374) ولو كان هناك تطبيق لحد الرجم لأصاب اليهودي والمرأة.

وفيما عدا ذلك نتعرف علي تفصيلات كثيرة من "المنتظم عن محنة ابن حنبل وصحبه في موضوع خلق القرآن، وابتداء نفوذ الفقهاء والمحدثين منذ عصر المتوكل الذي اضطهد خصوم الفقهاء ("المنتظم جــ 11). وعلى النقيض من ذلك نجد تطبيقا لحد الردة، وهو حدّ مُختَرَع أيضاً، ولكن تم تنفيذه لظروف سياسية. وكان ذلك تعبيرا عن تأثر السلطة العباسية بنفوذ الفقهاء. فقد قتلوا أحد الشيعة لأنه يدعو الي مذهبه، وقال قبل ان يقتلوه: كيف تقتلوني وأنا اقول لا اله الا الله ("المنتظم" 17 / 39), وقتلوا ابن فقعس لأنه يشتم السلف وكان ذلك في رمضان 258 ("المنتظم" 12/136) . ولذلك يقول ابن الجوزي عن آخر شيوخ المعتزلة في القرن الخامس الهجري، وهو ابو يوسف القزويني (ت 488) أنه احد شيوخ المعتزلة المجاهرين بالمذهب الدعاة له، له تفسير القرآن في سبعمائة مجلد، وكان يفتخر ويقول: انا معتزلي وكان هذا جهلا منه لأنه يخاطر بدمه في مذهب لا يساوي " ("المنتظم" 17/ 21−) وذلك دليل علي اضطهاد المعتزلة وقتها. والمستفاد من ذلك ان الفقهاء في عصر سطوتهم ركّزوا علي تطبيق حد الردة المزعوم في اضطهاد خصومهم الصوفية والشيعة والمعتزلة، دون اهتمام بتطبيق حد الرجم.. وظل هذا ساريا الي أن ظهر محمد بن عبد الوهاب في نجد والتجأ الي العينية وحاكمها عثمان بن معمر. وفي حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري، قام ابن عبد الوهاب برجم امرأة اعترفت له بالزنا وارادت ان تتطهر طبقا لاسطورة الغامدية.. وبرجم هذه المرأة شاعت سطوة ابن عبد الوهاب في نجد ودخل في دعوته كثيرون..

ولذلك فان التيار السلفي الوهابي في عصرنا البائس يضع نصب عينيه تطبيق الحدود .. الحدود الزائفة مثل الرجم والردة...

واذا عرف السبب بطل – يا صديقي – العجب ..

ويبقى السؤال الاخير.. اذا لم يكن تشريع الاسلام وهو مصدر حدّ الرجم فمن اين جاء؟
هنا ننقل عن البخاري من "باب المناقب" حديثاً رقم 3560 يقول "حدثنا نعيم بن حماد حدثنا هشيم عن حصين عن عمرو بن ميمون قال: رأيت في الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم".

أي ان مجتمع القرود في الجاهلية سبق العصر العباسي في تطبيق حد الرجم ..
مساء الفل !!!!

احاديث الرجم في كتب اخرى غير "الموطأ"

حكي مالك قصة اخري رواها ابن شهاب الزهري: أن رجلين اختصما للنبي، وقد زنى احدهما بزوجة الاخر. وقد حكم النبي – وفقا لهذه الرواية – بأن يجلد الابن مائة جلدة مع تغريمه عاما ، وان ترجم زوجة الرجل الاخر اذا اعترفت بالزنا.

ونقل الشافعي هذه الروايات عن مالك، واضاف عن مالك رواية اخري – ليست مذكورة اصلا في "الموطأ" – تفيد بأن عمر في خلافته امر برجم زوجة اعترفت بالزنا، وانتهى الشافعي الي ثبوت الرجم بكتاب الله وسنة رسوله وفعل عمر، مع انه لم يذكر آية قرآنية، وتحاشي ذكر الجملة المضحكة التي تقول (الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة) .

وفي باب (رجم المحصن) ذكر البخاري احاديث جديدة لم تذكر من قبل، بعضها نسب لعلي بن ابي طالب في خلافته القيام برجم امرأة علي ان ذلك سنة النبي، وحديث اخر عبارة عن سؤال الي احد متأخري الصحابة وهو عبد الله بن ابي اوفي، اذ قيل له: هل رجم الرسول قبل سورة النور ام بعدها؟ فقال: لا ادري. وهو حديث ينم عن جدل أثير حول افتتاحية سورة النور التي تؤكد علي ان الجلد لا الرجم هو عقوبة الزانية والزاني. وتدل على الشك في حكم الرجم بسبب ما جاء في سورة النور. وأحاديث اخري تفيد وقوع عقوبة الجلد لا الرجم علي رجل من قبيلة اسلم وآخر مجهول. وحديث (ماعز) الذي حقق معه النبي – فيما يزعمون – في كيفية ارتكابه الزنا، وقال له: لعلك قبلت او غمزت او نظرت، فقال لا، فقال له النبي – فيما يزعمون كذبا – عبارة بذيئة لا نستطيع كتابتها، وامر برجمه. وذكر البخاري صيغة اخري لحديث سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب الذي تعرضنا له، ولكنه نسب هذه الرواية المطولة لابن عباس.

أما مسلم في أحاديثه، فقد كرر احاديث البخاري في الزنا والرجم مع زيادة في التفصيلات – وهو عموما اكثر تفصيلا وتنظيما من البخاري. وقد اضاف مسلم قصة في رجم امرأة قال مرة انها الغامدية، ومرة اخري انها من جهينة. والقصة كفيلة بتشويه الاسلام وسيرة النبي عليه السلام. فالقصة تقول ان المرأة جاءت للنبي تعترف بالزنا وتطلب منه ان يطهرها بالرجم، وتعبير التطهير بالموت مصطلح مسيحي ليس له اصل في الاسلام، واعترفت بأنها حبلي، فأمهلها النبي – فيما يزعمون – الي ان تلد، فلما ولدت جاءت بالصبي في

اللفائف، فقال لها اذهبي فأرضعيه حتي يفطم ويأكل الطعام، ثم جاءت له بعد فطام الطفل، فأمر بالطفل فكفله رجل من المسلمين، ثم امر بحفر حفرة لها الي صدرها، وامر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمي به رأسها فتطايرت دماؤها علي وجه خالد فشتمها خالد ، فقال النبي "انها تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له".

هذه القصة المؤلمة حيكت خصيصا للاجابة علي سؤال فقهي، هو اذا كان حد الزنا هو الرجم، أي الموت، وليس الجلد كما في القرآن، فكيف اذا كانت الزانية المحصنة حاملا من هذا الزنا او من قبله؟ وهل يحكم عليها وعلي مولودها بالموت؟ لذلك جاءت الفتوي في هذا الحديث بإمهال المرأة الي ان تضع وليدها وتفطمه، وكأنهم بذلك قد أراحوا ضمائرهم حين يكفل الطفل آخرون بعد اعدام امه في تشريع ليس له اصل في القرآن او في الاسلام، ولم يعرفه الرسول عليه السلام.

وقد بدأ مالك بتدوين اصل هذه الحكاية قائلا ان امرأة اعترفت للنبي بالزنا وانها حامل من هذا الزنا، فامرها ان تاتي اليه بعد ارضاعه، ثم بعد ان تستودعه عند من يقوم برعايته، ثم جاءته فأقام عليها الحد، والمفهوم انه حد الرجم، وان لم يذكر انه الرجم. ثم اشعلت هذه الرواية خيال المؤلفين بعد مالك، حين تكاثرت قصص الروايات عن رجم رجال ونساء، كان من بينهم من اسموه ماعز ومن اسموها الغامدية. وأطال مسلم في حديث ماعز فوق ما ذكره البخاري، واضاف اليه ان الغامدية صممت علي ان يطهرها النبي بالرجم، وذكر القصة التي ذكرناها، ثم اضاف معظم القصة الي امرأة اخري من جهينة..

وفي تفصيلات قصة الغامدية التي هشم خالد بن الوليد رأسها بحجر ثم شتمها، يروي صانع القصة ان النبي قال لخالد وهو يعاتبه – فيما يزعمون – " لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له " .وصاحب المكس هو من يجمع الضرائب عند المنافذ التجارية. او بتعبير عصرنا هو رجل الجمارك .

وقد ورد هذا المصطلح في الانجيل مقترنا بالظلم "المكاسون" او "العشارون". وهو مصطلح ساد في الشام قبل الاسلام، وبعد الفتوحات الاسلامية. حيث اقتضت الظروف السياسية والاقتصادية وجود موظفي الجمارك. وهو مالم تعرفه الجزيرة العربية مطلقا قبل الاسلام او في عهد النبي عليه السلام، ولم تعرفه اللغة العربية حينئذ، وليس من مصطلحات القرآن ، مع احتواء القرآن علي الفاظ غير عربية، أي ان هذا الحديث قد تم اختراعه في عصر الخلفاء غير الراشدين، حيث عم الظلم واصبح صاحب المكس ممثلا لظلم الدولة. ويستحق ان يتطهر بالقتل، مثل بطلة " فيلم " " الغامدية "...!!!؟؟

واخذت هذه القصص والروايات سبيلها للتدوين في كتب الاحاديث اللاحقة لتصبح احد معالم التشريع للمسلمين، خصوصا وقد احتفل بها الوعاظ والقصاص مع الفقهاء، واصبح الجميع يرددونها علي انها "حق". ويؤكد هذا "الحق" التطبيق العملي الذي راح ضحيته رجال ونساء تم قتلهم بتشريع ما نزل الله به من سلطان. وندخل بذلك على الحق القرآني الذي ينفي عقوبة الرجم، او ما يسمى بحق الرجم.

أكذوبة الرجم الغت تشريعات القرآن في عقوبة الزنا

عقوبة الرجم للزاني والزانية لم تأت في القرآن، وان كانت قد جاءت في التوراة الموجودة لدينا. وتأثر المسلمون بذلك فأضافوا عقوبة الرجم لجريمة الزنا في حالة الاحصان او الزواج، وقد انشغل الفقهاء بأحاديث الرجم التي الغت التشريعات القرآنية الخاصة بعقوبة الزنا، بحيث اصبحت تلك التفصيلات القرآنية مجهولة.

وقد جاءت عقوبة الزنا في القرآن علي النحو التالي:
الزانية والزاني اذا ضبطا في حالة تلبس، فالعقوبة مائة جلدة امام الناس. بذلك بدأت سورة النور بافتتاحية فريدة ترد مقدما علي اولئك الذين يتجاهلون وضوح القرآن وبيان تشريعاته. يقول تعالي في تلك الافتتاحية الفريدة { سورة انزلناها وفرضناها وانزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون}. وبعدها قال تعالي مباشرة { الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين}.

ومن الصعب اثبات حالة التلبس في جريمة الزنا، ومن الصعب ايضا ان يحدث إقرار بالوقوع في الزنا ينتج عنه عقوبة الجلد. ولكن من السهل ان يشاع عن امرأة ما بأنها سيئة السلوك، وتتكاثر الشواهد علي سوء سمعتها. وحينئذ لابد من عقاب مناسب بعد الإشهاد عليها بأربعة شهود بأنها من اللاتي (يأتين الفاحشة) ولكن لم يتم ضبطها. وذلك العقاب ليس الجلد، وانما هو عقاب سلبي. يكون بمنعها عن الناس ومنع الناس عنها الي ان تموت او تتزوج وتتوب، يقول تعالي (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتي يتوفّاهُنّ الموت او يجعل الله لهن سبيلا) النساء 15. وبمجرد اعلان توبتها، يطلق سراحها او تتزوج، فقد تخلصت من وصف اللاتي يأتين الفاحشة.

وجاءت تفصيلات القرآن بعقوبة الجارية المملوكة، اذا وقعت في الزنا. فإن كانت الجارية تحت سيطرة سيدها او يجبرها علي ممارسة البغاء فليس عليها عقوبة، اذ انها لا تملك حرية الاختيار. يقول تعالي (ولا تكرهوا فتياتكم علي البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا، ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) النور 33.

واذا تزوجت الجارية وتحررت من سيطرة مالكها ووقعت في جريمة الزنا فعقوبتها خمسون جلدة أي نصف ما علي المتزوجات الحرائر اذا وقعن في الزنا، (فإذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما علي المحصنات من العذاب) النساء 25.

وقد تكون الزانية زوجة مطلقة لا تزال في فترة العدة، ومن حق المطلقة في فترة العدة ان تظل في بيت الزوجية، ولكن تفقد هذا الحق اذا وقعت في الزنا، وحينئذ يكون من حق زوجها ان يطردها، ولكن بشرط ان تكون جريمة الزنا مثبتة حتي لا يتاح لزوجها ان يتجنى عليها بالباطل. يقول تعالي عن تلك الزوجة المطلقة (لا تخرجوهن من بيوتهن، ولا يخرجن الا ان يأتين بفاحشة مبينة، وتلك حدود الله) الطلاق 1.

والقرآن يصف الفاحشة بأنها (فاحشة مبينة) أي مثبتة، ضمانا لعدم الافتراء بلا دليل.. وعقوبة الطرد هنا تضاف الي العقوبة الاخري، وهي مائة جلدة.

وهناك عقوبة اخري لتلك الزوجة المطلقة اذا وقعت في الزنا بعد اتمام الطلاق، وهي انه من حق الزوج ان يمنعها عن الزواج الي ان تدفع له بعض ما اعطاه لها في الصداق او المؤخر. والشرط ان تكون جريمة الزنا في حقها مثبتة بالدليل. يقول تعالي (يا ايها الذين امنوا لا يحل لكم ان ترثوا النساء كرها، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن الا ان يأتين بفاحشة مبينة) النساء 19. والعضل هو منع المرأة من الزواج.
والقرآن يحرم العضل الا في حالة المطلقة الزانية.. فيجعل من حق الزوج ان يمنعها من الزواج الا بعد ان تعيد له بعض ما دفعه اليها من مهر.

وفي كل الاحوال فالمرأة الزانية أي التي لا تتوب عن الزنا لا يتزوجها المؤمن، وتلك عقوبة اخرى اضافية. يقول الله تعالي (الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة، والزانية لا ينكحها الا زانٍ او مشرك، وحُرّم ذلك علي المؤمنين)النور 3.

وتأبى تفصيلات القرآن إلا ان تضع عقوبة للزنا في حالة استثنائية ومستبعدة، وهي افتراض وقوع نساء النبي أمهات المؤمنين في تلك الجريمة. وهنا تكون العقوبة مائتي جلدة في تلك الجريمة، أي ضعف ما علي النساء الحرائر، وفي المقابل فلهن في عمل الصالحات ضعف ما علي المحسنات. يقول تعالي (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين، وكان ذلك علي الله يسيرا، ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما) الاحزاب 30، 31.

ولأن العقوبة هنا مضاعفة فلا بد من كون الجريمة مثبتة، او بالتعبير القرآني (من يأت منكن بفاحشة مبينة) فالأمر هنا يخص نساء النبي أمهات المؤمنين، وهو امر فظيع هائل لا بد من التثبت فيه.

والتشريع القرآني المحكم يصف عقوبة الزنا –التي هي الجلد– بأنها (عذاب)، والعذاب يعني ان يظل الجاني حيا بعده لا يموت بسببه. وبتعبير آخر، لا محل هنا لعقوبة الرجم التي تعني الموت.
والقرآن حين تحدث عن عقوبة الزنا قال (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة) ، لم يقل الزاني المحصن والزانية المحصنة او غير المحصنة، وانما جاء بالوصف مطلقا (الزانية والزاني) وقدم الزانية علي الزاني لأن المرأة هي العامل الاكثر تأثيرا في تلك الجريمة. بينما قال عن السرقة (والسارق والسارقة فاقطعوا) لأن الرجل هو الاساس والعنصر الغالب في جريمة السرقة.

والمهم ان عقوبة الزنا مطلقا هي الجلد لا الرجم (فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) اذن فالجلد هو العذاب.

وفي حالة الجارية التي تزني بعد زواجها قال تعالي: (فاذا أحصنّ فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما علي المحصنات من عذاب) أي خمسون جلدة. أي انه وصف عقوبة الجلد للجارية بأنها عذاب.. والقائلون بأن التي تتحصن بالزواج ثم تزني تعاقب بالرجم كيف يفعلون مع قوله تعالي (فعليهن نصف ما علي المحصنات من العذاب) هل يمكن تنصيف الرجم؟ وهل هناك نصف موت؟

وفي حالة نساء النبي يقول التشريع القرآني (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين). فوصف عقوبة لجلد بأنه (عذاب) قدره مائتا جلدة. والقائلون بأن عقوبة المتزوجة هي الرجم، كيف يحكمون بمضاعفة الرجم لنفس الشخص؟ وهل يموت الشخص مرتين؟ هل يقتلونه بالرجم مرتين؟

والرجل اذا عجز عن اثبات حالة التلبس بالزنا علي زوجته ولم يستطيع احضار الشهود فيمكن ان يشهد بنفسه امام القاضي انها زانية اربع مرات، ويؤكد شهادته الخامسة بأن يستجلب لعنة الله عليه ان كان كاذبا، وتلك حالة اللعان. ويمكن للزوجة المتهمة ان تدفع عن نفسها عذاب الجلد بأن تشهد اربع شهادات بالله بأن زوجها كاذب في اتهامها، ثم تؤكد في شهادتها الخامسة بان تستجلب غضب الله عليها ان كان زوجها صادقا في اتهامه لها. يقول الله تعالي (والذين يرمون ازواجهم ولم يكن لهم شهداء الا انفسهم فشهادة احدهم اربع شهادات بالله انه لمن الصادقين، والخامسة ان لعنت الله عليه ان كان من الكاذبين، ويدرأ عنها العذاب أن تشهد اربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين، والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين) النور 6 : 9.

ويهمنا هنا ان الله تعالي وصف عقوبة الزنا بأنها عذاب. فقال (ويدرأ عنها العذاب) وهو نفس الوصف الذي سبق لعقوبة الجلد.. اذن عقوبة الزنية المتزوجة هي الجلد وليس الرجم.

ثم ان تشريعات القرآن في الآيات السابقة تعامل المرأة الزانية علي انها تظل حية بعد اتهامها بالزنا واقامة عقوبة الجلد عليها، وكذلك الزاني. فالقرآن الكريم يحرّم تزويج الزاني او تزويج الزانية من الشرفاء. فلا يصح لمؤمن شريف ان يتزوج زانية مدمنة للزنا، ولا يصح لمؤمنة شريفة ان تتزوج رجلا مدمنا علي الزنا (الزاني لا ينكح الا زانية او مشركة والزانية لا ينكحها الا زان او مشرك وحرم ذلك علي المؤمنين) النور : 3. ولو كان مصير الزاني او الزانية هو الرجم موتا لما كان هناك تفصيل في تشريعات حياته طالما هو محكوم عليه بالموت. ونفس الحال في إضافة عقوبات للمطلقة الزانية باخراجها من البيت ومنعها عن الزواج حتي تدفع بعض المهر، واذا كان هناك عقوبة الرجم علي تلك الزانية المحصنة لما كان هناك داع لتشريع يمنعها من الزواج ثانية، أو يسمح بطردها من البيت في فترة العدة.

وأكثر من ذلك ..

فالله تعالي يتوعد الزناة بمضاعفة العذاب والخلود فيه يوم القيامة اذا ماتوا علي اصرارهم علي الزنا، الا من تاب وآمن وعمل صالحا، فاولئك يبدل الله تعالي سيئاتهم حسنات (يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه

مهانا، الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما) الفرقان : 69 ، 70. فاذا كان مصير الزاني هو الرجم فلن تكون له فرصة للتوبة والايمان والعمل الصالح الذي تتبدل به سيئات الزنا الي حسنات. بحيث تخفي عنه صفة الزاني ليحل محلها وصف الصالح عند الله تعالي ... ذلك ان الزاني صفة وكذلك الزانية، وهذه الصفة تلحق بمن اشتهر بالزنا ولم يستطيع الاقلاع عنه. فأن اقلع عنه وتاب سقطت عنه تلك الصفة ولحقت به صفة اخري هي التائب أو الصالح، وذلك عند الله تعالي.

ومع هذا البيان الواضح في تشريعات القرآن، فان احاديث الرجم والانشغال بها اضاعت تشريعات القرآن فيما يخص تفصيلات العقوبة في الزنا، او بتعبيرهم "نسختها" وابطلت حكمها. ومع ان عقوبة الرجم لم ترد في القرآن ومع ان العقوبة الواردة في جريمة الزنا تؤكد علي الجلد فقطن الا ان اقتناع المسلمين بأكذوبة الرجم جعلته الاساس التشريعي السائد حتي الان في كتب التراث وفي تطبيق الشريعة لدي بعض الدول (الاسلامية). **ويكفينا في التدليل علي عمق التأثر بذلك التشريع المخالف للقرآن ان القارئ لنا الآن يدهش اشد الدهشة حين يكتشف ان الرجم ليس من تشريع القرآن والاسلام**.. ويكفينا في عمق التأثر بذلك التشريع المخالف للقرآن انه علي اساسه قتل الالاف رجما و ربما سيقتل مثلهم في المستقبل، وذلك بحكم ما انزل الله تعالي به من سلطان، ويقول تعالي (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق) الانعام 151، الاسراء 33. ويقول (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاما) الفرقان 68. فلا يجوز قتل النفس الاسلامية الا بالقصاص فقط وهذا هو الحق القرآني..

ان من اعظم الحرمات حرمة النفس البشرية وحقها في الحياة.. ومن اعظم الجرائم ان تقتل تلك النفس الزكية بغير حكم انزله الله تعالي الذي حلق النفس والذي انزل الشرع.

واعظم الجرائم علي الاطلاق ان تفتري تشريعا بقتل النفس الزكية، ثم تنسبه الي الله تعالي ورسوله (فمن اظلم ممن افتري علي الله كذبا او كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون، ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله، قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض، سبحانه وتعالي عما يشركون) يونس 17. وحقا ما افظع الافتراء علي الله تعالي ورسوله في التشريع في الحدود التي يقتلون فيها البشر خارج القصاص وفي العقائد (اتخاذ شفعاء من دون الله، مع ان الله وحده هو الشفيع وهو الولي وهو النصير) .

الإسناد في الحديث ــ (الحلقة الأولى)

في عصر الخليفة المأمون كان الشاعرالعتابي يسير في شوارع بغداد، فدخل السوق وهو يأكل الطعام، وكان ذلك يخالف المروءة أو"الإتيكيت" لدى أرباب الطبقة العليا، ولذلك احتج عليه صديقه قائلا "أتأكل الطعام في السوق ويراك الناس؟" فقال له العتابي ساخرا: "وهل أولئك ناس؟ إنهم بقر"، فاحتج صديق العتابي وزمجر، فقال له العتابي: "سأريك إن كانوا ناسا أم بقرا". ثم صعد إلى الربوة ونادى في الناس "يا قوم هلموا أحدثكم عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فتدافع إليه الناس واجتمعوا حوله، واقبل يحدثهم يقول: روى فلان عن فلان عن فلان أن رسول الله.(صلى الله عليه وسلم) قال. وظل يخرج من حديث إلى أخر وقد تعلقت به العقول والقلوب والعيون، وسيطر على المستمعين، إذا حرك يده يمينا تحركت رؤوسهم يمينا، واذا أومأ برأسه يسارا التفتوا يسارا، إلى أن قال لهم ...وروى غير واحد (اى أكثر من واحد) أنه صلى الله عليه وسلم قال: إذا بلغ لسان احدكم ارنبة انفه دخل الجنة)) وسكت...فإذا بكل واحد من المستمعين يخرج لسانه يحاول أن يصل به إلىٍ انفه، وأصبح منظرهم جميعا مضحكا، فالتفت العتابي إلى صديقه ساخرا وقال: ألم اقل لك إنهم بقر؟

ما الذي جعل عقول أولئك الناس تغيب حتى تتدلى ألسنتهم وهم سكارى غائبون عن الوعي؟ انه التصديق، التصديق والإيمان بأن ما يقوله العتابي قد قاله النبي (صلى الله عليه وسلم) فعلا. وما الذي جعلهم يؤمنون ويصدقون بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد قال ذلك الكلام...انه الإسناد أي أسند أو نسب ذلك الكلام للنبي (صلى الله عليه وسلم) عبر العنعنة أي قال حدثني فلان عن فلان عن فلان...الخ.. إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال. وهذا معنى الإسناد، وهذه هي خطورته على العقل.

تغييب العقل

حسنا...دعنا نتخيل أن العتابي يسير الآن في الشوارع القاهرة ويركب المواصلات. ويرى شيخا يصعد الاتوبيس يدعو المسلمين للتبرع لإنشاء المسجد الفلاني ويستشهد بحديث ((من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصرا في الجنة)) ويرى العتابي كيف يسارع الناس الطيبون بالتبرع حتى يضمن كل منهم لنفسه قصرا في الجنة! هل تريد أن تتوقع تعليق العتابي؟ إذن استحضر عقلك ولا تعطه إجازة، وتفكر في معنى ذلك الحديث المنسوب كذبا للنبي عليه الصلاة والسلام..انه يؤكد على أن كل من بنى لله مسجدا بنى الله تعالى له قصرا في الجنة، مهما كان الشخص مؤمنا أو كافرا، ومهما كان مصدر المال طيبا أو خبيثا، يعنى أن السيد هتلر من حقه أن يكون له قصور في الجنة إذا بنى بضعة مساجد، ويعنى أيضا أن كل مختلس وظالم وناهب لأموال الناس يستطيع إذا بنى ببعض أمواله الحرام مسجدا أن يدخل الجنة. هل يتفق ذلك مع تشريع الإسلام؟

ثم إن الحديث الذي يبيع قصور الجنة لكل من يتبرع ببناء مسجد يحدد لنا منذ البداية اقل مساحة مقبولة للمسجد، يقول ((من بنى لله مسجدا ولو كمفحص قطشاة)) أي يكون مساحة المسجد كقدر ما تتحرك به ساق القطاة حين تفحص بساقيها الأرض. والقطاة هي طائر صغيرة الحجم اقل من العصفور الصغير.. إنها في الحدود 5 سم ^{2}، أي من بنى لله مسجدا ولو كانت مساحته 5 سم ^{2} بنى الله له قصرا في الجنة حتى لو كان من مال حرام، مهما كانت شخصية ذلك المتبرع ، وحتى إذا كان ذلك المسجد 5 سم ^{2} لا يستطيع دخوله إلا النمل والصراصير الوليدة....هل يعقل أن يتكلم النبي (صلى الله عليه وسلم) بهذا الكلام؟!!
ولكن ذلك الحديث تم إسناده أو تمت نسبته للنبي عليه الصلاة والسلام، ورواه ابن ماجه في "مسنده" عن فلان عن فلان. وآمن الناس بصحة ذلك الإسناد. ومن هنا فان ذلك الحديث الكاذب هو المسئول عن إقامة 38 ألف مسجد وزاوية في القاهرة الكبرى في العشرين سنة الماضية، وكلها تنشر ثقافة التطرف عبر أحاديث مسندة أو منسوبة للنبي (صلى الله عليه وسلم) زورا، وهى تخالف القرآن والسنة الصحيحة للنبي عليه الصلاة والسلام، وبدلا أن تتوجه لبناء مساكن للشباب والعائلات التي تسكن المقابر، فأنها توجهت لبناء مساجد إيديولوجية، تزيد عن حاجة المسلمين الذين يستطيعون الصلاة في كل مكان، ومع العلم بأن حق ابن السبيل في تشريع الإسلام ثابت في الزكاة الرسمية والصدقة التطوعية والفيء والغنيمة، ولا يصح الإلتفات لرعاية أبناء السبيل من الأغراب إلا بعد ضمان المسكن والطعام لأبناء البلد، فكيف إذا كان أبناء البلد أنفسهم لا يجدون السكن بحيث ضاعت أحلام الشباب في الزواج وأصبحت العنوسة أزمة مستفحلة.. ومع ذلك تفاقمت تلك المشكلة لان أموال الصدقات استنفذها أرباب الصحوة السلفية في بناء عشرات الألوف من المنابر التي تؤسس لدولتهم القادمة! ومن دعائم تلك الدولة ثقافة التراث للعصور الوسطى، تلك الثقافة التي أصبحت مقدسة عبر الإسناد، أو عن طريق نسبتها زورا للنبي عليه الصلاة والسلام... مهما خالفت العقل والإسلام.

إن الإسلام الصحيح هو دين العقل، بل أن "التعقل" أو استعمال العقل هو سبب إنزال القرآن (يوسف 2، الزخرف 3) ولكن الإسناد أوجد خصومة مستحكمة بين المسلمين والتعقل، بحيث يكفى أن يصعد أي محتال ليقول ((قال رسول الله)) فيسارع الناس بتصديقه ويمتثلون لما يقول دون أي تفكير، لا فارق في ذلك بين مثقف أو عامي، وسواء كان ذلك في المسجد أو في وسائل الإعلام أو وسائل المواصلات... أي في كل زمان ومكان أنت محاصر بالإسناد.

الإسناد قضية علمية

ومنذ عشر سنوات تقريبا جاءني صديق منزعج، قال أنه فوجئ ببلدته بالصعيد وقد سيطر عليها الشباب السلفي وأعادوها لما كان عليه السلف، ومن ذلك أنهم أوجبوا على العريس ليلة الدخلة أن يحمل عروسه إلى بيته وهى داخل زكيبة أو شوال، لان ذلك ما جاء في السنة والأحاديث. فقلت لهم أنهم قرأوا خطأ ذلك الحديث القائل بأنهم كانوا يدخلون بالنساء في شهر شوال، وكانت نكتة هائلة، وعاد صديقي إلى أهل بلدته وقرأ لهم الحديث بالتشكيل الصحيح، وأنقذ بذلك بنات القرية من تجربة التعبئة في الاشوال والزكائب....إلا أن مشكلته معي لم تنته.

لان صديقي أصبح يعتقد بوجوب أن يتم الزفاف في شهر شوال، دون غيره من الأشهر، طالما أن إسناد الحديث صحيح للنبي (صلى الله عليه وسلم) حسب اعتقاده. وسئمت من النقاش معه في موضوع الإسناد، فقلت له أخيرا: إذن أنت تؤمن بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال ذلك الحديث فعلا؟ فقال في ثبات: نعم، قلت له: وهل تقسم بالطلاق من زوجتك أن النبي قال ذلك؟ عندها بهت وسكت ولم يرفع رأسه...قلت نعم. لو قرأت عليك سورة ((قل هو الله احد)) وطلبت منك أن تقسم بالطلاق إن الله تعالى قال ذلك وأنها من القرآن، هل ستفعل ؟ قال نعم .. قلت هذا هو الفرق بين القرآن وأحاديث التراث. لا
إذا جاء احد بآية قُرآنية فلن تطالبه ببرهان أو إسناد طالما تؤمن بالقرآن، أما إذا قيل لك حديث منسوب للنبي (صلى الله عليه وسلم) فات من حقك ـــ بل من واجبك ـــ أن تسأل عن إسناده أو عن دليل نسبته للنبي (صلى الله عليه وسلم)، فالقرآن قائم على أساس الإيمان، اما الحديث المنسوب للنبي فهو قائم على الشك. ولعلاج هذا الشك اخترعوا الإسناد، أي أن ذلك الحديث رواه فلان عن فلان...الخ حتى النبي لإثبات أن النبي قال ذلك الحديث، إذا كان الإسناد صحيحا، أو لم يقله إذا كان الإسناد ضعيفا، وفى عصرنا لم يعد أحد يهتم إذا كان الإسناد صحيحا أو ضعيفا، فيكفى أن يقال قال رسول الله (ليصدق الناس فورا أن النبي قال فعلا هذا الكلام). ونرجع للإسناد الذي يؤكد أن الحديث مثل جدار يريد أن ينقض ويقع فيقوم ((الإسناد)) بإسناده حتى لا يسقط ولا ينهار... فالقرآن قضية إيمانية أما الحديث فليس قضية إيمانية، وإنما هو قضية علمية عندهم ، تدخل في باب البحث والاجتهاد وليس في قضايا العقيدة واليقين، ولذلك اختلف علماء الجرح والتعديل في مدح راو أو تجريحه، وفى اثبات حديث ما أو نفيه، فالإمام مسلم في صحيحه لم يكتف بما قاله البخاري أستاذه ولم يأخذ بكل أحاديثه ولم يترك ما تركه البخاري من أحاديث ، فجاء صحيح مسلم مختلفا عن صحيح البخاري ، ثم جاء الحاكم فأستدرك على البخاري ومسلم ، وقبلهم جميعا كان احمد بن حنبل مختلفا في مسنده ثم جاء المتأخرون أكثر اختلافا. ولأنها قضية علمية عندهم تقوم على الاختلاف في وجهات النظر فان أحدا لم يحكم بتكفير أحد...إذ هي أمور ظنية بحثية إنسانية وليست أمور العقيدة والدين.... أما القرآن فهو محل الإيمان والتصديق لكل مسلم، ولذلك فان الله تعالى يؤكد في آيتين أن الحديث الوحيد الذي ينبغي أن نؤمن به وحده هو حديث الله تعالى في القرآن الكريم ((فبأي حديث بعده يؤمنون: الاعراف 185، المرسلات 50)) بل أكثر من ذلك يجعل الله تعالى الإيمان به وحده إلهاً لا شريك له قرينا بالإيمان بحديث في القرآن وحده، يقول تعالى ((تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون، ويل لكل افاك أثيم، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كان لم يسمعها فبشره بعذاب اليم:الجاثية 8:6)).
وفى الوصية الأخيرة من الوصايا العشر في القرآن الكريم يقول تعالى عن القرآن((وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبيل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون:الانعام 153))
فالقرآن أتى من الله تعالى طريقا مستقيما لنتبعه وحده، ولا نتبع الطريق والسبل الأخرى حتى لا نقع في الاختلاف، وفى هذه الآية الكريمة تأكيد على أن القرآن هو المصدر الوحيد للإسلام، فالطريق المستقيم لا يكون إلا واحدا وحيدا، وحيث أن الخط المستقيم لا يتعدد فهو أقصر الطرق التي توصل بين نقطتين. أما

الطرق الأخرى فتقوم على الإختلاف والظن والريب، ومن المعلوم أن الروايات والأسانيد لها طرق وسبل متفرقة.ويؤكد علماء الحديث أنها كلها ظنية، أو كما يقول الله تعالى عن القرآن وغيره من الطرق والسبل((وان تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله أن يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون: الأنعام 116)) وهذا خطاب للنبي (صلى الله عليه وسلم) نفسه أنه إذا أطاع أكثرية البشر أضلوه عن القرآن وأبعدوه عنه حيث يتبعون الظن والأوهام . وهكذا فان النبي (صلى الله عليه وسلم)يتبع القرآن وحده.وبذلك تتابعت الأوامر للنبي عليه السلام ولنا عن القرآن((كتاب انزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به، وذكرى للمؤمنين ، اتبعوا ما انزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء: الأعراف 2 : 3)فهناك أمر ونهي، أمر باتباع القرآن ونهي عن اتباع غيره. حيث انه وحده الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحيث كان النبي متبعا للقرآن وحده، وحيث كان خلقه القرآن... وحيث سيتم حساب البشر جميعا يوم القيامة ــومنهم الأنبياء ــ على أساس الكتب السماوية وحدها. والكتاب السماوي واحد في أساسياته، مهما اختلفت اللغات والظروف.وليس في أي كتاب سماوي ما كان يعرف بالإسناد، وإنما هو كلام الحق تعالى، إن شئت آمنت به وان شئت لم تؤمن، وحسابك عند ربك يوم القيامة.

الإسناد يناقض المنهج العلمي

إن الإسناد قضية علمية تتراوح بين الشك والاثبات وليست قضية إيمانية، ومع ذلك فان الإسناد يناقض المنهج العلمي والتعقل المنطقي.

إن البخاري مثلا عاش في القرن الثالث عشرا الهجري ومات سنة 256 هــ. أي بينه وبين النبي عليه السلام قرنان ونصف قرن من الزمان.وإذا اعتبرنا الجيل أربعين عاما فان بينه وبين البخاري ستة أجيال.(لاحظ أن بيننا وبين عصر محمد على أربعة أجيال فقط).فكيف يستقيم في المنهج العلمي أن تتداول ستة أجيال كلمة ما منسوبة للنبي عبر الروايات الشفهية حتى يأتي من يسجلها بعد النبي بمائتين وخمسين عاما؟ ولنأخذ على ذلك مثلا من أحاديث البخاري...ونناقشه من حيث الإسناد ومن حيث المتن والموضوع.

ونختار من أحاديث البخاري أهونها على عقلية القارئ التي عاشت على تقديس البخاري بسبب إسناد أحاديثه للنبي (صلى الله عليه وسلم).

تحت عنوان ((باب مباشرة الحائض)) أورد البخاري أحاديث تؤكد أن النبي عليه السلام كان يباشر نساءه جنسيا أثناء المحيض، ونختار منها هذا الحديث بإسناده ((حدثنا إسماعيل بن خليل قال اخبرنا عن بن مسهر، قال اخبرنا أبو إسحاق هو الشيبانى عن عبد الرحمن بن إلا سود، عن أبيه عن عائشة قالت: كانت إحدانا إذا كانت حائضا فأراد رسول الله (ص) أن يباشرها أمرها أن تتزر في فور حيضتها ثم يباشرها، قالت: وايكم يملك إربه كما كان النبي (ص) يملك إربه)) (صحيح بخاري بحاشية السندي مكتبة زهران مجلد 1 الجزء الأول ص 64)

<u>والحديث السابق ينقسم إلى جزئين السند والمتن:</u>

فالسند هو سلسلة الرواة الذين عن طريقهم تم إسناد الحديث إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهم ستة: إسماعيل بن خليل الذي حدث البخاري بهذا الحديث وكان في جيل أستاذه البخاري. وقد ذكر أن الذي حدثه بهذا الحديث على بن مسهر الذي لم يره البخاري وعاش في القرن الثاني، وهكذا تمتد السلسلة إلى أبى اسحق أو الشيبانى، ثم إلى عبد الرحمن الأسود، ثم إلى أبيه، ثم إلى عائشة أم المؤمنين، التي زعموا أنها قالت متن الحديث ونصه. وأولئك الرواة تسلسلوا عبر الزمن، والبخاري لم ير منهم إلا واحدا هو الذي ادعى انه حدثه بذلك الحديث. والرواة الماضون الذين عاشوا في أزمنة متعاقبة لا يوجد دليل على أنهم رووا ذلك الكلام، ويستحيل عقلا بالمنهج العلمي اثبات صدقهم في نقل تلك الرواية شفهيا عبر قرنين ونصف قرن من الزمان الملئ بالفتن والاضطرابات، وعبر ستة أجيال اختلفت ظروفهم . وحتى لو تخيلنا أنهم جميعا عاشوا في نفس الزمن ونفس الجيل فان احتمال الكذب والنسيان والاضطراب وارد في النقل الشفهي لتلك الرواية عبر ستة أشخاص خلال أربعين عاما، بل خلال أربعين يوما بل ربما خلال أربعين ساعة.وهذا واقع في الحياة العملية حين نتداول قصة حدثت في يوم وليلة، فيلحقها التغيير والتبديل، طالما رواها أكثر من راو، وكل منهم يضفى عليها من عنده بحيث تختلف عن الأصل، فكيف بمئات الألوف من الأحاديث أسندوها للنبى (صلى الله عليه وسلم)بعد موته بقرون ؟

وحقائق التاريخ في العلم المسمى بعلم الحديث تؤكد أن اختراع الإسناد تم في القرن الثاني الهجري، حيث تكاثرت الروايات الشفهية وتكاثر الكذب فيها، فاشترطوا إسنادها عبر رواة سابقين كانوا ماتوا فيما بين منتصف القرن الثاني إلى عصر النبي (صلى الله عليه وسلم)، أولئك الرواة المذكورون الموتى لم يكن لهم علم بذلك الذي أسندوه إليهم من روايات.وعليه فقد تبارى العلماء في عصر التدوين، في بداية عصر المأمون في تسجيل أسماء رواة كيفما اتفق. وهذا ما تواصلنا إليه خلال أبحاث متخصصة، ثم وقعوا في النزاع والاختلاف في تعديل ذلك الراوي أو تجريحه، تبعا للاختلاف المذهبي والهوى الشخصي، وقد تأسس علم الحديث والجرح والتعديل على أساس الاختلافات الفقهية والعقيدية والفكرية بين المسلمين في العصر العباسي وما تلاه.

ونعود إلى البخاري في باب ((مباشرة الحائض))ونقرر أن متن هذا الحديث قد تكرر في عدة أحاديث أخرى، تنسب للنبى (صلى الله عليه وسلم) انه كان يباشر نساءه في المحيض، وكلها أحاديث كاذبة لأنها تنسب للنبي عليه السلام انه يخالف القرآن، إذ يقول تعالى: ((يسألونك عن المحيض قل هو أذى، فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله أن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين:البقر 222)) أي أنهم سألوا النبي (صلى الله عليه وسلم) عن المحيض، وانتظر النبي (صلى الله عليه وسلم) الإجابة من السماء فنزلت الآية تؤكد على اعتزال النساء جنسيا في المحيض وعدم الاقتراب منهن بعد حتى يطهرن، ثم يبيح الاقتراب منهن بعد الطهر.

وهنا تناقض جلي بين الآية الكريمة وحديث البخاري بحيث انك إذا آمنت بالقرآن فعليك بتكذيب البخاري، أما إذا آمنت بحديث البخاري فأنت بالتالي تكذب بالقرآن، ومن هنا كان تأكيد الله تعالى في القرآن على الإيمان

بحديث القرآن وحده، وما عداه ليس محلا للإيمان، وإنما هو قضية علمية قائمة على الشك، والحقائق فيها نسبية وليست مطلقة مثل حقائق الإيمان، وبالتالي فان تصديق الإسناد هو الذي يجعلها قضية إيمانية بالتزوير. وعموما فان علم ((الجرح والتعديل))انصب أساسا على فحص الإسناد أو سلسلة الرواة، دون اهتمام يذكر بفحص المتن أو موضوع الحديث نفسه، وقام فحص الإسناد على أساس الهوى المذهبي والشخصي فلم يحدث إطلاقا أن اتفقوا على أن ذلك الراوي ثقة أو انه ضعيف، لان من يمتدحه أهل السنة يهاجمه الشيعة وهكذا بين سائر الطوائف والفرق، ونتج عن ذلك الاختلاف في الحكم على كل راو في سلسلة الإسناد أن صارت الأحكام نسبية حتى داخل كل فرقة أو مذهب، وبالتالي قسموا الأحاديث حسب درجتها من الثقة والصحة إلى قسمين كبيرين.

(1)الأول الحديث المتواتر وهو صحيح بدرجة مائة في المائة، وقد اختلفوا فيه، فقال بعضهم انه لا يوجد أصلا حديث متواتر مقطوع بصدقه، وقال بعضهم انه يوجد حديث متواتر واحد وهو حديث ((من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار))وقال بعضهم انه حديث متواتر ولكنه يخلو من كلمة متعمدا.ورأى بعضهم أن الحديث المتواتر ثلاثة فقط، وارتفع بعضهم بالأحاديث المتواترة إلى خمسة أو سبعة.

(2) أما القسم الثاني ماليقين،يث فهي الأحاديث الآحاد وقد قالوا بأن كل الأحاديث المذكورة في كتب الأسانيد (السند) هي أحاديث آحاد، اى رواها واحد عن واحد.وهى تفيد الظن ولا تفيد اليقين، وذلك لا يكون إلا في آيات القرآن.وقالوا أن أحاديث الآحاد يمكن العمل بها إذا ترجح صدقها أو إذا اتفقت مع أية قرآنية.

ونعود إلى الإسناد في أحاديث الآحاد وقد قسموا أحاديث الآحاد (وهى كل الأحاديث في رأينا) إلى درجات من حيث الصحة من حسن وغريب وضعيف الخ...وهو بلا شك تقسيم مضحك لأنه يعنى بالنسبة للسند للنبي (صلى الله عليه وسلم)قال هذا الحديث بنسبة 70 % أو قال ذلك الحديث بنسبة 50 %أو 10 % وذلك لا يستقيم مع المنهج العلمي، لأنه أما أن يكون النبي (صلى الله عليه وسلم)قد قال ذلك الكلام، فتكون نسبة إسناده للنبي (صلى الله عليه وسلم)هي 100 %، وإما أن يكون النبي لم يقل هذا الحديث فتكون نسبة إسناده للنبي (صلى الله عليه وسلم)هي صفر في المائة، ولا توسط بين هذا وذاك.وبالتالي فان المنهج العلمي يستحيل معه إسناد ذلك الكلام للنبي بعد ستة أجيال من الروايات الشفهية، وبعد أن تم اختراع تلك الرسائل من الرواة بعد موت أصحابها بعشرات السنين، والمنهج القرآني يتفق مع المنهج العلمي في ذلك.

الإسناد يناقض المنهج القرآني

ان إسناد قول ما للنبي (صلى الله عليه وسلم) يعنى تحويل ذلك القول أو الحديث أو الخبر إلى حقيقة دينية يكون المسلم مطالبا بالإيمان بها والعمل وفقا لأحكامها.وهذا لا يتأتى إلا للقرآن وحده، فالقرآن كتاب محفوظ بقدرة الله تعالى له بداية وله نهاية، ينقسم إلى 114 سورة، وكل سورة تضم آيات محددة مرقمة والله تعالى يقول للمشركين عن القرآن ((وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله:البقرة 23))

وبغض النظر عن موضوع الآية وهو تحدى المشركين بأن يأتوا بسورة مثل سور القرآن فان الآية تؤكد ان ما نزل على النبي هي آيات القرآن الكريم فقط، وليس هناك في الإسلام حديث إلا حديث الله تعالى في

القرآن.أما تلك الأحاديث التراثيةالواحد،ا فلا أول لها ولا آخر.وهى تتناقض حتى في الكتاب الواحد، وربما في الصفحة الواحدة.

ان إسناد قول ما للنبي (صلى الله عليه وسلم) وجعله حقيقة دينية هو اتهام للنبي (صلى الله عليه وسلم)بأنه فرط في تبليغ الرسالة، ولم يبلغ بنفسه تلك الأحاديث المنسوبة إليه، ولم يقم بتدوينها وكتابتها كما حدث مع القرآن.لأن تلك الأحاديث لو كانت جزءا من الدين ولم يبلغه الرسول للناس ولم يقم بتدوينه فان النبي (صلى الله عليه وسلم)ـــ على ذلك ـــلم يبلغ كل الرسالة، وانه ترك جزءا منها يتناقله الناس ويختلفون فيه إلى ان تم تدوينه بعد النبي بقرون ولا يزالون يختلفون فيه.

إلا إننا نؤمن ان النبي عليه السلام قام بتبليغ الرسالة كاملة وهى القرآن ولم يكتم منه شيئا ونزل قوله تعالى يزكى النبي ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا :المائدة 3)) فاكتمل الإسلام باكتمال القرآن ، بل ومات النبي(صلى الله عليه وسلم)بعدها مباشرة، وتروى الأسانيد والأحاديث نفسها ان النبي (صلى الله عليه وسلم)نهى عن كتابة اى شئ غير القرآن ، وان ابا بكر وعمر وعثمان وعليا قد نهوا عن رواية وكتابة اى حديث منسوب للنبي، ولذلك امتنع تدوين ما نسب للنبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ان جاءت الدولة العباسية وعصور الفتن والإضطراب المذهبى فتم تدوين أحاديث نسبوها للنبي (صلى الله عليه وسلم) عبر ذلك الإسناد ، وهى تحمل كل معالم التناقض مع القرآن وعصر النبي عليه السلام، إلا ان ذلك الإسناد اعطى لها قدسية وحصنها من النقد والنقاش فعاشت حتى الان بيننا تنشر بيننا التطرف والتخلف وكل مايسئ للإسلام العظيم.

وعليه فان الخروج من هذا المأزق يحتم الغاء ذلك الإسناد، اى قطع الصلة بين تلك الأحاديث والنبى عليه السلام، رحمة بالاسلام وتماشيا مع المنطق والمنهج العقلى والعلمى ثم ننظر إلى متن الحديث وموضوعه في ضوء انه ثقافة تعبر عن العصور التي تم تدوينها فيها .ثم نبحثها من خلال ثقافة عصرها تاريخيا وحضاريا بما فيها من خطأ أو صواب ، اى تصبح تراثا معدوم التقديس ، كأى تراث بشرى تنعكس عليه احوال البشر من ارتفاع وهبوط وصلاح وفساد. واذا نظرنا للبخارى مثلا بهذا المقياس فقط انصفنا الإسلام ورسول الله عليه السلام ، والا كنا في عداد اعداء النبي (صلى الله عليه وسلم)الذين سيتبرأ منهم يوم القيامة (الانعام 112 :116/الفرقان.30 :31). نقول هذا عن علم ودراسة بما يحتويه البخاري من أحاديث تطعن في النبي والإسلام، وظلت محصنة من النقد بسبب حماية الإسناد وما اضفاه على البخاري من تقديس ورهبة.

الإسناد في الحديث ــ (الحلقة الثانية)

الإسناد يناقض مفهوم الشهادة

وقف المتهم بالقتل في قفص الاتهام ونودى على الشاهد الأول، سأله القاضى : هل اعترف امامك المتهم بالجريمة ؟ فقال الشاهد :لم اسمعه بأذنى ، وإنما اخبرنى باعترافه اخى.عندها اسقط القاضى شهادته واستدعى اخاه فقال: لم اسمع اعترافه بنفسى وإنما روى لى هذا الاعتراف ابي ، فأسقط القاضى شهادته واستدعى اباه ، فقال الاب :لم اسمع اعترافه ولكن روى الاعتراف لى أبى الذي مات امس. ومن الطبيعى ان يطلق القاضى سراح المتهم ويطرد الشهود لانهم ليسوا شهودا .حيث ان الشهادة تكون بالسماع الشخصي المباشر والرؤية العيانية المباشرة ....

هذه بالطبع قصة رمزية تؤكد على ان الإسناد عبر اقاويل سماعية خلال عصور متباينة ليس لها أساس ولا يأخذ بها اى نظام قضائى، فالبخارى لم يعش عصر النبي (صلى الله عليه وسلم)وكذلك الرواة الذين سبقوه ، والصحابة الذين عاشوا عصر النبي (صلى الله عليه وسلم) انشغلوا بالفتوحات والفتن والمنازعات عن كل ما نسبوه إليهم ، وحتى لو رووا أحاديث فمن اين لنا ان نتأكد مما قالوه ، وليس بيننا شاهد عاش من عصرهم وبقى حيا قرنين من الزمان ، ثم كتب بنفسه ما سمع بأذنيه وما شاهد بعينيه؟ وحتى لو فعل ذلك فأن من حقنا ان نتشكك فيما قال بسبب الشيخوخة وضعف الذاكرة ((ومنكم من يرد إلى ارذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئا:الحج 5))

ان الإسناد عبر أجيال من الموتى يناقض الشهادة القانونية ، وبالتالي فانه من الظلم للإسلام ان تقوم تشريعاته ــ وهى اصل القوانين ــ على شهادات زائفة مشكوك في صدقها .ولهذا فان التقديس الحقيقى للشريعة ان تقتصر على الكتاب الحكيم ، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إن سنة النبي هي في تطبيق القرآن وفق ظروف عصره .

وبالمناسبة نرجع للقرآن في موضوع الإسناد والشهادة ونعطى منه ملمحين :

– فالشهادة في مفهوم القرآن هي الرؤية والسمع بالحواس، وبالمعاصرة والمعايشة ، وهى جزء اساسى من تشريع القرآن .وفى الشهادة على الديون يوجب القرآن تدوين الشهادة حتى في ايسر المعاملات ((ولا تسأموا ان تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى اجله:البقر 282)) فهل ينطبق تشريع الشهادة في القرآن واحكامه على إسناد شهادات منسوبة للنبي في التشريع وغيره عبر أجيال من الرواة الموتى عاشوا بين عصر النبي وعصر التدوين ، وهم لم يروا شيئا ولم يسمعوا شيئا؟

–ونقل القرآن الكريم في قصة وسورة يوسف اتهام شقيقه بالسرقة ، ان يوسف قد رتب اتهام اخيه الشقيق بالسرقة حتى يتسنى له ان يحتفظ به معه ، وكان اخوة يوسف في رحلتهم الثانية لمصر قد ضغطوا على ابيهم يعقوب كى يسمح لهم باصطحاب اخيهم معهم ، فلما احتجزه يوسف عزيز مصر بتهمة السرقة يئس الاخوة من استعادته فقال اخوهم الاكبر ((ارجعوا إلى ابيكم فقولوا يا ابانا ان ابنك سرق ، وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين:يوسف ــ 81))اى ان اخاهم الأكبر يقول لهم ليشهدوا بما رأوه من ضبط المسرقات في وعاء اخيهم ، وما كانوا للغيب حافظين ....وهذه هي الشهادة من اناس عايشوا الحدث وشهدوا بما رأوه ، ومع المعايشة والحضور والشهود والمعاصرة فان هناك من الخفايا التي لايعلمونها .....فالشهادة في المفهوم القرآني ان تشهد بما رأيت وسمعت بنفسك مع الاقرار بأنك لاتعلم غير ما شهدت بنفسك ، وما خفي عنك لا يعلمه إلا علام الغيوب .واذا طبقنا مفهوم الشهادة هذا على الإسناد وضح لنا التناقض الهائل بين الشهادة التي ينبغي ان تقوم على الحق المرئى والمسموع من الشاهد المشاهد وبين الإسناد وهو كذب صريح ليس فيه شهادة أو شهود على الاطلاق ، اذ كيف يشهد الميت أو يحكى الحى على مالم يره ومالم يعش احداثه؟

موضوعات المسند

الإسناد هو سلسلة الرواة والعنعنة وقد عرضنا لها....أما المسند فهو موضوع الحديث من الحديث .والان نشير إلى موضوعات المسند أو ما جاء به الإسناد الينا من موضوعات تخالف القرآن والإسلام.

ان الأحاديث كلها تصب في ثلاثة موضوعات رئيسية، وهى (1) الغيبيات(2) التشريعيات (3)الإخلاقيات أو الترغيب والترهيب

في الغيبيات : اسندوا للنبي أحاديث يخبر فيها عن غيوب الماضى قبل عصره ، وعن غيوب المستقبل في الدنيا ، غيوب الاخرة من علامات الساعة ووقائع القيامة ، والحشر والشفاعة والعرض واحوال الجنة والنار .وكلها اكاذيب لان القرآن يؤكد على ان النبي عليه السلام لا يعلم الغيب ، ولو كان يعلم الغيب لاستكثر من الخير وما مسه السوء ، وانه عليه السلام لايدرى ما سيحدث له أو لغيره، وانه لا يعلم شيئا عن علامات الساعة أو علم الساعة ، وليس له ان يتحدث عن كل تلك الغيبات(الأنعام 50 ، الأعراف 187 ، 188 ، الاحقاف 9 ، النازعات 5:42 ، الجن 27:25 مجرد امثلة).

ويرتبط بالغيبيات ما نسبوه للنبي (صلى الله عليه وسلم) من أحاديث الشفاعة يوم القيامة، وهى تناقض القرآن الذي يجعل الشفاعة لله وحده تقوم بها الملائكة حين تقدم العمل الصالح للصالحين يوم الحساب، أما النبي نفسه فلا يملك لأحد نفعا أو ضرا(البقر 255، 354، 133، 48 ، طه 109 :110 ، الأنبياء 26 :28 ، النجم 26، الزخرف 86 ، ق 21 ، الزمر 19 ، لقمان 34:33) ومع ذلك فان اكاذيب الشفاعة البشرية يوم القيامة قد جعلها الإسناد من المعلوم من الدين بالضرورة مع خطرها الشديد في تدهور اخلاق المسلمين.

وفى التشريعات:اسندوا للنبي (صلى الله عليه وسلم)انه كان يفتى في أمور التشريع ، وهذا يناقض حقيقة قرآنية اساسية وهى ان النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا سئل عن كل شئ كان ينتظر الاجابة من الوحى ، فينزل عليه الوحى (يسألونك عن كذا فقل لهم كذا) ...ومن تدبر الموضوعات التي سئل فيها النبي (صلى الله عليه وسلم) وانتظر الاجابة من السماء يتضح لنا انه كان يمكنه ان يجيب بنفسه من واقع معلوماته العامة ، مثل سؤاله عن الاهلة(يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج:البقر 189) ومثل سؤاله عن موضوعات اليتيم، وقد تكررت آيات القرآن في الحض على رعاية اليتيم ، ومع ذلك كانوا يسألونه عن اليتيم ، إلا انه لم يبادر بالاجابة وانتظر الوحى فينزل الوحى يؤكد ما سبق قوله في رعاية اليتيم كقوله تعالي (و يسالونك عن اليتامي قل اصلاح لهم خيرا و ان تخالطوهم فإخوانكم: البقرة 23).

وفي موضوع الظهار- وهو احد انواع الطلاق – اصرت امرأة علي ان يفتي لها النبي (صلي الله عليه وسلم) و تعجلت الحكم ورفض النبي و انتظر نزول الوحي ونزل قوله تعالي (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الي الله والله يسمع تحاوركما ان الله سميع بصير: المجادلة 1) فالمرأه تعجلت و اخدت تجادل النبي (ص) تطلب منه حكما فلما يئست منه اشتكت الي الله تعالي فنزل الحكم ، و هكذا كانو يستفتون النبي فلا يفتيهم ، و انما ينتظر حتي تنزل الفتوة وحيا من السماء ، كأن يقول تعالي (ويستفتونك في النساء فالله يفتيكم فيهن : النساء 127) لم يقل (قل افتيكم) بل ان الله تعالي هو الذي كان يفتي و يشرع ((يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة : النساء 176).

بايجاز .. كانت مهمة النبي (صلي الله عليه وسلم) مقتصرة علي التبليغ دون الافتاء، و حين كانوا يسألونه أو يستفتونه كان ينتظر الاجابة من الوحي حتي في الامور المعروفة لديه، وكانت سنته هي في تطبيق ما ينزل عليه وحي بإمكاناته البشرية وبامكانات عصره ، هذا ماكان في عصر النبي (صلي الله عليه وسلم) وهذا ما يؤكد ان للإسلام مصدرا وحيدا هو القرآن. أما نحن فمن حقنا ان نجتهد في تطبيق تشريع القرآن وفق ظروف عصرنا و اجتهادنا يقبل الخطأ والصواب ونحن مسئولون عنه ، وبهذا يعلو الإسلام فوق الزمان و المكان محفوظا بتشريعه الي قيام الساعة وبعيدا عن اخطاءنا وخطايانا .. إلا ان الإسناد نسب للنبي تشريعات تخالف القران مثل الرجم و حد الرده والحسبة و جعل من حق الحاكم ان يمتلك الأرض و من عليها ... و بالاضافة الي اختراع الإسناد لتلك التشريعات المخالفة فان العصر العباسي اخترع مفهوما جديدا لالغاء التشريعات القرآنيه تحت دعوي النسخ . مع ان النسخ في القران واللغة العربية معناه الاثبات و الكتابة و ليس الحذف والالغاء (راجع كتبنا عن : النسخ ، وحد الردة ، والحسبة ، و القرآن و كفي مصدرا للتشريع).

وفى الاخلاقيات : نسبوا للنبي (صلى الله عليه وسلم)أحاديث في الترغيب والترهيب أفسدت اخلاق المسلمين اذ كانت ترتب الجزاء العظيم على مجرد كلمة أو قراءة سورة أو صلاة ركعتين ، وبمجرد ان يقول الانسان ذلك أو يفعله فقد ضمن الجنة مهما ارتكب من ذنوب وآثام ، وبالتالي فعليه ان يسعى في الأرض بالفساد ثم يضمن الجنة بمجرد ان يقول لااله إلا الله...وهذا يخالف منهج القرآن الاخلاقى الذي يجعل الجنة من نصيب

الذين الذين امنوا وعملوا الصلحات ، اى حفلت حياتهم بالإيمان والعمل الصالح النافع وليس مجرد كلمة أو تبرع من مال حرام وسط حياة حافلة بالاثام .

وعن طريق أحاديث الغيبيات والتشريعات والاخلاقيات أقام الإسناد دينا جديدا مخالفا للقرآن واكسب ذلك الدين المخالف قدسية حين نسبه للنبي ، ومن اسف فإنه إذا تعارضت 150 أية قرآنية كلها تنفى شفاعة النبي مع حديث الشفاعة في البخاري فان الناس ينحازون للبخارى...اليس كذلك ؟

التراث المقدس وغير المقدس

ما سبق ينصب اساسا على التراث السنى الذي اسنده رواة السنة للنبي (صلى الله عليه وسلم)فأصبح ذلك التراث السنى دينا مقدسا .إلا ان الشيعة لهم ايضا تراثهم الذي أسندوه للنبي (صلى الله عليه وسلم)والى على وذريته واصحاب القداسة من الائمة .واصبح ذلك التراث ايضا دينا مقدسا ، يقف في موقع الخصومة للتراث السنى المقدس بسبب الخلاف السياسى العقدى والحركى .

ثم جاء التصوف ابنا للتشيع متخففا من طموحاته السياسية فأعرض عن السند ، ولم يهتم باختراع سلسلة الرواة .اذ يقوم التصوف في عقيدته على الاتحاد بالله وحلول الذات الالهية في نفس الشيخ الصوفى ، وحين تشرق انوار المعرفة الالهية في داخله ــ بزعمهم ــ ينطق بالعلم اللدنى ، وحينئذ فليست هناك حاجة للرواة لأنه جلس ــبزعمهم ــمع الله في الحضرة الالهية .ومن هنا كان الصوفى في العصر العباسي الثاني يقول" حدثنى قلبى عن ربى " وامتلأ كتاب" احياء علوم الدين "للغزالى بأقاصيص وأقاويل من هذه النوعية أو ان يقول "اوحى الله لبعض الصالحين "هذا بالاضافة إلى أحاديث نسبها للنبي (صلى الله عليه وسلم)بدون إسناد وقام العراقى في تخريجها باثبات انها "لا اصل لها "اى لم يذكرها غير الغزالى، أو بعبارة أخرى اخترعها الغزالى اختراعا . ثم اضاف الصوفية إلى ذلك المنامات، اى يزعم احدهم انه رأى النبي في المنام فقال له النبي كذا وتحفل كتب الصوفية بهذه المنامات ، ثم الهواتف اى يسمع الصوفى هاتفا يقول له كذا ..وفى العصر المملوكى كانت المنامات تغلف التراث الصوفى وتؤثر في الحياة المملوكية سياسيا واجتماعيا وثقافيا ودينيا، حتى كان المألوف ان يدعى احدهم انه يرى النبي (صلى الله عليه وسلم)يقظة وليس فقط في المنام ، واشهر من ادعى ذلك كان السيوطى ، وقد ذكر ذلك الشعرانى في ترجمته له في الطبقات الصغرى .
بايجاز نقول :ان الإسناد حول التراث السنى والشيعى إلى أديان مقدسة زورا وبهتانا وشجع الصوفية على الافتراء على الله ورسوله بدون إسناد . والاسناد مع قداسته المزعومة فانه لايصمد امام النقد لأنه يحمل اوزارا من التخريف والاخطاء الموضوعية تؤكد حاجته إلى تلك القدسية لتحميه من سهام النقد والاعتراض.

إلا ان التراث العقلى (الذي يستحق الاحترام حتى ولو اختلفنا معه)لم يكن محتاجا للاسناد أو القدسية ــولذلك ظل تراث المعتزلة والمفكرين منسوبا إلى اعلام تلك الطوائف العقلية ، لم يحاول الجاحظ ــمثلا ــان ينسب اراءه للنبي (صلى الله عليه وسلم)بل نسبها لنفسه والى من قالها من زملائه واصدقائه ، واذا قرأت الجاحظ

في" البخلاء " و"البيان والتبيين "وباقى رسائله وجدت رائحة الثقافة الجاحظية وعصره وبيئته وازددت له احتراما لأنه كان صادقا مع نفسه ، وقد مات الجاحظ سنة 255 هـــ .وعاش معه في نفس العصر البخاري (ت 256 هــ).الذى نسب ثقافة العصر العباسي للنبي (صلى الله عليه وسلم)عبر ذلك الإسناد المشئوم فأوقع بالنبى (صلى الله عليه وسلم)والإسلام افدح الاضرار .

ومع الاسف فان الغلبة لم تكن للجاحظ والمعتزلة ومنهجهم العقلى ، وإنما كانت بسبب الظروف السياسة لمن كان يسميهم العصر العباسي الأول بالحشوية، اى الذين يحشون عقولهم باسانيد كاذبة منسوبة للنبي (صلى الله عليه وسلم)، ويحاولون نشر ارائهم بهذه الطريقة ، لقد انحاز المأمون ثم المعتصم والواثق للمعتزلة .وحدثت فتنة خلق القرآن التي اضطهد فيها ابن حنبل ، ثم جاء الخليفة المتوكل وكان حانقا على المعتزلة وزعيمهم ابن الزيات ، فقتله وانحاز للحشوية "اصحاب الحديث والسنن" وتعصب لهم وارسل دعاتهم في الافاق لنصرة السنة فيما يحكى بن الجوزى في المنتظم ، ودخلت الدولة العباسية في دور الضعف واحتاجت أكثر إلى اخضاع العوام بالدين ، فازداد دور الشيوخ من الفقهاء ثم الصوفية ، وكى يتم للشيوخ اخضاع العوام كان لابد من الاستناد إلى مرجعية دينية تكون لافتة ، يشيرون اليها دون مناقشة ، وقام الإسناد بهذه المهمة .وبالتدريج تعود الناس على الخضوع بمجرد ان يقول لهم الشيخ روى ان النبي (ص)قال .ثم بمرور الزمن اصبح الشيخ يقول بكل ثقة ..((قال صلى الله علبه وسلم كذا)) كأنه سمع ذلك من النبي (صلى الله عليه وسلم)بنفسه ودون إسناد ، ودون ذكر انها رواية قالها أشخاص ، قد يخطئون وقد يصيبون ، وهذا ما تسمعه حتى الان من شيوخ المواصلات في القاهرة عن الذي يبنى مسجدا ولو كمحفص قطاة ...ثم ظهر في عصرنا اتجاه جديد بين الجماعات السلفية وهو اختراع الحديث ، تخدم وجهة نظرهم مثل حديث ((من اكرم شرطيا اهانه الله)) وقد عقب بعضهم على ذلك الحديث المخترع في هذه الأيام قائلا : كيف كيف يستحل الكذب على الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟ فقال الشيخ المتطرف انه لايكذب على النبي وإنما يكذب للنبي ...اى ان اختراع الأحاديث لايزال ساريا ..

بين الحديث والسنة

ويبقى السؤال الاخير ، هل تلك الأحاديث هي سنة النبي عليه السلام ؟
هنا نضع بعض الحقائق القرآنية والحقائق التراثية .

1. معنى السنة في القرآن هو المناهج أو الطريقة وذلك فيما يخص تعامل الله تعالى مع المشركين .كما ان معناها هو التشريع الالهى ، وبالمعنيين فان السنة في القرآن تأتى منسوبة لله ، اى سنة الله ، يقول تعالى في تشريع خاص بالنبى (صلي الله عليه وسلم)((ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ، سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان امرا الله قدرا مقدورا :الاحزاب 38))وفى الآية الكريمة يتضح ان ((فرض الله)) يعنى((سنة الله)) يعنى ((امرا الله)) هي ((شريعة الله)) اى السنة معنها الشرع..

2. وهذا يتفق مع المعنى اللغوى لكلمة السنة ، تقول ((سن قانونا)) اى شرع قانونا ، واذا تم سن القانون اصبح شريعة واجبة التنفيذ.

3. وهذا ايضا يتفق مع المعنى الفقهى لمصطلح ((السنة العملية)) اذ تعنى السنة العملية العبادات من الصلاة وزكاة وحج وصيام..

4. وفى كل ذلك فان الله تعالى هو صاحب التشريع الذي نزل في القرآن الكريم، والنبى عليه السلام هو القدوة لنا في تطبيق ذلك التشريع ، لذلك يقول تعالى ((لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة :الاحزاب 21))لم يقل كان لكم في رسول الله سنة حسنة ، لان السنة هي سنة الله، أما النبي عليه السلام فهو القدوة الحسنة في تطبيق سنة الله وشرع الله..

5. إلا ان بعض فقهاء التراث يقولون ان السنة العملية هي العبادات التي اشرنا اليها ، أما السنة القولية للنبي فهي تلك الأحاديث التي أسندوها إليه بعد موته بقرون فيما يعرف بكتب الصحاح وغيرها . وهنا نختلف معهم ، لان السنة القولية للنبي عليه السلام هي ما ورد في القرآن في كلمة "قل "التي يتميز بها القرآن ، وقد تكررت كلمة "قل "للنبي في القرآن (332)مرة ..وكانت الموضوعات التي ترددت فيها كلمة "قل" تشمل كل ما يحتاجه المؤمن من أمور الدين ، وبعضها يؤكد ما جاء في القرآن ايضا بدون كلمة "قل".وكان النبي عليه السلام مأمورا بأن يقول ذلك القول المنصوص عليه في القرآن كما هو دون زيادة أو نقصان ، اذ لايملك ان يتقول على الله تعالى شيئا في أمر الدين ((ولو تقول علينا بعض الاقاويل ، لاخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فيما منكم من احد عنه حاجزين :الحاقة 44 :47)).باختصار ان السنة القولية للنبي هي كلمة ((قل)) طالما ان السنة تعنى الشرع المفروض اتباعه .

6. ويقولون أن تلك الأحاديث هي مصدر المعرفة بالصلاة والعبادات .وهذا خطأ ظاهر لان تلك الأحاديث اقاويل ، والسنة هي طريقة تأدية للعبادة وكان معروفا تأدية العبادات ليس فقط قبل عصر البخاري وغيره ، بل كانت معروفة قبل نزول القرآن ، اذ كانت هي الملامح الاساسية لملة ابراهيم التي أمر الله تعالى النبي والمسلمين باتباعها حنفاء ، بل ان تلك الأحاديث التي رويت فيما بعد النبي بقرون لم تتعرض بالتفصيل لكيفية تأدية الصلاة. وأكثر من ذلك أنها تشوه الصلاة وتشكك فيها.

7. ومن الطبيعى ان النبي عليه السلام وهو يقيم دولة وينشئ امه ويواجه مكائد اعدائه ان تكون له اقوال وتعليمات، كما كانت له تطبيقاته في تنفيذ شرائع القرآن خارج العبادات ، مثل اعداد الجيش والقوة الحربية .وذلك كله يدخل ضمن التاريخ والسيرة ، وليس ضمن الدين الذي يعلو فوق الزمان والمكان .

8. والملاحظ ان العصر العباسي حين قام بتدوين سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم)بأثر رجعى فأنه تجاهل ما ينفع الناس منها ، لان ذلك الذى ينفع الناس كان ضارا بالحكام من الخلفاء المستبدين ، وقد قامت دولة النبي الاسلامية على أساس الشورى أو الديمقراطية المباشرة حيث يحكم الناس أنفسهم بأنفسهم ، وحيث كان الناس مصدر السلطة والقائمين ايضا بالسلطة .وعاش أهل المدينة على ذلك في حياة النبي ، وتركهم النبي يحكمون أنفسهم بأنفسهم دون ان يعين لهم حاكما ، والسيرة الحقيقية للنبي عليه الصلاة والسلام كانت

تؤكد ذلك من خلال أكثر من خمسمائة خطبة النبي (صلى الله عليه وسلم)في المدينة ، ومن خلال مجالس الشورى التي تحدث عنها القرآن الكريم في الآيات الاخيرة من سورة النور و سورة المجادلة وسورة النساء.

وتلك الديمقراطية المباشرة في عهد النبي عليه السلام كانت تناقض تماما الاستبداد العباسي حيث يملك الخليفة الأرض ومن عليها دون حسيب أو رقيب ، ولذلك اهمل التدوين العباسي أكثر من خمسمائة خطبة للنبي عليه السلام والمئات من مجالس الشورى ......واستبدل بذلك تأليف تشريعات وسيرة تتفق مع ثقافة العصر العباسي ، ثم قام الإسناد بتحويل هذه الثقافة العباسية إلى دين عن طريق الإسناد ...وبمرور الزمن اصبحت تلك الثقافة العباسية مقدسة لايجرؤ احد على نقد مصادرها من كتب (الصحاح) والدليل على قداساتها المترسبة في القلوب والعقول هو تلك الرهبة التي يحس بها القارئ لهذا المقال.

ليس حراما اتخاذ التماثيل

1 ــ من تفاهة الشيوخ الوهابيين والرسميين غرامهم بالحظر و التحريم لينغصوا على الناس التمتع بما أحل الله تعالى ، واذا كانت القاعدة الأصلية فى دين الله تعالى ان الحلال المباح هو الأصل فإن الأساس فى تشريع الفقه السلفى هو الحظر وان الاستثناء هو الحلال المباح. وفى كل حين يطلع علينا شيوخ الوهابية فى الأزهر وفى السعودية بتحريم شيئ جديد من المخترعات الحديثة او التأكيد على تحريم ما سبق تحريمه فى عصور التخلف و الظلام.ومن ذلك تحريم اتخاذ التماثيل بل وكل الرسوم و الصور .. ونناقش الموضوع باختصار..

2 ــ فى العصر الجاهلى كان العرب يعبدون الأولياء بزعم انها تقربهم الى الله تعالى زلفا (الزمر: 3) وكانوا يقيمون للأولياء المقدسين لديهم تماثيل يطلقون عليها (الأصنام) كما يقدسون القبور المدفون فيها تلك الأولياء أو يزعمون أنهم مدفونون فيها، ويطلقون على تلك القبور المقدسة (الأنصاب)وهى نفس الأضرحة فى عصرنا ، وكانوا يقيمون أعيادا لتلك الأنصاب أو الأضرحة ، وهى ما نسميه فى عصرنا (موالد).

نزل القرآن الكريم يؤكد على اجتناب تلك الأصنام و الأنصاب ، لم يقل بهدمها أو تدميرها ،و انما مجرد اجتنابها و الابتعاد عنها . قال تعالى (فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) الحج 30) ، وقال عن الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام أنها من عمل الشيطان وأمر المؤمنين باجتنابها (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ المائدة 90)

ومعنى اجتناب الأصناب والأزلام ان تظل قائمة ولكن بدون قدسية ، وتلك هى روعة الاسلام ، فليست المشكلة فى الأنصاب والأزلام ، هى مجرد أحجار مصنوعة لا تدرى من أمرها شيئا . المشكلة فى العقلية التى تصنع من الأحجار اصناما و انصابا ثم تعبد ما صنعته بأيديها ،وقديما قال ابراهيم عليه السلام لقومه (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ " الصافات 95)أى تنحتون التماثيل بأيديكم ثم تعبدونها ؟ فكيف يصنع ذلك عاقل ؟ وقال لهم)إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا) العنكبوت 17) أى هم الذين يشيعون اساطيرالإفك والكرامات على تلك الأصنام وتلك القبوروأصحابها الموتى ، ويصدقون الافك وتصبح تلك الأوثان معبودة حيث تقام عليها تجارة رائجة ، هى تجارة الإفك و الاحتراف الديني..

العقل البشري المجرد يأبي ان يصنع الانسان تمثالا ثم يعكف عليه عابدا متضرعا . والعقل المجرد يأبى ان يقيم ضريحا على جثة انسان ميت ثم يطوف حول ذلك القبر او الضريح عابدا متسولا. اذا كان يقدس الجثة الميتة المدفونة تحت الضريح فان تلك الجثة اذا خرجت له من تحت الأرض فسيفر منها قرفا وخوفا و رعبا، وبالتالى فان التقديس هو لأحجار الضريح وما عليه من زجاج وخشب و ستائر..

العقل البشري المجرد يعرف أن تلك الأحجار وما عليها من مواد بناء هى مجرد أحجار ومواد بناء لا تختلف عن أى أحجار ومواد اخرى فى أي بيت أو أى دورة مياه.

اذن ما الذى يعطي العقل البشري أجازة ويجعل الانسان يعطل عقله وينحني أمام تلك الاحجار خاضعا خانعا عابدا خاشعا ؟ ذلك الانسان قد يكون مهندسا مثقفا أو خبيرا علميا فى أحدث فروع التكنولوجيا ولكنه ينسى عقله وذكاءه وآدميته وينحني خاشعا أمام بعض أحجار قد جئ بها من على الأرض التى يسير عليها بحذائه.. نعود للسئوال : من الذى جعل الانسان يعطل عقله ويعبد تلك الأحجار ؟ الله تعالى يقول : انه الشيطان ، ويجعل الأنصاب رجسا من عمل الشيطان (المائدة 90) بالطبع فإن الشيطان ليس هو الذى يصنعها بيديه ، وليس هو الذى يشيع عنها الكرامات و المعجزات بلسانه ، ولكنه الذى يوحي الى أوليائه من الكهنة وسدنة الأضرحة ومحترفى التجارة بالدين فيقومون عنه بكل ذلك ، وبهذا تقام أحيانا عدة أضرحة أو قبور لنفس الشخص ، فهناك مثلا عدة أضرحة للحسين وعدة أضرحة لعلى زين الدين العابدين بن الحسين ، وعدة أضرحة للسيدة زينب أخت الحسين، وعدة أضرحة للسيد البدوى ما بين طنطا وأسوان.. والذين فقدوا عقولهم لا يجدون فى ذلك بأسا..

اذن المشكلة ليست فى الأحجار والتماثيل الحجرية ولكنها فى العقلية ، ولذلك أجرى القرآن الكريم حوارا عقليا مع المشركين ليوقظ العقول ، فإذا استيقظ العقل انفض الناس عن عبادة تلك الأضرحة وانتهى تقديسها وأصبحت مجرد صخور ومجرد تماثيل ومجرد قبور..

3 ــ قبل عصر الجاهلية عاشت أمم سابقة عبدت الأصنام والأنصاب واضطهدت الرسل فدمرهم الله تعالى، وبقيت آثارهم ومعابدهم يمر عليها أساطين قريش فى رحلتى الشتاء و الصيف، أى أن الأضرحة المقدسة والأصنام المعبودة تحولت الى مجرد آثار صخرية مهجورة.

لم يأمر الله تعالى المسلمين بتدمير تلك الآثار لأولئك الأمم الذين ابادهم الله تعالى قديما، بل على العكس ، أمر الله تعالى بالسير اليها و البحث فيها للعبرة و الاعتبار .

4 ــ ان من ضمن الفرائض التى أهملها المسلمون فريضة السير فى الأرض. وقد تكرر الأمر بهذه الفريضة مرات عديدة ، وكان الهدف علميا وتاريخيا من ذلك السير فى الأرض..

<u>علميا</u> بالبحث فى كيف بدأ الله تعالى الخلق "أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ) العنكبوت 19 ، 20)

<u>وتاريخيا</u> بالبحث فى آثار الأمم السابقة من خلال ما تركوه خلفهم للعبرة و الاتعاظ ، يقول تعالى (أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ) غافر 21) بل ان الله تعالى أخذها حجة على الجاهليين أنهم يسيرون فى ترحالهم فى رحلتى الشتاء و الصيف ويمرون على آثار السابقين من الأمم التى أهلكها الله تعالى دون ان يزوروها للعظة والاعتبار(أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى) طه 128)

أى ان زيارة الآثار وبحثها علميا هو فريضة اسلامية منسية ،وهذه الآثار هى معابد وتماثيل كانت معبودة ومقدسة فى عصرها ثم اصبحت مجرد آثار أو أحجار .

<u>5 ــ هذا هو الاسلام ..فماذا عن المسلمين ؟</u>

معظم المسلمين فى تناقض مع الاسلام فى كل شيئ بدءا من العقيدة الى الشريعة والسلوك .
عاد معظم المسلمين الى ما كان عليه المشركون من عبادة الأولياء الأحياء و الموتى ، وتناسى المسلمون معظم الآيات القرانية التى تدعو لعبادة الله تعالى وحده ونبذ عبادة الأولياء والأنصاب والقبور المقدسة، بل إن خاتم النبيين محمدا قضى معظم حياته يناضل ضد عبادة الأضرحة و القبور، ثم انتهى الحال بالمسلمين الى تحويل قبره الى ضريح مقدس يحجون اليه ويجعلون ذلك من مناسك الحج ، ومن حج ولم يزره – على زعمهم– فقد جافى النبي .والمضحك انهم مع وقوعهم فى عبادة الأضرحة والموتى الا انهم ظلوا على تحريم الأصنام أو التماثيل المعبودة.
بل بالغوا وتطرفوا فحرموا كل الصور وكل التماثيل.
وهنا وقعوا فى خبل عقلى آخر، فالتماثيل المعبودة والقبور المقدسة ليست محرمة فى حد ذاتها وانما الحرام هو عبادتها، انها مجرد أدوات والأدوات ليست محل تحريم أو تحليل، وانما يقع الحلال و الحرام على طريقة استعمالها .. السكين ليست حراما وانما يحرم استعمالها فى القتل ظلما بينما يجوزالدفاع بها عن النفس ، وكذلك البندقية وكل الأدوات .
6 ــ التمثال ليس حراما او حلالا فى حد ذاته وانما يحرم ان تقدسه وتجعله صنما معبودا، وهو مباح وحلال أن تتخذه حبا فى الفن والجمال أو بغرض التجارة .
نفس الحال فى القبور: القبر العادى لا باس به ، فلا بأس بزيارة قبور الموتى من الأهل ، وهذا يختلف عن الذهاب لضريح مقدس يطلب منه الناس المدد ويقفون أمامه فى خشوع وتضرع معتقدين فيه النفع والضرر.
7 ــ لقد ذكر القرآن الكريم كلمة "التماثيل" فى موضعين الأول : فى قصة ابراهيم حين أنكر على قومه عبادة التماثيل وقال لهم) مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ " الأنبياء 52)،هذه هى التماثيل المعبودة ، والانكار هنا علىعبادتها وليس عليها هى ذاتها لأن الانكار على البشر لا على الحجر. الثانى : فى قصة سليمان حين كانت الجن تصنع له تماثيل "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ) سبأ 13) "والتماثل هنا عادية تستخدم للتمتع بها كزينة وزخرف حلال. فهل تكون التماثيل حراما وكان نبى الله سليمان يتخذها للزينة ويصنعها له الجن بأمر الله تعالى ؟
ان التماثيل ليست حراما فى ذاتها، وليست رجسا من عمل الشيطان طالما لم تتخذ اصناما معبودة مقدسة .
وهذا ما تجاهله أئمة الفقه السني فى خبل عقلى كان عاديا فى عصور الظلام فى القرون الوسطى. ثم جاء الفقه الوهابي فاستعاد هذا الخبل فى عصرنا وأعاد الى الأذهان كل ذلك الأفك الذى تسلح بأحاديث كاذبة منسوبة للنبي محمد عليه السلام ، تجعل الملائكة " لا تدخل بيتا فيه صورة او فيه كلب" وتحرم التصوير ، ليس فقط الفن التشكيلي بل وسالتصوير الفوتوغرافي .
وهذا الخبل الفقهي المسلح ايضا بدولارات البترول يضع الاسلام فى مأزق مع الحضارة ، هذا مع أن الاسلام سبق عصرنا فى الابقاء على التماثيل حتى الأصنام المعبودة منها وأجرى حوارا لتنظيف العقل من تقديسها .. بل ودعا الى السير فى الأرض للكشف عنها للبحث و الدراسة .

بقيت آيات القرآن شاهدا على تخلف المسلمين المتمسكين بالفقه الوهابي السني ولتثبت ان الطالبان حينما دمروا تمثال بوذا فقد خالفوا تعاليم الاسلام وفكره الحضارى ..



montadaali.ahlamontada.com

مع تحياتي : علي مولا